مرغريت يورسنار

مكتبة بغداد

مذكرات أدريان

رواية

دار الآداب

ترجمة

د. عفيف دمشقية

مرغريت يورسنار

مذكّرات أدريان

دار الآداب - بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٩٣

عزيزي «مارك»

نـزلت هذا الصبـاح من عند طبيبي «هـرموجـين» الـذي عـاد إلى «الـدارة» بعـد رحلة طـويلة بعض الشيء إلى «آسيـا». وكـان ينبغي إجراء الفحص على الريق فتواعدنا في الساعات الأولى من الصبيحة. وتمدَّدت على سريرٍ بعد أن نـزعت معطفي وسـترتي. وإنّي أعفيك من التفـاصيل التي لا بـدّ أن تـزعجـك بقـدر مـا أزعجتني، ومن وصف جسـد رجلٍ يتقـدّم في السنّ ويتهيّأ للمـوت من استقساء في القلب. ولنقُـلْ فقط إنّي سعلت واستنشقت وحبست نَفَسي حسب تـعليـمات «هـرموجـين» الذي أقلقـه رغم إرادتـه استفحـال المـرض استفحـالاً سريعـاً، واستعدّ لإلقـاء اللوم في ذلك عـلى «إيولاس» الشـاب الذي عالجني في أثناء غيـابه. وإنّـه لمن الصعب أن يبقى المرء إمـبراطوراً في حضرة طبيب، كما أنَّه من الصعب أن يحتفظ بكونه إنساناً. فلم تكن عينُ النطاسيّ ترى فيَّ غير ركامٍ من الأمزجـة، وغير خليط بـائس من اللمفـاويّات والـدم. وقـد راودتني هـذا الصبـاح للمـرَّة الأولى فكـرة مفادُها أنَّ جسدي، هذا الـرفيق الأمين، هـذا الصديق الـذي أركن إليه وأعرفه أكثر ممّا أركن إلى روحي وأعرفها، ليس سوى وحش ماكر سينتهي به الأمر إلى افتراس سيِّده. الـرحمة... إنّي أحبّ جسـدي، فقـد خدمني جيِّـداً وفي جميع الأوجـه، ولست لأساومـه على العنـايـة الضروريَّـة. غير أنّي لا أتّكـل، كما لايـزال «هرمـوجين» يـزعم، على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خصائص الأعشاب الرائعة، ولا على المكاييل الصحيحة للأملاح المعدنيّة التي ذهب للبحث عنها في الشرق. ولقد أسمعني هذا الرجل المعروف بفرط رقّته ورهافته عباراتِ تشجيعٍ غامضةً لا يمكن أن تخدع شدّةُ ابتذالها أحداً؛ وإنَّه ليعرف مبلغ كرهي لهذا النوع من الدجل، غير أنَّ المرء لا يمارس الطبَّ أكثر من ثلاثين سنة بلا عقاب. وإنّي لأغفر لهذا الخادم الطيِّب تلك المحاولة لإخفاء موتي عنّي. إنَّ «هرموجين» عالِم، بل حكيم؛ وإنَّ أمانته لأسْمى بكثير من أمانة طبيب رخيص من أطبَّاء البلاط. ومن حظّي أن أكون أكثر المرضى حظوة بالرعاية. بيد أنّه ما من أحد يستطيع تجاوز الحدود الموصوفة له؛ فساقاي المتورِّمتان لم تعودا تحملانني خلال الحفلات الرومانيّة الطويلة؛ وإنّي لأشعر بالاختناق؛ وعمري ستّون عاماً.

لا تنخدع، فلست بعدُ من الضعف بحيث أستسلم إلى أوهام الخوف التي تماثل تقريباً في لامعقوليتها أوهام الرجاء، غير أنَّها بالتأكيد أشقّ منها بكثير. وإذا كان عليّ أن أنخدع فإنّي أفضّل أن يكون ذلك باتّجاه الثقة؛ فلن تزيد بها خسارتي، وسوف يقلّ بها ألمي. وليس هذا الأَجَلُ القريب جدّاً مباشِراً بالضرورة؛ وإنّي مازلت أرقد كلّ ليلة على أمل بلوغ الصباح. وإنَّ في وسعي، داخل الحدود غير القابلة للتجاوز، وقد تحدَّثت عنها قبل قليل، أن أدافع عن موقعي قَدَماً بقَدَم، بل أنْ أكسب بضعة أشبارٍ من الأرض المفقودة. ولم أبلغ بعدُ السنّ التي تصبح الحياة معها بالنسبة إلى كلّ إنسان هزيمة مقبولة. والقول بأنَّ أيّامي معدودة لا يعني شيئاً؛ لقد كان الأمر دائماً على هذا النحو؛ وإنَّه لكذلك بالنسبة إلينا جميعاً. غير أنَّ الشكّ في المكان

والزمان والكيفيَّة، الشكّ الذي يمنعنا من أن نُحسن تمييز الغاية التي نتقدّم إليها بلا هوادة، يتناقص عندي باستفحالِ مَرَضي المُميت. إنّ في مقدور القادم الأوّل أن يموت على التوّ، وأمّا المريض فيعلم أنَّه لن يكون حيًّا بعد عشر سنوات. وهامش تردّدي لا يمتدّ لسنوات، وإنَّما لأشهُر. وفُرصي في الموت بطعنة خنجر في القلب أو بسقطة من فوق جواد قد غدت ضئيلة جدّاً؛ والطاعون يبدو غير محتمل الوقوع؛ والجُذام أو السرطان يبدوان بعيدين نهائيّاً. ولست معرَّضاً للسقوط على الجبهات بضربةٍ من فأس «كالِيدونيَّة» أو بطعنةٍ من سهم «پارتيّ»؛ ولم تُحسن العواصف انتهاز الفرص المُتاحَة، ويبدو أنّ الساحر الذي تنبَّأ لي بعدم الغرق مُحِقٌّ في ما قال. لسوف أموت في «تيبور» أو «روما» أو «ناپولي» على أبعد تقدير، وستتكفّل نوبة اختناق بالمهمّة. فهل أمضي من جرَّاء النوبة العاشرة، أم النوبة المئة؟ المسألة كلّها هنا. ولقد بدأت ألمح طيف موتي المُوارِب شأنَ المسافر الذي يَمْخُر العُباب بين الجُزُر في الأرخبيل إذ يرى الغَبَش المُلْتَمِع يرتفع قرب المساء فيكتشف رويداً رويداً خطّ الساحل.

لقد أخذتْ بعض أجزاء من حياتي تُشبه القاعات الجرداء في قصرٍ شاسعٍ عَدَل مالِكُه الذي أفقرته الأيَّام عن شَغْله بكامله. ولم أَعُدْ أصطاد: فإن لم يكن هناك غيري لإزعاجها في اجترارها وألعابها، فستعرف غزلان جبال «أترووريا» الدَعَة والسلام. فلقد طالما أقمت مع «ديانا» [إلَهة الصَّيد عند الرومان](*) الغاباتِ الصلات المتقلّبة المشبوبة

(*) جميع العبارات الواقعة بين [ ] هي شروح وتعليقات من المترجم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي يقيمها إنسان مع الشيء المحبوب: فإذ كنت مُراهِقاً فقد أتاح لِي صيد الخنزير البرّيّ أوّل فرص اللقاء مع القيادة والخطر؛ واندفعت فيه بجنون؛ وقد عرّضتني مبالغاتي في هذا النوع لتوبيخ «تراجان» [إمبراطور روماني هو والد «أدريان» بالتبني]. وكانت حصّة الكلاب من الصّيد في مضاءةٍ في «إسبانيا» أقدم تجربة لي مع الموت والشجاعة والشفقة على المخلوقات والتلذّذ المأساويّ برؤيتها تتألّم. وإذ شَبَبْتُ عن الطوق فقد فضفض الصّيد عنّي أعباء صراعات خفيَّة كثيرة مع منافسين كانوا على التوالي أذكياء جدّاً أو أغبياء جدّاً، أضعف مني بكثير أو أقوى بكثير. وكان ذلك العراك العادل بين الذكاء البشري وفطنة الضواري يبدو نظيفاً بما لا يُصدَّق إذا قورن بأحابيل الناس. وإذ أصبحت إمبراطوراً فقد أفادتني رحلات الصيد في «توسكانيا» للحكم على شجاعة كبار الموظّفين أو على مواردهم: لقد حذفتُ منها أو اخترتُ لها غيرَ رجلٍ من رجال الدولة. وفي «بيتينيا» و«كاپادوس» جعلتُ من عمليات الإحاشة الكبرى فيما بعدُ ذريعة للعيد واحتفالاً خريفيّاً في غابات «آسيا». إلّا أنَّ رفيقي في رحلات صيدي الأخيرة مات شابّاً، وبرحيله قلَّ كثيراً تلذُّذي بتلك المسرّات العنيفة. وحتّى هنا في «تريبور» فإنَّ حركةً مباغتةً من أيِّل تحت الأوراق كافيةٌ مع ذلك لأن ترتعِد في نفسي غريزة أقدم من كلّ الغرائز الأخرى، وبفضلها أشعر بأنّي فَهْدٌ بقدر ما أنا إمبراطور. ومن يدري؟ فلعلّي لم أكن بمثل هذا الاقتصاد بالدّم البشري إلّا لأنّي أرَقْتُ كثيراً من دم الوحوش الذي كنت أفضّله سرّاً أحياناً على دم الناس. ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ الضواري تَجدُّ في ملاحقتي، وإنّي لأجد مشقّةً في عدم

الانطلاق في حكايات صيدٍ لا تنتهي وتضع على المحكّ صبر الضيوف الذين أدعوهم في المساء. إنَّ لذكرى يوم ِ تَبَنِّيَّ لسحراً ولا ريب، غير أنَّ ذكرى الأسود القتيلة في «موريتانيا» ليست سيِّئةً قطّ هي الأخرى.

والكفُّ عن ركوب الخيل تضحية أشدّ فداحة، فالوحش ليس سوى خصم، وأمَّا الحصان فكان صديقاً. ولو أنَّه تُرك لي أن أختار عيشتي لاخترت عيشة «الصنتور»[كائن خُرافي نصفه رَجُل ونصفه فَرَس]. فالصِّلات بيني وبين «بوريستين» [هو فَرَس «أدريان»] كانت تمتاز بوضوحٍ رياضيّ: كان يطيعني وكأنَّه يُطيع عقله لا سيِّده. فهل فزتُ يوماً بأن يفعل إنسان فعلَه؟ وإنَّ سلطة بمثل هذا الكمال تتضمَّن، مثل كلِّ سلطة، مخاطر الخطأ على الإنسان الذي يمارسها، إلَّا أنَّ لذَّة محاولة المستحيل في مادّة القفز فوق الحواجز كانت من الضخامة بحيث لا يُنْدَمُ معها على كتفٍ مخلوعة أو ضلعٍ مكسور. وكان جوادي يستبدل المفاهيم الألف المتقاربة الخاصَّة باللّقب والوظيفة والاسم، المعقَّدة للصداقة الإنسانيّة، بمعرفته وحدها لوزني بالضبط بوصفي رجلاً. وكان يمثِّل النصف في تَوَثُّباتي؛ ويعرف بالضبط، وربَّما خيراً ممَّا أعرف، النقطة التي يتمّ فيها الطلاق بين إرادتي وقوّتي. ولكنّي لا أُحمِّل خَلَفَ «بوريستين» عبءَ مريضٍ على صهوةِ مطيَّة. إنَّ مرافقي «سيلر» يروِّضه في هذه اللحظة على طريق «پرينست»؛ ولا تسمح جميع تجاربي السابقة في السرعة باقتسام لذّة الفارس ولذّة البهيمة، ولا بتقدير مشاعر الإنسان المندفع بأقصى سرعة في يومٍ حافِلٍ بالشمس والريح. وعندما يترجّل «سيلر» عن الحصان أستعيد الاتصال به عن طريق الأرض. وقُلِ الشيء نفسه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن السباحة: لقد كَفَفْتُ عنها، بيد أنّي مازلت أشارك في غبطة السابح الذي يدغدغه الماء. وأمّا الركض، حتّى على أقصر المسافات، فهو بالنسبة إليّ اليوم مستحيل استحالته على تمثالٍ ثقيلٍ، على «قيصرٍ» من حجر، غير أنّي أذكر ركضي صبيّاً فوق تلال «إسبانيا» الجافّة، وأذكر اللعبة التي كنت ألعبها مع نفسي وأذهب فيها إلى حدّ انقطاع الأنفاس، واثقاً من أنّ القلب السليم والرئتين النظيفتين كفيلةٌ جميعاً بإعادة التوازن؛ وإنّ لي من أدنى رياضيّ يتدرّب على سباقٍ طويل المسافة لَخِبْرةً لا يمكن أن يهبني إيّاها الذكاء وحده. وعليه فإنّي أَستلّ من كلّ فنٍّ زاولتُه في حينه معرفةً تعوّضني تعويضاً جزئيّاً عن الملذّات الضائعة. ولقد اعتقدت، ومازلت أعتقد في لحظاتي الخيِّرة، أنّ من الممكن أن يشاطر المرء على هذا الشكل جميعَ الناس وجودَهم، وأنّه قد يكون هذا التوادُّ أقلَّ عناصر الخلود بُطْلاناً. وكانت تمرّ لحظات يجهد فيها هذا التفهُّم في تجاوز ما هو بشريّ فيذهب من السابح إلى الموجة. ولكن لمّا لم يكن هنا من شيءٍ حقيقيٍّ يزيد في إفادتي فإنّي أدخل حقل تحوُّلات الحلم.

النَّهَمُ إلى الأكل آفَةٌ رومانيّة، إلّا أنّي كنت زاهداً فيه بشهوة. ولم يحتج «هرموجين» إلى تغيير شيء من نظام غذائي، اللّهمَّ إلّا تلك اللّهفة التي كانت تجعلني ألتهم في أيّ مكان، وفي أيّ ساعة، أوّلَ وجبةٍ تُقَدَّم، وكأنّما لأنتهي دَفْعَةً واحدة من متطلّبات جوعي. وبديهيّ أن يكره رجلٌ ثريٌّ لم يعرف يوماً غير العُري الطوعيّ، أو لم يجرِّبه إلّا تجربةً مؤقّتة، كما هي الحال في الحوادث المثيرة تقريباً في الحرب أو في السفر، أن يكره التفاخُرَ بأنّه لا يأكل. ولطالما كان الامتلاء بالطعام

إلى حدّ الاكتظاظ في بعض أيّام الأعياد طموحَ الفقراء وفرحتَهم وموضعَ زهوِهم الطبيعي. وكنت أحبّ نكهة اللحوم المحمَّرة وقرقعة القدور المرفوسة في احتفالات الجند، وأن تكون ولائم المعسكر (أو ما كان في المعسكر وليمةً) كما ينبغي أن تكون، أي تعويضاً سعيداً وفظّاً عمّا يقاسيه الجند من حرمان في أيّام العمل؛ وكنت أتساهل بعض التساهل في رائحة المقالي في الساحات العامّة عند الاحتفال بأعياد «زُحَل». غير أنَّ مآدب «روما» كانت تثير فيَّ من الاشمئزاز والضجر ما يجعلني أعزِّي النفس، إذا ساورني الظنّ أحياناً بالموت في أثناء رحلة استكشافيَّة أو حملة عسكريَّة، بأنْ أمتنع عن تناول العشاء. فإيَّاك أن تُعيِّرني بأنّي متسامِحٌ بحقِّه مُبْتَذَلٌ: إنَّ عمليَّةً تحدث مرَّتين أو ثلاثاً في اليوم وغايتها تغذية الحياة لَتَسْتَحِقُّ منّا بالتأكيد كلّ عناية. وأكلُ ثمرةٍ معناه أن يُدْخِل المرء في ذاته شيئاً جميلًا حيّاً غريباً غذَّته الأرض مثلنا وخصَّته بِحُظْوَتِها؛ معناه القيامُ بتضحية نُؤْثِر فيها أنفسنا على الأشياء. ولم يسبق لي قطّ أن قضمت قطعةً من خبز الثكنات إلّا سُرِرت بأن يكون ذلك الخبيز الفظّ الغليظ قد تحوّل إلى حرارة، وربّما إلى شجاعة. آه، لماذا لم يَعُدْ ذهني يمتلك قطّ في أحسن أيّامه إلّا جزءاً من قدرات الجسد على التمثُّل؟

لقد حدث لي في «روما»، خلال الوجبات الرسميَّة الطويلة، أن فكَّرتُ في أصول بذخنا الحديثة نسبيّاً، وفي هذا الشعب من الفلّاحين المقتصدين والجنود الزاهدين الذين أشبعهم الثوم والشعير ثمَّ غرقوا بغتة، بفعلِ الغزو، في مطابخ «آسيا» مُزْدَرِدين هذه المآكلَ المعقَّدة ببساطة الفلّاحين الذين عضَّهم الجوع بنابه. إنَّ رومانيّينا ليختنقون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأنواع الطيور ويغرقون في المَرَق ويتسمَّمون بالتوابل. وإنَّ أمثال «أپيسيوس» ليزدهون بتوالي الخدمات، وبتلك السلسلة من الأطباق الحاذقة أو الحلوة، الدسمة أو الخفيفة، التي تؤلّف طلباتهم الجميلة في مآدبهم؛ ولكان الأمر يهون كذلك لو أنَّ كُلًّا من هذه الأطباق قُدِّم على حِدَته، أو تُنووِل على الريق، أو تذوَّقه عن معرفة متذوِّقٌ خبيرٌ بالمآكل الشهيَّة يتمتَّع بحُليماتِ لسانٍ لم يُصبْها التَّلَف. ولكنّها إذ تُقَدَّم كيفما اتّفق خلال هَرْجٍ مُبتذَلٍ يوميٍّ فإنَّها تؤلّف في سقف حلق الطاعِم ومعدته تشويشاً مقيتاً تفقد فيه الروائح والطعوم والموادّ قيمتها الذاتيَّة وكيانها الرائع. لقد كان «لوسيوس» المسكين يُسَرّ قديماً بتحضير أطباقٍ نادرةٍ لي؛ وكانت معجوناته من لحم الدِّيكة البرِّيَّة وما يضاف إليها بمعرفةٍ ثاقبةٍ من لحم فخذ الخنزير والتوابل تشهد بفنٍّ يماثل في صحّته فنّ موسيقيٍّ أو رسّام؛ وكنت مع ذلك أتحسَّر على لحم الطائر الجميل الصافي. وكانت بلاد اليونان تُحسن ذلك خيّراً منّا: لقد كان نبيذها المصمَّغ، وخبزها المرشوم بالسمسم، وسمكها المقلَّب في المقلاة على شاطئ البحر وقد تفاوت في الاحتراق بالنار وخالطته هنا وهناك طرقعة حبَّة من تراب، كان ذلك كلّه يُرضي الشهيَّة من غير أن يُحيط أبسط أفراحنا بأكثر ممَّا ينبغي من التعقيد. ولقد ذقت في هذه الحانة أو تلك من حانات «أيجين» أو «فالير» أطعمة من الطزاجة بحيث كانت تبقى نظيفةً نظافةً إلَهيّةً، على الرغم من أصابع نادل الحانة القذِرة، ومن القلَّة بحيث كانت كافيةً كفايةً يُخيَّل معها أنَّها تحتوي بشكل أكثر ما يمكن أن يكون اقتضاباً على جوهرٍ من جواهر الخلود. وكان اللحم الذي يُطهى مساءَ رحلاتِ الصيد يتمتَّع هو

الآخر بصفةٍ شبه قدسيَّة، وكانت تقودنا إلى أبعد ممَّا نحن فيه، إلى أصول الأعراق البدائيَّة. وتُلقِّنُنا الخمرةُ أسرار الأرض البركانيَّة، والثروات المعدنيَّة المخبوءة؛ وإنَّ قدحاً من خمر «ساموس» يُشرب ظهراً في إبَّان سطوع الشمس، أو يُبتلع على العكس من ذلك مساء يومٍ من أيَّام الشتاء في حالة من حالات التَّعب التي تسمح بالشعور بسيلانه الحارّ فوراً إلى الحِجاب الحاجز، وبتوزُّعه المؤكّد والحارق على امتداد شرايينا، لَهُوَ إحساسٌ شبهَ مقدَّس، بل قويٌّ أحياناً بالنسبة إلى رأسٍ بشريّ؛ ولست أجدها بهذا النقاء عندما تخرج من بيوت المُؤَن المرقَّمة في «روما»، وإنَّ حذلقة كبار الخبراء في مصانع النبيذ لَتُفقدني صبري. وأكثر من ذلك وَرَعاً فإنَّ الماء الذي يُنْهَل من راحة اليدّ أو مباشرة من النبع يُجري في داخلنا أقدس أملاحِ الأرض ومطرِ السماء. غير أنَّ الماءَ نفسَه لذّةٌ على المريضِ الذي هو أنا ألَّا ينتفع بها في الوقت الحاضر إلَّا بقدر. فلْيكُنْ: فحتّى عند الاحتضار سأجهد في تذوُّق لاطَعْمِه المنعشِ فوق شفتيّ مُختلِطاً بمرارة الترياقات الأخيرة.

لقد خَبِرتُ باقتضابٍ الزُهد في اللحم في مدارس الفلسفة حيث ينبغي محاولة كلّ طريقة من طرائق السلوك مرّةً واحدةً وأخيرة؛ ورأيت فيما بعدُ في «آسيا» فلاسفة هنوداً يديرون رؤوسهم عن الحُمْلان التي تتصاعد منها الأبخرة، وعن قطع لحم الغزال المقدَّمة في خيمة «خسرو». غير أنَّ هذه الممارسة التي يرى فيها زُهْدُك الفتيُّ سحراً تتطلّب عناية أعقد من عناية النَّهِمِ نفسه؛ إنَّها تفصلنا جدّاً عن عامَّة الناس في وظيفةٍ تكاد تكون عامّةً على الدوام وتحكمها في أغلب الأحيان الأُبّهة أو الصداقة. وإنّي لأفضِّل أن أقتات طوال حياتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالأوزّ السمين والحُبيش على أن يتّهمني ضيوفي في كلّ وجبة بالتباهي بالزُهد. ولقد سبق أن عانيت بعض العناء في أن أُخفي عن ضيوفي، ببعض الثمار الجافّة ومحتوى قدحٍ أرتشفه على مهلٍ، أنَّ الآنية التي أقامها قُوّادي هي لهم أكثر ممّا هي لي، وأنَّ فضولي إلى هذه الألوان من الطعام كان ينتهي قبل انتهاء فضولهم. وإنَّ أميراً لتنقصه هنا الحرِّيَّة الممنوحة إلى الفيلسوف: فليس في وسعه أن يسمح لنفسه بالتباين في كثيرٍ من الأمور دَفْعةً واحدة، وإنّ الآلهة لتعلمُ أنَّ نقاط تبايني ما كانت يوماً بالقليلة، على الرغم من تفاخري بأنَّ كثيراً منها كانت غير مرئيّة. وأمّا فيما يتعلّق بنواهي الفيلسوف الهندي الدينيَّة وهو يتقزَّز بحضور اللحوم الدامية فإنّما كنت أكون أشدّ تأثّراً لو لم يحدث أن تساءلت عن الفرق الأساسي بين ألم الأعشاب المقطوعة وألم الخِرفان المذبوحة، وعمّا إذا لم يكن استفظاعُنا لمرأى البهائم المنحورة ناتجاً على الأخصّ من كون حساسيتنا تنتمي إلى الفصيلة نفسها. غير أنِّي عرفت في لحظاتٍ معيَّنةٍ من الحياة، في عهود الصَّوْم الطقسيّ مثلاً، أو خلال دروس التعليم الديني، ما يتمتّع به الذهن من امتيازات وما يتعرّض له من أخطار ناجمة عن مختلف أشكال الزهد، أو حتّى أشكال الجوع الطوعيّ، وتلك الحالاتِ القريبةَ من الدُّوَار التي يدخل فيها الجسد وقد تخفّف جزئيّاً عالماً لم يُخْلَق له، عالماً تتصوَّر فيه مُسبَّقاً خِفَّة الموت الباردة. وقد أتاحت لي تلك التجارب في لحظات أخرى أن أفكِّر في لعبة الانتحار التدريجي، لعبة الموت جوعاً، وقد عرفه الفلاسفة، وهو نوع من المجون المعكوس يذهب فيه المرء إلى حدّ استنزاف المادّة البشريَّة. غير أنَّه ساءني على الدوام

أن أنخـرط بكلّيتي في نـظام مـا، ولم أكن لأرغب في أن يحـرمني أيّ وسـواس من حقّي في أن أَتَّخِم بأنـواع اللحـوم لـو اتفق أن رغبتُ في ذلك، أو لو كان هذا الغذاء هو الوحيد السهل التناول.

يتّفق الخـارجون عـلى الأعـراف الخلقيّـة والمتمسّكـون بـالأخـلاق الحميدة على إدراج شهـوات الحبّ بين المُتَـع المعروفـة بالجنسيّـة، بين لـذّة الشراب ولذّة الأكـل، مع العلم بـأنّهم يصرّحون بـأنّ الاستغناء عنهـا أيسر درجـة من الاستغنـاء عن تَيْنِـك. وإنّي لأتـوقّـع من رجـل الأخلاق كلّ شيء، إلّا أنّي أعجب أن يخطئ الخارج على الأخلاق في هـذا الأمر. ولنفـرض أنّ هؤلاء وأولئك يخـافـون شيـاطينهم، سـواء قـاوموهم أو استسلمـوا لهم، ويجهـدون في كبْت لـذّتهم محـاولـين أن يتنزعوا منها قوّتهـا شبه الـرهيبة التي ينهـارون تحتها، وسِرّهـا الغريب الذي يشعرون معه بالضَيَـاع. ولسوف أومن بهـذا التشابـه بين الحبّ والمسرّات البـدنيّـة الخـالصـة (هـذا عـلى افـتراض وجـود مثـل هـذه المسرّات) يوم أرى مُحبّاً للطعـام ينتحب تلذُّذاً أمام لـونه المفضّـل، كما يفعل عاشقٌ فوق كتفٍ فتيَّةٍ. وهـذه اللعبة هي الـوحيدة التي تكـاد، من بين جميع ألعابنا، تقلب روحنا رأساً لعقب، وهي أيضـاً الوحيـدة التي يستسلم فيها اللاعب بالضرورة إلى هذيان الجسد. وإنّـه لا غنى للشارب عن التنازل عن رُشده، إلّا أنّ العاشق الـذي يحتفظ برُشـده لا يُطيع ربّه حتّى النهاية. والزهد والإفراط لا يقيّـدان في كلّ مـا خلا هـذا غيرَ الإنسـان وحده: فبـاستثناء حـالة «ديـوجينـوس» [فيلوسف إغريقي زاهد عاش معظم حياته داخل برميل] الذي ترتسم تحديداته ورضاه المقعول بالموجود بشكل تلقـائي فإنّ كـلّ سعي شَهَوِيّ يضعنـا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحضور الـ «آخر»، ويورّطنا في متطلّبات الاختيار وعبوديّـاته. ولست أعرف خياراً يتّخذ فيه الإنسان قراره مـدفوعـاً بأسبـاب أبسط وآكد، ويُحْسَب فيـه وزن الـشيء المختـار أكـثر مـا يُحْسَب بـوزنـه الخـام من الملذّات، ويُتاح فيه لمن يهوى الحقائق مـزيدٌ من الفـرص للحكم على الخليقة عاريةً من كلّ ستر. وإنّي ليلذّ لي، انطلاقـاً من تزهُّـدٍ معادلٍ لتزهُّد الموت، ومن خشوعٍ يجاوز انكسَارَ الهـزيمة وورعَ الصـلاة، أن أرى في كلّ مرّة تَعَقُّدَ حالاتِ الرفض، والمسؤوليّات، والإسهـامات، والاعـترافات الهـزيلة، والأكاذيب الهشّـة، والتسويـات المشبوبـة بـين ملذّاتي وملذّات الـ «آخـر»، وذلك القـدرَ من الـروابط التي يستحيـل قَـطْعُها ولا تلبث مـع ذلـك أن نتحـلّ. ولقـد بـدت لي هـذه اللعبـة العجيبـة التي تنتقـل من حبّ جسـدٍ إلى حبّ شخص، من الجـمال بحيث أخصّص لها نصيباً من حياتي. والكلمات خدّاعة لأنّ كلمة لذّة تشمـل حقائق متنـاقضـة وتحتـوي في آنٍ واحـدٍ عـلى مفـاهيم الفتـور والعذوبة وحميميَّة الجسد ومفاهيم العنف والتلاشي والصراخ. وعبـارة «پـوزيدونيـوس» [فيلسوف إغـريقي من المـذهب الـرُّواقيّ] الصغـيرة المـاجنة عن احتكـاك جزئـين من اللحم، وقد رأيتـك تنسخها بعنـاية الولد الوادع في دفاترك المدرسيَّة، لا تحدِّد ظاهرة الحبّ بأكثر ممّـا يحدِّد الوتر المنقور بالإصبع معجزة الأصوات. فهي تهاجم الشهوة بأقـلّ ممّا تهاجم اللحم بالـذّات، اللحـم، تلك الأداة المؤلَّفة من عضـلات ودم وبَشَرة، تلك الغمامة الحمراء التي بَرْقُها الروح.

وأعـترف بـأنّ العقـل يـظلّ مُبَلْبـلاً بحضـور معجـزة الحبّ هـذه بالذات، والهاجس الغريب الذي يُمكِّن هذا اللحم الذي قلَّما نهتمّ له

حين يؤلِّف جسدنا الخاصّ مكتفين بالاهتمام بغسله وتغذيته، وبمنعه إذا أمكن من التألُّم، يمكِّنه من إلهامنا مثل هذا الشغف بالمداعبات لمجرَّد أنَّ فرديَّةً أخرى مُبايِنة من فرديّتنا تحرِّكه وتمثِّل بعض ملامح الجمال التي لم يتّفق عليها، في أيّ حال، خيرُ القضاة. فهنا يظلّ المنطق البشريّ عاجزاً عن التجاوز، كما في عمليات الكشف عن «الأسرار». وما كانت الأعراف الشعبيّة لتخطئَ وهي ترى في الحبّ شكلاً من أشكال التلقين، ونقطة التقاءٍ بين ما هو سرّ وما هو مقدَّس. وتُشابِه التجربة الشَهَويَّة كذلك «الأسرارَ» في أنَّ للمقاربة الأولى في نفس غير المجرَّب تأثيرَ طَقسٍ مُفْزِعٍ تقريباً، وبعيدٍ بشكل فاضح عن الوظائف المألوفة التي يؤدِّيها النومُ والشرب والأكل، وفي أنّها غرضٌ للدعابة أو الخزي أو الإرهاب. ويقودنا حبّنا، شأنُه شأنُ رقصة كاهنات «باخوس» [إله الخمر والمجون] أو هذيان الـ«كوريبانت»، إلى عالمٍ مختلفٍ لا يُسْمَح لنا ببلوغه في أوقات أخرى، عالمٍ نتوقّف فيه عن التوجّه ما إن يخمد فينا النشاط أو تكتمل المتعةُ. ولقد تعلَّمت، وأنا مُسمَّر إلى الجسد الحبيب تسمُّر مصلوب إلى صليبه، أسراراً عن الحياة قد أخذت تضعف في ذاكرتي بفعل القانون الذي يقضي بأن ينفكّ المتعافي من مرض عن وجدان نفسه داخل حقائق مرضه العجيبة، وبأن ينسى السجين المُطلَقُ سراحُه التعذيبَ، أو الغالبُ المنتشي مَجْدَه.

ولقد حلمت أحياناً بإقامة نظامٍ في المعرفة الإنسانيَّة مبنيّ على أسرار الحبّ الجسدي، ونظرية في الاتّصال يتمثّل فيها السحر وكرامة الآخر بالتحديد في منح الـ«أنا» مركز الثقل الخاصّ بعالم آخر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولسوف تكون الشهوة في هذه النظريّة صيغة أكمل، غير أنّها أشدّ تخصّصاً، لهذا الاقتراب من «الآخر»، وطريقة فنّيّة أكثر خدمة لمعرفة ما ليس إيّانا. وحتّى في اللقاءات التي هي أقلّ شهويّة فإنّ الانفعال ينتهي أو يُولد في الملامسة: يدٌ منفِّرةٌ لامرأةٍ عجوزٍ تقدّم لي استرحاماً، جبينُ أبي اللزِجُ ساعة الاحتضار، جرحُ مغسولٌ لجريح. وحتّى أشدّ العلاقات انتماء إلى الفكر أو أكثرها حَيْداً وتجرُّداً تقوم من خلال هذا النظام من العلاقات الجسديّة: نظرة القاضي التي تلتمع بغتة ونحن نشرح له مناورة في صبيحة يوم المعركة، أو سلام بلا هويّة يصدر عن مرؤوس جمّده مرورنا في وقفة خضوع وطاعة، أو نظرة الصداقة يسدِّدها عبد أشكره على إحضار صينيّة، أو برطمة صديق قديم للتعبير عن إعجابه بالجَزْع الإغريقي المنقوش المُهدى إليه. وإنّ أخفّ الاتّصالات بمعظم الناس وأشدَّها سطحيّة لَتُشْبع رغبتنا، بل قد تكون جاوزتها. ولَأن تُلِحّ وتتضاعف حول مخلوق واحد حتّى لتحاصره بكلّيته؛ ولَأنْ تحمل إلينا كلّ قطعة في جسدٍ من الأجساد من المعاني المُرْبِكة بقدر ما تحمل ملامح وجه من الوجوه؛ ولَأنْ يلاحقنا شخصٌ واحدٌ ملاحقة الموسيقى أو ينغّصنا تنغيص مشكلة بدلاً من أن يُلهمنا على الأكثر الحنق أو اللذّة أو الضجر؛ ولَأنْ يمرّ من أطراف عالمنا إلى مركزه، فإنّه يغدو في نهاية الأمر أَلْزَمَ لنا من أنفسنا، وهنا تحدث المعجزة التي أرى فيها اجتياحاً لِلَّحم يقوم به الفكر أكثر ممّا أرى فيها مجرّد لعبة يؤدّيها اللَّحم.

إنّ مثل هذه النظرات في الحبّ قد تقود إلى امتهان حِرفة الغواية. وإن لم أكن قد امتهنتُها فلأنّني ولا شكّ فعلت شيئاً آخر، أو ما قد

يكون أفضل. وتحتاج هذه الحرفة في غياب العبقريّة إلى عناية، بل إلى أحابيل كنت أشعر أنيّ لم أُخْلَق كثيراً لها. ولقد أرهقتني هذه الأشراك المنصوبة، وهي هي على الدوام، والرتابة المحدودة في مقارباتٍ دائمة تَقْصِرها عمليّة الغزو بالذات. وتتطلّب تقنيَّةُ المُغوي الأكبر في انتقال غرضٍ إلى غرضٍ آخر سهولةً ولامبالاةً لم أكن أقيم لهما وزناً: لقد فارقتاني على كلّ حال ولم أفارقهما؛ فما أدركت يوماً معنى الشِبَع من إنسان. وإنَّ الرغبة في أن يَعُدَّ المرء بالضبط ما يحمله إليه كلّ حبّ جديدٍ من غنى لَتتنافى مع تعدُّد الغزوات. ولقد ظننت قديماً أن نوعاً من تذوّق الجمال سيكون بمثابة فضيلة عندي ويُحسن تحصيني من الغوايات الوضيعة. غير أنيّ كنت مخطئاً. فالأمر ينتهي بهاوي الجمال إلى وجدانه في كلّ مكان، خيطاً دقيقاً من الذهب في أحقر العروق؛ والدليل هو ما يبديه العارف وحده من لذّة في جمع الفخّار العاديّ غير المشويّ وتقليب هذه الروائع الجزئيّة، الوسخة أو المكسورة، بين يديه. وإنَّ مكانةً ساميةً في الشؤون الإنسانيَّة لهي عقبة أشدّ وعورةً بالنسبة إلى المتذوِّق، بكلّ ما يتضمّنه السلطان شبه المطلق من مخاطر المداهنة أو الكذب. ولَأنْ يتبادر إلى ذهني أنَّ مخلوقاً، مهما ضؤل شأنه، يتنكّر في حضرتي، فذاك كفيل بجعلي أُرثي له أو أحتقره أو أبغضه. ولقد كابدت من مساوئ رغَدَي ما يكابده فقير من مساوئ شظفه. وكانت خطوة واحدة أخرى جديرة بجعلي أتقبَّل الوهم المتمثّل في ادّعاء الإغواء في حين يعلم المرء أنّه يَفْرِض نفسه. ولكنَّ الاشمئزاز، أو ربَّما الحُمْق، يوشكان أن يبدآ من هنا.

وينتهي الأمر بالإنسان إلى إيثار حقائق الفسق البسيطة جدّاً على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحابيل الإغواء الطائشة، لو لم يكن الكذب سائداً في الفسق أيضاً. وأنا مستعدّ مبدئياً للقبول بأن يكون البغاء فنّاً مثله مثل التدليك أو التزيين، غير أنَّه يشقّ عليّ مسبّقاً أن أجد السرور لدى المزيِّنين أو المدلِّكين. فليس من شخص أشدّ فظاظة من المتواطئين معنا. ولقد كانت النظرة الملتوية يرمقني بها صاحب الحانة الذي يحتفظ لي بأفضل نبيذ، ويحرم منه بالتالي شخصاً آخر، كافية في أيّام شبابي لإثارة اشمئزازي من ملاهي «روما». وإنَّه لينفّرني أن يعتقد مخلوق أنَّه يستطيع التنبُّؤ برغبتي أو توقُّعها، أو أن يتوافق آليّاً وما يَفْترض أنَّه خياري. وإنَّ ما يقدّمه لي دماغ بشريّ من انعكاس أخرق مشوَّهٍ عن ذاتي ليجعلُني أُفضِّل آثار التقشّف الكئيبة. وإذا لم تكن الأسطورة مُغالية في شيء من تجاوزات «نيرون»، ولا في شيء من أبحاث «تيبريوس» العلميَّة، فإنَّه لا بدّ من أن يكون لمُسْتَهْلِكَي الملذّات هذين حواسٌّ ميّتة تماماً للتفريط بجهازٍ بمثل هذا التعقيد، وازدراءٌ للناس فريد لكي يحتملا أن يسخر الناس منهما أو يستغلّوهما. ومع هذا فإنّي إذا كنت قد استنكفت تقريباً عن أشكال اللذّة الشديدة الآليَّة هذه، أو لم أنغمس فيها كثيراً، فإنّي أدين بذلك لحُسْن طالعي أكثر ممَّا أدين به لفضيلتي العاجزة عن مقاومة أيّ شيء. ومن الممكن أن أعود فأسقط فيها وأنا أشيخ، كما في أيّ نوعٍ من أنواع البلبلة أو التعب. ولسوف ينقذني المرض والموت القريب نسبيّاً من تكرار الحركات نفسها تكراراً رتيباً شبيهاً بتكرار درس كثيراً ما حُفظ عن ظهر قلب.

يُعتَبر النومُ بين جميع المباهج التي أخذت تتخلّى عنّي واحداً من

أَنْفَسِها، ومن أكثرها ابتذالاً أيضاً. وإنَّ إنساناً ينام قليلاً نوماً سيِّئاً مُتَّكئاً على عدد من الوسائد لَيَتأمَّلُ على هواه في هذه الشهوة الفريدة. وأعترف بأنَّ النوم الكامل يظلّ بشكل شبه حتميّ مُلْحَقاً بالحبّ: راحة واعية منعكسة في جسدين. غير أنَّ ما يهمّني هنا هو السرُّ النوعي الخاصُّ بالنوم المتذوَّق لِذاته، الغطسُ الذي يحاوله الإنسان العاري كلّ مساء وحيداً منزوع السلاح في محيط يتغيَّر فيه كلّ شيء، الألوانُ والكثافاتُ وإيقاعُ النَفَسِ بالذات، محيطٍ نلتقي فيه الأموات. والذي يجعلنا نطمئنّ إلى النوم هو أنّنا نخرج منه، وأنّنا نخرج من غير أن يتغيَّر شيء فينا لأنّ تمنُّعاً عجيباً يمنعنا من جَلْب راسب أحلامنا، كما هو، معنا. والذي يجعلنا مطمئنّين أيضاً هو أنَّ النوم يشفي من التعب، بيد أنَّه يشفينا مؤقَّتاً وبأرسخ الوسائل، مدبِّراً أمره بحيث لا نكون موجودين. وهنا، كما في مكان آخر، يتمثَّل الفنّ واللذّة في الاستسلام بوعيٍ إلى هذا اللاوعي السعيد، والقبول بأن نكون، بشكل ذكيّ، أضعفَ وأثقلَ وأخفَّ وأشدَّ اختلاطاً ممّا نحن في الواقع. وسأعود فيما بعد إلى عالم الأحلام المدهش. وأوثر الكلام على بعض تجارب النوم الصافي والاستيقاظ الصافي، وهي تُقارِب الموتَ والبعث. وأحاول استذكار الإحساس الدقيق بحالات النوم الصاعق في أيَّام المُراهَقة، أيَّام كان المرء ينام فوق كتبه بكامل ملابسه محمولاً دفعة واحدة خارج الرياضيَّات والحقوق إلى داخل نومٍ متمكّنٍ عميق، مفعماً بالطاقة التي لم تُستخدَم بحيث يتذوّق فيه، إنْ صحَّ التعبير، ما للإنسان من معنى نقيّ خلال الجفون المُطْبَقَة. وأستذكر حالات النوم المباغتة على الأرض الجرداء في الغابة بعد أيَّامٍ مُتعِبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنقضي في الصيد؛ كان نُباح الكلاب يوقظني، أو توقظني قوائمها المنتصبة فوق صدري. وكان الاختفاء من الكمال بحيث أستطيع أن أجدني في كلّ مرَّة مختلفاً عمَّا أنا، فأدهش، بل أحزن أحياناً، من ذلك التنسيق الدقيق الذي كان يُحضِرني من ذلك البُعد إلى هذا القطاع الضيّق من قطاعات البشريَّة الذي هو أنا نفسي. فماذا كانت تُرى تلك الاستثناءات التي نتشبَّث بها أكثر ما نتشبَّث مادامت قليلة الأهميَّة جدّاً للنائم الحرّ، ومادمتُ قد استطعتُ للحظةٍ، قبل أن أعود للدخول آسفاً في جلد «أدريان»، أن أتذوَّق واعياً تقريباً هذا الإنسان الفارغ، وذلك الوجود الماضي؟

للمرض والسنّ من ناحية أخرى معجزاتُهما، وهما يتلقَّيان من النوم أشكالاً أخرى من البَركة. فمنذ حوالي سنة عرفتُ في «روما» إحدى الاستراحات التي يصنع فيها خَوَرُ القوى تلك المعجزاتِ ـ أو هي بالحري معجزاتٌ أخرى ـ التي كانت تصنعها المخزونات غير المُسْتَنْفَدَة في غابر الأيَّام. وأنا لا أذهب إلى المدينة إلَّا نادراً؛ وأسعى إلى أن أنجز فيها أكثر ما يُستطاع إنجازه. وكان النهار مشحوناً بشكلٍ كريه: جلسة في «مجلس الشيوخ» تبعتها جلسة في المحكمة وجدال لا ينتهي مع أحد وزراء الماليَّة؛ ثمَّ احتفال دينيّ لا يمكن اختصاره والمطر ينهمر من فوقه. وكنت أنا نفسي قد قاربت بين مختلف هذه النشاطات وألصقت بعضها ببعض لأتيح أقلّ ما يمكن من الوقت للمزعجين ولمواقف التملّق غير المُجْدِية. وكانت العودة على ظهر الحصان آخر ما أقوم به من تنقّلات من هذا النوع. وعدت إلى «الدارة» مكروباً مريضاً مُعانياً من بردٍ لا يماثله إلَّا البرد الناجم عن تمنُّع الدّم عن

الجريان في الشرايين. وخفَّ إليَّ «سيلر» و«شابرياس»، غير أنَّ التفاني قد يكون مُتعِباً حتَّى عندما يكون صادقاً. وإذ دخلت جناحي فقد التهمت بضع ملاعق من حساءٍ ساخنٍ كنت أُعدَّه بنفسي، لا من قبيل الارتياب كما قد يُتوهَّم، وإنَّما لأنِّي أحظى على هذا بنعمة التوحُّد. واستلقيت؛ وبدا النوم بعيداً عنِّي بُعْدَ الصحَّة والشباب والقوَّة. وأغفيت. وأثبتت لي الساعة الرمليّة أنِّي لم أنم سوى ساعة تقريباً. وإنَّ سِنَةً من النوم الكامل لَتَعْدِل في مثل عمري نوماً كان يدوم فيما مضى نصف دورة من دورات الكواكب؛ وقد أصبح وقتي يُقاس بعد اليوم بوحداتٍ أصغر بكثير. بيد أنَّ ساعةً قد كَفَتْ لإنجاز المعجزة المتواضعة المفاجئة: أخذ دمي يُدَفِّئُ يديَّ؛ وعاد قلبي ورئتاي إلى العمل بنوعٍ من حُسْن الإرادة؛ وانسابت الحياة انسياب عينْ لم تكن ثرَّة، ولكنَّها أمينة. وكان النوم قد أصلح في وقت يسير مبالغاتي في الفضيلة بالحياد الذي كان يسخِّره قبلاً لإصلاح عيوبي. وذلك لأنَّ ألوهيَّة المُصلح الأكبر تتمثَّل في ممارسته حسناته على النائم من غير أن يَحْسب له حساباً، شأنَ الماء المُثْقَل بالقدرات الشفائيَّة في عدم الحفول قطّ بمن يشرب من العينْ.

غير أنَّنا إذا كنَّا نفكِّر قليلاً جدّاً في ظاهرة تمتصّ على الأقلّ الثلث من كلّ حياة فذلك لأنَّ تواضعاً مُعَيّناً ضروريٌّ لتقدير حسناتها. وإذ ينام «كايوس» و«كاليغولا» و«أريستيد» العادل فإنَّهم يتساوَوْن؛ وإنِّي لأتنازل عن امتيازاتي المهمَّة التي لا طائل تحتها؛ ولا أُميِّز نفسي من السلوقيِّ الأَسْوَد النائم بعرض عتبتي. وماذا يكون أَرَقُنا إن لم يكن معاندةً حمقاء من تفكيرنا لصُنْع الخواطر ومستدرَكات الأفكار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والقياسات الخاطئة والتعريفات الخاصَّة به، وامتناعاً منه عن التسليم لمصلحة البلاهة الإلهيّة المتمثِّلة في العيون المُغْمَضة أو لمصلحة جنون الأحلام الحكيم؟ فالإنسان الذي لا يغطّ في النوم، وقد أتيحت لي منذ بضعة أشهر فرصٌ كثيرة لملاحظة ذلك في نفسي بالذات، يأبى بشكل واعٍ تقريباً أن يطمئنّ إلى دَفْق الأشياء. «أخو «الموت»... لقد أخطأ «إيزوقراط» [خطيب أثيني شهير كان «زينوفون» أحد تلامذته]، وليست عبارته سوى تشدُّقٍ يُبديه خطيب. فلقد بدأتُ أعرف الموت؛ وإنَّ له لأسراراً أخرى أشدّ غُربة بكثير عن وضعنا البشريّ الحاضر. ومع هذا فإنَّ أسرار الغياب والنسيان الجزئي هذه من الاختلاط والعمق بحيث نحسّ تماماً باختلاط النبع الأبيض والنبع الأسحم في مصبٍّ واحدٍ في مكانٍ ما. إنَّه لم يسبق لي قطّ أن نظرت إلى مَنْ أحببتهم وهم نيام؛ لقد كانوا يستريحون مني، وأنا أعلم ذلك؛ وكانوا يهربون من بين يديّ أيضاً. وإنَّ كلّ إنسان ليخجل من وجهه المدنَّس بالنوم. وكم من مرَّة نهضت فيها باكراً من النوم للدرس أو للقراءة فأصلحت بنفسي هذه الوسائد المدعوكة وتلك الأغطية المشوّشة، وهي مسلَّمات شبه ماجنة عن لقاءاتنا والعَدَم، وبراهين على أنَّنا في كلّ ليلة لا نكون موجودين...

إنَّ هذه الرسالة التي بدأتها لإخبارك باستفحال مرضي قد أصبحت شيئاً فشيئاً فضفضةَ رجلٍ لم يَعُدْ يملك الطاقة الكافية للانصراف طويلاً إلى شؤون «الدولة»، وتأمُّلاً مكتوباً لمريض يستدعي ذكرياته.

وها أنذا أقترح المزيد: لقد قرَّرت أن أشرع في سرد سيرة حياتي عليك. كنت قد كتبت بالطبع في العام الماضي بياناً رسمياً بأعمالي وقَّع أمين سرّي «فليغون» اسمه في أعلاه. ولقد قلَّلت فيه قدر المستطاع من الكذب. ومع ذلك فقد اضطرَّتني المصلحة العامَّة والحشمة إلى إعادة ترتيب بعض الوقائع. والحقيقة التي أنوي عرضها هنا ليست فاضحة بشكلٍ استثنائي، فلم نبلغ بعدُ إلّا الحدّ الذي تشكّل فيه كلُّ حقيقةٍ فضيحةً من الفضائح. ولستُ أتوقّع أن تدرك سنواتك السبع عشرة شيئاً من تلك الحقيقة. غير أنّي أصرّ على تنويرك، وعلى هزّ كيانك أيضاً. ولقد منحك مؤدّبوك الذين اخترتُهم بنفسي هذه التربية الصارمة المراقَبَة التي ربّما كانت شديدة الحماية، والتي أرجو، بالاختصار، لك وللدولة من ورائها الخيرَ العميم. وأمنحك هنا للتلطيف نصّاً خالياً من الأفكار المسبَّقة والمبادئ المجرَّدة، نصّاً مُستقىً من تجربة إنسان واحد هو أنا نفسي. وإنّي لأجهل الخلاصات التي سيسوقني إليها هذا النصّ؛ وأعتمد على امتحان الأمور هذا لتعريف ذاتي، أو ربّما للحكم عليها، أو للتعرّف على الأقلّ إلى نفسي بشكلٍ أفضل قبل أن أموت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لست أملك، شأني شأنُ جميع الناس، إلاَّ ثلاث وسائل لتقدير الوجود البشري: دراسة الذات، وهي أصعب الطرائق وأخطرها، ولكنَّها أخصبها؛ وملاحظة الناس الذين يتدبّرون في غالب الأحيان أمر إخفاء أسرارهم عنَّا أو جعلنا نعتقد بأنَّهم يملكون بعضاً منها؛ والكتب وما يتوالد بين سطورها من أخطاء خاصَّة بالرؤية إلى الأمور. ولقد قرأت تقريباً كلّ ما كتبه مؤرّخونا وشعراؤنا، وحتى قصّاصونا، على الرغم من اشتهار هؤلاء الأخيرين بالخفّة والنزق، وربّما كنت أدين لهم بمعلومات تفوق بكثير ما جمعته منها في حياتي الخاصَّة بمراحلها ومواقفها التي لا بأس بتنوّعها. وقد علّمتني الرسالة المكتوبة كيف أُصغي إلى الصوت البشري، مثلنا علّمتني أوضاع التماثيل الجامدة العظيمة كيف أقدّر الحركات. وفي مقابل ذلك فقد وضّحت لي الحياةُ بعد ذلك ما في الكتب.

بيد أنَّ هذه تكذب، حتى أشدُّها إخلاصاً. ويحتفظ أقلّها حِذقاً بصورة مسطّحة بائسة عن الحياة لعَوَزه إلى كلماتٍ وجملٍ كان من الممكن أن تحتويها؛ فبعضهم مثل «لوكين» يُثقلونها ويُربكونها بأبّهة ليست فيها. ويخفّفها، على العكس من ذلك، آخرون مثل «پترون»، ويجعلون منها كرة متقافزة جوفاء من السهل تلقّفها ورميها في كَوْنٍ لا وزن له. وينقلنا الشعراء إلى عالمٍ أوسع وأجمل وأكثر نشاطاً أو عذوبةً من العالم الممنوح لنا، ومختلفٍ بذلك عنه، وشبه خارق عمليّاً للمألوف. ويُخضع الفلاسفة الحقيقةَ، للتمكّن من دراستها في حالة خلوصها، لما تُخْضِع لهُ، على وجه التقريب، النارُ والمطرقةُ الأجسامَ من تحوّلات: فلا يبدو من وجود، في هذه البلّورات أو ذلك الرماد،

لكائنٍ أو واقعةٍ كما سبق أن عرفناهما. ويعرض علينا المؤرّخون أنظمة شديدة الكمال عن الماضي، وسلاسل من الأسباب والنتائج هي من الصحّة والوضوح بحيث لا يمكن أن تكون قطّ حقيقيّة بالتمام؛ إنّهم يُعيدون ترتيب هذه المادّة الطيِّعة الميتة، وإنّي لأعرف أنّ «الإسكندر» سوف يستعصي دوماً حتّى على «بلوتارك». ولا يفعل القصّاصون ومؤلّفو الخرافات الشعبيّة أكثر ممّا يفعل الجزّارون من تعليق قطعٍ صغيرةٍ من اللّحم يقدُرها الذباب حقّ قدرها فوق ألواح الخشب التي يجزرون عليها في دكاكينهم. وإنّه ليسوءني جدّاً العيش في عالمٍ خالٍ من الكتب، إلّا أنّ الحقيقة ليست فيها، لأنّها لا تدين بكامل وجودها لها.

ومراقبةُ الناس مراقبةً مباشرةً طريقة أقلّ كمالاً أيضاً، ومحدودة في أغلب الأحيان بالملاحظات الدنيئة التي تقتات بها نيّة البشر السيّئة. فالمرتبة والمنصب وجميع حظوظنا تُضيّق مجال الرؤية لدى الخبير بالناس: يتمتّع عبدي بضروب من السهولة في مراقبتي تختلف كلّ الاختلاف عن التي أتمتّع بها في مراقبته؛ وهي في مثل قِصَرها. فـ «أوفوريون» العجوز يقدِّم لي منذ عشرين عاماً حُقَّ الزيت وإسفنجة الحمّام الخاصّينْ بي، بيد أنّ معرفتي به تتوقّف عند حدّ خدمته، ومعرفته بي تتوقّف عند حدّ حمّامي، وكلّ محاولة للاستزادة من الأخبار سرعان ما تعمل، بالنسبة إلى الإمبراطور كما بالنسبة إلى العبد، عملَ موقفٍ من مواقف التطفُّل. وكلّ ما نعلمه عن الآخرين مكرور تقريباً. ولو حدث أن اعترف إنسانٌ فإنّما للدفاع عن قضيّته؛ ودفاعه مُعَدٌّ سلفاً. وإذا راقبناه لم يَعُدْ وحده. ولقد أُخِذ عليَّ قراءتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقارير شرطة «روما»؛ وأنا أكتشف فيها على الدوام موضوعات تثير الدهشة؛ وسواء أكان أولئك الناس أصدقاء أم مشبوهين، مجهولين أم خُلَطاء، فإنَّهم يدهشونني؛ فأعمالهم الجنونيَّة تصلُح أعذاراً لأعمالي المماثلة. ولست أكلّ من مقارنة الإنسان اللابس بالإنسان العاري. بيد أنَّ هذه التقارير الشاملة بسذاجة تنضاف إلى كومة ملفّاتي من غير أن تساعدني على الإطلاق في إصدار الحكم النهائي. ولَأنْ يكون القاضي الفلاني ذو المظهر الزاهد قد ارتكب جريمة فإنَّ ذلك لا يتيح لي قطّ أن أزداد به معرفة. وإنّي لأغدو بعدها أمام ظاهرتين لا ظاهرة واحدة، مظهر القاضي وجريمته.

وأمّا بشأن مراقبتي ذاتي فإنّي أُرْغِم نفسي عليها لا لشيء سوى التعاون مع هذا الشخص الذي سأكون مضطّراً إلى العيش بقربه حتّى النهاية، والذي لاتزال عِشْرةُ تقارب ستّين عاماً تحمل فرصاً كثيرة للخطأ بشأنه. ومعرفتي بنفسي في أعمق أعماقي غامضة وداخليّة وغير مُتشكِّلة وسرِّيّة وكأنَّها تواطؤ. وهي على أشدّ الصُعُد إبهاماً في مثل برودة النظريَّات التي في وسعي تكوينها عن الأعداد: أستخدم ما أملك من ذكاء للنظر إلى حياتي من بعيدٍ ومن علٍ فلا تلبث أن تصبح حياة شخص آخر. غير أنَّ هاتين الوسيلتين من وسائل المعرفة صعبتان وتتطلّب إحداهما غَوْصاً في الذات، والأخرى خروجاً من النفْس. وإنّي لأميل بدافع الجمود ككلّ الناس إلى استبدالهما بوسائل لا تخرج عن دائرة الرتابة، بفكرة عن حياتي المعدَّلة جزئيّاً بالصورة التي يتصوّرها بها جمهور الناس، وبأحكام جاهزة، أي رديئة الصنع، شأنُها شأنُ رسم محضَّر لتفصيل الثياب يطبّق عليه خيَّاط أخرقُ

القماش الخاصّ بنا، بكثير من الجدّ والكدْح. وإنّه لتجهيز غير متساوٍ؛ وإنّها لأدوات شبه مُثَلَّمة؛ ولكنّي لا أملك غيرها: فبها أشكّل كيفما اتّفق فكرة عن مآلي كإنسان.

وحين أتأمّل في حياتي يُفزعني أنّها بلا شكل. فحياة الأبطال التي يخبروننا عنها بسيطة؛ إنّها تنطلق إلى الغاية مستقيمة كالسهم. ويحبّ معظم الناس اختصار حياتهم في صيغة، في تبجّح أحياناً أو في شكوى، وفي احتجاج على الدوام تقريباً؛ وإنّ ذاكرتهم لتصنع لهم بمجاملةٍ وجوداً قابلاً للتفسير وواضحاً. ولحياتي حدود أقلّ صلابة. وكما يحدث في غالب الأحيان فإنّ ما لم أَكُنْهُ قد يكون هو الذي يحدِّدها بالضبط: جندي جيّد، وأمّا رجل حرب عظيمٌ فلا، ومحبٌّ للفنّ، وأمّا ذلك الفنّان الذي ظنّ «نيرون» أنّه كانَهُ عند موته فلا، قادر على ارتكاب الجرائم، وأمّا مُثْقَل بالجرائم فلا. ويحدث أن أفكِّر في أنّ الناس العِظام يتميّزون بالضبط بتطرّفهم الذي تتمثّل فيه بطولتهم بالصمود طَوال حياتهم. فهم أقطابنا أو نقائضنا. ولقد شغلتُ جميع المناصب المتطرّفة على التوالي، غير أنّي لم أصمد فيها؛ لقد جعلتني الحياة أنزلق منها على الدوام. ومع ذلك فإنّه ليس في وسعي أيضاً أن أدّعي، شأنَ حارث أو حمّال شريف، وجوداً قائماً في الوسط.

ويبدو أنّ مشهد أيّامي يتألّف كما تتألّف المناطق الجبليّة، من موادّ مختلفة متراكمة كيفما اتّفق. وفيه أجد طبيعتي، وقد سبق تعدُّد عناصرها، مؤلّفة من أجزاءٍ متساوية من الغريزة والثقافة. وهنا وهناك تبرز صوّاناتُ ما لا يمكن تجنُّبه؛ وهناك في كلّ مكان أنقاض الصُدفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأجهد في المُضيّ بحياتي من جديد لأعثر فيها على سطحٍ أو أتبع طريق عِرق من الرصاص أو الذهب أو انسياب نهرٍ جوفيّ، غير أنّ ذلك السطح الوهميَّ تماماً ليس إلاَّ عملية تخدع بها الذكرى البصرَ. ومن حين إلى آخر ألمح في لقاءٍ ما فألاً، سلسلةً محدَّدةً من الأحداث، فأظنّ أنّي وقعت على مُقدَّر، غير أنَّ كثرة الطرق لا تؤدّي إلى أيّ مكان، وكثرة المَبالِغ تَحُول دون جمع بعضها إلى بعض. وألمح جيّداً في هذا التنوُّع، في هذه الفوضى، وجودَ شخص، إلاَّ أنَّ شكله يبدو على الدوام تقريباً وقد خطَّه ضغطُ الظروف؛ فتختلط ملامحه وكأنَّها صورة معكوسة على الماء. ولست من أولئك الذين يقولون إنَّ أعمالهم لا تُشْبِهُهم. إنَّها ينبغي جدّاً أن تفعل ذلك لأنّها مقياسي الوحيد ووسيلتي الوحيدة للارتسام في ذاكرة الناس، أو حتّى في ذاكرتي شخصيّاً؛ لأنَّه ربَّما كانت استحالةُ الاستمرارِ في التعبير عن النفس والتغيُّر بالعمل هي التي تؤلّف الفرق بين حالة الميت وحالة الحيّ. غير أنَّ بيني وبين هذه الأعمال التي أنا منها فجوةً يتعذّر تعريفها. والدليل هو أنّي أشعر باستمرار بالحاجة إلى وزنها وشرحها وتقديم بيانٍ بها إلى نفسي. وبعض الأعمال التي دامت قليلاً لا يُؤْبَهُ لها بالطبع، بيد أنّ المشاغل التي امتدَّت طَوال العمر لا تعني المزيد. وعلى سبيل المثال فإنَّه يكاد يبدو لي أساسيّاً في اللحظة التي أكتب فيها هذا أنّي قد كنت إمبراطوراً.

ومن جهة ثانية فإنّ ثلاثة أرباع حياتي تُفلت بالأعمال من هذا التعريف: إنّ جملة مواقفِ ضَعْفِ الإرادة التي وقفتها، ومعظمَ رغباتي، وحتّى مشاريعي تظلّ بمثل سديميَّة الشبح واستعصائه على

الإمساك به. وأمّا الباقي، أي الجزء الملموس الموثَّق تقريباً بالوقائع، فإنَّه يكاد يكون أكثر وضوحاً، ويكاد يكون تسلسلُ الأحداثِ بمثل اختلاطِ تسلسلِ الأحلام. وإنّ لي لتسلسلاً تاريخيّاً خاصّاً جدّاً ومستحيلاً توافقُه مع التسلسل التاريخي المبنيّ على إنشاء «روما»، أو على موعد إقامة الألعاب الأولمبيَّة. وإنّ خمسة عشر عاماً في الخدمة العسكريَّة قد دامت مدّةً أقصر من التي يدومها صباح في «أثينا»؛ وهناك أشخاص خالطتُهم طَوال حياتي ولن أتعرّف عليهم في جحيم الآخرة. ومستويات الفضاء تتراكب أيضاً: فـ«مصر» ووادي «تمبيه» قريبان جدّاً، ولا أكون على الدوام في «تيبور» حين أكون فيهما. وتبدو لي حياتي تارةً مُبْتَذَلَةً إلى حدٍّ لا تستحقُّ معه أن لا تُكتب وحسب، بل أن لا تكتمل طويلاً، وليست قطّ في نظري أهمَّ من حياة أوّل قادم. وطوراً تبدو لي فريدة، ومن هنا بالذات بلا قيمةٍ ولا جدوى لاستحالة إخضاعها لتجربة عامَّةِ الناس. وليس هناك من شيء يُفَسِّر حالي: فعيوبي وفضائلي لا تكفي على الإطلاق؛ ولا تكفي كذلك سعادتي، إلّا أنّ عدم كفايتها متقطّعة وعديمة الاستمرار وخالية على الأخصّ من سببٍ مقبول. بيد أنّ الفكر البشري يكره أن يتقبّل من يد الصدفة ألّا يكون سوى نتاج عابر لحظوظ لا يتحكّم بها أيّ إله، وعلى الأخصّ هو بالذات. وينقضي قسم من كلّ حياة، وحتى من كلّ حياة قلّما تستحقّ أن يُحْفَل بها، في البحث عن أسباب الوجود ونقاط الانطلاق والينابيع. وإنّ عجزي عن اكتشافها ليجعلني أميل أحياناً إلى التفسيرات السحريَّة وإلى البحث في هَذَيان التنجيم عمّا لم يكن حُسْنُ الإدراك يتيحه له. وعندما ينكشف خطأً كلّ الحسابات المعقّدة، وعندما لا يبقى لدى الفلاسفة ما يقولونه لنا، فإنّ لنا لَعُذراً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الالتفات إلى زقزقة العصافير الفجائيَّة أو إلى مُوازِن النجومِ القادم من بعيد.

مُتَنَـوِّع مُرَكَّـب

مُتَعَـدِّد الأشكـال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان جدِّي «مارولينوس» يؤمن بالنجوم. وقد وهبني هذا العجوز الضامر الذي أضواه العمر ما كان يكنُّه من عطفٍ خالٍ من الحنان والإشارات الخارجيّة، بل من الكلام تقريباً، لحيوانات مزرعته ولأرضه ولمجموعته من الحجارة الساقطة من السماء. وكان ينحدر من سلسلة طويلة من الأجداد المُقيمين في «إسبانيا» منذ عهد الـ «سيبيونيِّين». وكان الثالث بالاسم في مرتبة «الشيوخ»؛ وكانت أسرتنا تنتمي حتّى ذلك الحين إلى نظام الفروسيّة. وقد كان له نصيب، متواضع على كلٍّ حال، في الشؤون العامّة أيَّام حكم «تيتوس» [أحد الأباطرة الرومان الصالحين]. وكان ذلك الريفيّ يجهل اليونانيّة ويتكلَّم اللاتينيّة بنبرةٍ إسبانيّة جشّاء أورثنيها وأثارت ضحك الناس فيما بعدُ. غير أنَّ عقله لم يكن مع ذلك خِلواً تماماً من العلم والمعرفة؛ فقد وُجد لديه بعد موته صندوق كبير مليء بأدواتٍ هندسيّةٍ وكتبٍ لم يكن قد لمسها منذ عشرين سنة. وكان يتمتّع بمعارف نصف علميّة ونصف فلّاحيّة، هذا الخليط من الأفكار المسبَّقة الضيِّقة والحكمة القديمة الذي ميَّز السَلَف «كاتون» [سياسيّ رومانيّ عُرِف بعداوته للثقافة الهلّينيّة]. غير أنَّ «كاتون» كان طوَال حياته رجل «مجلس الشيوخ» الروماني ورجل حرب «قرطاجة»، والممثِّل الحقيقي لِـ «روما الجمهوريّة» المتصلِّبة. وكانت صلابة «مارولّينوس» التي لا تُخْرَق تعود إلى أبعد من ذلك، وإلى عهودٍ أكثر قِدَماً. وكان هو رجلَ القبيلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتجسيداً لعالم مقدَّس شبه مُرْعِب عثرتُ على آثاره أحياناً عند عرَّافينا «الأتروريِّين». وقد كان يسير على الدوام حاسرَ الرأس، وهذا ما أثار انتقاد الناس إيَّاي على فعله؛ وكانت قدماه الخشنتان تستغنيان عن الخُفّ. وفي الأيَّام العاديّة كانت ملابسه لا تكاد تتميَّز عن ملابس المتسوِّلين الهرمين، أو عن ملابس المؤاكرين الوقورين المقرفصين في الشمس. وكان يُقال عنه إنَّه ساحر، وكان القرويُّون يحاولون تجنُّب نظرته. إلاَّ أنَّه كان يملك سلطاناً غريباً على الحيوانات. وقد رأيت رأسَه العجوز يتقدَّم بحذرٍ ولطفٍ من وكر حيَّات وأصابعه المعروقةَ تقوم بنوعٍ من الرقص في وجه عِظاية. وكان يقودني لمراقبة السماء في ليالي الصيفَ من فوق تلَّةٍ جرداء. وكنت أغفي في ثلم مُتْعَباً من عدِّ النيازك. وكان يظلُّ جالساً مرفوعَ الرأس دائراً بشكلٍ خفيّ مع النجوم. ولا بدّ أنَّه قد عرف مناهج «فيلولاوس» [فيلسوف وفلكيّ إغريقيّ] و«هيپرك» [فلكيّ ورياضيّ إغريقيّ]، ومنهج «أريستارك الساموسيّ» [نحْويّ وناقد إغريقيّ] الذي فضّلتُه على سواه فيما بعدُ، إلَّا أنَّ هذه التنبُّؤات لم تكن تهمّه قطّ. فقد كانت النجوم عنده نقاطاً ملتهبة، أشياء مثل الحجارة والحشرات البطيئة التي كان يستخلص منها الفأل أيضاً بوصفها أجزاء مكوِّنة لعالمٍ سحريّ يشتمل بالتساوي على مشيئة الآلهة وتأثير الشياطين والنصيب المخصّص للناس. ولقد صنع زِيجَ مولدي. وجاءني ذات ليلة فَهزَّني ليوقظني ويبشّرني بملك الدنيا بالاقتضاب الراعد الذي كان سيستخدمه للتنبُّؤ بغلّةٍ وفيرة على مسامع رجال المزرعة. ثمَّ ذهب وقد راوده الشكّ فأحضر قبساً من نار قضبان الكرمة التي كان يبقيها مشتعلة لتدفئتنا في الساعات الباردة

وقرّبه من يدي وقرأ في الرّاحة الكثيفة للطفل ذي الأعوام الأحد عشر ما لست أدري من تطابق مع الخطوط المسطورة في السماء. فلقد كان العالم عنده مؤلَّفاً من كتلة واحدة؛ وكانت اليد تؤكِّد ما تقوله النجوم. وكان اضطرابي لخبره أقلّ ممَّا يمكن تصوُّره: كلّ طفل يتوقَّع كلّ شيء. وأظنّ أنَّه نسي بعد ذلك نبوءته في تلك اللامبالاة التي ترافق تقدُّم العمر بالأحداث الحاضرة والآتية. وقد عُثر عليه ذات صباح في غابة الكستناء عند أطراف المِلكيّة وقد برد جثمانه ونهشته الكواسر. ولقد حاول قبل موته أن يُعلِّمني فنّه. ولكن بلا جدوى: فقد كان فضولي الطبيعي يقفز على الفور إلى النتائج من غير إرهاق النفس بالتفاصيل المعقَّدة التي ينفر منها العلم بعض النفور. إلّا أنَّ الميل إلى بعض التجارب الخطرة ظلَّ يراودني قليلاً.

وكان أبي «أيليوس آفر أدريانوس» رجلاً مُفعماً بالفضائل. وقد انقضت حياته في إدارات فاشلة؛ فلم يكن لصوته يوماً حسابٌ في «مجلس الشيوخ». وخلافاً لما يجري في العادة فإنَّ حكمه «إفريقيا» لم يكن قد أغناه. وفي مُسْتَلْحَقَتنا الإسبانيّة في «إيتاليكا» كان يُرهق نفسه في فضّ النزاعات المحلّيّة. وكان بلا طموح ولا فرح، وقد انتهى به الأمر، مثلُه مثلُ كثير من الناس الذين يتضاءلون أكثر فأكثر من سنةٍ إلى سنة، إلى الدأب دأباً جنونيّاً على الأمور الصغيرة التي قَصرَ نفسَه عليها. وقد عرفت أنا أيضاً إغراءات الدقّة والتدقيق المشرِّفة هذه. فقد كانت التجربة قد نمَّت في أبي شكّاً في الناس عجيباً حشرني فيه وأنا بعدُ صبيّ. ولو أنَّه شهد انتصاراتي لما كانت بهرته قيد شعرة؛ فقد كان الغرور العائلي من القوّة بحيث تستحيل الموافقة على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استطاعتي أن أُضيف إليه شيئاً. وكنت في الثانية عشرة عندما فارقنا هذا الرجل المُرهَق. وأقامت أمّي في ترمُّلٍ متقشِّفٍ مدى الحياة؛ ولم أرها قطّ منذ اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى «روما» بناءً على دعوة الوصيّ عليّ. وإنّي لأحتفظ من وجهها المستطيل، وجهِ المرأة الإسبانيّة المطبوعِ بعذوبةٍ فيها بعض السوداويّة، بذكرى يعزِّزها تمثالها الشمعيّ النصفيّ فوق جدار الأجداد. وكانت تملك من بنات «قادش» قدمين صغيرتيْن في خُفَّيْن ضيِّقيْن، ومن راقصات تلك المنطقة كانت هذه السيِّدة المَهيبة التي لا غبار عليها تملك هزّ الرِدْفَيْن.

غالباً ما فكَّرت في الخطأ الذي نرتكبه عندما نفترض أنَّ إنساناً أو أسرةً يشاركان بالضرورة في أفكار العصر الذي هما فيه، أو في الأحداث التي تجري فيه. فلقد كان انعكاس المكائد الرومانيّة على ذويّ ضئيلاً جدّاً في ملاذِهم الإسباني، على الرغم من أنَّ جدِّي كان قد استضاف «غلبا» [حاكم «إسبانيا» في عهد «نيرون» ثمَّ إمبراطور روما من بعده] ليلةً واحدةً في عهد التمرُّد على «نيرون». فقد كانت الأسرة تعيش على ذكرى شخصٍ يُدعى «فابيوس أدريانوس» كان قد أحرقه القرطاجيُّون حيّاً أثناء حصار «أوتيك»، وذكرى «فابيوس» آخر هو جندي عاثر الحظِّ تبع «ميتريدات» [سلطان شرقي حاول طرد «روما» من آسيا] على طرقات آسيا الصغرى، وهما بطلان غامضان من أبطال محفوظات تاريخ المآثر الخاصّة. وكان أبي يجهل كلّ شيء تقريباً عن كتّاب ذلك الزمان: فقد كان «لوكان» و«سنيكّا» غريبيْن عنه بالرغم من كونهما من أصلٍ إسباني مثلنا. وكان عمّ أبي، «أيليوس»، يحصر قراءاته ـ بالرغم من أنّه مثقّف ـ في أشهر المؤلِّفين

الذين عاشوا في عصر «أوغسطس» [أحد أباطرة «روما»]. وكان هذا الاحتقار للطُرُز المعاصرة يجنّبهما كثيراً من أخطاء الذوق؛ وكانا يدينان له بتجنّب كلّ عجرفة. وكانت الهلّينيّة والشرق مجهولين أو منظوراً إليهما من بعيد بتقطيبة صارمة من الحاجبين؛ ولم يكن هناك على ما أعتقد تمثال إغريقي جيّد واحد في شبه الجزيرة كلّها. وكان الاقتصاد يساير الغنى؛ نوع من الحياة الريفيّة بأبّهة شبه باذخة. وكانت أختي «پولين» رصينةً صامتةً مقطّبةً، وقد تزوّجت شابّةً من رجلٍ عجوز. وكانت الاستقامة مطلوبة بشدّة، غير أنّ القوم كانوا قساة مع العبيد. ولم يكن بأحد فضولٌ إلى شيء؛ وكان كلُّ واحدٍ يراقب الآخر في مجرى تفكيره بكلّ ما يليق بمواطنٍ في «روما». وكان مقدّراً لي أن أُتلف كلّ هذا القَدْر من الفضائل، إن تكنْ هذه فضائل حقّاً.

يقضي الوهم الرسمي بأن يُولد الإمبراطور الروماني في «روما»، غير أنّي وُلَدتُ في «إيتاليكا»؛ ولهذا البلد الجافّ، الخصب مع ذلك، جمعت وراكمت كثيراً من مناطق الدنيا. وفي الوهم حسنات: فهو يؤكّد أنّ قرارات الفكر والإرادة تتحكّم بالظروف. ومكان الولادة الحقيقيّ هو الذي يوجّه فيه المرء للمرّة الأولى نظرة ذكيّة إلى ذاته: لقد كانت أوطاني الأولى كتباً. وبدرجة أدنى مدارس. ومدارس «إسبانيا» كانت قد تأثّرت بما في الأقاليم من أوقات فراغ. وكانت مدرسة «تيرانتيوس سكوروس» تعلّم بشكلٍ تافه أعمال الفلاسفة والشعراء، إلّا أنّها لم تكن تُحسن كثيراً التهيئة لصروف الوجود البشريّ: كان المعلّمون يمارسون على التلاميذ طغياناً أَحْمَرُ خجلاً لو فرضته على الناس؛ وكان كلّ واحدٍ منهم، وقد تقوقع في حدود

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معـرفته الضيِّقـة، يزدري زمـلاءه الذين كـانت معـرفتهم بشيءٍ آخـر تعادل في ضيقها معرفته. وكـان هؤلاء المتحذلقـون يُبحُّون من جـرَّاء المهـاترات الكـلاميّة. وقـد عوَّدتني الخصـومات بشـأن حقّ التصدّر، والمكائد، والنمائم، ما كان ينبغي أن ألقاه فيما بعد في كـلٍّ المجتمعات التي عشت فيها، وقد انضافت إليه قسوة الطفـولة. ولقـد أحببت مع ذلك بعض معلِّميَّ، وهذه العلاقات الغريبة في حميميَّتها، الغريبـة في اصطفائها، القائمة بين المعلِّم والتلميـذ، وحوريَّـات البحر المغنّيـات من الأعـماق بصوتٍ خـافتٍ مـرتعشٍ يكشفـ لـك للمـرَّة الأولى عن رائعة أو يزيح النقاب عن فكرةٍ جديـدة. وبعدُ فليس هـو «ألسيبياد» [قائد وسياسي إغريقي كـان من أحبّ تلاميـذ «سقراط» إلى نفســه]، أكبرَ الغُواة بل «سقراط».

وإن طرائق النحاة والبلاغيّين قد تكون أقـلّ غرابـةً ممّا ظننت يـوم كنت خـاضعًا لهـا. فالنحـو بما فيـه من خلطٍ بين القـاعـدة المنـطقيّـة والاستعمال الكيفي يوحي إلى العقل الفتيّ بشعورٍ مسبّق بما ستقدِّمه إليه فيما بعد قواعد السلوك البشريّ، والقانون أو الأخلاق، وجميع المناهـج التي قنّن فيها الإنسان تجربته الغريزيّة. وأمَّا تمرينات البلاغة التي كنّـا فيهـا على التـوالي «قورش» [ملك فـارسي (٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق.م.) وهو ابن «دارا» الأوّل] و«تيـميـستــوكْــل» [رجــل دولــة أثـيني (٥٢٥ ـ ٤٦٠ ق.م.) انتصر في البحـر انتصاراً بـاهـراً عـلى «كـزيـركيس»]، و«أوكتافيوس» و«مارك أنطونيو» [وهما من كبار الأباطرة الرومـان]، فقد كـانت تُسْكِـرني؛ وكنت أحسّ أنِّي «پـروتيـه» [إلـه إغـريقي]. ولقـد علَّمتني أن أَنْفُـذَ على التـوالي إلى فكر كـلِّ إنسان، وأن أدرك أنَّ كـلَّ

واحدٍ يقرِّر ويحيا ويموت تبعاً لقوانينه الخاصّة. وكان لقراءة الشعراء آثارٌ أشدُّ إرباكاً أيضاً: فلست واثقاً من أنَّ اكتشاف الحبّ هو بالضرورة ألذّ من اكتشاف الشعر. ولقد غيَّرني هذا: فالتدرُّب على الموت لن يُدخلني عالماً آخر أبعدَ كثيراً ممّا يفعل غَسَق وصفه «ڤرجيل». وقد فضّلت فيها بعد فظاظةَ «أنّيوس» [شاعر لاتيني] القريبة جدّاً من أصول العِرق المقدَّسة، أو مرارة «لوكريس» [شاعر لاتيني] العلميّة، أو فضَّلت على سهولة «هوميروس» السخيّة شُحَّ «هزيود» [شاعر إغريقي] المتواضع. وتذوَّقت على الأخصّ أعقد الشعراء وأَغْمَضَهم، أولئك الذين يُكْرِهون فكري على أصعب الرياضة، وأَحْدَثَهم وأَقْدَمَهم، أولئك الذين يشقُّون لي طُرُقاً جديدةً كلّ الجِدّة أو يساعدونني على العثور على سُبُلٍ مفقودة. غير أنّي كنت في ذلكَ العهد أحبّ على الأخصّ في الفنّ الشعري ما يقع فوراً تحت المعنى، معدن «هوراس» [شاعر لاتيني] المصقول، و«أوڤيد» [شاعر لاتيني] وطراوة لحمه. ولقد أقنطني «سكوروس» وهو يؤكِّد لي أنّي لن أكون أبداً سوى شاعر من أتفه الشعراء: فقد كانت تنقصني الموهبة والمواظبة. وظننت طويلاً أنّه قد أخطأ: فعندي في مكانٍ ما بحراسة القفل والمفتاح مجلَّدان من أبيات الغزل حاكيتُ في معظمها «كتول» [شاعر لاتيني من المجدِّدين]. إلّا أنّي أصبحت قليل الاهتمام بأن يكون ما أنتجتُ كريماً أو لا.

إنّي سأبقى إلى النهاية عارفاً بفضل «سكوروس» في دفعي فتىً إلى دراسة اليونانيّة. فقد كنت لاأزال طفلاً عندما جرَّبت للمرّة الأولى أن أخطّ بالقلم هذه الحروف الخاصّة بألفباء مجهولة: كان اغترابي الكبير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد بدأ وبدأت معه الرحلات الكبيرة وإحساس بالخيار يضارع الحبّ في طوعيّته وعدم إرادته. ولقد أحببت هذه اللغة لرشاقة جسمها الكامل الهيئة، ولغناها بالمفردات التي يتأكّد في كلّ كلمة منها الاتّصال المباشر المتنوّع بالحقائق، ولأنَّ كلَّ ما قاله الناس بأفضل الطرق قد قيل باليونانيّة. وهناك، وأنا أعرف ذلك، لغات أخرى: إنّها متحجّرة أو هي في طريقها إلى الولادة. ولقد أراني كهنة مصريّون رموزهم القديمة، وهي علامات أكثر ممّا هي كلمات، بل جهود قديمة جدّاً لتصنيف العالم والأشياء، وكلامٌ رَمْسيٌّ لعِرقٍ ميت. وفي أثناء الحرب اليهوديّة شرح لي الحاخام «يوشع» حرفيّاً بعض النصوص المكتوبة بهذه اللغة الخاصّة بالمتعصّبين المهووسين بربّهم إلى حدٍّ إهمال ما هو بشري. ولقد أَلِفت في الجيش لغة المعاونين «القلطيّين»؛ وأتذكّر بشكلٍ خاصّ بعض الأغاني... غير أنَّ قيمة الكلام الخاصّ بالبرابرة [كان قدماء اليونان والرومان يطلقون هذه الصفة على الشعوب التي ليست منهم] هي أكثر ما تكون في المخزونات التي يشكّلها للكلام الإنساني، وفي كلِّ ما سوف يعبّر عنه ولا ريب في المستقبل. وعلى العكس من ذلك فإنَّ اليونانيّة تملك سلفاً وراء ظهرها كنوزها من التجربة، وتجربة الإنسان وتجربة «الدولة». ومن الطغاة «الأيونيّين» إلى غوغائيّي «أثينا»، ومن تقشّف أمثال «أجيزيلاس» [ملك «إسبرطة» (٤٠٠ ـ ٣٦٠ ق.م.)] الخالص إلى تجاوزات أمثال «دينيس» [ملك «سرقسطة» الطاغية (٤٣٠ ـ ٣٦٧ ق.م.) أو أمثال «ديمتريوس» [ملك «مقدونيا» (٢٩٤ ـ ٢٨٨ ق.م.)]، ومن خيانة «ديمارات» [ملك «اسبرطة» (٥٢٠ ـ ٤٩١ ق.م.)] إلى أمانة

«فيلوپـومين» [قـائد حـربي وسياسي إغـريقي]، فإنَّ كـلّ ما يستـطيع واحدنا محاولته لإيذاء نظرائه أو لخدمتهم كان قد صنعـه، على الأقـلّ مـرّة واحـدة، شخص إغـريقيّ. وقـل الشيء نفســه عن خيـاراتنــا الشخصيَّة من احتقار الأعـراف والتقاليـد إلى المثاليَّـة، ومن شكوكيَّـة «پـيرّون» إلى أحلام «فيثـاغورس» المقـدّسة، فـإنَّ مـواقف رفضنـا أو مـوافقتنا قـد حصلت؛ ولعيوبنـا وفضائلنـا نماذج إغـريقيَّة. وليس مـا يعـدِل جمال نقش لاتيني نَـذْريّ أو جنـائـزي: فهـذه الكلمات القليلة المحفـورة على الحجـر تختصر بجلالٍ مُبْهَم كـلّ ما يحتـاج النـاس إلى معرفته عنّـا. ولقد أدرت شؤون الإمـبراطوريّـة بالـلاتينيّة؛ وسيكـون شـاهد قـبري منقوشـاً بالـلاتينيّة عـلى جدران ضريحي عند ضفَّة نهر «التيبر»، غير أنّي سأكون قد فكّرت وعشت باليونانيّة.

كنت في الســادسة عشرة؛ وكنت عـائـداً من فـترة تـدريب بكنف «الفيلق السابع» المُعَسْكِر في ذلك العهد في صميم جبال «البرانس» في منطقة موحشة من «إسبانيا» الواقعة من جهتنا، وهي تختلف تماماً عن القسم الجنوبي من شبه الجزيرة حيث كـبرت. وقد رأى الـوصيّ عليّ، «أسيليـوس أتيانـوس»، أنَّ من الخير أن يـوازن دراستي بهذه الأشهـر القليلة من خشــونـة العيش والصيــد المتوحّش. وبــوداعــة تــرك «سكـوروس» يقنعه بـإرسالي إلى «أثينـا» والإقامـة في كنف السفسطائي «إيـزيه»، وهـو رجل لامـع يتمتّـع عـلى الأخصّ بنبـوغٍ نـادر في فنّ الارتجـال. وسرعان مـا استحوذت «أثينـا» عـليّ؛ فـالتليمـذ الأخـرق قليلاً، المراهقُ ذو القلب النَفُور كان يتـذوّق للمرّة الأولى ذلـك الهواء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المنعش، وهاتيك الأحاديث السريعة، وتلك التسكّعات في الأمسيات الورديَّة الطويلة، وهذه السهولة التي لا مثيل لها في النقاش والشهوة. وتناوبت على إثارة اهتمامي الرياضيَّات والفنون فكانت لي في الحقلَيْن أبحاث متوازية؛ وأُتيحت لي الفرصة أيضاً لمتابعة درس في الطبّ كان يقوم به «ليوتيشيد». وكان من الممكن أن تروقني حِرفة الطبّ؛ فروحه لا يختلف اختلافاً أساسيًّاً والروح الذي حاولت به مزاولة حِرفتي إمبراطوراً. فقد شُغفت بهذا العلم القريب منّا بحيث يأبى أن يكون غير محدَّد المعالم، المعرَّض للولوع به وللخطأ، ولكنَّه مُصحَّح على الدوام من جرَّاء ملامسة المباشِر والعاري. وكان «ليوتيشيد» ينظر إلى الأمور من أكثر الوجهات إيجابيَّة: لقد أقام نظام جبر للكسور رائعاً. وكنّا نسير في المساء على شاطئ البحر: وكان هذا الرجل العظيم يصرف اهتمامه في بنية القواقع وتركُّب الأوحال البحريَّة. وكانت تنقصه وسائل الاختبار؛ وكان يتحسّر على المختبرات وقاعات التشريح في متحف «الإسكندريَّة» الذي كان يغشاه في شبابه، وعلى تصادم الآراء والتنافس العبقري بين الناس. وإذ كان ذا فكر جافّ فقد علّمني تفضيل الأشياء على الكلمات، والحذر من الصِيَغ، والانصراف إلى الملاحظة بدل إصدار الأحكام. لقد علّمني هذا «الإغريقي» المتشدّد الطريقة والمنهاج.

على الرغم من الأساطير التي تحيط بي فإنّي قليلاً ما أحببت الشباب، وشبابي أقلّ من أيّ شباب آخر. فإذا نُظِر إلى الشباب لذاته فإنَّ هذا العهد الذي طالما مُجِّد يبدو لي في معظم الأحيان حِقبةً من حِقَب الوجود أُسيء تهذيبها، فترةً ضعيفةً عديمةَ الشكلِ متهرّبةً هشّةً.

وغنيٌّ عن البيان أنّي وجدت لهذه القاعدة عدداً قليلاً من الاستثناءات الشهيَّة، اثنان أو ثلاثة منها رائعة، ولا شكّ أنَّك ستكون أنت يا «مارك» أصفاها. وأمَّا فيما يخصّني فقد كنت وأنا في العشرين ما أنا عليه اليوم تقريباً، غير أنّي كنت بلا صلابة. ولم يكن كلّ ما فيّ سيّئاً، بيد أنَّه كان من الممكن أن يكون: لقد كان الحَسَنُ أو الأفضل يدعم الأسوأ. وإنّي لا أفكّر من غير أن أَحْمَرَّ خجلاً من جهلي بالدنيا التي كنت أظنّ أنّي أعرفها لنزقي ولنوع من الطموح الطائش والجَشَع الفظّ. هل ينبغي الاعتراف بهذا؟ ففي كنف الحياة الدراسيَّة الجادَّة في «أثينا» حيث تجد جميع اللّذات مكانها بحدود، كنت أتحسَّر، لا على «روما» بالذات، وإنّما على جوّ المكان الذي تجري فيه وتتوقَّف باستمرار شؤون الدنيا، وتَحْدُث جلبةُ البكرات ولوالب التحويل والنقل في عجلة السلطة. فقد كان حكم «دوميسيان» يشرف على نهايته؛ وأخذ ابن عمّي «تراجان» الذي تكلّل بالمجد على جَبَهات «الران» يتحوّل إلى زعيم شعبي؛ وكان صبر العشيرة الإسبانيَّة قد نَفَد. وكان الريف الإغريقي المحبوب الغالي يبدو بالمقارنة بعالم العمل المباشر هذا وكأنّه يغفو في غبارٍ من الأفكار التي سبق استنشاقها؛ وكانت سلبيّة الهلّينيّين السياسيَّة تظهر لي وكأنَّها شكلٌ حقير من التنازل. ولم تكن شهوتي إلى القوّة، وإلى المال الذي غالباً ما هو عندنا أوّل أشكالها، وإلى المجد، هذا الاسم الجميل المفعم بالشغف الذي نطلقه على تحرّقنا إلى سماع الناس يتحدّثون عنّا، لم تكن شهوتي إلى هذا كلّه بالتي تُنْكَر. وكان يمازجها بشكل مبهم شعور بأنّ «روما»، وهي أقلّ شأناً في عدد من الأمور، تحوز قصب السبق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بألفتها للشؤون الكبرى التي تطلبها من مواطنيها، أو على الأقلّ ممّن هم في مرتبة المشيخة أو الفروسيّة منهم. وبلغ بي الأمر أن كنت أشعر بأنَّ أكثر المناقشات ابتذالاً بشأن استيراد القمح من «مصر» كان يعلِّمني عن «الدولة» أكثر ممَّا علّمتني «جمهورية» أفلاطون بأسرها. وقد سبق لي قبل بضع سنوات، أنا الفتى الروماني المتمرِّس بالانضباط العسكري، أن اعتقدت بأنّي أعرف جنود «ليونيداس» [أحد ملوك «إسبرطة»] ورياضيّي «پندار» [شاعر غنائي إغريقي] خيراً ممّا يعرفهم أساتذتي. وغادرت «أثينا» الجافَّة الشقراء إلى المدينة التي يصارع فيها الناس المتلفّعون بطيالسهم السميكة ريح شباط (فبراير) والتي يخلو فيها الترف والمجون من السحر، بيد أنّها المدينة التي تغيّر أدنى القرارات المتّخذة فيها جزءاً من العالم، والتي ينبغي فيها على ريفيّ جشِع شابّ - وإن لم يكن كثير الخَرَق - يعتقد باديء الأمر أنّه لا يستجيب لغير مطامح فظّة، أن يفقد هذه المطامح شيئاً فشيئاً بتحقيقها، وأن يتعلّم قياس نفسه بالناس والأشياء، وأن يقود ويحكم، وأن، وقد يكون هذا أقلّ تفاهة في نهاية الأمر، يخدم.

ولم يكن كلّ شيء جميلاً في ذلك المجيء إلى سدّة الحكم الذي حقّقته طبقة متوسّطة فاضلة قامت لمصلحة تغيير وشيك في النظام: فقد كانت الأمانة السياسيَّة تكسب الجولة بفعل خُدَع مُريبة تقريباً. وكان «مجلس الشيوخ» يُتمّ، بوضعه الإدارة تدريجاً في أيدي محميّه، حصار «دوميسيان» المبهور الأنفاس؛ وربّما لم يكن الرجال الجُدد الذين كانت تربطني بهم جميع أواصر القُربى يختلفون كثيراً عن الذين سيحلّون محلّهم؛ ولقد كانوا على الأخصّ أقلّ تدنّساً بأدران الحكم.

وكان أبناء العمّ وأبناء الإخوة والأخوات القادمون من الريف يتوقّعون أقلّ ما يتوقّعون مناصب ثانويّة؛ ومع ذلك فقد كان يُطلب منهم أن يملأوها بنزاهة. وكان لي منصبي: فقد عُيِّنت قاضياً في المحكمة المكلَّفة الفصل في نزاعات الإرث. ومن ذلك المنصب المتواضع كنت أشاهد آخر أدوار المبارزة حتّى الموت بين «دوميسيان» و«روما». وكانت أرض «المدينة» قد مادت تحت قَدَمَيِ الإمبراطور الذي لم يكن ليتماسك بغير أحكام الإعدام التي عجّلت نهايته؛ فقد تواطأ الجيش بأسره على موته. وفهمت النزر اليسير عن هذه المسايفة التي تحمل الموت أكثر ممّا تحمله مسايفة الحَلْبة؛ وكنت أكتفي بأن أظهر للطاغية الفاقد الرجاء الاحتقارَ المشوب بشيء من الصلف الذي يبديه أحد تلامذة الفلاسفة. وإذا كان «أتيانوس» قد أحسن نصحي فقد زاولت حِرفتي من غير أن أهتمّ كثيراً بالسياسة.

ولقد اختلف عام العمل هذا قليلاً عن أعوام الدرس: فقد كنت أجهل الحقوق؛ وكان من حسن حظّي أن يكون زميلي في المحكمة «نيراتيوس بريسكوس» الذي وافق على تعليمي وظلّ حتّى يوم موته مستشاري القانوني وصديقي. وكان ينتمي إلى ذلك النمط من ذوي العقول النادرة جدّاً الذين، على الرغم من امتلاكهم عميق الامتلاك اختصاصاً ما ورؤيتهم إيّاه من الداخل، ومن زاوية لا يبلغها الغرباء عنه، يحافظون على معنى قيمته النسبيّة في تسلسل الأشياء، ويقيسونه بعبارات إنسانيّة. ومع انغماسه أكثر من أيّ واحد من معاصريه في رتابة القانون فإنّه لم يكن ليتردّد قطّ بإزاء التجديدات المفيدة. وبفضله تمكّنت فيما بعدُ من إجراء بعض الإصلاحات. وفرضتْ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعمال أخرى نفسها؛ وكنت قد احتفظت بلهجتي الريفيَّة؛ وأثار أوّل خطاب ألقيته في المحكمة ضَحِكاً صاخباً. واستغللت مخالطاتي الممثّلين، وكانت مصدر خزي لأسرتي: فكانت دروس البَيان أشهراً طِوالاً أشقّ مهامّي، ولكن أعذبها، وأكثر أسرار حياتي تكتّماً. وحتّى المجون نفسه أضحى دراسةً طَوال تلك السنوات الصعبة: فقد كنت أحاول محاكاة نبرة شبيبة «روما» المُترفة؛ ولم يُقدَّر لي قطّ أن أنجح تماماً. وبسبب الجُبن الخاصّ بهذا العمر الذي تُنْفَق فيه الجسارة البدنيَّة في مكان آخر، لم أكن لأجرؤ إلاَّ بعض الجرأة على الوثوق بنفسي؛ وعلى أمل التشبّه بالآخرين فإنّي كنت أُضْعِف طبيعتي أو أشحذها.

كان الناس يحبّونني بعض الحبّ. ولم يكونوا يملكون على كلّ حال أيّ سبب لحبّي. وبعض الملامح، الشغف بالفنون مثلاً، التي لم تكن تُلْمَح في تلميذ «أثينا»، والتي كانت ستُقْبَل تقريباً بشكلٍ عام من الإمبراطور، كانت تزعج فيّ الضابطَ والقاضيَ في المراحل الأولى من السلطة. وكانت هلّينيّتي مدعاة للابتسام بقدر ما كنت أَعْرِضها أو أُخْفيها على التوالي بشكلٍ أخرق. وفي «مجلس الشيوخ» كنت أُدعى الطالب الإغريقي. وكنت قد بدأت أحصل على أسطورتي، أي هذا الانعكاس المترائي العجيب المصنوع نصفه من أعمالنا والنصف الثاني ممّا يأخذه العاميّ منها. وكان بعض المتقاضين الوقحين يرسلون إليّ زوجاتهم إذا علموا بمغامرتي مع زوجة أحد الشيوخ، وأبناءهم عندما كنت أظهر بحمق شغفي بأحد ممثّلي المسرحيّات الإيمائيّة. وكانت هناك لذّة في إرباك أولئك الناس بلامبالاتي. وكان أدعاهم للرثاء

أولئك الذين يحدّثونني في الأدب لإدخال البهجة على نفسي. وقد أعانتني التقنيَّة التي كان عليّ تعهُّدها في تلك المناصب التافهة على تنظيم مجالسي الإمبراطوريَّة فيما بعد. وعلى أن أكون مِلْكَاً لكلّ شخص خلال المدّة القصيرة التي تستغرقها الجلسة، وعلى التخلّص من الناس بحيث لا يبقى للّحظة التي أنا فيها إلاَّ هذا المصرفيّ أو ذاك المحارب القديم أو تلك الأرملة؛ وعلى إيلاء هؤلاء الناس الشديدي التنوّع، على الرغم من كونهم محدودين طبيعيّاً بالحدود الضيّقة الخاصّة بجنسٍ من الأجناس، الاهتمامَ المهذّب الذي يوليه المرء شخصه في أفضل اللحظات، ورؤيتهم شبه حتميَّة يستغلّون هذه السهولة للانتفاخ انتفاخ ضفدع الخرافة المعهود؛ وفي النهاية على تخصيص هنيهات للتفكير بجِدٍّ في مشكلتهم أو في شأنهم. وكان ذلك كما في عيادة الطبيب. فقد كنت أستلّ منهم أحقاداً قديمة مُخيفة، جُذاماً من الأكاذيب. أزواج ضدّ زوجات، وآباء ضدّ أبناء، وأنسباء ضدّ جميع الناس: ولم يصمد قطّ القليل من الاحترام الذي أكنّه شخصيّاً لمؤسّسة العائلة.

لست أحتقر النَّاس. ولو فعلتُ لما ملكتُ أيّ حقّ، ولا أيّ سبب، في أن أحاول حكمهم. فأنا أعرف أنَّه لا فائدة منهم تُرتجى، وأنَّهم جهلة جشعون قلقون كفيلون تقريباً بعمل أيّ شيء لكي ينجحوا، لكي ينتزعوا التقدير، حتّى في عيون أنفسهم، أو لكي يتجنّبوا بكلّ بساطةٍ الألمَ. وأنا أعلم أنّي مثلهم، في بعض الأوقات على الأقلّ، أو أنّه كان من الممكن أن أكون مثلهم. والفوارق التي ألحظها بيني وبين الآخر ليست بذات شأن فتُحسب في عمليّة الجمع الأخيرة. وعليه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فإنّني أجهد في أن يكون موقفي بعيداً عن تعالي الفيلسوف البارد بقدر ما هو بعيد عن صَلَف القيصر. ولا يخلو أكمد الناس من وميض: هذا القاتل يعزف على الناي عزفاً جميلاً؛ وقد يكون هذا المُناظر الذي يمزّق بسوطه ظهور العبيد ابناً طيِّباً؛ وقد يشاطرني هذا الأبله آخر قطعة من خبزه. وهناك قلّة من الناس لا يمكن تعليمهم شيئاً بشكل ملائم. وخطأنا الأكبر هو أنّنا نحاول الحصول من كلّ واحدٍ على حِدَته على الفضائل التي لا يملكها، ونُهْمِل تَعَهُّدَ التي يملكها. وسأطبّق هنا، بحثاً عن هذه الفضائل الجزئيَّة، ما قلته آنفاً بشهوة عن البحث عن الجمال. فلقد عرفت أشخاصاً أنبل منّي وأكمل بما لا يُقاس، مثل أبيك «أنطونين»؛ وخالطت عدداً كبيراً من الأبطال، وحتّى بعض الحكماء. وعثرت عند معظم الناس على قليل من الثبات في الخير، بيد أنّي لم أعثر على المزيد منه في الشرّ؛ وكان حذرهم، لامبالاتهم العدائيّة تقريباً، تستسلم بسرعة كبرى، وبخجل تقريباً، وتتحوّل بسهولة كبرى تقريباً إلى عرفانٍ بالجميل، إلى احترام، قليلاً ما يدومان ولا ريب؛ حتّى أنانيّتهم كان في الوسع قَلْبُها لغايات مفيدة. وإنّي لأعجب دائماً أن يكون قد كرهني عددٌ قليلٌ جدّاً من الناس؛ فلم أعرف غير عدّوين أو ثلاثة أعداء شرسين كنتُ، كما هي الحال على الدوام، مسؤولاً جزئيّاً عن وجودهم. وأحبّني بعضهم: ولقد أعطاني هؤلاء أكثر بكثير ممّا كان لي الحقّ في المطالبة به أو حتّى في رجائه منهم، أي موتهم، وأحياناً حياتهم. والإله الذي يحملونه في أنفسهم غالباً ما يتجلّى عندما يموتون.

وليس هناك سوى نقطة أشعر فيها بأنّني أسمى من عامّة الناس:

فأنا بشكل عامّ أكثر حريّةً وأشدّ خضوعاً ممّا يجرؤون على أن يكونـوا. فجميعهم تقـريباً يُنكـرون أيضاً حـرّيّتهم الحقّ وعبوديّتهم الحقيقيَّـة. إنّهم يلعنـون قيودهم؛ ويبـدو أنّهم يفاخـرون بها في بعض الأحيـان. وتنقضي أوقاتهم من جهة أخرى في استباحات لا طائل تحتها؛ فهم لا يعـرفون كيف يجـدلون لأنفسهـم أخفّ الأنيـار. وأمّا أنـا فقد نَشَـدْتُ الحرّيّة أكثر من نُشداني السلطان، ولم أَنْشُـدِ السلطان إلّا لأنّه يُسـاعد. جزئيّاً على الحرّيَّة. ولم تكن الفلسفة الخاصّة بـالإنسان الحـرّ هي التي تثير اهتمامي (كـان جميع الـذين يحاولـونها مثار ضجـري) وإنّما السعي وراء تقنيّةٍ معيَّنة: كنت أصبـو إلى العثور عـلى مفصلٍ يصـل حرّيّتنـا بالقَدَر ويرفد عنده الانضباطُ الطبيعةَ بدلاً من كبح جمـاحها. وعليـك أن تفهم جيّداً أنّ المقصود هنا ليس الإرادة الصلبة التي يتحلّى بها ذوو العـزم، والتي تبالـغ في تقديـر سلطانها، ولا هو مـا لستُ أعـرف من خِيار أو رفض مطلق يحقِّر شروط عالمنـا الحافـل المستمرّ المصنـوع من أشياء وأجساد. فقد حلمتُ بإذعـانٍ أكثر خفـاءً أو بإرادة حسنـة أشدّ ليناً. وكانت الحياة عندي جواداً يتكيَّف المرء مع حركاته، ولكن بعـد أن يكـون قد بـذل قصارى جهـده في ترويضـه. وإذا كان كـلّ شيء بـوجه الإجمـال قراراً يتّخـذه الفكر، ولكنّـه قرار متمهّـل، قرار خفيّ يستتبع أيضاً انخـراط الجسد، فقـد كنت أجهد درجـةً درجةً في بلوغ هذه الحالة من الحرّيّة، أو من الخضوع، حالة تكاد تكون خالصةً من الشوائب. وكانت الرياضة تعينني على ذلك؛ ولم تكن الجدليّة لتضرّني فيه. وقد سعيتُ باديءَ الأمر إلى الحرّيّة التي يتمتّـع بها المـرء في أوقات فراغه، إلى مجرّد لحظاتٍ حـرّة. ولكلّ حيـاة حسنةِ التنـظيمِ لحظاتُهـا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحرّة، ولا يُحسن العيش من لا يعرف كيف يستحقّها. ولقد ذهبتُ إلى أبعد من ذلك؛ فتخيَّلت حرّيَّة قِوامها التزامن، حرّيّة يكون ممكناً معها حدوث عملينْ أو حالتينْ في وقت واحد؛ فتعلّمت مثلاً، محتذياً في ذلك «قيصر»، أن أُملي عدّة نصوص دَفعةً واحدة، وأن أتحدّث وأنا مستمّر في القراءة. وابتدعتُ نمط عيش يمكن أن تُنْجَز معه أفدح المهمّات إنجازاً كاملاً من غير أن أتفرّغ لها بكلّيتي. والحقّ أنّي اجترأتُ أحياناً على تكليف نفسي أن أحذف حتّى مفهوم التعب البدني. وكنت أروِّض نفسي في أحيانٍ أخرى على ممارسة حرّيّة قِوامها التناوب، فكان ينبغي أن تظلّ الانفعالات والأفكار والأعمال قابلة في كلّ لحظة للانقطاع ثمَّ المعاودة؛ وكان اليقين بإمكان طردها أو استدعائها من جديد، وكأنَّها عبيد، يحرمها كلّ حظٍّ بالطغيان وينتزع منّي كلّ إحساس بالعبوديّة. بل لقد فعلت خيراً من هذا: كنت أرتّب نهاراً بكامله حول فكرة أثيرة لم أكن أتخلّى عنها قطّ؛ وكان كلّ ما يُحتمل أن يثبِّط عزمي أو يُلهيني عنها، كالمشاريع أو الأعمال التي لها شأن آخر، أو الأقوال التي لا طائل تحتها، أو آلاف الأحداث اليوميّة، كان كلّ ذلك ينشدّ إليها انشدادَ زخارف العناقيد إلى جذع العمود في بناء. وكنت على العكس من ذلك أَقْسِم في أحيان أخرى إلى ما لانهاية: كانت كلّ فكرة وكلّ عمل ينحطمان بالنسبة إليّ ويتقطّعان إلى عددٍ كبيرٍ جدّاً من الأفكار والأعمال أصغر حجماً وأيسر حَمْلاً باليد. وكانت القرارات التي يصعب اتّخاذها تتفتّت إلى غبارٍ من القرارات الضئيلة فأتبنّاها واحداً واحداً، ويُفضي أحدها إلى الآخر فتغدو على هذا سهلة لا محيص عنها.

بيد أنّ حرّيّة الموافقة، وهي أَعْوَصُها جميعاً، كانت بالذات هي التي رُضْتُ نفسي عليها كأصرم ما تكون الرياضة. فكنت أتطلّع إلى الحالة التي أنا فيها؛ ولو أنّي رضيت بأن أرى في خضوعي خلال أعوام تبعيّتي رياضةً نافعة لكان فَقَدَ ما فيه من مرارة، بل ومن شَيْن. وكنت أختار ما أملك مُكْرِهاً نفسي فقط على امتلاكه برمّته وتذوّقه بأفضل الطرق الممكنة. وكانت أشدّ الأعمال كآبةً تتمّ بلا عناء ما إن يروقني الشغف بها. وكنت إذا نفرت من شيء جعلته موضوعاً للدرس؛ وجهدتُ بمهارة في أن أستخلص منه داعياً إلى الفرح. وإذا واجهني موقف غير متوقَّع أو شبه ميئوس منه، كمين أو عاصفة في بحر، جَدَدْتُ، وقد اتّخذتُ جميع التدابير المتعلّقة بالآخرين، في الاحتفال بالصدفة والتمتّع بما تحمله إليّ ممّا لا أتوقّعه فيندمج الكمين أو العاصفة بلا عُسْر في مخطّطاتي أو في خيالاتي. وقد رأيت ـ حتّى في أسوأ الكوارث ـ اللّحظة التي كان فيها الإنهاك ينتزع من الكارثة نصيباً من فظاعتها، والتي كنت أجعل فيها تلك الكارثة حليفاً لي وأنا أرضى بأن أَقْبَل بها. وإذا ما قُدِّر لي يوماً أن أُبتلى بالعذاب، ولا ريب في أنّ المرض سيتكفّل بإخضاعي لذلك، فلست واثقاً بأن أحصل طويلاً من نفسي على لامبالاة كالتي اشتهر بها واحدٌ مثل «ترازياس»، غير أنّي سأجد على الأقلّ وسيلة للاستسلام إلى صراخي. وعلى هذه الشاكلة، بمزيج من التحفّظ والجراءة، من الخضوع والتمرّد المدبَّرَيْن بعناية، من التطلّب المتطرِّف والتنازلات الحذِرة، انتهى بي الأمر إلى القبول بما أنا عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لـو أنَّ تلك الحياة في «رومـا» استمرّت طـويلاً لكـانت بـالتـأكيـد أغلظت قلبي أو أفسـدتني أو أنهكتني. ولقـد أنقـذني الـرجـوع إلى الجيش. ولهـذا أيضاً تلويثـاته، ولكنّهـا أكثر بسـاطة. فـالانطلاق إلى الجيش كـان يعني السفر؛ وكنت أنـطلق بنشوة. وقـد رُقّيتُ إلى رتبـة ضابط للفيلق الثاني ـ فيلق المتطوّعين ـ فقضيت على ضفاف الـدانوب الأعلى بضعة شهور من خريف ماطر، ولم يكنْ لي من رفيق غير كتاب ظهر حديثاً لـ «بلوتارك». ونُقلتُ في تشرين الثاني (نوفمبر) إلى الفيلق المقـدوني الخامس المُعَسْكِـر في ذلـك الحـين (ولايـزال إلى الآن) عنـد مصبّ النهـر نفسه عـلى«مـوييزيـا لسفـلى». ومنعني الثلج الذي كـان يسدّ الطرقات من السفر برّاً. وأبحرت إلى «پولا»؛ وبعد لأْي تمكّنت في أثناء الطريق من القيام بزيـارة ثانيـة إلى «أثينا» التي كـان عليّ فيـما بعد أن أعيش فيها طويلاً. وما كان نبأ اغتيال «دوميسيـانوس»، وقـد أُعْلِن بعد وصولي إلى المعسكر ببضعة أيّام، ليُدهش أحـداً، بل غَمَـر الجميـع بالسرور. ولم يلبث «نـرڤا» أن تبنّى «تـراجان»؛ وجعلت سنٌّ الأمير الجديد الطاعنةُ من هذه الخلافة مسألة أشهر على أبعـد تقديـر: إنَّ سياسية الفتوح التي كان معروفاً أنَّ ابن عمّي يـزجّ فيها «رومـا»، وعمليات حشد العسكر التي أخذت تتمّ، والتشـدّد التدريجي في أمـر الانضبـاط، قد أبقت الجيش في حـالة من الحميّـة والترقّب. وكـانت تلك الفيالق الدانوبيّة تعمـل بمثل دقّـة آلة حـربيّة حـديثة التشحيم؛

فلم تكن تشبه في شيء الحامياتِ الكسلى التي عرفتها في «إسبانيا»؛ وهناك نقطة أهمّ من ذلك، وهي أنَّ اهتمام الجيش كان قد توقّف عن التركّز على مشادّات القصور لينتقل إلى القضايا الخارجيّة الخاصّة بالإمبراطوريّة؛ ولم يَعُدْ عسكرنا مُختَزَلين إلى عصابة من حملة الفؤوس المستعدّين للهتاف لأيٍّ كان أو لذبحه. وكان أذكى الضبّاط يجهدون لاستيضاح خطّة عامّة في هذه التنظيمات الجديدة التي كانوا يُسهمون فيها، ولاستشفاف المستقبل برمّته، لا مستقبلهم هم فقط. وكانوا من ناحية أخرى يتبادلون بشأن هذه الأحداث في مرحلة نموّها الأولى عدداً لا بأس به من التعليقات المضحكة، وكان عدد لا بأس به من الخطط الستراتيجيّة التي تتساوى في الاعتباطيّة والخَرَق يلطّخ في المساء سطوح موائدهم. وكانت الروح الوطنيّة الرومانيّة، والاعتقاد الذي لا يتزعزع بمحاسن سيطرتنا، ورسالة «روما» في حكم الشعوب تتخذ عند هؤلاء المحترفين صِيَغاً فجّة لم أكن بعد قد أَلِفتُها. وعلى الجبهات، حيث يُفترض بالضبط أن تكون المهارة مطلوبة لاستمالة بعض زعماء القبائل الرحّل، كان الجندي يَحْجِب بالكليّة رجل الدولة؛ وكانت أعمال السخرة والمصادرات العينيّة تتيح الفرص لتجاوزات ما كانت لتفاجئ أحداً. وبفضل انقسامات البرابرة المستمرّة كان الوضع بالإجمال في الشمال الشرقي أشدّ ما يمكن أن يكون ملاءمة: حتى إنّني أشكّ في أن تكون الحروب التي تَلَتْ قد حسّنت فيه شيّئاً. وكانت حوادث الحدود تسبّب لنا خسائر قليلة جدّاً لم تكن مقلِقة إلاّ لتواصُل حدوثها؛ ولنعترف أنَّ ذلك الحَذَر الدائم كان يفيد على الأقلّ في شحذ الروح العسكريّة. ومع ذلك فقد كنت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقتنعاً أنَّ كلفةً أقلّ حجماً تُضاف إلى ممارسة نشاط ذهني أكبر كانا كافيْين لإخضاع بعض الزعماء واستمالة الباقين، وقرّرت أن أصرف جهدي على الأخصّ لهذه المهمّة الأخيرة التي كان يُهملها الجميع.

كان يدفعني إلى ذلك استمرائي التغرُّب: كنت أحبّ مخالطة البرابرة. ويُعَدّ هذا البلد الكبير القائم بين مصبّات نهر «الدانوب» ومصبّات نهر «بوريستين»، أي المثلّث الذي قطعت على الأقلّ ضلعين من ضلوعه، من أعجب مناطق الدنيا، على الأقلّ بالنسبة إلينا نحن الناس الذين وُلدوا على شواطئ «البحر الداخلي» واعتادوا مناظر الجنوب الجرداء الجافّة والتلال وأشباه الجُزُر. وقد حدث لي أن تعبّدت هنالك للإلهة «أرض» كما نتعبّد هنا للإلهة «روما»، ولست أتحدّث عن إلهة الحصاد «سيريس» بقدر ما أتحدّث عن إلهةٍ أقدم زمناً، سابقة حتّى على اكتشاف مواسم الحصاد. فتُربتنا الإغريقيّة أو اللاتينيّة التي تقوم في كلّ مكان على هيكل من الصخور تتمتّع بالأناقة الصارخة التي يتمتّع بها جسد الذكر. وأمّا الأرض «السيتية» فكانت تتمتّع بالوفرة القليلة الثقل التي يتمتّع بها جسد امرأة مستلقية. فلم يكن السهل ينتهي إلاَّ عند السماء. ولم يكن إعجابي ينقضي بحضور معجزة الأنهار: فلم تكن تلك الأرض الشاسعة الخالية في نظرهم سوى منحدَر وسرير. وأمّا أنهارنا فمُقتضَبة، ولا يشعر المرء إزاءها أبداً بأنَّه بعيد عن الينابيع. بيْد أنَّ المسيل الضخم الذي كان ينتهي هنا بمصبّات متشابكة كان يجحف أوحال قارّة مجهولة وجليد مناطق غير قابلة للسكنى. ولا يُخلي برد هضبة مرتفعة في «إسبانيا» مكانه لأيٍّ برد آخر، إلّا إنَّها كانت المرّة الأولى أجد فيها نفسي وجهاً لوجه مع

الشتاء الحقيقيّ الذي ليس في بلادنا سوى إطلالات تتفاوت اقتضاباً، بينما يُقيم هنالك مُدَداً طويلة من الشهور، وكلّما أوغل المرء شمالاً خاله لا يتحوّل وظنّ أنْ لا بداية له ولا نهاية. وعشيّة وصولي إلى المعسكر كان «الدانوب» طريقاً عريضاً من الجليد الأحمر، ثمّ من الجليد الأزرق، وقد خدّده عمل التيّارات من داخل أخاديدَ تماثل في عمقها الأخاديد التي تتركها الدبّابات. وكنّا نتّقي البرد بالفِراء. وكان حضور هذا العدوّ المُبْهَم شبه المجرَّد يُحْدِث حماسةً لا توصف وشعوراً عارماً بالنشاط والطاقة. فقد كان المرء يستبسل للحفاظ على دفئه استبسالَه في مكان آخر للإبقاء على شجاعته. وفي بعض الأيّام كان الثلج يمحو فوق السهْب جميع الخطط التي سبق أن كانت قليلة الوضوح؛ وكان المرء يخبّ على جواده في عالم مصنوع من فضاء خالص وذرّات صافية. وكان الجَمْدُ يُضفي على أشدّ الأشياء ابتذالاً وأكثرها رخاوة شفافيّة، وفي الوقت نفسه، صلابة سماويّة. وكلّ قصبة مكسورة كانت تغدو نايــاً من البلّور. وكان «أسار»، دليلي القوقازي، يشقّ الجليد عند الغسق ليسقي جيادنا. ومن جهة ثانية كانت هذه البهائم نقطة من أنفع نقاط اتّصالنا بالبرابرة: كان نوعٌ من الصداقة يقوم على المساومات، وعلى المناقشات التي لا تنتهي، وعلى الاحترام المتبادَل بسبب مأثرة من مآثر الفروسيّة. وفي المساء كانت أضواء المعسكر تنير القفزاتِ الرائعة التي يقوم بها الراقصون ذوو القامات الهزيلة وأساورَهم الذهبيّةَ الغريبة.

وكثيراً ما حدث لي في الربيع، عندما كان ذوبان الثلوج يسمح بالتوغّل أبعد فأبعد في مناطق الداخل، أن أدرت ظهري إلى الأفق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجنوبيّ الذي كان يحتوي البحار والجُزُر المعروفة، وإلى الأفق الغربي الذي كانت تغرب في جهة منه الشمسُ فوق «روما»، وأن فكّرت في التوغل داخل تلك السهوب أو أبعد من خواصر الجبال في «القوقاز»، باتّجاه الشمال أو اتّجاه «آسيا القصوى». وأيّة مناخات أو غابة مليئة بالوحوش، وأيّة أجناس بشريّة كنت سأكتشف، بل أيّة إمبراطوريّات تجهلنا كما نجهلها، أو تعرفنا أكثر ما تعرفنا بفضل بعض السلع التي نقلتها أجيال طويلة من التجّار، وهي بالنسبة إليهم أندر من فلفل الهند وحبّة العنبر الخاصّة بالمناطق البلطيقيّة بالنسبة إلينا؟ وفي «أوديسوس» أهداني أحد التجّار، وكان قد عاد من سفرة استغرقت عدّة أعوام، حجراً أخضر نصف شفّاف، وهو على ما يبدو مادّة مقدّسة في مملكة شاسعة كان هذا الرجلُ المستغرقُ في الاحتباس داخل منفعته قد حاذى على الأقلّ أطرافها من غير أن يلاحظ عاداتِها ولا آلهتها. وكان لذلك الفصّ العجيب تأثيرُ حجرٍ هبط من السماء نَيْزكاً من عالم آخر. ومازلنا لا نعرف الكثير عن تشكّل الأرض. ولست أفهم كيف يستسلم الناس لهذا الجهل. وإنّي لأغبط من سينجحون في اجتياز المراحل الإغريقيّة ـ وعددها مئتان وخمسون ألفاً ـ التي قام بحسابها «ايراتوستين» بدقّة، والتي يُعيدنا قطعها إلى نقطة انطلاقنا. وكنت أتخيّلني وقد اتّخذت القرار البسيط بالاستمرار في المسير إلى أمام فوق المَدْرَج الذي سبق أن كان يحلّ محلّ طُرُقِنا. وكنت أتسلّى بهذه الفكرة... أن يكون المرء وحيداً، بلا أملاك ولا امتيازات، بلا أيّ مربح من مرابح ثقافة من الثقافات، وأن يخاطر بنفسه وسط أناس جُدُدٍ وبين صُدَفٍ أبكار... وغنيّ عن البيان أنّ

ذلـك لم يكن إلّا حُلُماً، بل أكـثر الأحـلام اقتضـابـاً. فلم يكن لتلك الحريّة التي ابتـدعتُها وجـودٌ إلّا عن بُعْد. وكنت سـأعيد سريعـاً جدّاً خَلْقَ كلّ ما سبق أن عَدَلْتُ عنه. وأكثر من ذلك فإنيّ ما كنت لأكـون أينما حَلَلْتُ سوى رومانيّ غائب. وكان نوع من الحبل السُّرِّي يربطني بـ «المـدينـة» من جـديـد. وربّمـا كنت لاأزال أحسّ نفسي في تلك الحقبة، في رتبة ضابط الفيلق، أشدّ ارتباطاً بالإمبراطوريّة ممّا أنا عليه بوصفي إمبراطوراً، لمثل السبب الذي يجعل عـظْم المِعْصم أقلّ حـرّيّة من الـدماغ. ومـع ذلك فقـد حلمت هذا الحلم المخيف الـذي كـان سيرتعد له أجدادنا المحتبسون في أرضهم التي يتألّف منها «الـلاتيوم»، وكوني حضنتُه لحظة يجعلني مختلفاً عنهم إلى الأبد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كـان «تراجـان» على رأس الجيـوش في «جرمـانيـا السُّفـلى»؛ وقـد أرسلني جيش «الـدانـوب» لتقـديم تهـانيـه إلى وريث الإمـبراطـوريّـة الجديد. وكنت على مسيرة ثلاثة أيّام من «كولـونيا»، في صميم «بـلاد الغال»، عندما أُعلن في المرحلة المسائيّة مـوت «نرڤـا». وداعبتني رغبة في أن أتقدّم البريد الإمبراطوري وأنقل بنفسي لابن عمّي خبر اعتلائه سـدّة الحكم. وأطلقت العنان لحصـاني وقطعت الـطريق من غـير أن أتـوقّف إلاّ في «تريف» حيث كـان نسيبي «سرڤيانـوس» يقيم بوصفـه حـاكماً. وكـان رأس «سرڤيانـوس» الضعيف مُفعماً بـأبخـرة الأحـلام الإمبراطوريّة. وقد حرص هذا الرجل المـراوغ الذي كـان يسعى إلى إيـذائي، أو على الأقـلّ إلى منعي من أن أروق في عيـون الآخـرين، عـلى أن يتقدّمني بـإرسال بـريده الخـاصّ إلى «تراجـان». وما هي إلاّ ساعتان حتّى هوجمتُ عند مخاضة نهر؛ وجرح مهاجمـونا معـاوني وقتلوا جوادينا. وقد نجحنا مع ذلك في القبض على أحد مهاجمينا، وهو عبدٌ قديم من عبيد نسيبي فاعترف بكلّ شيء. وكان على «سرڤيانوس» أن يُدرك أنّه ليس من السهل منع رجل صمّم على مواصلة طريقه إلاّ إذا بلغت الأمور حدّ القتل، وذلك ما كان ينكص أمامه جُبنه. وكان عليّ أن أسير على قدميّ حوالي اثني عشر ميلاً قبل أن ألتقي فـلاّحاً بـاعني حصانه. ووصلت مساء ذلك اليوم بالذات إلى «كولونيا» سابقاً بعـدّة أطوال بريد زوج أختي. وذاع أمر تلك المغامرة الفريدة. وتمّ استقبال

الجيش إيّـاي بشكل أفضـل بكثير. واستبقـاني الإمبراطـور إلى قـربـه بصفتي قائد «الفيلق الثاني المُخْلِص».

لقد تلقّى نبأ اعتلائه سدّة الحكم باستهـانة تـدعو إلى الإعجـاب. فقـد كـان ينتـظر ذلـك من مـدّة طـويلة؛ ولم يغـيّر الأمـر شيئـاً من مشاريعه. وبقي كما كان عـلى الدوام، وكـما سيبقى حتّى موتـه، أحد زعماء الجيش؛ إلاّ أن فضيلته تمثّلت في أنّـه كان قـد اكتسب، بفضل مفهـوم عسكـريّ محض عن الانضبـاط، فكـرةً عـمّا هـو النـظام في «الدولة». وحول هذه الفكرة كان كلّ شيء يتنظّم، في البدايات عـلى الأقلّ، حتّى خططه الحربيّة ومشاريعه للفتوح. ولقد كان إمبراطـوراً - جنديّاً، ولكنّه لم يكن قطّ جنديّـاً - إمبراطـوراً. ولم يغيّر شيئـاً من نمط حيـاته؛ وكـان تواضعـه يستغني عن التكلّف استغناءه عن العجـرفة. وفيما كان الحبور يغمر الجيش كان هو يتلقّى مسؤولياته وكأنّها جزء من عمل يقوم به في جميع الأيّام ويُبدي رضاه لخلصائه ببساطة.

كان ما أوحيت إليه به من ثقة ضئيلاً جدّاً. فلقد كـان ابن عمّي، ويكبرني بأربع وعشرين سنة، وكان أحد الأوصياء عليّ منذ وفاة أبي. وكـان يقوم بـواجباتـه العائليّـة بجِدّيّـة أهل الأقـاليم؛ فقد كـان على استعداد لبذل المستحيل لترقيتي إذا كنت أهـلاً لها، ولمعـاملتي بصرامة لا يُعـامل بهـا أيّ شخص آخر إذا لم تثبت كفـايتي. وكان يُنكـر عـليّ حماقات الشباب إنكاراً لم يكن بلا مسوِّغ بشكل مطلق، وإن كان إنكـاراً غـير معروف البتّـة إلاّ في كنف الأسرة؛ ومن جهة ثـانية كـانت ديوني تثير استنكاره أكثر بكثير ممّا تثيره انحـرافاتي. وكـانت مخايـل أخرى فيّ تزعجه، فـإذ كـان قليـل الثقافـة فقد كـان يكنّ للفلاسفـة والمتعلّمين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

احتراماً مؤثّراً، بيد أن احترام المرء من بعيد كبارَ الفلاسفة شيء، وأن يكون إلى جانبه معاون شاب كثير الاحتكاك بالأدب شيء آخر. وإذ لم يكن يعلم أينٍ تكمن مبادئي أو ضوابط التوقيف عندي أو كوابحي فقد افترض أنّي محروم منها، وأنّي لا أملك الوسائل للجم أهوائي. إلّا أنّي لم أرتكب على الأقلّ غلطة إهمال واجب الخدمة. وكانت سُمعتي ضابطاً تُطَمْئِنه، بيد أنّي لم أكن في نظره سوى ضابط شاب واعدٍ بمستقبلٍ عريض وجدير بالمراقبة عن كَثَب.

وما هي إلّا أن كدت أضيع بسبب حادث من حوادث الحياة الخصوصيّة. فلقد استهواني وجهٌ حَسَنٌ فعلِقتُ بشغف شاباً كان قد استرعى انتباه الإمبراطور أيضاً. وكانت المغامرة خطِرة ومُتَذَوَّقة على هذا الأساس. وقد وشى بنا إلى الإمبراطور «تراجان» شخص يُدعى «غالوس»، وكان سكرتيره الذي كلّف نفسه واجب تفصيل ديوني له منذ أمدٍ طويل. وبلغ حنقه أقصاه؛ وكانت لحظة رديئة لا بدّ من قضائها. وبذل بعض الأصدقاء، ومن بينهم «آسيليوس أتيانوس»، قصارى جهدهم لمنعه من المعاندة في حقدٍ لا يخلو من بعض السخرية. وانتهى به الأمر إلى الاستجابة لإلحاحهم، ولم تلبث تلك المصالحة التي لم يكن فيها كثير من الصدق من كلا الجانبين في البداية أن أصبحت أشدّ إذلالاً لي من مواقف الغضب. وأعترف بأنّي احتفظت لِـ «غالوس» هذا بمقتٍ لا يُضاهى. ومضت عدّة أعوام اتّهم بعدها بالتزوير في نصوص عامّة فملأني شعورٌ بالتلذّذ وأنا أراني يُثأر لي.

بدأت الحملة الأولى على «الداسيين» في العام التالي. ولقد كنت

على الدوام معارضاً للحزب لقائل بالحرب يدفعني إلى ذلك دافعا المزاج والسياسة، غير أنّي كنت أكون أكثر أو أقلّ من إنسان إنْ لم تُثمِلْني مشاريع «تراجان» الكبرى تلك. وإذا نُظر إلى سنوات الحرب تلك بالجملة وعن بُعْد فإنها تُعَدُّ من سنوات عمري السعيدة. وكانت بدايتها قاسية أو هي بدت لي كذلك. ولم أكن أشغل بادئ الأمر غير مناصب ثانويّة إذ لم أكن قد حصلت بعدُ على عطف «تراجان» الشامل. إلاّ أنّني كنت أعرف البلاد؛ وكنت أعلم أنّي ذو نفع. ومن غير أن أدري تقريباً، وشتاء بعد شتاء، وعَسْكرة بعد عَسْكرة، ومعركة بعد معركة، شعرت بالاعتراضات على سياسة الإمبراطور تتعاظم في نفسي؛ ولم يكن عليّ في تلك الحقبة، ولا كان من حقّي، أن أجهر بتلك الاعتراضات؛ وما كان أحد ليُصغي إليّ على أيّة حال. وإذ كنت مُبْعداً تقريباً، إلى المرتبة الخامسة أو العاشرة، فقد أعانني ذلك على معرفة عسكري بشكل أفضل؛ فقد كنت أقاسمهم حياتهم أكثر فأكثر. وكنت لاأزال أملك بعض الحرّيّة في العمل، أو بالحري نوعاً من الانفصال عن العمل بالذات، وهذا أمر يصعب على المرء السماح به لنفسه حين يبلغ مركز السلطة ويكون قد جاوز الثلاثين من عمره. وكنت أملك امتيازات خاصّة بي: تذوُّقي لهذا البلد الخشن، وشغفي بجميع الأشكال الطوعيّة، المتقطِّعة على كلٍّ حال، من العَوَز والتقشُّف. وربّما كنت الوحيد من الضبّاط الشباب في عدم الأسف على «روما». وكانت سنوات القتال تُبْرِز وسائلي ومواردي إلى النور كلّما طالت في الوحل والثلج.

لقد عشت هناك حقبةً كاملة من الحميّة الخارقة يعود الفضل في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قسم منها إلى تأثير زمرة صغيرة من المعاونين كانت تلتفّ حولي وقد جلبت معها آلهة عجيبة من أعماق حاميات «آسيا». وغزت كياني عبادة «ميترا»، [إله فارسي قد يكون مستوحىً من سميّه الهندي، وهو إله قطعان الثيران]، وكانت أقلّ انتشاراً في ذلك الوقت منها منذ حملاتنا على «البارتيين»، مدّة من الزمن بمتطلّبات زهدها الشاقّ الذي كان يعيد بقسوة شدّ قوس الإرادة، وبهاجس الموت والحديد والدم الذي كان يرتفع بالفظاظة المبتذَلة المحيطة بحياتنا جنوداً إلى مرتبة تفسير العالم. وما كان لشيء أن يكون أكثر تعارضاً مع النظرات التي كنت قد بدأت أكوّنها عن الحرب، بيد أنَّ هذه الطقوس البربريّة التي تخلق بين المنضوين تحتها روابطَ تشدّهم إلى الحياة وإلى الموت كانت تدغدغ أخصّ الأحلام التي يحلمها شابّ لا يطيق صبراً على الحاضر ولا يوقن بالمستقبل ويفتح قلبه من جرّاء ذلك على الآلهة. وقد لُقّنت الأسرار في برجٍ من الخشب والقصب على ضفّة «الدانوب»، وقام بخدمة القدّاس «مارسيوس تربو» رفيقي في السلاح. وأذكر أنَّ ثقل الثور المُحْتَضَر كاد يخلع الأرضيّة الخشبيّة ذات الفتحة التي كنت أقف تحتها لتلقّي الرشاش الدامي. ولقد فكّرت فيما بعد في الأخطار التي يمكن أن يُلْحِقها هذا النوع من الجمعيات شبه السرّيّة بالدولة تحت حكم أميرٍ ضعيف، وانتهى بي الأمر إلى مناهضتها، بيد أنّي أعترف بأنّها كانت تُضفي على مريديها قوّة شبه إلهيّة في مواجهة عدوّهم. وكان كلُّ واحدٍ منّا يظنّ أنّه يُفلت من حدود ظرفه الإنساني الضيّقة، ويشعر بأنّه هو نفسه والخصم في آنٍ معاً وقد تماهى بالإله الذي لا يُعرف تماماً ما إذا كان سيموت على شكل بهيمة أو سيَقْتُل على شكل

إنسـان. ولم تكن تلك الأحـلام العجيبـة التي تُفـزعني اليـومَ أحيـانـاً لتختلف على كلّ حـالٍ تمامَ الاختـلاف عن نظريـات «هيراقليـطس» [فيلسوف إغريقي (٥٧٦ ـ ٤٨٠ ق.م.) كـان يعتزل النـاس، ولُقِّب بـ «الغامض» لغموض أفكـاره] عن تماهي القـوس والهدف. وكـانت تسـاعدني في ذلـك الحين عـلى تحمُّـل الحيـاة. وكـان النصر والهـزيمـة يمتزجان ويختلطان مثل أشعّة مختلفة صادرة عن نفس النهـار المشمس. فـأولئـك المشـاة «الـداسيّـون» الـذين كنت أسحقهم تحت سنـابـك حصـاني، وأولئك الفـرسان «السرمـاتيّون» القتـلى فيما بَعْـدُ في التحام كانت فيه مطايانا الهائجـة تتعاضّ في النحـور، كنت أستسهل طعنهم حين أتماهى وإيّاهم. فما كان جسدي المرميّ فوق سـاحة القتـال وقد عُـرِّي من ملابسـه ليختلف كثيراً عن أجسـادهم. ولكانت الصـدمـة التي تتركها طعنة السيف الأخيرة هي إيّـاها. وأبـوح لك هنـا بأفكـارٍ غريبة تُسْلَك في عِـداد أخفى أفكار حيـاتي، وبنشوة عجيبـة لم يحدث قطّ أن استعدتُها تماماً بهذه الصورة.

إنَّ عدداً من المآثر التي ربّما لم تكن لتُلْحَظ لـو صدرت عن جنـدي بسيط أكسبتني صيتـاً في «روما» ونـوعـاً من المجـد في الجيش. إلاَّ أنَّ معظم مآثري المزعومة لم تكن سوى تبجُّحات غير ذات جدوى؛ وإنّي لأكتشف فيها اليوم، بشيء من الخجل ممزوج بـالحماسـة شبه المقـدّسة التي حدّثت عنها قبلاً، رغبتي الخسيسةَ في أن أروق بأيّ ثمن في أعين النـاس وأَلفِت أنظارهم إليّ. وعـلى هذا اجـتزت على صهـوة حصاني ذات يوم من أيّام الخريف «الدانوب» المنتفخ بميـاه الأمطار وأنـا أحمل عتاد الجنود «الباتاڤيين» الثقيل. وأمام هذه الواقعة الحربيّة، إذا صحَّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنَّها كـذلـك، فـإنَّ مـطيّتي كـانت تستحقّ من التقـديـر أكثر ممّـا استحققتُ. بيد أنَّ هذه الحقبة من الحماقـات البطوليّـة علّمتني التمييز بين مختلف مظاهر الشجاعة. وسوف يكون المظهـر الذي يـروقني على الدوام امتلاكُـه بارداً كـالثلج ولامباليـاً وخالصـاً من كلّ إثـارة ماديّـة وسلبيّاً مثل لامبالاة إلّه. ولا أدّعي أنّي حصلت عليـه يومـاً. ولم يكن التزوير الذي استخدمتُه فيما بَعْدُ سوى عدم اكتراث وقـح بالحيـاة في الأيّام الرديئـة، وشعورٍ بـالواجب كنت متعلّقـاً به في الأيّـام الطيّبـة. ولكن سرعـان ما كـان الصلف أو الشعور بـالواجب، مهـما قلّت مدّة دوام الخطر، يُخليان المكـان لحمّى البسالـة، وهي نوع من هـزّة جِماع بـين الإنسان وقَـدَره. وكان هـذا الإقدام الثمِـل يدوم بـلا انقطاع في العمر الذي كنت فيه آنذاك. إنّ كائناً نشوان بالحياة لا يتوقّع الموت؛ فهو غير موجود؛ وذلك الكائن يُنكره بكلّ حـركة من حـركاتـه. وإذا تلقّاه فالأرجح أن يكون ذلك من غير علمه؛ فليس بالنسبـة إليه غـير صـدمة أو تشنّـج. وإنّي لأبتسم بمرارة وأنـا أقول لنفسي إنّني أخصّص فكرةً من فكرتين لنهايتي الشخصيّة، كما لو أنّه كان يتحتّم هذا القـدر من الطرائق لإلزام هذا الجسد البالي بقبول ما لا مفرّ منه. وكان الأمر بعكس ذلـك في تلك الحقبة، فـإنّ شابـاً ربّما خسر كثيـراً لـو لم يعش بضع سنوات أخرى كان يجازف كلّ يوم بمستقبله بمرح.

وقد يكون من السهل بناء ما سبق، وكأنّه قصّة جندي مثقّف يريد أن تُغْفَر له كتبه. بيد أنَّ هـذه المناظـير المبسّطة خـاطئة. فلقـد كانت شخصيات شتّى تتحكّم بداخـلي على التـوالي، ولم تكن أيّ منها تحكم طويلاً، غير أنَّ الطاغية الساقط كان سرعان ما يستعيد السلطة. وقـد

آويت على هذا النحو الضابط الشديد التدقيق، المتعصِّب للانضباط، ولكن المشاطر بمرحٍ رجالَه شَظَف الحرب؛ والسوداويّ الحالم بالآلهة؛ والعاشق المستعدّ للإتيان بأي شيء من أجل لحظة دُوَار؛ والمعاون الشاب المتعالي الذي ينسحب إلى خيمته فيدرس خرائطه على نور مصباح ولا يُخفي عن أصدقائه احتقاره للطريقة التي يسير بها العالم؛ ورجل الدولة المقبل. ولكنْ لا ننسينَّ كذلك المُتعاطفَ الدنيء الذي كان يرضى، لكيلا يكدِّر أحداً، بالسُّكْر على المائدة الإمبراطوريّة؛ والفتى الذي يحسم جميع المسائل من علٍ بثقة تثير الضحك؛ والمتحدّثَ الساحر الطائش القادر على فَقْد صديق صدوق من أجل كلمة موفّقة؛ والجنديَ الذي يؤدّي بدقّة آليّة ما يُطلب منه من الأعمال الخسيسة التي يقوم بها المصارع في الحلبة. ولْنذكُرْ أيضاً ذلك الشخص الغائب الذي لا وجود له ولا اسم ولا مكان في التاريخ، ولكنَّه يتساوى مع الآخرين في إنّيته، وهو مجرَّد لعبة في يد الأشياء، وليس أكثر ولا أقلّ من جسد مسجّى على سرير المعسكر، مشغولٍ برائحةٍ أو بنفحة، متنبّهٍ بشكل مبهم إلى طنين نحلة. ورويداً رويداً يدخل ساحة العمل قادم جديد، مدير فرقة أو مخرج. وكنت أعرف أسماء ممثّليَّ؛ وأهيّىء لهم دخلات وخرجات مُستساغة؛ وأقصّ الحوارات التي لا طائل تحتها؛ وأتجنّب تدريجاً التأثيرات المتبَذَلة. وتعلّمت في النهاية ألاَّ أُفرِط في استخدام مناجاة النفس. وكانت فصول رواياتي تصقل عملي على المدى الطويل.

كان من الممكن أن تسبّب لي انتصاراتي العسكريّة عداوة رجل أقلّ شأناً من «تراجان». إلاَّ أنَّ الإقدام كان اللغة الوحيدة التي فهمها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الفور وذهبت كلماتها مباشرة إلى قلبه. وانتهى به الأمر إلى أن يرى فيّ ذاتاً ثانية، بل ابناً على وجه التقريب، وما كان أيّ شيء ممّا حدث فيما بَعْدُ ليفرّقنا تماماً. ومن جهتي فقد وُضعتْ جانباً بعضُ اعتراضاتي الوليدة على آرائه، بشكل مؤقّت على الأقلّ، ونُسِيَتْ بحضور العبقريّة الرائعة التي كان يُبديها في أعمال الحرب. ولقد أحببت على الدوام رؤية متخصّص كبير في أثناء عمله. وكان الإمبراطور فيما خصّه على قدرٍ لا مثيل له من المهارة وثقة اليد. وإذ عُيّنتُ على رأس «الفيلق المينرفي»، وهو أعظم الفيالق أمجاداً، فقد وُكِل إليّ أمر هدم آخر معاقل العدوّ في منطقة «أبواب الحديد». وبعد تطويق قلعة «سَرْميزيجيتوز» دخلتُ خلف الإمبراطور القاعة القائمة تحت الأرض حيث كان مستشارو الملك «ديسيبال» قد تناولوا السمّ في أثناء مأدبة أخيرة؛ ولقد عهد إليّ بإضرام النار في هذه الكومة الغريبة من الناس الموتى. وفي المساء نفسه وضع في إصبعي، عند أوعار ساحة القتال، الخاتم الماسيّ الذي انتقل إليه من «نرفا»، والذي كان قد أصبح على وجه التقريب أمارة على الخلافة في الحكم. ونمت مسروراً في تلك الليلة.

أَضْفَتْ شعبيّتي الناشئة على إقامتي الثانية في «روما» بعضاً من ذلك الشعور بالعزّة الذي كان عليّ أن استشعره من جديد فيما بَعْدُ خلال أعوام سعدي. وكان «تراجان» قد أعطاني مليونين من «السسترسات» أوسّع بها على الشعب، وهو مبلغ لم يكن كافياً بالطبع، لكنّني كنت مذّاك أدير شؤون ثروتي التي كانت عريضة، ولم تكن وساوس المال لتساورني قطّ. وكنت قد فقدت جزءاً كبيراً من خوفي الدنيء بأن أُكدِّر على الناس صفوهم. وقدّمت لي نَدْبة في الذقن ذريعةً بأن ألتحي لحية الفلاسفة الإغريق القصيرة. وطلبتُ في ملابسي بساطة بالغتُ فيها أكثر فأكثر في الحقبة الإمبراطوريَّة، فقد انقضى الزمن الذي كنت أزيِّن فيه مِعْصميَّ بالسلاسل الذهبيَّة وأتضمَّخ بالعطر، وقليلاً ما يهمّ أن تكون تلك البساطة قد غدت مسلكاً فيما بَعْدُ. واعتدت بالتدريج ذلك العَطَل لذاته، وذلك التضادّ، وقد أحببته فيما بَعْدُ، بين مجموعة من الأحجار الكريمة ويَدَيْ جامعها العاريتين. ولكي أبقى في الفصل الخاص بالزيّ فقد حدث لي حادث استُخلصتْ منه بعض الطوالع خلال العام الذي شغلت فيه منصب المحامي عن الشعب. فقد أضعت ذات يوم كان عليَّ أن أتكلّم فيه أمام الملأ في جوٍّ مُكْفَهِرّ مرعب معطفي الواقي من المطر المصنوع من الصوف الغاليّ السميك. وإذ اضطررت إلى إلقاء خطابي من تحت ثوب القضاة الفضفاض الذي كان الماء يتجمّع في ثنياته تجمُّعَه في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ميزاب فقد كنت أمرّر يدي باستمرار فوق جبيني لتبديد ماء المطر الذي كان يملأ عينيّ. ولأن يُصاب المرء بالزكام في «روما» فذاك أحد امتيازات الإمبراطور إذ من الممنوع عليه مهما يكن الجوّ أن يضيف شيئاً إلى الثوب الفضفاض. ولقد آمنتِ البائعة بالمفرّق القابعةُ على ناصية الطريق وآمن تاجر البطّيخ منذ ذلك اليوم بيُمن طالعي.

كثيراً ما يُحكى عن أحلام الشباب. وكثيراً ما تُنسى حساباتُه. وهي أيضاً أحلام لا تقلّ جنوناً عن غيرها. ولم أكن الوحيد لصنع بعضٍ منها في تلك الحقبة من الأعياد الرومانية: فقد كان الجيش برمّته يندفع في السباق إلى نيل آيات الشرف والتكريم. ودخلت بشيء من المرح ذلك الدور الذي يؤدّيه الطَموح والذي لم يحدث قطّ أن أدّيته عن اقتناع، ولا من غير أن أكون بحاجة إلى عونٍ دائم من مُلَقِّن. وقبلت بأن أؤدِّي بأحكم دقّة وظيفة القيِّم على أعمال مجلس الشيوخ المضجِّرة؛ وعرفت كيف أقدِّم جميع الخدمات النافعة. وكان أسلوب الإمبراطور الموجَز المثير لإعجاب الجيوش غير كافٍ في «روما»؛ وأقنعته الإمبراطورة ذات الأذواق الأدبيَّة القريبة من أذواقي بأن يدعني أصنع له خُطَبه. وكان هذا أوّل مساعي «پلوتينيا» الحميدة. ولقد نجحتُ في الأمر بقدر ما كنت معتاداً هذا النوع من المجاملات. وفي زمن بداياتي الصعبة كثيراً ما كنت أكتب لبعض الشيوخ الذين تنقصهم الأفكار أو صياغة العبارات خُطَباً كان ينتهي بهم الأمر إلى الاعتقاد بأنَّهم مُوَلِّفوها. وكنت أجد في العمل على هذا النحو من أجل «تراجان» لذّة تَعْدِل تماماً اللّذة التي كانت توفّرها لي تمرينات البلاغة التي كنت أقوم بها أيّام المراهقة؛ وحينما كنت أخلو

بنفسي في غرفتي فآخذ بتجربة أثر كلامي أمام مرآة، كنت أحسّ بأنّني إمبراطور. والحقّ أنّني كنت أتعلّم أن أكونه؛ وكانت جَراءاتٌ ما كنت لأظنّني قادراً عليها تغدو سهلة عندما يكون على غيري تحمُّل مسؤولياتها. وأصبح تفكير الإمبراطور البسيط، ولكن غير المعبَّر عنه، وبالتالي الغامض، مألوفاً لديَّ؛ وكنت أعتقد بأنّني أعرفه خيراً ممّا يعرفه هو نفسه. وكان يروق لي أن أُحاكي أسلوب الزعيم العسكري، وأن أسمعه في مجلس الشيوخ يتلفّظ بجُمَلٍ كانت تبدو لي نموذجيّة، وكنت مسؤولاً عنها. وكنت في أيّام أخرى يلزم فيها «تراجان» الغرفة، أُكلَّف أنا نفسي بقراءة هذه الخُطَب التي لم يكن حتّى يعلم بها، وكان إلقائي الذي لم يَعُدْ عليه من مأخذ مذّاك يعظِّم من شأن دروس الممثِّل التراجيدي «أولمپس».

وأتاحت لي تلك الأعمالُ شبه السرّيّة أن أكون صديق الإمبراطور الحميم، بل أن أحظى بثقته، بيد أنّ عدم الاستلطاف القديم ظلّ قائماً. وكان قد أخلى مكانه مؤقّتاً للسرور الذي يغمر أميراً شائخاً برؤية شابّ من دمه يبدأ حِرْفةً يتخيَّل، بشيء من السذاجة، أنّها ينبغي أن تُكمِل حِرفته هو. ولكن ربّما لم تكن تلك الحماسة لتبرز عالياً على ساحة القتال في «سَرميزيجيتوز» إلّا لأنّها ذرّت بقرنها من خلال عدد كبير من طبقاتِ الحَذَر المتراكبة. ومازلت أعتقد بوجود ما هو أكثر من العداوة المتعذّرٍ اقتلاعها والمبنيَّة على مشاجرات كانت تُسوّى بجهد جهيد، أو على اختلافات في الأمزجة، أو، بكلّ بساطة، على عادات ذهنيّة اعتادها رجل يطعن في السنّ. ولقد كان الإمبراطور يكره بالغريزة المرؤوسين الذين لا غنىً عنهم. وإلّا لأدرك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بشكل أفضل ذلك الخليط عندي من التفاني وعدم الانتظام في الخدمة؛ ولَكُنْتُ أبدو له شبه مُريب لفرط ما كنت بعيداً عن المآخذ من الوجهة الفنيَّة. وقد بدا ذلك للعيان عندما ظنّت الإمبراطورة أنها تساعدني على شقّ طريقي بتدبيرها زواجي من بنت ابن أخي «تراجان». فلقد عارض بعناد هذا المشروع مدَّعياً نقصاً عندي في الفضائل البيتيَّة وصغرَ سنِّ الصبيَّة المُفْرِط، بل ذهب إلى حدّ التذكير بالحكايات التي بَعْدُ بها العهد عن ديوني. وعاندتِ الأمبراطورة؛ وأصررتُ أنا نفسي؛ فلم تكن «سابين» في تلك السنِّ لتخلو من سحر. وكان هذا الزواج ـ الملطّف بغيابٍ شبه مستمرّ ـ بالنسبة إليَّ فيما بَعْدُ مصدراً لا يوصف لمواقف السخط والضجر، حتَّى إنّي لأجدُ مشقّة في تذكّر أنَّه كان انتصاراً لطَموح في الثامنة والعشرين من العمر.

كنت قد أصبحت من الأسرة أكثر من أيِّ وقت مضى؛ وكنت مُجبَراً تقريباً على العيش فيها. غير أنَّ كلَّ شيء في هذا المحيط كان يُعكِّر صفوي باستثناء وجه «پلوتينيا» الجميل. وكان الممثِّلون الثانويون الإسبان وأبناءُ العمِّ القاطنون في الأقاليم كُثُراً على المائدة الإمبراطوريّة، كما لقيتهم فيما بَعْدُ في حفلات العشاء التي كانت تقيمها زوجتي، خلال إقاماتي النادرة في «روما»، ولن أذهب إلى القول بأنِّي وجدتهم وقد طعنوا في السنّ لأنّ جميع هؤلاء الناس كانوا يبدون منذ ذلك العهد في المئة من العمر. وكانت تفوح منهم حكمة صفيقة ونوع من الحَذَر الزَّنِخ. ولقد انقضت حياةُ الإمبراطورِ كلُّها تقريباً في الجيش؛ وكانت معرفته بـ «روما» أضأل بكثير من معرفتي

بها. وكان يمارس ما لا يُضاهي من حُسْن الإرادة ليُحيط نفسه بخير ما تقدّمه له «المدينة»، أو بما قُدِّم له على أنَّه كذلك. وكانت الحاشية الرسميَّة تتألّف من رجال رائعين في حشمتهم وكرامتهم، وإنْ بثقافة قليلة الوزن وفلسفة فيها من التراخي ما يُؤخِّرها عن الوصول إلى عُمق الأشياء. إنّه لم يسبق لي قطّ أن تذوّقت كثيراً دماثة «پلين» [كاتب لاتيني متقعّر في استعمال أساليب البلاغة] المتكلّفة؛ وكان تصلُّب «تاسيت» [مؤرّخ لاتيني] الرفيع يبدو لي متضمِّناً نظرةً إلى العالم صادرةً عن جمهوريّ رجعيّ، نظرةً توقّف بها المسير عند زمن موت «قيصر». وأمَّا الحاشية غير الرسميَّة فكانت على قدرٍ من الخشونة المنفِّرة، الأمر الذي جنّبني مؤقّتاً أن أتعرّض معها لمخاطر جديدة. ومع ذلك فقد كنت أتصرّف مع جميع هؤلاء الناس المختلفي المشارب باللياقة التي لا بدّ منها. وكنت لبِقاً تجاه بعضهم، وليِّناً مع بعضهم الآخر. وسافلاً عند الاقتضاء، وحاذقاً وغير حاذق جدّاً. وكان تلوُّني ضرورياً؛ وكنت متعدِّداً عن تدبُّر، ومتذبذباً بحسب مقتضى الحال. وكنت أسير فوق الحبل المشدود. فلم تكن حاجتي تقف عند دروس الممثّل، بل كان عليّ تعلُّم دروس البهلوان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أُخِذ عليَّ في تلك الحقبة بضع عمليات زنى مع بعض النبيلات. وقد دامت اثنتان أو ثلاث من هذه العلاقات المنتقَدة كثيراً إلى بدايات إمبراطوريّتي تقريباً. وما كانت «روما» المتساهلة بعض الشيء تجاه المجون لتقدِّر قطّ كثير التقدير قضايا الغرام عند الذين يَحْكُمون. لقد عرف «مارك ـ أنطونيو» و«تيتوس» شيئاً منها. وكانت مغامراتي أكثر تواضعاً، غير أنّي لا أدرك جيّداً، تبعاً لتقاليدنا وأخلاقنا، كيف كان رجل طالما نفر من نساء البلاط وأرهقه الزواج سيتآلف بشكل آخر مع جماعة النساء المتنوِّعة. وكان أعدائي، وعلى رأسهم «سرڤيانوس» الكريه نسيبي العجوز الذي كانت السنوات الثلاثون التي يكبرني بها تسمح له بأن يجمع تجاهي بين عناية المربّي واهتمام الجاسوس، يزعمون بأنَّ نصيب الطموح والفضول في هذه الغراميّات أكبر من نصيب الحبّ نفسه، وأنَّ الحميميَّة مع الزوجات كانت تُدخلني رويداً رويداً في أسرار الأزواج السياسيّة، وأنَّ مسارَّات عشيقاتي كانت تعادل عندي تقارير الشرطة التي نعِمتُ بها فيما بَعْدُ. وحقيقي أنّ كلّ علاقة طويلة بعض الشيء، كانت تُنيلني بشكل لا مفرّ منه تقريباً صداقة زوج بدين أو نحيف، متبجّح أو خجول، وشبه أعمى على الدوام، إلاّ أنّي كنت عادة أجد في ذلك قليلاً من المتعة وأقلّ من ذلك من النفع. بل إنّه لينبغي أيضاً الاعتراف بأنّ بعض الحكايات المفضوحة التي كانت تقصّها عليَّ خليلاتي فوق المخدّة كانت تنتهي إلى

أن توقظ نفسي استلطافاً لأولئك الأزواج المهزوء بهم طويلًا والمفهومين من زوجاتهم قليلًا جدّاً. وكانت تلك العلاقات، الممتعة عندما تكون أولئك النساء حاذقات، تغدو مثيرة للانفعال عندما يكنَّ جميلات. وأخذتُ أدرس الفنون؛ وائتلفت مع التماثيل؛ وتعلّمت أن أُحْسِن فهم تمثال «ڤينوس» القائم في شبه جزيرة «كنيد» أو تمثال «ليدا» المرتجفة تحت وطأة البجعة. وكان ذلك عالَم «تيبول» [شاعر لاتيني (٤٧ ـ ١٥ ق.م.)]: سوداويّة ونشاط زائف بعض الشيء، ولكنَّه مُسْكِر مثل لحنٍ على الطريقة «الفريجيَّة»، وقُبُلات فوق سلالم بعيدة عن الأنظار، وأوشحة متطايرة فوق النهود، وانطلاقات عند الفجر، وأكاليل من الزهر متروكة على الأعتاب.

كنت أجهل كلّ شيء تقريباً عن أولئك النسوة؛ وكان الجزء الذي يحدّثني به عن حياتهنّ يقبع بين بابيْن مواربيْن؛ وكان حبّهنّ الذي لا يفتأْنَ يحكين عنه يبدو لي أحياناً بمثل خفّة أحد أشرطتهنّ الزخرفيَّة، حليةً دارجة، زُخرفاً غالي الثمن وسريع العطب؛ وكنت أرتاب في أنّهنَّ يتّخذن شغفهنَّ كما يتَّخذنَ حمرتهنّ وعقودهنَّ. ولم تكن حياتي أنا أقلّ غموضاً بالنسبة إليهنٍّ؛ فلم يكنَّ يرغبْنَ في معرفتها، مُفضّلاتٍ أن يحلمنَ بها كما يحلو لهنَّ. وأدركت في نهاية المطاف أنَّ روح اللعبة كان يتطلّب عمليات التنكّر المستمرّة تلك، وتلك الإفراطات في الاعتراف أو في الشكوى، وتلك اللّذّة المصطنعة تارةَ المكتومة طوراً، وتلك اللقاءات المتَّفق عليها كالاتّفاق على المشاهد الخاصّة بالرقص. وحتّى في الخصام كنَّ ينتظرنَ منّي ردّاً متوقَّعاً سلفاً، وكانت المحزونة تلوي يديها كما في مشهد على خشبة المسرح.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كثيراً ما فكّرت في أنَّ العشّاق المولعين بالنساء يتعلّقون بالهيكل وبزخارف العبادة بقدر ما يتعلّقون على الأقل بإلهتهم نفسها: ينعمون بالأصابع المحمرَّة بالحنّاء، وبالعطور التي فُرِك بها الجلد، وبآلاف الحِيَل التي ترفع من شأن هذا الجمال وتصنعه برمّته في بعض الأحيان. وكانت هذه الأوثان الحنون تختلف في كلّ شيء عن إناث البرابرة الطويلات أو عن فلّاحاتنا البدينات الصارمات؛ فقد كنَّ يولدنَ من الزخارف الحلزونيّة المذهَّبة في المدن الكبرى، أو من أحواض الصبّاغ أو من البخار المولِّد الخارج من أفران التجفيف كما وُلدت «فينوس» من الأمواج الإغريقيّة. ويكاد المرء يستطيع فصلهنّ عن النعومة المحمومة في بعض أمسيات «إنطاكية»، وعن إثارة الصبيحات في «روما»، وعن الأسماء الذائعة التي كنَّ يحملْنَها، وعن البذخ الذي كان آخر أسراره أن يظهرنَ وسطه عاريات، وإن لم يكنّ يفعلنَ قطّ من غير زينة. ولقد كنت أتمنّى أكثر من ذلك: المخلوق البشري المجرَّد، المتوحِّد مع ذاته، كما كان ينبغي أن يكون على ذلك في بعض الأحيان، في المرض، أو بعد وفاة أوَّل مولود، أو عندما يظهر أوَّل غَضْن أمام المرآة. وإنَّ رجلاً يقرأ أو يفكّر أو يحسب لَينتمي إلى النوع لا إلى الجنس؛ بل إنَّه لَيُفلت في أحسن لحظاته ممَّا هو إنساني. إلَّا أنَّ عشيقاتي كنَّ يبدونَ فخورات بألَّا يفكّرنَ إلَّا بوصفهنَّ نساء: لم يكن بَعْدُ الذهنُ أو النَفْس اللذان كنت أبحث عنهما سوى عطر.

كان ينبغي أن يكون هناك شيء آخر: لقد كنت أسترق بفضول وأنا مختبئٌ خلف أحد الأستار، شأني شأنُ ممثّل كوميدي ينتظر الوقت

الملائم، الصخبَ الدائر داخل بيت مجهول، أو الصوتَ الخاصّ بثرثرات النساء، أو انفجار غضب أو ضحكة، وكان كلّ شيء يتوقّف ما إن يعرفنَ بوجودي. وكان الأولاد، والانشغال الدائم باللباس، ووساوس المال، كان ذلك كلّه ينبغي أن يتّخذ في غيابي أهميّة يُعمل على إخفائها عنّي؛ وحتّى الزوج المهزوء كثيراً به كان يغدو أساسيّاً، وربّما محبوباً. وكنت أقارن بين عشيقاتي والوجوه المقطّبة لنساء أسرتي، المقتصدات والطامحات، وهنَّ مشغولات دون انقطاع بتصفية حسابات البيت أو بالإشراف على نظافة تماثيل الأجداد النصفيّة؛ وكنت أتساءل عمّا إذا كانت أولئك السيِّدات الباردات يعانقن هنَّ أيضاً عشيقاً تحت عريش الحديقة، وعمّا إذا لم تكن جميلاتي الخفيفات لا ينتظرن سوى رحيلي لينغمسنَ من جديد في شجار مع مدبّرة شؤون المنزل. وكنت أحاول جهدي أن أسدّ مرّة أخرى الفجوات الماثلة في ذينْك الوجهينْ من عالم النساء.

في العام الماضي، بعد المؤامرة التي دفع فيها «سرفيانوس» حياته بقليل، كَلَّفَتْ واحدة من اللواتي كنّ عشيقاتي في السابق نفسَها زيارة «الدارة» لتشيَ إليَّ بأحد أصهارها. ولم آخذ بعين الاعتبار الاتّهام الذي كان يمكن أن يكون حقداً صادراً عن حَماةٍ أو رغبة في خدمتي. بيد أنَّ الحديث استرعى اهتمامي، فلم تكن المسألة، كما كان يجري في المحكمة الناظرة قديماً في قضايا الإرث، سوى مسألة وصايا ودسائس شرّيرة بين أقرباء وزيجات غير متوقَّعة أو منكودة. ووقعت من جديد على حلقة النساء الضيِّقة ومهارتهنّ القاسية وسماتهنّ المكفهرَّة عندما يزول دَوْر الحبّ. وذكّرتني بعض الانتقاداتِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخشنة، ونوعٌ من الاستقامة الفظّة، بامرأتي «سابين» المزعجة. فقد كانت ملامح زائرتي مسطّحة ذائبة وكأنَّ يد الزمن قد مرّت ومرّت بخشونة فوق قناع من الشمع؛ ولم يسبق أن كان ما كنت قد رضيت لحظة بالنظر إليه على أنّه جمالٌ غيرَ زهرة شباب هشّة. بيد أنَّ المكر كان لايزال مسيطراً، فقد كان هذا الوجه المتغضّن يمثّل الابتسام بشكل أخرق. وكانت الذكريات الشهوانيّة، إذا صحّ أن كان شيء منها يوماً، قد امّحت تماماً بالنسبة إليّ؛ وكان قد بقي تبادلُ عبارات لطيفة مع مخلوق طَبَعَه كما طَبَعَني المرض أو العمر، ونفسُ الإرادة الحسنة المكدّرة قليلاً التي كان يمكن أن أتمتّع بها حيال ابنة عمّ إسبانيّة مُغرقة في القِدَم أو قريبة بعيدة القرابة قادمة من «نربون».

إنّي لأجهد في أن أمسك من جديد لحظةً بحلقات من الدخان، أو بفقاقيع هواء متقزّحة في لعبة من ألعاب الأطفال. غير أنّه من السهل النسيان... فقد مضت أمور كثيرة منذ تلك الغراميات الطائشة التي كنت أُنكر طعمها ولا ريب؛ ويروقني على الأخصّ أن أُنكر أنّها جعلتني لحظةً أتألّم. ومع ذلك فإنَّ من بين هؤلاء العشيقات واحدةً على الأقلّ كنت قد أحببتها بشغف. فقد كانت في وقت معاً أرقّ وأصلب، أحقّ وأقسى من الأخريات: كان ذلك الجذع الرقيق يذكّر بقصبة. لقد طالما تذوّقت جمال الشَّعر، ذلك الجزء الحريريّ المتموّج في جسمٍ من الأجسام، بيد أنَّ شعور معظم نسائنا هي أبراج أو متاهات أو زوارق أو حيّات ملتفّ بعضها على بعض. وكان شَعْرها راضياً بأن يكون كما أحبّ أن تكون الشعور: عنقوداً من عناقيد عنب القِطاف أو جناحاً من الأجنحة. وإذ كانت تستلقي على ظهرها وتريح

على جسدي رأسها الشامخ فخاراً فقد كانت تحدّثني عن غرامياتها بوقاحة مثيرة للإعجاب. وكنت أحبّ اندفاعها وتجرّدها في اللّذة، وذوقها الصعب، وسُعْرها في تمزيق روحها. ولقد عرفتُ لها زهاء اثني عشر عشيقاً؛ وكانت تضيع في حِسْبتهم؛ ولم أكن سوى ممثّل ثانوي لا يطالب بالإخلاص. وقد تدلَّهتْ براقص يُدعى «باتيل» من الجمال بحيث كانت جميع الحماقات مبرَّرة سلفاً. وكانت تنوح باسمه بين ذراعيّ؛ وكانت موافقتي تمنحها الشجاعة. ولقد ضحكنا كثيراً معاً في أوقات أخرى. وماتت شابّة في جزيرة موبوءة نفتها إليها أسرتها عقب طلاق أثار فضيحة. وإنّي لمغتبط لها لأنّها كانت تخاف أن تشيخ، بيد أنّ هذا شعورٌ لا يخامرنا أبداً حيال الذين أحببناهم حقّاً. وكانت بحاجة إلى مبالغ ضخمة من المال. وقد طلبت منّي يوماً أن أعيرها مئة ألف «سسترس». وحملتُها إليها في اليوم التالي. وجلستْ على الأرض، صورة صغيرة واضحة عن ضاربة الودع، وأفرغت الكيس فوق البلاط وأخذت تقسم التلّ اللامع إلى كومات. وكنت أعرف أنّه بالنسبة إليها، كما بالنسبة إلينا جميعاً نحن المبذّرين، لم تكن هذه القطع الذهبيَّة نقوداً متعثّرة مصوّراً عليها رأس «قيصر»، بل مادّةً سحريّة، نقودٌ شخصيّةٌ مصوَّر عليها رسم وهميّ عند زاوية الراقص «باتيل». ولم يكن لي من وجود. فقد كانت وحيدة. قبيحة تقريباً، مقطِّبة جبينها بلامبالاة لذيذة بجمالها، وكانت تُبدي وتُعيد على أصابعها عمليات الجمع الصعبة بتكشيرة شبيهة بتكشيرة التلاميذ. ولم يسبق أن سحرتني بمثل هذا القدر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وصل خبر الغارات «السرماتيّة» إلى «روما» في أثناء الاحتفال بانتصار «تراجان» على «الداسيِّين». وكان ذلك الاحتفال الذي أُجِّل طويلاً يدور منذ ثمانية أيّام. وكان استقدام الحيوانات المفترسة من «إفريقيا» و«آسيا»، وقد انعقدت النيّة على ذبحها بالجملة في الحَلْبة، قد استغرق قرابة العام؛ وكان ذبح اثني عشر ألف وحش ونحر عشرة آلاف مصارع نحراً منهجيّاً يجعلان من «روما» مكاناً رديئاً للموت. وكنت في ذلك المساء على شُرفة بيت «أتيانوس» مع «مارسيوس تربو» ومضيفنا. وكانت المدينة المضاءة كريهة بفرحها الصاخب: إنّ هذه الحرب الشاقّة التي ضحّينا فيها أنا و«مارسيوس» أربع سنوات من سِنِي الشباب قد غدت عند عامّة الناس احتفالات مخمورة وانتصاراً فظّاً سبق أن ابتُذِل. ولم يكن من المفيد إعلام الشعب بأنَّ هذه الانتصارات المتباهى بها كثيراً ليست نهائيّة، وأنَّ عدوّاً جديداً قد حلّ على حدودنا. وما كان الإمبراطور المشغول سلفاً بمشاريعه في «آسيا» يهتمّ كثيراً بالوضع في الشمال الشرقي الذي يفضّل أن يحكم عليه بالمنتهي أمرُه إلى الأبد. وقد صُوِّرت هذه الحرب «السرماتيّة» الأولى على أنّها مجرّد حملة تأديبيّة. وأُرسلتُ إليها بوصفي حاكم «بانونيا» مزوّداً بسلطات قائد عام.

واستمرّت اثني عشر شهراً، وكانت بمنتهى الفظاعة. ومازلت أظنّ أنّ إبادة «الداسيِّين» قد سُوِّغت على وجه التقريب، فما من رئيس دولة يُطيق مختاراً وجود أيّ عدوّ منظّم على أبوابه. إلّا أنّ انهيار مملكة

«ديسيبال» كان قد أوجد فراغاً في تلك المناطق ما لبث «السرماتيُّون» أن اندفعوا لملئه؛ وغزت عصابات لا يُدرى من أين جاءت بلداً ضربته سنواتٌ وسنوات من الحرب وأحرقناه نحن وأعدنا إحراقه، ولم يكن لعديدنا غير الكافي فيه نقاط ارتكاز؛ وكانت تتكاثر تكاثُرَ الدود في جثّة انتصاراتنا «الداسيّة». وكانت انتصاراتنا الحديثة قد أفسدت الانضباط، فكنت أجد في المواقع الأماميّة شيئاً من اللامبالاة الوقحة الخاصّة بأعيادنا الرومانيّة. وكان بعض الضبَّاط يُبدون حِيال الخطر ثقةً خرقاء: كانوا وهم معزولون بشكل خطِر في منطقة كان القسم المعروف جيِّداً منها هو حدودنا القديمة يعتمدون، لكي يستمرّوا في الغلبة، على عتادنا الذي كنت أراه يتناقص يوماً فيوماً بفعل الخسائر والبِلى، وعلى أَمدادٍ لم أكن أنتظر قدومها لعلمي بأنًّ جميع وسائلنا سوف تركِّز من الآن فصاعداً على «آسيا».

وبدأ يظهر خطر آخر: كانت أربع سنوات من المصادرات قد بدأت تُفلس القرى الخلفيَّة؛ فقد كنت أرى على كلّ قطيع من الثيران أو الغنم مأخوذ بأبّهة من العدوّ في الحملات «الداسيّة» الأولى عروضاً لا تنتهي من الماشية منتزعَة من القرويّ. وإذا استمرّ هذا الوضع الذي عليه الأمور فستكون قريبةً اللحظةُ التي ينتهي بها أمرُ جماعاتنا القرويّة، وقد أبهظها تحمّل آلتنا الحربيّة الثقيلة الوطء، إلى إيثار البرابرة علينا. وربّما كان النهب الذي يقوم به العسكر أقلّ شأناً، غير أنّه أشدّ ظهوراً. وكانت شعبيّتي كافية فلا أخشى أن أفرض على الجيوش أقسى ألوان التقشُّف؛ فقد أَشَعْتُ منه ما كنت أمارسه أنا نفسي؛ وأبدعت طقوس «الانضباط المَهيب» الذي أفلحت فيما بَعْدُ في نشره داخل الجيش بأسره. فكنت أعيد إلى «روما» المتهوِّرين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والطامحين الذين كانوا يعقِّدون مهمّتي؛ واستقدمت بالمقابل عدداً من الفنيِّين كنّا بحاجة إليهم. وكان ينبغي إصلاح أعمال الدفاع التي جعلها غرورنا بانتصاراتنا الحديثة تُهْمَلُ بشكلٍ فريد؛ وتخلّيت نهائيّاً عن تلك التي كان أمر صيانتها مُكْلِفاً جدّاً. وكان الإداريّون المدنيّون المقيمون بشكلٍ راسخٍ في الفوضى التي تلي أيّة حرب قد تدرّجوا إلى مرتبة الزعماء أنصاف المُستقلّين القمينين بكلّ التجاوزات حِيال رعايانا وكلّ الخيانات حِيالنا. وهنا أيضاً كنت أرى أنَّه يُحضَّر في مستقبل قريب نوعاً ما للثورات والانقسامات المقبلة. وأظنّ أنَّنا ما كنّا لنتجنّب هذه الكوارث بأكثر ممّا سنتجنّب الموت، غير أنَّ في يدنا أن نؤخّرها بضعة قرون. وأَبعدتُ الموظّفين العاجزين؛ وأعدمتُ أسوأهم جميعاً. وأظهرتُ للملأ أنّي لا أعرف الرحمة.

وتلا خريفٌ كثير الضباب، ثمّ شتاءٌ قارس، صيفاً رطباً. وكانت بي حاجة إلى معارفي الطبيّة لكي أعالج قبل كلّ شيء نفسي. وقادتني هذه الحياة على الجبهات تدريجاً إلى مستوى «السرماتي»: تحوَّلْت لحية الفيلسوف الإغريقي القصيرة إلى لحية الزعيم البربري. واستعرضت جميعَ ما سبق أن رأيناه، إلى حدّ الغثيان، طوال معاركنا مع «الداسيِّين». لقد كان أعداؤنا يحرقون أسراهم أحياء؛ وبدأنا نذبح أسرانا لانعدام وسائل النقل لإرسالهم إلى أسواق الرقيق في «روما» أو في «آسيا». وكانت ترتفع الرؤوس المقطوعة فوق أوتاد أسيجتنا. وكان العدوّ يعذِّب من يسقط رهينة في يده؛ وقد قضى عدد من أصدقائي على هذا النحو. وتحامل أحدهم على نفسه فوصل إلى المعسكر على ساقين داميتين؛ وكان مشوَّهاً إلى حدّ إنّي لم أستطع قطّ

فيما بعد أن أتذكّر صورة وجهه السليم. واقتطع الشتاء لنفسه ضحاياه: زمراً من الخيَّالة سقطوا في حبائل الجليد أو جرفتهم فيضانات النهر، ومرضى مزَّقهم السُّعال منتحبين بخفوت تحت الخيام، وحطام جرحى مجلَّدين. وأحاط بي رهط من ذوي النيَّات الحسنة؛ وكان الجيش المتماسك بإحكام وأنا على رأسه يتحلّى بأرفع أشكال الفضيلة، الشكل الوحيد الذي مازلت احتمله، ألا وهو الإصرار على أن يكون ذا نفع. فهناك جندي «سرماتي» منشقّ كنت أستخدمه ترجماناً عاد إلى قبيلته ليهيّج فيها الثورات والخيانات؛ وقد نجحتُ في التعامل مع أولئك القوم؛ فأخذ رجالهم يقاتلون مذّاك في خطوطنا الأماميَّة مدافعين عن رجالنا. وأثبتْتُ بعض ضروب البسالة، وكانت متهوِّرة بحدٍّ ذاتها، وإن كانت مدبَّرة بدراية، أثبتتْ للعدو لامعقوليّةَ مهاجمة «روما». واقتدى أحد الزعماء «السرماتيّين» بـ «ديسيبال»: فوُجِد ميّتاً في خيمته المصنوعة من اللبَّاد بقرب نسائه المخنوقات ولفّةٌ فظيعة تضمّ أولادهم. وفي ذلك اليوم امتدّ اشمئزازي من التبذير غير المجدي فشمل خسائر البرابرة؛ فلقد أسفتُ على أولئك الموتى الذين كان من الممكن أن تدمجهم «روما» وتستخدمهم حلفاء ذات يوم في وجه جحافل أكثر منهم توحُّشاً. واختفى مهاجمونا الذين شتّتنا شملهم، مثلما جاءوا، في تلك المنطقة المبهمة التي ستنبثق منها عواصف أخرى ولا ريب. فلم تكن الحرب قد انتهت. وكان عليَّ أن أستأنفها وأُنهيها بعد بضعة أشهر على اعتلائي سدّة الحكم. بيد أنَّ النظام كان يخيّم مؤقّتاً على الأقلّ فوق تلك الجبهة. وعدت إلى «روما» مغموراً بالأمجاد. لكنّني كنت قد شِخْتُ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت قنصليّتي الأولى أيضاً عاماً من القتال، قتال سرّي، ولكنّه متواصل، لمصلحة السلام. غير أنّي لم أَقُده وحدي. فقد حدث تغيّرٌ في السلوك موازٍ لتغيُّري لدى «ليسينيوس سورا» و«أتيانوس» و«تربو»، وكأنَّ أصدقائي كانوا، على الرغمِ من الرقابة الصارمة التي كنت أمارسها على رسائلي، قد فهموا قبلاً ما في نفسي فسبقوني أو لحقوا بي. ففيما مضى كانت سُعودي ونُحوسي تُحرجني بشكل خاص حِيالهم؛ والمخاوف أو مواقف النزق التي كان من الممكن أن أتحمّلها وحدي ببساطة كانت تغدو مُرْهِقة ما إن أضطرُّ إلى إخفائها إزاء إلحاحهم، أو إلى تحميلهم عبء الاعتراف بها لهم؛ وكنت آخذ على عطفهم أن يقلق بشأني أكثر من قلقي على نفسي، وألاَّ يرى أبداً تحت الاضطرابات الخارجيّة الكائنَ الأهدأ الذي لا يُبالي بشيء تمام المبالاة، والذي يستطيع بالتالي أن يبقى على قيد الحياة بعد زوال كلّ شيء. بيد أنّي لم أكن أملك بعدُ الوقت الكافي للاهتمام بنفسي، ولا لعدم الاهتمام بها أيضاً. وأخذ شخصي يمّحي لأنّي كنت قد بدأت بالضبط أحسب حساباً لرأيي. وكان المهمّ أن يعارض أحدهم سياسة الغزو، وأن يواجه نتائجها ونهايتها، وأن يستعدّ، إن أمكن، لإصلاح أخطائها.

وكان منصبي على الجبهات قد أراني وجهاً من وجوه النصر لم يكن مرتسماً على «الجدول التراجانّي». فقد أتاح لي رجوعي إلى الإدارة المدنيّة أن أكدِّس ضدّ حزب الحرب ملفّاً أكثر حسماً من جميع البراهين

التي جمعتُها في خدمة الجيش. لقد كانت أُطُر الفيالق والحرس الإمبراطوري برمّته تتألّف حصراً من عناصر إيطاليّة، وكانت تلك الحروب المُغْرِقة في القِدم تجفّف احتياطيّ بلد سبق فقرُه بالرجال. فالذين لم يكونوا يموتون كانوا يماثلون الآخرين في الضياع من أجل الوطن بالذات لأنّهم كانوا يوضعون في الأراضي التي فُتحت حديثاً. وحتّى في الأقاليم أحدثت عمليات التطويع في تلك الحِقْبة اضطرابات خطيرة. وقد أثبتت لي رحلة إلى «إسبانيا» بعد ذلك بقليل لمراقبة استخراج النحاس من المناجم الخاصّة بعائلتي ما ألحقته الحرب من فوضى في جميع فروع الاقتصاد؛ وانتهيتُ إلى الاقتناع بأحقيّة احتجاجات رجال الأعمال الذين كنت أخالطهم في «روما». ولم أكن أملك سذاجة الاعتقاد بأنّه سيكون في يدنا على الدوام أن نتجنّب جميع الحروب؛ غير أنّني لم أكن أريدها سوى حروبٍ دفاعيّة؛ وكنت أحلم بجيش مدرَّب على المحافظة على النظام عند الحدود، المعدّلةِ إذا اقتضى الأمر، ولكن الثابتة. وكان كلّ نموّ جديد في الجسم الإمبراطوري يبدو لي إفراطاً مَرَضِيّاً في النموّ، أو سرطاناً، أو ورماً استسقائيّاً سوف يُودي بنا.

لم يكن بالإمكان تقديم أيّ رأي من هذه الآراء إلى الإمبراطور. فلقد كان وصل إلى تلك المرحلة من العيش المتقلّبة بالنسبة إلى كلّ إنسان، المرحلة التي يستسلم فيها كلّ كائن بشري إلى شيطانه أو عبقريّته، ويتّبع قانوناً سرّيّاً يأمره بأن يهشّم نفسه أو يتجاوزها. وبالإجمال فإنّ ما أبدعه من أعمال في أيّام إمبراطوريّته كان رائعاً، بيد أنّ أعمال السلام التي وجّهه إليها بعبقريّة خِيرةُ مستشاريه، وتلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشاريع الكبرى الصادرة عن المهندسين المعماريّين وقانونيّي العهد، كانت على الدوام أقلّ قيمة عنده من انتصار واحد. وانتاب هذا الرجل البخيل بشرفٍ ونُبْلٍ حين يكون الأمر متعلّقاً بحاجاته الشخصيَّة جنونُ الإنفاق. فلقد قام ذهبُ البرابرة المتصيَّدُ من مجرى «الدانوب»، وسبائكُ الملك «ديسيبال» الخمسمئة ألف، بما أُغْدِق للتوسيع على الشعب، وبأُعطيات الجنود التي كان لي منها نصيب، وبالبذخ الذي لا معنىً له في الألعاب، وبوضع المخصَّصات الماليَّة الأوَّليَّة للمغامرات الكبرى في «آسيا». وكانت هذه الثروات المضرّة توحي بالوضع المالي الحقيقي. فالذي كان يدخُل من الحرب كان يعود إلى الحرب.

لقد مات «ليسينيوس سورا» في تلك الأثناء، وكان أكثر مستشاري الإمبراطور الخصوصيّين ليبراليّة. وكان موته بالنسبة إلينا معركة خسرناها. فلقد برهن حيالي على الدوام عن رعاية أبويَّة؛ والقوى الضعيفة التي كان يُبقيها له المرض منذ بضع سنوات لم تكن تسمح له بالقيام بالأعمال الطويلة التي يقتضيها طموحه الشخصيّ؛ غير أنَّها كفت دائماً لخدمة رجل كانت أنظاره تبدو له سليمة. ولقد تمّ غزو بلاد العرب خلافاً لنصائحه؛ ولو عاش لكان استطاع وحده تجنيب الدولة متاعب الحملة «الپارتيّة» ونفقاتها الضخمة. وكان ذلك الرجل الذي قرضت الحمَّى جسده يستخدم ساعات أرقه في مناقشتي المشاريع التي كانت تُنهكه، ولكن التي كان نجاحها يهمّه أكثر ممّا تهمّه بضع نُتف إضافيَّة من العيش. ولقد عشت عند سرير مرضه سلفاً، وفي آخر تفصيل من تفاصيل الإدارة، بعض مراحل حكمي المقبل.

وكانت نقود هذا المائت تتحاشى الإمبراطور، بيد أنَّه كان يشعر بأنَّه يحمل معه ما بقي من حِكمة في نظام الحكم. ولو أنَّه عاش سنتين أو ثلاثاً فوق ما عاش فلربّما كنت تجنّبت بعض المسالك الوعرة التي طبعتْ وصولي إلى سدّة الحكم؛ ولكان أفلح في إقناع الإمبراطور بأنّ يتبنّاني أبكر ممّا فعل، وعلى رؤوس الأشهاد. بيد أنَّ آخر أقوال رجل الدولة الذي أورثني منصبه كانت واحدة من شهادات تكليفي بمنصب الإمبراطور.

وإذا كان حزب أنصاري قد بدأ يكبر فإنَّ حزب أعدائي قد سار على المنوال نفسه. وكان أخطر خصومي «لوسيوس كياتوس»، وهو روماني مهجّن بعِرْق عربي كانت سراياه «النوميديَّة» قد قامت بدور مهمّ في الحملة «الداسيَّة» الثانية، وكان هو يدفع بوحشيّة باتّجاه حرب «آسيا». وكنت أكره كلّ ما في هذا الشخص: بذخه الفظّ، وطيران أشرعته البيضاء المحاطة بحبل ذهبيّ، وعيناه الوقحتان المضلِّلتان، وقسوته غير المعقولة حِيال المغلوبين والخاضعين. وكان زعماء الحزب الحربي أولئك يتفانون في صراعات داخليَّة، إلَّا أنَّ الباقين منهم كان نفوذهم يشتدّ أكثر فأكثر، وما كنت إلَّا لأزداد تعرُّضاً لشكوك «پالما» وحقد «سلسوس». وكان وضعي الخاصّ، لحُسْن طالعي، شبهَ منيع. فقد كانت الحكومة المدنيَّة تزداد اعتماداً عليّ مُذ أخذ الإمبراطور يتفرّغ بصورة حصريّة لمشاريعه الحربيّة. وأصدقائي، وهم الوحيدون الذين كان من الممكن أن يحلّوا محلّي بفضل أهليّتهم ومعرفتهم للأعمال، كانوا يُبدون تواضعاً نبيلاً جدّاً في تفضيلي على أنفسهم. وكان «نيراتيوس پريسكوس»، وهو موضع ثقة الإمبراطور، يزداد كلّ يوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بملء اختياره انصرافاً إلى اختصاصه المشروع. وكان «أتيانوس» ينظّم حياته بهدف خدمتي؛ وكنت أحظى بموافقة «پلوتينيا» الحذِرة. وقد عُيِّنت قبل الحرب بعام في منصب حاكم «الشام» الذي انضاف إليه فيما بعد منصب المفوّض الإمبراطوري لدى الجيوش. وإذ كنت مكلَّفاً بمراقبة قواعدنا وتنظيمها فقد أصبحت أحد موجّهي الدفّة في مؤسَّسة أَحْكُمُ بعدم معقوليّتها. وتردَّدت بعض الوقت ثمَّ قبلت. وكان الرفض يعني سدّ جميع الطرق إلى السلطة في وقت كان اهتمامي بها فيه أكثر منه في أيّ يوم مضى. وكان يعني أيضاً حرماني نفسي الفرصة الوحيدة لأداء دور الملطِّف.

وكنت قد اتّخذت في أثناء بضع السنوات التي سبقت الأزمة الكبرى قراراً جعل أعدائي يعتبرونني إلى الأبد طائشاً، وكان في جزء كبير منه محسوباً لجعله كذلك ولتجنُّب كلّ هجوم. وكنت قد ذهبت لقضاء بضعة أشهر في «اليونان». ولم يكن للسياسة، في الظاهر على الأقلّ، أيّ نصيب في هذه الرحلة. فلقد كانت رحلة متعة ودرس: جلبت منها بعض الكؤوس المنقوشة، وكتباً أشركت في قراءتها «پلوتينيا». وتلقّيت عن تلك الرحلة، من بين جميع التشريفات الرسميَّة، التشريف الذي تقبَّلتُه بأصفى آيات السرور: فقد عُيِّنت حاكماً أوّل لـ «أثينا». وخَصَصْتُ نفسي ببضعة أشهر من العمل والملذّات الخفيفة والنزهات في الربيع فوق تلال مكسوَّة بشقائق النعمان، وبتواصل يقطر بالصداقة مع الرخام العاري. وفي «كيرونيه» حيث ذهبت أتأمّل أزواج الأصدقاء الذين يضمّهم «الفوج المقدّس»، نزلت ضيفاً مدّة يومين على «پلوتارك» [صاحب تراجم وعالم أخلاق

إغريقي]. وكان لي «فوج مقدّس» خاصّ بي، بيد أنّه، كما يحدث لي في أغلب الأحيان، كانت حياتي تثيرني أكثر ممّا تثيرني الحكاية. فقد رُتِّبتْ لي رحلات صيد في «أركاديا»؛ وصلّيت في «دلف». وفي «إسبرطة»، على ضفّة نهر «أوراتوس» علّمني بعض الرعاة لحناً قديماً على المزمار هو عبارة عن تغريد عجيب لعصفور. وجرى عرسٌ قرويٌّ بالقرب من «ميغار» استمرّ طَوال الليل؛ وقد جسرنا أنا ورفاقي على الانخراط في الرقصات، الأمر الذي كانت ستحظِّره علينا تقاليد «روما» المتشدِّدة.

كانت آثار جرائمنا ماثلة للعيان في كلّ مكان: أسوار «كورنثيا» التي هدّمها «موميوس» [قائد روماني عام وقنصل (١٤٦ ق.م.)]، والساحات التي أفرغتها داخل الهياكل عمليّة نهب التماثيل المنظَّمة خلال رحلة «نيرون» المعيبة. ولقد استمرَّت اليونان التي أُفقِرت تعيش جوّاً من الأناقة الفكريّة والحِذق الواضح والشهوة الحكيمة. ولم يكن قد تغيَّر شيء منذ العهد الذي استنشق فيه تلميذ البلاغيّ «أيزيه» للمرَّة الأولى رائحة العسل الساخن والملح والصمغ؛ وبالإجمال فإنَّ شيئاً لم يتغيّر منذ قرون. فلقد كان رمل الميادين الرياضيَّة بمثل الشقرة التي كان عليها فيما مضى؛ ولم يكن «فيدياس» و«سقراط» يغشيانها، بيد أنَّ الفتيان الذين كانوا يتدرّبون فيها مايزالون يشبهون «شرميد» [أحد تلامذة «سقراط» ومحاوريه] الرائع. وكان يُخيَّل إليَّ أحياناً أنَّ الفكر اليوناني لم يكن قد دفع بمقدِّمات عبقريَّته الخاصّة إلى نهاياتها القصوى: وبقي أن يتمّ الحصاد؛ ولم تكن السنابل التي أنضجتها الشمس وسبق قطعها شيئاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُذكر بإزاء ما تُغدقه البذرة المختبئة في هذه الأرض الجميلة من وعود. ولقد وجدت حتّى عند أعدائي «السرماتيّين» المتوحّشين آنيةً صافية الأطياف، ومرآة زخرفتها صورة «أپولون»، وومضات يونانيّة تشبه شمساً شاحبة فوق الثلج. وكان يتراءى لي إمكان صبغ البرابرة بالصبغة الهلّينيّة، وإضفاء الرهافة الأثينيّة على «روما»، وفرض الثقافة الوحيدة التي تمكّنت من الانفصال يوماً عمّا هو بشع وفظيع ومنعدم الشّكل وجامد، عن العالم، الثقافة التي أبدعت تعريفاً للطريقة ونظريّة في السياسة والجمال. ولم يكن الاحتقار الخفيف الذي يُبديه الإغريق، والذي لم أنقطع قطّ عن الإحساس به تحت حرارة ما يُولونه من احترام وإكرام، ليجرحَ شعوري؛ بل كنت أجده طبيعياً؛ ومهما تكن الفضائل التي تُميِّزني منهم فإنّني كنت أعلم بأنّي سأظلّ على الدوام أقلّ حِذقاً من بحّار من «إيجينا»، وأدنى حكمة من بائعة بقول من الـ «أغورا». وكنت أتقبّل بلا غضب ما يبديه هذا العِرْق الفخور من تعاطف مُتَعالٍ قليلاً: ومنحتُ لشعب كامل ما كنت أُولِيه دائماً بيُسْرٍ كبير من امتيازات للأشياء التي أُحبّها. بيد أنّ الإغريق كانوا بحاجة، لكي يُترك لهم الوقت لاستكمال عملهم وإتقانه، إلى بضعة قرون من السلام وما يسمح به من أوقات فراغ هادئة وحرّيات حصيفة. وكانت «اليونان» تعتمد علينا لنكون حرّاسها لأنّنا كنّا نزعم على كلّ حالٍ بأنّنا أسيادها. وقد عاهدت نفسي أن أسهر على الإلّه المنزوع السلاح.

كنت أشغل منذ عام منصبي حاكماً على «بلاد الشام» حين انضمّ إليَّ «تراجان» في «إنطاكية». وقد جاء للإشراف على تحضير حملة «أرمينيا» التي كانت تمهّد في ذهنه لمهاجمة «البارتيّين». وكانت «بلوتينيا» ترافقه كعادتها دائماً، وقد صحبتها ابنة أخيها «ماتيديا»، حَماتي التي لا ترحم، وكانت تتبعها منذ سنوات إلى المعسكر بوصفها مدبّرة شؤونها. وكان أعدائي القدامى «سلوس» و«پالما» و«نيغريوس» مايزالون قابعين في «المجلس» ومهيمنين على هيئة أركان الحرب. ولقد تكدّس كلّ أولئك الناس في القصر بانتظار دخول المعركة. واستأنفت مكائد البلاط مجراها كأشرس ما تكون. وكان كلّ واحد يقوم بتقديم برهانه قبل ضربات نَرْد الحرب الأولى.

ما لبث الجيش تقريباً أن تحرّك باتّجاه الشمال. وشاهدت شغبَ كبار الموظّفين والطامحين وغير النافعين العارمَ يبتعد بابتعاده. وتوقّف الإمبراطور وحاشيته بضعة أيّام في «كوماجين» للاحتفال مسبّقاً بأعياد النصر؛ وأعلن ملوك «الشرق» الصغار ما وسعهم الإعلان ولاء سوف أستند عليه أنا، بدلاً من «تراجان»، بعض الاستناد في المستقبل. وقد احتلّ «لوسيوس كياتوس»، منافسي الخطِر الذي وُضع على رأس الطلائع، ضفاف بحيرة «ڤان» خلال نزهة عسكريَّة ضخمة؛ وأُخضع الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين بلا صعوبة؛ وأعلن «أبغر» ملك «أرسوانيا» خضوعه في «الرُّها». وعاد الإمبراطور إلى «إنطاكية» يتّخذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقرّ قيادته الشتوي مؤجِّلاً اجتياح الإمبراطوريَّة «الپارتيَّـة» بكلّ مـا في الكلمة من معنى إلى الربيع، بيد أنَّه كان قـد اتّخذ قـراره سلفاً بعـدم قبول فتح الباب لأيّ صُلح. وسار كـلّ شيء وَفْقاً لمخـطّطاته. ولقـد أعاد السرور بالغوص في النهاية داخل هذه المغامرة التي طالما أُجِّلت، نوعاً من الشباب إلى هذا الرجل الذي بلغ الرابعة والستّين.

وظلّت تكهّنـاتي قائمـة. فقد كـان العنصر اليهودي والعـربي يـزداد مقاومة للحـرب؛ وكان كبـار الملاّكـين في الأقاليم يتميَّـزون غيظاً من اضـطرارهم إلى سدّ النفقـات التي أحدثهـا مرور العسـاكـر؛ وكـانت المدن تتحمّل على مضض ما يُفرض عليها من ضرائب جـديدة. ومـا إن رجع الإمبراطور حتّى قامت كارثة تنذر بجميع الكوارث الأخرى: فقد هدّم زلزال حدث في ليلة من ليـالي كانـون الأوّل (ديسمبر) رُبـع «إنـطاكية» في بضـع لحظات. واستمـرّ «تراجـان»، وقد رضّـه سقوط إحـدى العوارض، يعتني بـالجرحى بشجـاعة بـطوليَّة؛ وعُـدّ من بين حاشيته الخـاصّة بضعـة أموات. ولم يلبث عـامّة الشـاميّين أن أخـذوا يبحثون عن مسؤولين عن الكارثة: وارتكب الإمبراطور، متخلّيـاً لمرّة عن مبادئه في التسامح، غلطة السماح بذبـح زمرة من النصـارى. ولا أملك أنـا نفسي كثيراً من الاستلطاف لهـذه الـطائفـة، إلاَّ أنَّ مشهـد الشيـوخ يُضربون بـالقضبان والأولاد يُعـذّبـون قـد أسهم في إهـاجـة العقول وزاد ذلك الشتاءَ المشؤومَ فظاعةً. ولم يكن هناك ما يكفي من المال لإصلاح نتائج الزلزال على الفور؛ وكان آلاف من الناس الـذين بـلا مـأوى يخيّمـون في الليـل في السـاحـات. وكشفت لي جـولاتي التفتيشيَّـة عن وجود استيـاء أصمّ وحقد خفيّ لم يكن كبـار الوجهـاء

الـذين يُرْبِكـون القصر ليرتـابوا قطّ بشـأنهما. وكان الإمـبراطور يتـابع وسط الأطـلال التحضيرات للحملة الجـديدة: لقـد استُعملت غـابـة بأكملها لبناء الجسور المتحرّكة والجسور العائمة لعبور «دجلة». وكـان قـد تلقّى بسرور سلسلة من الألقـاب الجـديـدة الصـادرة عن مجلس الشيـوخ؛ وكان مستعجـلاً الانتهـاء من «الشرق» للعـودة إلى «رومـا» والاحتفال بالنصر. وكان أقلّ تأجيل يثير فيه سخطاً يُرعِدَه وكأنّه نوبة حمّى.

إنَّ الرجل الذي كان يَذْرع بنفاد صـبر القاعـاتِ الفسيحة في هـذا القصر الـذي بنـاه قـديمـاً السلوقيّـون، والـذي كنت أنـا نفسي (يا للانزعاج!) قد زخـرفته عـلى شرفه بـالنقوش المـدحيَّة وبمجمـوعة من الأسلحة «الداسيَّـة»؛ إنَّ ذلك الـرجل لم يكن هـو الذي استقبلني في معسكر «كولونيا» منذ ما يقرب من عشرين عاماً. فحتّى فضائله كانت قد شاخت. فلم يكن مَرَحُه المتثـاقل الـذي كات يُقَنِّـع من قبل طيبـاً حقيقيّاً إلّا رتابةً مبتذلة؛ وكان تصلُّبه قد تحوّل إلى عِناد؛ وتحـوّل تقلّبه لمـا هو قـائم وعمليّ إلى رفض كـاملٍ لمجـرّد التفكير. وتغـيّر احـترامـه الـرفيق للإمـبراطورة، والعـاطفة المؤنِّبـة التي كان يُبـديها لابنـة أخيها «ماتيديا» إلى خضوع خرِف لهاتين المرأتين اللتين كـان يزداد مـع ذلك مقاومةً لمشورتهما. وكانت نوباته الكبِديَّة تُقْلِق طبيبـه «كريتـون»؛ وأمَّا هو فلم يكن يُعيرها اهتماماً. وكانت ملذّاتـه تفتقر دومـاً إلى الفنّ؛ ولقد أخـذ مستواهـا يزداد تـدنّياً مـع العمر. ولم يكن يهمّ كثيـراً أن ينصرف الإمـبراطور، بعـد انقضاء نهاره، إلى مجـون شبيـه بـالـذي يكـون في الثكنات العسكرية، بصحبة أشخاص كان يجد فيهم بعض الترفيه أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجمال. وكان يهمّ على العكس من ذلك أن يعاف هذا النبيذَ الذي يُفرط في شربه؛ وحتى ألاَّ يَسْمَحَ لهذه الحاشية المؤلّفة من أشخاص ثانويّين كانت تفاهتهم تزداد مع الوقت، والمُنْتَخَبَة والمحرَّكة من مُعْتَقين مُريبين، بأن تحضر جميع أحاديثي معه فتنقلها إلى خصومي. ولم أكن أرى الإمبراطور في أثناء النهار إلاَّ في اجتماعات هيئة أركان الحرب المشغولة برمّتها بتفاصيل الخطط فلا تؤاتي لحظةٌ واحدة أبداً للتعبير عن رأي حرّ. وكان يتحاشى في الأوقات الأخرى أيّ اجتماع بشخصٍ على انفراد. وكان النبيذ يقدّم لهذا الرجل الضئيل الحِذْق ذخيرة من الحِيَل البعيدة عن الإتقان. وأمَّا الظنون التي كانت تراوده قبلاً فقد توقّفت نهائيّاً: فكان يصرّ على إشراكي في ملذّاته؛ وكان الصخب والقهقهات وأتفه دعابات الفتيان تُستقبل على الدوام استقبالاً حسناً بوصفها وسائل لإفهامي بأنّ الوقت لم يكن وقتَ شؤون جِديّة؛ وكان يتربّص باللحظة التي قد تفقدني فيها عقلي جرعة شراب فوق ما شربتُ. وكان يدور من حولي كلّ ما في هذه القاعة التي كانت الأسلاب من الثيران البريَّة البربريَّة تبدو فيها وكأنّها تسخر مني. فقد كانت الجِرار تتبع الجِرار؛ وتنبثق هنا وهناك أغنية مخمورة أو ضحكة وقحة صادرة عن أَحد الخدم؛ وكان الإمبراطور المُسْنِدُ فوق الطاولة يداً موغِلة في الارتعاش، المحتبِسُ في سُكر قد يكون نصف مُفْتَعَل، الضائعُ عن كلّ شيء فوق طرقات «آسيا»، يغرق عميقاً في أحلامه...

ولسوء الحظّ كانت تلك الأحلام جميلة. وكانت نفسَ الأحلام التي جعلتني قديماً أفكّر في التخلّي عن كلّ شيء لأسلك خلف «القفقاس»

الطرقات الشماليَّة نحو «آسيا». وهذا الانبهار الذي استسلم له الإمبراطور الشائخ استسلامَ المُرَوْبص، كان «الإسكندر» قد ابتُلِي به قبله؛ فلقد حقّق على وجه التقريب الأحلام عينها ومات بسببها وهو في الثلاثين. بيد أنّ أفدح أخطار تلك المخطّطات الكبرى كان بَعْدُ ما فيها من حكمة: فكالعادة كانت الأسباب العمليَّة متوافرة لتسويغ اللامعقول، وللدفع باتّجاه المستحيل. فقد كانت مسألة «الشرق» تشغل اهتمامنا منذ قرون؛ وكان يبدو طبيعيّاً أن ننتهي منها إلى غير رجعة. وكان تبادلنا السلع مع الهند و«بلد الحرير» المغلَّف بالأسرار يخضع بكلّيته للتجّار اليهود والمصدِّرين العرب الذين يملكون التسهيلات في الثغور وعلى الطرق «البارتيّة». وما إن نلاشي إمبراطوريَّة الفرسان «الأرساسيّين» الشاسعة المترامية حتى نلامس أطراف العالم الغنيَّة تلك؛ وإذ تصبح «آسيا» موحَّدة في نهاية الأمر فإنَّها لن تكون بالنسبة إلى «روما» غير إقليم يُضاف إلى غيره من الأقاليم. وكان ثغر «الإسكندرية» في «مصر» موصلنا الوحيد إلى الهند الذي لم يكن خاضعاً للمشيئة «البارتيّة»؛ وهناك أيضاً كنّا نصطدم باستمرار بمطالب الطوائف اليهوديَّة وثوراتها. ولسوف يُتيح لنا نجاح حملة «تراجان» أن نتجاهل هذه المدينة القليلة الأمان. بيد أنَّ كلّ هذه الأسباب ما كانت قطّ لتُقنعني. وكان يكفيني أكثر فأكثر معاهدات تجاريَّة حكيمة، وأخذتُ أتخيَّل مسبّقاً اختصار دور «الإسكندرية» بإنشاء عاصمة إغريقيّة ثانية بجوار البحر الأحمر، وهذا ما فعلته عندما أنشأت «أنتينُويه». وكنت قد بدأت أعرف عالم «آسيا» المعقَّد هذا. فما كان مفعول الخطط البسيطة للإبادة الشاملة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نجحت في «داسيا» ليسري في هذا البلد المُفعم بحياة أشدّ تنوّعاً وأفضل رسوخاً، البلد الذي كانت تخضع له من جهة أخرى ثروة العالم. وما إن يُقطعُ نهر الفرات حتّى يبدأ بالنسبة إلينا بلد الأخطار والسراب والرمال التي يغوص فيها الإنسان والطرقات التي تنتهي من غير أن تُفضي إلى مكان. وكان سينتج عن أدنى نكوص زعزعةُ الهالة المحيطة بنا زعزعةً قد تعقبها جميع الأخطار؛ فلم يكن الأمر يتمثّل في الانتصار، بل في الانتصار على الدوام، ولسوف تُنْهَك قوانا من جرّاء هذا المشروع. ولقد سبق لنا أن جرّبنا الأمر: كنت أفكّر بفزعٍ في رأس «كراسوس» [سياسي وقائد عام روماني (١١٤ ـ ٥٣ ق.م.)] المقذوف به من يدٍ إلى يدٍ وكأنّه كرة يُرمى بها في تمثيليَّة «كاهنات معبد باخوس» لـ «أوريبيد» التي أمر بعرضها ملك من البرابرة مُصطبغٌ ببعض الهلّينيّة عشيّة انتصاره علينا. وكان «تراجان» يفكّر في الثأر لتلك الهزيمة؛ وكنت أفكّر على الأخصّ في منع تكرار حدوثها. فلقد كنت أستشفّ المستقبل بشكل صحيح تقريباً، وهو أمر ممكن على كلّ حال حين تتوافر للمرء المعلومات عن عدد من عناصر الحاضر: لسوف تدفع بعض الانتصارات غير المفيدة شوطاً بعيداً بجيوشنا المُنْتَزَعة بتهوّر من جبهات أخرى؛ ولسوف يتكلّل الإمبراطورالمشرف على الموت بالمجد ونُكلَّف نحن الذين ماتزال أمامهم فسحة للعيش بحلّ جميع المشكلات وإصلاح جميع الأضرار.

لقد كان «قيصر» على حقّ في تفضيل المرتبة الأولى في قرية على المرتبة الثانية في «روما». وليس ذلك بدافع الطموح أو المجد الذي لا طائل تحته، وإنّما لأنّه لا خيار للإنسان الموضوع في المرتبة الثانية إلاّ

بين أخطار الطاعة وأخطار التمرُّد، أو ما هو أكثر سوءاً، أي أخطار التسوية. ولم أكن حتّى الثاني في «روما». فلم يكن الإمبراطور الموشِك على الانطلاق في حملة محفوفة بالخطر قد سمّى بعدُ خليفته: وقد كانت كلّ خطوة إلى الأمام تُفسح في المجال لزعماء هيئة أركان الحرب. وكان هذا الرجل شبه الساذج يبدو لي الآن أشدّ تعقيداً منّي أنا نفسي. وكانت خشوناته وحدها هي التي تُطمئنني: لقد كان الإمبراطور الفظّ يعاملني معاملة ابن. وكنت أنتظر في أوقات أخرى، ما إن يمكن الاستغناء عن خدماتي، أن يُبعدني «پالما» أو يحذفني «كياتوس» من الوجود. فلقد كنت بلا حَوْل: لم أتمكّن حتّى من الحصول على موافقة الفاعلين من أعضاء «مجلس إنطاكية الأعلى» على عقد اجتماع لأنّهم كانوا يخشون أكثر ممّا نخشى ضربات المحرِّضين اليهود الذين قد يكشفون لـ «تراجان» عن دسائس إخوانهم في الدين. ولم يجد صديقي «لاتينيوس ألكسندر» المتحدّر من إحدى الأسر الملكيّة القديمة في «آسيا الصغرى» من يُصغي إليه هو الآخر. وكان «پلين» المبعوث قبل أربع سنوات إلى «بيتينيا» قد مات فيها من غير أن يُتاح له الوقت لإعلام الإمبراطور بالوضع الصحيح الذي عليه العقول والأموال، على افتراض أنّ تفاؤله الذي لا شفاء منه كان سيسمح له بذلك. وكانت التقارير السرّية التي يُرسلها التاجر «الليسيّ» «أوپراموواس»، وكان على علم حسن بشؤون «آسيا»، تتحوّل إلى سخرية على يد «پالما». وكان المُعتَقون يستغلّون أيّام المرض التي تلي أُمسيات السُكْر لإبعادي عن غرفة الإمبراطور: فلقد رفض حاجبه، وهو شخص يُدعى «فوديم»، وكان نزيهاً، وإن بليداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومُوجَّهاً ضدّي، مرّتين أن يفتح لي الباب. وبالمقابل فإنَّ عدوّي الحاكم القنصلي «سيلسوس» اختلى بـ«تراجان» ذات مساء خلوة غير قانونيّة دامت بضع ساعات وخِلْتُ بعدها أنِّي هالك. وأخذتُ أبحث أنَّى استطعتُ عن حلفاء؛ ورَشَوْت عن سعة عبيداً قدماء كان بودّي مختاراً إرسالهم إلى الأشغال الشاقّة؛ وداعبتُ رؤوساً مجعّدة الشعور بشكل مُنَفِّر. وكانت نار خاتم «نرفا» الألماسي قد خَبَتْ.

وعند ذلك تراءت لي أحكمُ عبقرياتي الطيّبة: «پلوتينيا». وكان قد مرّ زهاء عشرين عاماً على معرفتي بالإمبراطورة. وكنّا من الوسط نفسه؛ وفي سنٍّ واحدة تقريباً. وكنت قد رأيتها تحيا بهدوء حياة تكاد تماثل حياتي قهراً وأكثر منها حرماناً من المستقبل. ولقد ساندتني، من غير أن يبدو أنّها كانت تُدرك ذلك، في جميع أوقاتي الصعبة. غير أنَّ الزمن الذي أصبحت لا أستغني فيه عن وجودها كان خلال الأيّام الرديئة التي عشتها في «إنطاكية»، كما لم أكن لأستغني فيما بعدُ عن تقديرها، وظلّ الأمر كذلك إلى يوم مماتها. وأَلِفْتُ تلك الصورة بالثياب البيضاء البسيطة كأشدّ ما يمكن أن تكون عليه ثياب المرأة من البساطة، كما أَلِفْتُ مواقف صمتها وأقوالها الموزونة التي لم تكن قطّ سوى أجوبة، بل أكثر الأجوبة الممكنة وضوحاً. ولم يكن مظهرها يخالف في شيء داخل هذا القصر المتقدّم في عراقته على كلّ روائع «روما»: لقد كانت هذه الفتاة المتحدِّرة من جماعة من مُحْدَثي النعمة جديرة بأن تكون من «السلوقيّين». لقد كنّا متّفقيْن على كلّ شيء تقريباً. وكنّا كلانا نملك حبّ الزخرفة، ثمّ تعرية روحيْنا وتجربة ذهنيْنا على جميع المِحَكّات. وكانت تميل إلى الفلسفة الأبيقوريّة، هذا

السرير الضيّق، ولكن النظيف، الذي كنت أُمدِّد فكري عليه في بعض الأحيان. ولم يكن سرّ الآلهة الذي كان يوسوس في صدري ليُقْلِقَها؛ ولم يكن لها ما لي من ذوق شغوف بالأجسام. فقد كانت عفيفة بدافع النفور ممّا هو سهل، سخيّة عن تدقيقٍ أكثر ممّا هي عن طَبْع، حذرة بتعقُّل، ولكن مستعدّة لقبول كلّ شيء من صديق، حتّى اخطاؤه التي لا يمكن تجنُّبها. وكانت الصداقة خياراً تنخرط فيه بكلّيتها؛ فكانت تنصرف إليها على وجه الإطلاق، وكما لم أكن لأفعل إلّا في الحبّ. ولقد عرفتني خيراً ممّا عرفني إنسان؛ وتركتها ترى ما كنت أهتمّ بإخفائه عن أيّ شخص آخر: بعض الدنايا على سبيل المثال. وأحبّ أن أعتقد بأنّها لم تكتم عنّي من جهتها شيئاً تقريباً. وكان يعوِّض حميميّة الأجساد التي لم يكن لها قطّ من وجود بيننا ذلك التماسُّ بين فِكريْن متمازجيْن بإحكام.

لقد استغنى تفاهمنا عن الاعترافات أوالشروح أو التكتُّمات: كانت الوقائع بحدّ ذاتها كافية. وكانت ترصُدُها خيراً ممّا أفعل أنا. وكان ذلك الجبين الأملس، تحت الضفائر الغليظة التي تقضي الدُّرْجة بها، جبينَ قاضٍ. وكانت ذاكرتها تحتفظ بطابعٍ صحيح عن أدنى الأشياء؛ ولم يكن يحدث لها قطّ، كما كان يحدث لي، أن تتردّد طويلاً أو أن تقرِّر بسرعة فائقة. وكانت تكتشف بلمحة طَرْف أشدَّ خصومي استتاراً؛ وتقدِّر أنصاري ببرودة حكيمة. والحقّ أنّنا كنّا متواطئيْن، بيد أن أشدّ الآذان تمرُّساً كانت تجد مشقّة في التعرُّف على أمارات اتّفاق سرّيّ بيننا. ولم ترتكب قطّ أمامي الخطأ الفظّ بالشكوى من الإمبراطور، ولا الخطأ الأحذق بِعَذْرِه أو بامتداحه. ومن ناحيتي لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكن إخلاصي موضع بحث. وكان «أتيانوس» الذي حضر لتوّه من «روما» ينضمّ إلى تلك المقابلات التي كانت تدوم الليل بطوله أحياناً، إلّا أنَّ شيئاً لم يكن على ما يظهر يُتعب هذه المرأة الرابطة الجأش القابلة للعَطَب. وكانت قد تمكّنت من تعيين مؤدّبي السابق مستشاراً خاصّاً حاذِقةً بذلك عدوّي «سيلسوس». وكان أن استبقاني حذرُ «تراجان»، أو استحالة إيجاد من يحلّ محلّي في الصفّ الخلفيّ، في «إنطاكية»: وكنت أعتمد عليهما في الاستعلام عن كلّ ما لم تكن النشرات لتُعلمني إيّاه. وكان بإمكانهما عند نزول المصيبة أن يجمعا حولي قسماً من الجيش. وكان على خصومي أن يعوّلوا على وجود هذا العجوز المُنَقْرَس الذي لم يكن ينطلق إلّا لمصلحتي، وتلك المرأة القمينة بأن تأخذ نفسها بالجَلَد الطويل الذي يتحلّى به جندي.

ورأيتهم يبتعدون، الإمبراطور على حصانه وهو ثابت الجنان وهادئ بشكل يثير الإعجاب، وزمرة النساء المعذَّبات في المحفَّات، والحرس الإمبراطوري المختلط بكشّافين «نوميديّين» تابعين لِـ «لوسيوس كييتوس» الرهيب. وما إن وصل القائد حتّى سار الجيش الذي كان قد قضى فصل الشتاء على ضفاف نهر الفرات: لقد بدأت الحملة «الپارتيّة» بما لا يدعُ مجالاً للشكّ. وكانت الأنباء الأولى رائعة. لقد فُتحت «بابل» واجتيز نهر «دجلة» وسقطت «المدائن». وخضع كلُّ شيء، كما كان الأمر دائماً، لرباطة الجأش العجيبة التي يتحلّى بها هذا الرجل. وأعلن «شراسين» أمير بلاد العرب عن ولائه فاتحاً بذلك مجرى نهر «دجلة» بأكمله في وجه المراكب الرومانيّة: فأبحر الإمبراطور إلى ميناء «شراكس» في عمق «الخليج الفارسي». ووصل

إلى الشـواطئ الخرافيّـة. وظلّت مخاوفي مقيمـة، بيد أنّي كنت أخفيهـا وكأنّها جرائم؛ فمنِ الخَطَل أن يبكّر الأنسـان في أن يكون عـلى حقّ. وأكـثر من ذلـك أنّي كنت أرتـاب في ذاتي: لقـد ارتكبت ذنب عــدم التصديق الخسيس الذي يمنعنا من الاعتراف بعظمة رجل نعرفـه حقّ المعرفة. وكنت قد نسيت أنّ بعض الكائنـات يزيحـون حدود القَـدَر، ويغيّرون التاريخ. ولقد جدّفتُ على «عبقريّة» الإمـبراطور. وأخـذت أتـآكل في منصبي. وإذا قُـدِّر أن يَحُلّ المستحيـل أفيمكن أن أُسْتَبْعَـد منه؟ وإذ كان كلّ شيء أسهل دائماً من الحكمة فقد راودتني الرغبـة في أن ألبس درع الزَرَد التي كنت ألبسها في الحـروب «السرماتيّـة»، وأن أستخدم نفوذ «پلوتينيا» لجعلهم يستدعونني إلى الجيش. وكنت أحسد أقلّ جندي من جنودنا عـلى غبار طـرقات «آسيـا»، وعلى الاصـطدام بالكتائب المدرّعة في «فارس». وصوّت مجلس الشيـوخ هذه المـرّة على حقّ الإمـبراطـور بـالاحتفـال، لا بـانتصـار واحـد، بـل بسلسلة من الانتصـارات تدوم دوام بقـائه عـلى قيد الحيـاة. وفعلت أنا نفسي مـا ينبغي فعله: نـظّمت أعياداً؛ وذهبت أقـدِّم القرابـين على قمّـة جبـل «كاسيوس».

وفجأة اندلع الحريق الذي كان كامناً في أرض «الشرق» هـذه، في كـلّ مكان دَفعـةً واحدة. فقـد امتنع بعض التجّـار اليهـود عن دفـع الضريبـة في «سلوقية»؛ وثـارت «سـيرين» عـلى الفـور وذبـح العنصرُ الشرقي العنصرَ الإغـريقي؛ والطرقـات التي كـانت تـوصـل القمـح المصـريّ إلى عساكـرنا قـطعتها عصـابـة من المتـديّنـين المتشـدّدين في «أورشليم» [القـدس]؛ وقبض عامّـة اليهود عـلى المقيمين الإغريـق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والرومان في «قبرص» وأجبروهم على التقاتل كما يتقاتل المصارعون في الحلبات. وأفلحتُ في الإبقاء على النظام في «بلاد الشام»، بيد أني كنت ألمح الشرر في عيون المتسوّلين القاعدين على أعتاب الكنائس اليهوديّة، وضحكات الهزء الخرساء على شفاه الجمّالين الغليظة، وحقداً ما كنّا بالإجمال لنستحقّه. وكان اليهود والعرب قد تحالفوا منذ البداية في وجه حربٍ كانت تهدّد بإفلاس تجارتهم؛ بيد أنَّ بني اسرائيل استغلّوا ذلك للوقوف في وجه عالم كان يستبعدهم بسبب تشدُّدهم الديني وشعائرهم الفريدة وتصلّب ربّهم. وإذ عاد الإمبراطور على عجل إلى «بابل» فقد أرسل «كييتوس» لمعاقبة المدن الثائرة: فأضرمت النيران في «سيرين» و«الرُّها» و«سلوقية» وحواضر «الشرق» الهلّينيّة الكبرى عقاباً لها على خياناتها المُعَدَّة في أثناء توقّف القوافل أو المدبّرة بفعل الدسائس اليهودية. ولقد مشيتُ فيما بَعْدُ وأنا أزور تلك المدن التي كان يجب أن يُعاد بناؤها تحت أروقة مهدَّمة بين صفوفٍ من التماثيل المُهَشَّمة. ولجأ الإمبراطور «خسرو» ـ وكان هو الذي أغرى بتلك الثورات ـ على الفور إلى الهجوم؛ وثار «أبغر» ودخل «الرُّها» المحترقة؛ وساعد حلفاؤنا الأرمن ـ وكان «تراجان» يظنّ أنَّ في وسعه الاعتماد عليهم ـ «الستراپيين». ووجد الإمبراطور نفسه بغتة وسط ساحة قتال شاسعة كان عليه أن يُواجِه فيها من كلّ ناحية.

وقد أضاع الشتاء في حصار «هترا» وهي قلعة شبه منيعة قائمة في قلب الصحراء، وقد كلّفت جيشنا آلاف القتلى. واتّخذ عناده أكثر فأكثر شكل إقدام شخصي: فقد كان هذا الرجل المريض يرفض

التراخي. وعلمت من «پلوتينيا» أنّه كان يعاند في تسمية وريثه على الرغم من الإنذار بنوبة قصيرة من الشلل. ولو مات مقلّد «الإسكندر» هذا بدوره من الحُمَّيات أو من البِطنة في ركن غير صحيّ من «آسيا» فسوف تتعقّد الحرب الأجنبيّة بحربٍ أهليّة؛ وسينفجر صراع حتّى الموت بين أنصاري وأنصار «سيلسوس» أو أنصار «پالما». وفجأة انقطعت الأخبار تماماً على وجه التقريب؛ ولم يكن يمسك بخطّ الاتّصال الضئيل بيني وبين الإمبراطور غير العصابات «النوميديّة» الخاصّة بألدّ أعدائي. وفي ذلك العهد بالذات كلّفت طبيبي للمرّة الأولى أن يحدِّد لي على الصدر بالحبر الأحمر موضع القلب: فما كنت لأقبل بالسقوط حيّاً في قبضة «لوسيوس كييتوس» لو حدث ما لا تُحمد عقباه. وانضافت المهمّة الصعبة القاضية بإبقاء حالة السلم في الجزر والأقاليم المحاذية إلى مشاغل وظيفتي الأخرى، بيد أنَّ العمل المضني آناء النهار لم يكن شيئاً يُذكر إذا قُورن بطول ليالي السُّهاد. وكانت جميع مشكلات الإمبراطورية تُرهقني في وقت واحد، إلاَّ أنَّ مشكلتي الخاصَّة كانت أشدّ وطأة. فقد كنت أرغب في السلطة. أرغب فيها لأفرض خططي وأجرّب أدويتي وأبسط السلام. وكنت أرغب فيها على الأخصّ لكي أكون أنا أيّاي قبل أن أموت.

كنت على وشك بلوغ الأربعين. ولو قضيت في ذلك الحين لما بقي منّي غير اسم في سلسلة من أسماء كبار الموظَّفين ونقشاً باليونانيَّة على شرف حاكم «أثينا». وكنت في كلّ مرّة أرى فيها رجلاً يختفي في منتصف العمر ويظنّ الملأ أنّ في وسعه أن يقيس بالضبط ما مرّ به من نجاح وإخفاق أتذكّر أنّي في هذا العمر لم أكن بعدُ موجوداً إلَّا في نظر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نفسي ونظر بعض الأصدقاء الذين كان ينبغي أن يرتابوا أحياناً بي كما كنت أرتاب أنا بنفسي. وفهمت أنَّ هناك قلَّة من الناس يحقِّقون وجودهم قبل موتهم: وقد حكمت على أعمالهم التي انقطعت بمزيد من الرثاء والشفقة. وكان ذلك الوسواس بحياة ملؤها الحرمان يتوقَّف بتفكيري عند نقطة ويجمّده وكأنَّه خُراج. وكانت حال طمعي في الحكم شبيهة بحال العشق الذي يمنع العاشق من الأكل والنوم والتفكير، وحتى من الحبّ ما لم تُستكمل بعض الطقوس. وكانت أشدّ المهمّات إلحاحاً تغدو بلا جدوى مادام كان محظوراً عليَّ ألاَّ أتّخذ بوصفي سيِّداً القرارات التي من شأنها تغيير وجه المستقبل؛ لقد كنت بحاجة إلى التأكّد من أنَّني سأحكم لأجد مذاق كوني مُفيداً. ولم يكن قصر «إنطاكية» هذا الذي سوف أعيش فيه بعد بضع سنوات نوعاً من الجنون والسعادة سوى سجن، بل ربّما كان سجناً لمحكوم عليه بالإعدام. وكنت أبعث بالرسائل السرِّيّة إلى وسطاء الوَحْي من الكهنة، وإلى «جوپتير آمون»، وإلى «كستالي» وإلى «زيوس دوليشين». واستقدمت بعض المجوس؛ وذهبت إلى حدّ إخراج مجرم من زنزانات «إنطاكية» وصلبه ليحزّ ساحرٌ رقبتَه بحضوري على أمل أن تكشف لي المستقبل روحُه المُهَوِّمة لحظة بين الحياة والموت. ولقد أفاد هذا المسكين من ذلك الموقف أنْ أفلت من احتضار أطول مدى، بيد أنّ الأسئلة المطروحة ظلّت بلا جواب. وفي الليل كنت أجرجر نفسي من كوّة إلى كوّة، ومن شرفة إلى أخرى على امتداد قاعات هذا القصر التي لاتزال جدرانها مشقَّقة بفعل الزلزال، راسماً هنا وهناك حسابات فلكيّة على البلاط، مسائلاً النجوم المرتجفة. غير أنَّه كان ينبغي

البحث عن أمارات المستقبل على الأرض لا في مكان آخر.

بعد لأيٍ رفع الإمبراطور الحصار عن «هترا» وقرّر اجتياز «الفُرات» راجعاً، على الرغم من أنَّه لم يكن ينبغي قطّ اجتيازه. وقد زاد في مرارة تلك العودة ومصائبها موجات الحرّ القائظ المبكِّرة ومناوشات النابلين «الپارتيّين». وذات مساء لاهب من شهر أيَّار (مايو) انطلقتُ خارج أبواب المدينة لألاقي على ضفاف نهر «العاصي» الجمْع الصغير الذي أنهَكته الحُمَّيات والكرب والتعب: الإمبراطور المريض و«أتانيوسٍ» والنساء. وأصرّ «تراجان» على قطع الطريق على صهوة حصانه حتىً عتبة القصر؛ وكان يمسك نفسه بمشقّة؛ وقد بدا هذا الرجل الممتلئ حياة أشدَّ تغيُّراً من أيّ شخص آخر بفعل دُنُوٍّ الأجل. وساعده «كريتون» و«ماتيديا» على ارتقاء الدرجات وقاداه للتمدّد على الفراش ووقفا عند رأس السرير. وأخبرني «أتيانوس» و«پلوتينيا» أخبارَ حوادث الحملة التي لم يتّسع مجال رسائلهما المقتضبة لذكرها. وهزّني خبر من تلك الأخبار إلى حدّ أنَّه تربَّع إلى الأبد بين ذكرياتي الشخصيَّة، بين رموزي الخاصّة. فما كاد الإمبراطور المنهوك يصل إلى «شراكس» حتىً جلس فوق الحصى في مواجهة مياه الخليج الفارسي الكثيفة. وكان ذلك في الوقت الذي لم يكن يشكّ فيه بَعْدُ في النصر، بيد أنّ ترامي أطراف الدنيا أرهقه للمرّة الأولى ومعه الإحساس بوطأة السنّ والحدود التي تضيّق علينا جميعاً الخناق. وانحدرت عَبَرات كبيرة على وجنتي هذا الرجل المغضّنتين، وكان يُظَنّ أنَّه غير قادر أبداً على البكاء. وفهم القائد الذي حمل الأعلام الرومانيَّة إلى هذه الشواطئ التي لم يسبق ارتيادها أنَّه لن يُبحر قطّ في هذا البحر الذي طالما حلم به: ولسوف تبقى «الهند» و«آسيا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الـوسطى» وكـلّ هذا «الشرق» الغـامض الذي سَكِـر بـه بُعْـد أسـماءً وأحـلاماً بـالنسبة إليـه. وفي اليوم التـالي أجبرتـه الأنباء السيِّئـة عـلى الرحيل. وكنتُ في كلّ مرّة يقـول لي فيها القَـدَر: «لا»، أتذكّـر تلك الدموع التي ذرفها ذات مساء على شاطئٍ بعيد رجلٌ عجـوز ربَّما كـان ينظر إلى حياته مواجهةً للمرّة الأولى.

صعدت إلى الإمبراطور في الصباح التـالي، وشعرت نحـوه شعوراً بَنوِيّاً، شعوراً أَخَوِيّاً. فقد كان هذا الرجل الـذي طالما اعتزّ بـالعيش والتفكير في كلّ شيء على طريقة كلّ جنـدي في جيشه يُنهي حيـاته في وحـدة مُطلَقـة: فـإذ كـان مُستلقياً في سريـره فقد ظـلّ يركّب خـططاً فخمة لم يكن أحد ليُعيرها انتباهاً. وكما كانت حـاله عـلى الدوام فـإنّ كلامه الجافّ الحازم كان يُقَبِّح فكـره؛ وقد حـدَّثني مؤلِّفاً كلماتـه بعناء كبير عن الاحتفال الذي كان يُحضَّر له في «روما». وكـان يُنكر الهـزيمة إنكاره الموت. وأصيب بنـوبة ثـانية بعـد يومـين. واستؤنفتْ محادثـاتي المكروبة مع «أتيانوس»، ومع «پلوتينيا». وكان تبصُّر الإمبراطورة قـد رفع صديقي القديم إلى المرتبة النافذة، مرتبة رئيس الحاكميّة، فوضع بإمرتنا على هذا النحو الحرس الإمبراطوري. وكانت «ماتيديـا» التي لم تكن تفـارق غرفـة المريض في صفّنـا بكلّيّتها؛ ومن جهـة أخرى فـإنّ هـذه المـرأة البسيـطة الـرقيقـة الحـاشيـة كـانت من شمـع بـين يـدي «پلوتينيا». بيد أنّ أحداً منّا لم يكن يجـرؤ على تـذكير الإمـبراطور بـأنّ مسـألة الخـلافة كـانت لاتزال معلّقـة. وقد يكـون قرّر، شـأنه شـأن «الإسكندر»، ألاّ يسمّي وريثه بنفسه؛ وقد يكـون ملتزماً تجـاه حزب «كييتوس» التزاماتٍ لا يعرف بهـا إلاّ هو نفسـه. وأبسط من هذا أنّـه

كان يرفض مواجهة نهايته: يُشاهد على هذا النحو في العائلات شيوخ متعنّتون يموتون بلا وصيَّة. والمسألة في نظرهم هي ألاَّ يجدوا أنفسهم قبل الأوان في وضع الراحل الذي لم يَعُدْ يملك اتّخاذ القرارات ولا إحداث المفاجآت ولا إغداق التهديدات أو الوعود على الأحياء، أكثر ممًّا هي مسألة الاحتفاظ حتىً النهاية بثروتهم، أو بإمبراطوريّتهم التي لم تَعُدْ أصابعهم الخَدِرة ممسكة بها إلاًّ نصف إمساك. وكنت أرثي له: كنَّا مختلفيْنَ كثيراً لكي يتمكّن هو من أن يجد فيّ ذلك المتمّم الوديع المُؤْتَمَن سلفاً على الطرائق نفسها، وحتىً على الأخطاء المتكرِّرة التي يجهد معظم الذين مارسوا سلطة مطلقة في البحث عنها على سرير موتهم. غير أنَّ الدنيا حوله كانت خالية من رجال الدولة: وكنت الوحيد الذي في وسعه أَخْذُه من دون أن يُخِلَّ بواجباته بوصفه موظَّفاً جيِّداً وأميراً كبيراً: لقد كان هذا الزعيم المتعوّد أن يقدِّر أحوال الخدمة، شبهَ مضطرٍّ للقبول بي. وكان ذلك سبباً وجيهاً جدّاً على كلّ حال لكي يبغضني. وشيئاً فشيئاً عاودته صحّته بما يكفي بالضبط للسماح له بترك الغرفة. وأخذ يتحدّث عن القيام بحملة جديدة؛ ولم يكن هو نفسه ليُصدِّق ذلك. ونجح طبيبه «كريتون» الذي كان يخشى عليه من حمارّة القيظ بإقناعه في نهاية الأمر بأن يسافر إلى «روما». وفي المساء الذي سبق رحيله استدعاني إلى متن السفينة التي كانت ستعيده إلى «إيطاليا» وعيّنني قائداً أعلى مكانه. واكتفى بهذا الحدِّ من الالتزام. غير أنَّ الأساسي لم يكن قد تمّ.

وخلافاً للأوامر المعطاة بدأت على الفور، ولكن بشكل سرّي، محادثاتِ سلام مع «خسرو». وكنت أراهن على أنَّه لن يكون عليَّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالأرجح أن أقدِّم حسابات إلى الإمبراطور. وبعد أقلّ من عشرة أيَّام أيقظني في صميم الليل وصول رسول: لقد عرفت فيه على الفور شخصاً موثوقاً به لدى «پلوتينيا». وكان يحمل إليَّ رسالتين: إحداهما رسميّة لإعلامي بأنَّ «تراجان» قد أُنزل لعجزه عن تحمّل ركوب البحر في «سيلينونت بسيليسيا» حيث يرقد مُثْقَلاً بالمرض في بيت أحد التجّار. والثانية، وكانت سرّيَّة، لإنبائي بموته الذي تَعِد «پلوتينا» بإخفائه أطول وقت ممكن، مانحةً إيايَ بذلك الامتياز بأن أكون أوّل من يعلم به. ورحلتُ على الفور إلى «سيلينونت» بعد أن اتّخذت جميع التدابير اللازمة لتأمين حاميات شاميّة. وما كدت أرحل حتّى تلقيّت بريداً يخبرني رسميّاً بوفاة الإمبراطور. وكانت وصيّته التي تعيّنني وريثاً له قد أرسلت للتوّ إلى «روما» بيدٍ أمينة. وكان كلّ ما حُلم به بشكل محموم منذ عشر سنوات ودُبِّر ونوقش أو كُتم أمره قد اختُصر في رسالة من سطرين مكتوبة باليونانيَّة بيدٍ ثابتة بخطّ امرأةٍ دقيق. وكان أوّل من سلّم عليّ بلقب الإمبراطور هو «أتيانوس» الذي كان ينتظرني على رصيف «سيلينونت».

وهنا بالذات، في هذا الفاصل الزمني بين إبحار المريض ولحظة موته، تندرج سلسلة من الأحداث سوف يصعب عليّ إلى الأبد إعادة تنسيقها، مع أنَّه قد انبنى عليها مصيري. ولقد قرّرتْ تلك الأيام القليلة التي قضاها «أتيانوس» والنساء في ذلك البيت الذي يقيم فيه أحد التجّار، أمرَ حياتي، غير أنَّها هي بالضبط ـ كما هو الأمر بالنسبة إلى ذات أصيلٍ فوق نهر النيل ـ التي لن أعرف عنها شيئاً إلى الأبد، وذلك لأنّه يهمّني بالتحديد أن أعرف عنها كلّ شيء. إنَّ آخر

المتسكّعين في «روما» يملك رأياً في هذه المشاهد من حياتي، غير أنّني أقلّ الناس معلوماتٍ عنها. ولقد اتّهم أعدائي «پلوتينيا» بأنّها استغلّت احتضار الإمبراطور لتجعل ذلك المُشْرِف على الموت يَخطّ بضع الكلمات التي تورثني الحُكْم. وهناك مُفْتَرون أشدُّ غلظةً ذهبوا إلى حدّ تصوير سرير ذي ستائر، وشعاع مصباح ضئيل، والطبيب «كريتون» مُملياً رغبات «تراجان» الأخيرة بصوت يحاكي صوت الميت. وأشيع أنّ الحاجب «فوديم» الذي كان يكرهني، والذي لم يتمكّن أصدقائي قطّ من شراء صمته، قد هلك من جرّاء ذلك على الأرجح بفعل حمّى خبيثة في اليوم التالي لوفاة سيّده. وإنّ في صور العنف والدسيسة هذه ما لا يُدرى كنهه ممّا يؤثّر في المخيِّلة الشعبيّة، وحتى في مخيلتي أنا نفسي. ولن يكدّر صفوي أن يكون عدد من الناس الشرفاء قمينين بالإيغال من أجلي إلى حدّ ارتكاب الجريمة، ولا أن يكون إخلاص الإمبراطورة قد دفع بها شوطاً بمثل هذا البُعْد. فلقد كانت تعرف الأخطار التي يمكن أن يُلحقها بالدولة قرارٌ لم يُتّخذ؛ وإنّي لأحترمها بما يكفي للاعتقاد بأنّها كانت ستقبل بارتكاب تزوير ضروري لو دفعتها إلى ارتكابه الحكمةُ والحسُّ المشترك والمصلحةُ العامّة والصداقة. ومذّاك وأنا أحمل بين يديّ تلك الوثيقة التي عارضها خصومي بعنف: فلست أستطيع أن أقف في صفّ صحّة تلك الرغبة الأخيرة الصادرة عن مريض أو ضدّها. وإنّي لأفضِّلُ بالطبع أن أفترض بأن يكون «تراجان» نفسه، وقد ضحّى قبل موته بأفكاره الشخصيّة المسبّقة، هو الذي ترك الإمبراطوريّة بملءِ إرادته لمن كان يراه على كلّ حال أجدَر الناس بها. ولكن عليَّ أن أعترف بأنَّ الغاية كانت تهمّني في هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشأن أكثر ممّا تهمّني الوسائل: فالجوهريّ هو أن يُثْبِت الرجل الذي وصل إلى سدّة الحكم بأنّه كان يستأهل فيما بَعْدُ أن يزاولها.

أُحرق الجسد على الشاطئ بعد وصولي بقليل بانتظار المأتم المهيب الذي سيُقام في «روما». ولم يحضر أحد تقريباً الحفل البسيط جداً الذي تمّ عند الفجر ولم يكن إلاّ الفصل الأخير من الرعاية البيتيّة الطويلة التي كانت تحيط بها النساءُ شخصَ «تراجان». وكانت «ماتيديا» تبكي بحرقة؛ وكان تموّج الهواء حول المحرقة يشوِّش قسمات «پلوتينيا». وإذ كانت هادئة ومتحفِّظة ومهدودة قليلاً بفعل الحمّى فقد ظلّتْ كالعهد بها دائماً واضحة العصيان على الفهم. وسهر «أتيانوس» و«كريتون» على أن يتمّ كلّ شيء كما يليق. وتبدّد الدخان القليل في هواء الصباح الشاحب الخالي من الظلال. ولم يَعُدْ أيّ من أصدقائي إلى الأحداث التي حدثت في الأيام القليلة التي سبقت موت الإمبراطور. وكانت أوامرهم بالطبع أن يصمتوا؛ وأمّا أمري فكان عدم طرح أسئلة خطِرة.

وفي اليوم نفسه أبحرت الإمبراطورة الأرملة وخاصّتها إلى «روما». وعدتُ إلى «إنطاكية» مصحوباً طوال الطريق بهتافات الفيالق. وكان هدوءٌ خارقٌ قد استحوذ عليّ: لقد بدا الطموح والخشية وكأنّهما كابوس انقضى وزال. ومهما كان سيحدث فإنّني كنت عازماً دائماً على الدفاع حتّى النهاية عن حظوظي الإمبراطوريّة، غير أنّ وثيقة التبنّي كانت تبسِّط جميع الأمور. ولم تكن حياتي الخاصّة تشغلني قطّ: لقد كان في وسعي من جديد التفكير في سائر الناس.

الاستقرار على الأرض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت حياتي قد عادت إلى الانتظام، وأمّا الإمبراطورية فلا. وكان العالم الذي ورثته يشبه رجلاً في شرخ الشباب، ولايزال صلباً بالرغم من إبدائه مسبّقاً لعين الطبيب أمارات لا تُلمح من البِلى، بيد أنّه كان قد مرّ باضطراباتِ مرضٍ عُضال. وعادت المفاوضات إلى الوجود، وبشكل مفتوح مذّاك؛ وأخذت أنشر في كلّ مكان أنّ «تراجان» نفسه كان قد كلّفني بذلك قبل موته. وشطبت بجرّة قلم الغزوات الخطِرة: لم يشمل ذلك بلاد «ما بين النهرين» وحسب، وإنّما شمل أيضاً «أرمينيا» المتداخلة جدّاً والبعيدة جدّاً، ولم أحتفظ بها إلّا بوصفها دولة تابعة. وذُلّلت عقبتان أو ثلاث، كان من الممكن أن تُديم سنواتٍ مؤتمراً للصلح إذا كان في مصلحة المعنيّين الأساسيّين أن يمطّوه، بوساطة التاجر «أوپراموإس» الذي كان «السترابيّون» يُعيرونه آذانهم. وجهدتُ في أن أُدخِل على المحادثات تلك الحميَّة التي يحتفظ بها الآخرون لساحة المعركة؛ لقد كنت أصطنع السلام. وكان شريكي راغباً فيه على الأقلّ مثل رغبتي: ولم يكن «الپارتيّون» يفكّرون في غير إعادة فتح الطرق التجاريّة بين «الهند» وبيننا. وما هي إلّا أشهر قليلة على الأزمة الكبرى حتّى فرحت برؤية صفوف القوافل تعود إلى التشكُّل على ضفّة «العاصي»؛ وعادت الواحات تعمر بتجّار يناقشون الأخبار على ضوء نيران المطابخ حاملين كلّ صباح مع سلعهم التي سينقلونها إلى بلاد مجهولة عدداً من الأفكار والكلمات والعادات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخاصّة بنا بالذات، إذ ما لبثت أن استحوذت تدريجاً على الكرة الأرضيّة بأوثق من استحواذ الفيالق الماشية إلى القتال. وعاد تداول الذهب وانتقال الأفكار الذي يماثل انتقال الهواء الحيويّ إلى العروق خفّةً، إلى داخل جسد الدنيا الكبير؛ ورجع نبضُ الأرض إلى الخفقان.

وسقطت حمّى التمرّد بدورها. وقد كانت من العنف في «مصر» بحيث انبغى إقامة ميليشيات من الفلّاحين على عجل بانتظار المَدَد من عساكرنا. وكلّفت على الفور رفيقي «مرسيوس تربو» بإعادة النظام إليها، الأمر الذي فعله بصلابة حكيمة. بيد أنَّ النظام في الشوارع ما كان ليكفيني إلّا نصف كفاية؛ لقد كنت أريد إصلاحه، إن أمكن، في الأذهان، أو جعله يسيطر عليها بالحري للمرّة الأولى. وقضيت أسبوعاً بكامله في «پيلوز» [هي «التينة» اليوم] للموازنة بين الإغريق واليهود، وهما الفريقان المختلفان أبداً. ولم أشاهد شيئاً ممّا كنت أريد مشاهدته: لا ضفاف «النيل» ولا متحف «الإسكندريّة» ولا تماثيل الهياكل؛ وقد وجدت بعد لَأي وسيلة لقضاء ليلة من الملذّات في «كانوپ» [هي اليوم أطلال بالقرب من «أبوقير»]. وانقضت ستّة أيّام لا تنتهي في مِرجل المحكمة التي كانت تحميها من الحرّ الخارجي ستائر طويلة من ألواح الخشب تصطفق بفعل الريح. وكان بعوض ضخم يطنّ في الليل حول المصابيح. وقد حاولت أن أثبت للإغريق أنّهم لم يكونوا على الدوام أكثر الناس حكمة، ولليهود أنّهم لم يكونوا أبداً أشدّ الناس نقاء. ولم تكن أغاني الهجاء التي كان أولئك الهلّينيّون من نوع خسيس يُزعجون بها خصومهم أقلّ غباء على

الإطلاق من شتائم اليهود الفظّة. ولم يساور يوماً هذين العرقين اللذين كانا يعيشان بيتَ بيتَ الفضولُ إلى التعارف، ولا الاحتشام بأن يتقبّل بعضهم بعضاً. وكان المتظلّمون المنهوكون الذين يخلون المكان في ساعة متأخّرة من الليل يَلْقَوْنني فوق مقعدي عند الفجر وهم لايزالون مشغولين بغربلة كومة الأقذار من الشهادات الزائفة؛ وغالباً ما كانت الجثث المطعونة بالخناجر التي يقدّمونها إليّ على أنها وثائق إثبات، جثث مرضى ماتوا في فراشهم أو سُرقوا من المكفنين. غير أنّ كلّ لحظة من لحظات الركود المؤقّت كانت انتصاراً، هشّاً كما هي كلّ الانتصارات؛ وكلّ شجار مسوّى سابقة ورهناً في قابل الأيّام. ولم يكن يهمّني كثيراً أن يكون الاتّفاق الحاصل خارجيّاً، أو المفروض من خارج، ابن ساعته على الأرجح: لقد كنت أعلم حقّ العلم أنّ الشرّ كالخير قضيّة اعتياد ورتابة، وأنّ المؤقّت يمتدّ، وأنّ الخارج يرشح إلى الداخل، وأنّه إذا طال الأمر بالقناع أصبح وجهاً. ولمّا كان للحقد والبلاهة والهذيان تأثيرات قابلة للدوام فإني لم أكن أرى لماذا لا يكون للوضوح والعدل وحسن الرعاية تأثيراتها. ولم يكن النظام على الحدود شيئاً إذا لم أُقْنِع هذا المتاجر اليهودي بالأثواب العتيقة أو ذلك الجزّار اليوناني بالعيش جنباً إلى جنب بسلام.

كان السلام غايتي، ولكنّه لم يكن قطّ وَثَني؛ حتّى إنّ كلمة مَثَلٍ أعلى لا تروق لي بوصفها بعيدة جدّاً عن الواقع. وكنت قد فكّرت في أن أدفع برفضي الغزوات إلى نهايته بالتخلّي عن «داسيا»، وكنت فعلتُ لو كان في مُكنتي أن أقطع مباشرة من غير جنون مع سياسة سلفي، لكنّه كان من الأفضل أن أستخدم أحكم استخدام ممكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هـذه الأربـاح التي تحقَّقت قبـل تسلُّمي الحكم وسبق أن سجّلهـا التـاريخ. وقـد مات «يـوليوس بـاسوس» الـرائـع، أوّل حـاكم لهـذا الإقليم الـذي تمّ حديثاً تنظيمـه، وهو يعمـل، مثلما كـان ينبغي أن أهلك أنا نفسي خلال السنة التي قضيتها عـلى الجبهات «السرمـاتيّة»، مقتولاً بيد هذه المهمّة غـير المجيدة القـاضية بنشر السـلام بلا كلل في بلد اعتُقِد أنّه أُخضع. وأقمت له في «رومـا» مأتمـاً احتفاليّـاً من المآتم المخصَّصـة في العادة لـلأباطـرة؛ وكـان هـذا التكـريم لخـادم مخلص ضُحِّي بـه بشكل مُبهم، آخِـرَ وأخفى احتجاجٍ أَبْـدَيْتُه عـلى سياسـة الفتوح: فلم أكن بحاجة إلى إبطالها جهراً مذ أصبحتُ مطلقَ السيادة في القضاء عليها. وبالمقابل فإنَّ قمعـاً عسكريّـاً كان يفـرض نفسه في «موريتانيا» حيث كان عملاء «لوسيـوس كييتوس» يحضِّرون لقـلاقل؛ ولم يكن ذلك يستدعي حضوري على الفـور. وكان الأمـر كذلـك في «بـريطانيـا» حيث استغلّ «الكـاليدونيّـون» انسحاب العسـاكر الـذي استدعتْه حـرب «آسيا» فـأبادوا الحـاميات غـير الكافيـة المتروكـة على الحـدود. وقد تكفّـل بذلـك «يوليـوس سيفـيروس» عـلى أسرع وجـه بانتظار أن يتيح لي تنظيم الشؤون الرومانيَّة فرصَةَ القيام بهـذه الرحلة البعيـدة. لكنّه كـان يُثقل قلبي أن أنهي بنفسي الحـرب «السرمـاتيَّـة» المعلّقة وأن أدفع إليها هذه المرّة بالعـدد اللازم من العسكـر للخلاص من عمليات النهب التي يقوم بهـا البرابـرة. وذلك لأنيّ كنت أرفض، هنـا كما في كـلّ مكان، أن أخضـع لنهج. فقـد كنت أتقبَّـل الحـرب بوصفها وسيلة إلى السلم إذا لم تكن المفاوضات لتكفي، عـلى طريقـة الـطبيب الذي يقـرّر الكيّ بعد أن جـرّب ما هـو أبسط منه. إنَّ كـلّ

شيء في الشؤون الإنسانيّة هو من التعقيد بحيث كان سيكون لحكمي السلمي هو الآخر لحظاته الخاصَّة بالحرب، كما أنَّ لحياة قائد كبير، شاه أو أبي، فواصلها السلميّة.

وقبل أن أصعّد باتجاه الشمال لوضع حدٍّ نهائي للنزاع «السرماتي» قابلت «كييتوس». لقد ظلّ جزّار «سيرمين» مُريباً. وكان أوّل عمل قمت به هو حلّ كتائب كشّافته «النوميديّين»؛ وقد بقي له مكانه في مجلس الشيوخ ومنصبه في الجيش النظامي وذلك المضمار الشاسع من الرمال الشرقيَّة التي كان فى وسعه أن يتّخذ منها، كما يشاء، موثباً أو منفى. ودعاني إلى رحلة صيد في «ميزيا» وسط الغابات، ودبّر لي بحذق حادثاً كنت سأدفع فيه بالتأكيد حياتي لو قدِّر لي من الحظّ أقلَّ ممَّا كان أو لو كانت لياقتي البدنيَّة دون التي أملكها. وكان من الأفضل ألَّا أرتاب في الأمر، وأن أصابر وأنتظر. وحدث بعد ذلك بقليل، في «موييزيا السُّفلى»، في الوقت الذي أتاح لي فيه استسلام الأمراء «السرماتيّين» أن أتدبّر أمر عودتي إلى «إيطاليا»، أن كشفت لي بعض الرسائل المرمّزة المتبادلة بيني وبين مؤدِّبي السابق أنّ «كييتوس» العائد على عَجَل إلى «روما» قد قابل «پالما». وكان عدوّانا بصدد تحصين مواقعهما وإعادة تنظيم عساكرهما. فلم يكن أيّ أمانٍ ممكناً مادام هذان الرجلان في مواجهتنا. وكتبت إلى «أتيانوس» أن يتصرَّف بسرعة. وضرب هذا الهَرِم كالصاعقة. فقد تجاوز أوامري وخلّصني دفعة واحدة من جميع من كان قد بقي لي من أعداء مُعْلَنين. ففي يوم واحد، وفي ساعات متباعدة قليلاً، قُتل «سيلسوس» في «بايس» و«پالما» في دارته في «تيراسين» و«نيغرينوس» في «فاڤنسيا» على عتبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بيت مسرّاته. وقضى «كيبتوس» في أثناء سفره وهو خارج من اجتماع تآمريّ مع المتواطئين معه، على درجة العربة التي كانت تقلّه إلى المدينة. وانهالت موجة من الإرهاب على «روما». ولا بدّ أنّ «سرڤيانوس»، نسيبي السابق ـ وكان قد خضع في ظاهر الأمر لطالعي السعيد، وإن كان يتوقّع بجشعٍ تعثُّراتي القادمة ـ قد شعر بموجة من الفرح كان، ولا ريب، أفضلَ ما عرفه في حياته من شهوات. وعادت جميع الشائعات المشؤومة الدائرة حولي تحظى بالقبول والرضا.

لقد تلقّيت هذه الأخبار وأنا على متن السفينة التي كانت تُقلّني إلى «إيطاليا». وقد صعقتني. والمرء يسعد طبعاً بالخلاص من خصومه، غير أنّ مؤدِّبي كان قد أبدى حيال نتائج عمله البعيدة ما يُبديه شيخ من لامبالاة: كان قد نسي أنّ عليّ أن أعايش عقابيل أعمال القتل تلك خلال عشرين عاماً. وأخذت أفكّر في أوامر النفي الصادرة عن «أوكتاڤيوس» وقد لطّخت إلى الأبد ذكراه بعد أن أصبح يُعرف باسم «أغسطس»، وفي جرائم «نيرون» الأولى التي أعقبتها جرائم أخرى. وتذكّرت الأعوام الأخيرة التي قضاها «دوميسيان»، هذا الرجل القليل الذكاء الذي لم يكن أسوأ من غيره، والذي حرمه الخوف المفروض عليه رويداً رويداً من شكله الإنساني، وقد مات داخل القصر مثل بهيمة حوصرت وسط الأحراج. ورأيت حياتي العامّة تُفلت منّي: كان السطر الأوّل من النقش يحمل، محفورةً بعمق، بضع كلمات لن أمحوها أبداً. فلن ينسى مجلس الشيوخ، هذا الجسم الضعيف جدّاً، ولكنّه ما إن يُضطّهد حتّى يغدو قويّاً، لن ينسى أبداً أنّ أربعة رجال

خارجين من صفوفه قد تمّ إعدامهم بالإجمال بناء على أمري؛ وعليه فسوف يتّخذ ثلاثة دسّاسين ووحش مفترس شعار الشهداء. وأخطرتُ على الفور «أتيانوس» بموافاتي إلى «برانديزيوم» لإفادتي بما فعل.

كان ينتظرني على بُعْد خطوتين من المرفأ، في إحدى غرف النُزُل الموجَّه نحو «الشرق»، وكان «ڤرجيل» قد مات قديماً فيه. وأقبل ظالعاً يستقبلني عند عتبته؛ وكان يعاني من نوبة نقرس. وما إن انفردت به حتّى انفجرت عاتباً: لقد بدأ حكم كنت أريده معتدلاً، مثاليّاً، بأربعة إعدامات واحد منها فقط لم يكن منه بدّ، وقد أهمل بشكل خطِر إحاطته بأشكال شرعيّة. ولسوف يؤخذ عليَّ هذا الإفراط في القوّة بحيث أُلزم نفسي فيما بعدُ بأن أكون رحيماً أو متردِّداً أو عادلاً؛ ولسوف يُستخدم ذلك للبرهنة على أنَّ فضائلي المزعومة لم تكن إلّا سلسلة من الأقنعة لكي أحوك لنفسي خرافة مُبْتَذَلة عن طاغية، ربّما لاحقتني حتّى نهاية «التاريخ». وأخذت أعلن عن خوفي: فلم أكن أشعر بأنّي أكثر عصمة من القسوة منّي من أيّ نقيصة بشريّة: كنت أستقبل النقطة المشتركة التي تقضي بأن تستدعي الجريمةُ الجريمةَ، وصورةَ الحيوان الذي ذاق للمرّة الأولى طعم الدمّ. وكان صديق قديم بدا لي إخلاصه مؤكّداً قد بدأ يستقلّ برأيه مستغلّاً أمارات الضعف التي ظنّ أنّه اكتشفها فيَّ؛ ولقد دبّر أمره، تحت غطاء خدمتي، لتصفية حساب شخصيّ مع «نيغرنيوس» و«پالما». وكان يُفْسِد ما أبذل من جهد لنشر السلام؛ ويهيّئ لي أَحْلَكَ رجعة إلى «روما».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واستأذن الرجل العجوز بالجلوس، وأراح على طنفسةٍ ساقَه المغلَّفة بالأربطة. وألقيت وأنا أتكلّم غطاء على هذه الرِجْل المريضة. وتركني أفعل مبتسماً ابتسامة النحويّ المُصغي إلى تلميذه وهو يتدبَّر أمره بشكل جيِّد نوعاً لإسماعه محفوظة صعبة. وعندما انتهيت سألني بحزم عمّا كنت أردت فعله بأعداء النظام. فلقد كان بالإمكان البرهنة، إذا اقتضى الأمر، على أنّ أولئك الرجال الأربعة كانوا قد دبّروا أمر موتي؛ وقد كان لهم على كلّ حال مصلحة في أن يفعلوا. إنَّ كلّ انتقال من حكم إلى آخر يقود إلى عمليات تنظيف؛ وكان قد تكفّل بهذه العمليّة ليحافظ لي على نظافة يديّ. وإذا كان الرأي العام يطالب بضحيَّة فليس أسهل من أن يُنزع منه منصبه حاكماً أوّل في المحكمة العليا. وكان قد توقّع هذا التدبير؛ ونصحني باتّخاذه. وإذا اقتضى الأمر أكثر من ذلك لإرضاء مجلس الشيوخ فسوف يوافقني على الذهاب إلى حدّ العزل أو النفي.

لقد كان «أتيانوس» فيما مضى المؤدِّب الذي يمكن أن يُستلف منه مال، والمستشار النصوح في الأيام الصعبة، والوكيل المخلص، ولكنّها كانت المرّة الأولى أنظر فيها بانتباه إلى هذا الوجه الحليق الوجنتين بعناية، وهاتين اليدين المشوّهتين المشبوكتين بهدوء فوق مقبض عصا من الأبنوس. وكنت على معرفة كافية بمختلف عناصر حياته إنساناً ناجحاً: امرأته العزيزة عليه التي كانت صحّتها تتطلّب الرعاية، وبناته المتزوّجات وأولادهنّ الذين كان يضمر لهم مطامح متواضعة وثابتة مثلما كانت مطامحه الخاصَّة؛ وحبّه ألوان الطعام الشهيَّة؛ وذوقه الذي لا يتبدّل لأنواع الجَزْع اليوناني المنقوش وللراقصات الشوابّ.

وكان قد منحني حقّ التصدُّر في جميع هذه الأمور: كان همّه الأوّل منذ ثلاثين عاماً أن يحميني، ثمَّ أن يقوم على خدمتي. وكان يبدو لي هذا التفاني العاديّ من رجل نحو رجل ـ أنا الذي لم يكن له بَعْدُ ما يفضِّله على الأفكار أو المشاريع أو على صورة لما سيكون عليه في المستقبل على أبعد حدّ ـ مُعْجِزاً لا يُسْبَر غَوْرُه. فما من إنسان جدير به، ومازلت مستمرّاً في عدم البحث له عن تفسير. واتّبعتُ نصيحته: لقد خسر منصبه. وأثبتت لي ابتسامته الرقيقة أنّه كان ينتظر قبول اقتراحه على الأثر. وكان يعلم أنَّه ما كان ليمنعني قطّ أيّ التماس عاصف من صديق قديم أن أتبنّى الجانب الأحكم؛ وما كان هذا السياسيّ المرهف ليريد أن أتصرّف بشكل آخر. بيد أنّه لم يكن ينبغي المبالغة في توسيع مجال نكبته: فبعد بضعة أشهر من حَجْبه تمكّنت من إدخاله مجلس الشيوخ. وكان ذلك أكبر تشريف استطعت إغداقه على هذا الرجل المنتمي إلى الجسم الفروسيّ. وقد حصل على شيخوخة ناعمة لفارس روماني ميسور مزوّد بالنفوذ الذي استحقّه بفضل معرفته الكاملة بالعائلات والقضايا؛ وكثيراً ما كنت ضيفه في دارته القائمة في جبال «ألب». وليس هناك ما يُضير: كنت قد قدّمت القرابين، كما كان يفعل «الإسكندر» عشيَّة إحدى المعارك، لـ «الخوف» قبل دخولي «روما»: وإنَّه ليحدث لي أن أسلك «أتيانوس» في عداد ضحاياي من البشر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت نظرة «أتيانوس» صائبة: إنَّ تِبْر الاحترام كان يكون ليِّناً جدّاً من غير بعض أُشَابَة من خوف. وقد كان مقتل الحكّام الأربعة شبيهاً بقصّة الوصيَّة المدبَّرة: رفضتِ العقول الشريفة والقلوب الفاضلة الاعتقاد بأنّي ضالع فيه؛ وافترض الوقحون أسوأ الافتراضات، بيد أنَّهم ازدادوا إعجاباً بي. وهدأت «روما» بمجرّد أن عرف الناس أنَّ أحقادي كانت قد توقّفت عند هذا الحدّ؛ وأنسى الموتى فجأةً الفرحُ الذي غمر كلَّ إنسان من جرّاء إحساسه بالأمان في شخصه. وأعجب النَّاس أيَّما إعجاب بلطفي لأنَّهم حكموا بأنَّه متعمَّد وطوعيّ ومفضَّل كلّ صباح على عُنْفٍ ما كان ليكون عندي أشدَّ يُسراً؛ وأشادوا ببساطتي لأنَّهم اعتقدوا أنَّها صادرة عن حُسبان. ولقد تحلّى «تراجان» بمعظم الفضائل المتواضعة؛ ومع ذلك كانت المفاجأة بفضائلي أكبر؛ ولو زاد الأمر عن ذلك قليلاً لكان الناس رأوا فيه إفراطاً يقارب الرذيلة. وكنت الرجل الذي كنته قبلاً، بيد أنَّ ما كانوا يحتقرونه غدا سموّاً: بدا اللطف المتطرّف الذي رأت فيه العقول الفظَّة شكلاً من أشكال الضعف، بل ربّما الجُبْن، غلافَ قوّةٍ ناعماً ومصقولاً. ورُفع إلى عنان السماء صبري على المحرِّضين وزياراتي المتعدِّدة لمرضى المستشفيات العسكريَّة وأُلفتي المحبَّة تجاه المحاربين القدماء العائدين إلى منازلهم. ولم يكن ذلك كلّه ليختلف عن الطريقة التي عاملت بها طَوال حياتي خَدَمي والمشتغلين في مزارعي. إنَّ كلّاً منّا يملك من

الفضائل أكثر ممَّا يُظَنّ، بيد أنّ النجاح وحده يُبرزها إلى النـور، وربّما كان ذلك لأنّ النـاس يتوقّعـون منّا ألاّ نمـارسها في ذلـك الحين. وإنّ الكائنات البشـريَّة لتبـوح بأسـوأ ما فيهـا من جوانب الضعف عنـدما تـدهش لعدم كـون أحد سـادات الدنيـا بليداً أو متبجِّحـاً أو قـاسيـاً بشكل أخرق.

كنت قـد رفضت جميع الألقـاب. وكان مجلس الشيـوخ قد أسبـغ عـليّ من دون علمي في الشهـر الأول من حكمي تلك السلسلة من التسميات التشريفيَّة التي تُعقد مثل وشـاح مُهذَّب حـول أعناق بعض الأباطرة. «الـداسي»، «الپارتي»، «الجـرماني»: لقـد أحبّ «تراجـان» هذه الضوضاء الموسيقيَّة الحربيَّـة الجميلة الشبيهة بـالصنوج والـطبول «الپـارتيَّة»؛ ولقـد أثارت في نفسـه أصـداء وتجـاوبـات؛ ولم تكن إلاَّ لتُسخطني وتُطيش صوابي. ونزعت ذلك كلّه؛ وأقصيت كذلك بشكل مؤقّت لقب «أبي الوطن» الرائعَ الذي لم يقبله «أغسطس» إلاَّ في وقت متـأخِّر، والـذي لم أكن أعتبر بعـدُ أنّي أستحقّه. وكـذلـك كـان أمـر المجد؛ فلقد كان مثيراً للضحك أن أوافق عليه من أجـل حرب كـان استحقاقي الأوحد أنْ وضعت حدّاً لها. ولقـد انخدع الـذين رأوا في مواقف الرفض هذه تواضعاً كما انخدع الذين أخذوا عليّ زهوي بها. وكان حسابي للأثر الحادث عند الآخرين أقلّ من حسـابي للامتيـازات العـائـدة إليّ أنـا نفسي. وكنت أرغب في أن تكـون هـالتي من صنعٍ ذاتي، ملتصقة بجلدي وقابلة للقياس على الفور بالكلمات المعبّرة عن المهارة الذهنيَّـة أو القوّة أو الأعـمال المُنْجَزة. والألقـاب، إذا جاءت، فإنّها ستجيء فيما بعد، ألقاباً أخرى، شهـاداتٍ بانتصـاراتٍ أخفى لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكن أجرؤ بَعْدُ على التطلّع إليها. وكان عليَّ في الوقت الحاضر أن أفعل ما فيه الكفاية لأصبح، أو لأكون، «أدريان» في أحسن صوره الممكنة.

يتّهمونني بأنّي قليل الحبّ لـ «روما». ولقد كانت مع ذلك جميلة، في السنتين اللتين حاولنا فيهما أنا والدولة أن يكون أحدنا للآخر، المدينة ذات الشوارع الضيِّقة و«الملاعب» الغاصَّة، بقرميدها الذي بلون اللحم. وكانت «روما»، وقد شوهدت بعد «الشرق» و«اليونان»، مغلَّفةً بنوع من الغرابة ما كان ليعرفها لها قطّ روماني وُلِد واغتذى على الدوام في «المدينة». ولقد عوّدت نفسي من جديد على مواسم شتائها الرطبة المغطّاة بالسُّخام، وعلى مواسم صيفها الإفريقيَّة التي تُعَدِّلها طراوة شلاَّلات «تيبور» وبحيرات «ألب»، وعلى شعبها شبه الريفيّ المتعلّق بصورة إقليميّة بالتلال السبع، بيد أنّ ما يملكه من طموح وانجذاب إلى الربح، وما يتعرّض له من ظروف الغزو والعبوديَّة، تنخرط فيه رويداً رويداً جميع أعراق الدنيا، الأسود الموشوم والجرمانيّ الأشعر والإغريقيّ الضامر والشرقيّ السمين. وتخلّصت من بعض الرهافات: فكنت أغشى الحمّامات العامّة في الساعات التي يُقبل عليها فيها أفراد الشعب؛ وتعلّمت الصبر على «الألعاب»، ولم أكن أرى فيها حتّى ذلك الحين غير تبذير متوحِّش. ولم تكن آرائي قد تغيَّرت: كنت أكره تلك المذابح التي لم تكن البهيمة تملك فيها أيّة فرصة؛ وكنت ألمح مع ذلك شيئاً فشيئاً ما تُحدثه من آثار التطهير المأسويّ في الجماهير غير المثقّفة؛ وكنت أرغب في أن تكون الاحتفالات معادلة في روعتها للتي كان «تراجان» يُقيمها، وأن

يكون فيها مع ذلك مزيد من الفنّ ومزيد من النظام. وأرغمت نفسي على تذوّق مسايفة المصارعين الحقيقيَّة، واشترطت مع ذلك ألاَّ يُكْرَه أحدٌ على مزاولة هذه الحِرفة على الرغم منه. وتعلّمت من فوق منصَّة «السيرك» أن أفاوض الجماهير بواسطة الرُسُل، وألاَّ أفرض عليها الصمت إلاَّ بلطف كانت تبادلني إيَّاه مضاعفاً مئة ضِعف، وألاَّ أوافقها أبداً إلاَّ على ما يكون لها الحقّ بانتظاره منّي بشكل معقول، وألاَّ أرفض شيئاً من غير أن أشرح سبب رفضي. ولم أكن أحمل مثلك كتبي إلى المقصورة الإمبراطوريّة: إنَّه لجرح لكرامة الآخرين أن تُظهر لهم ازدراءك أفراحَهم. وإن كان المشهد يؤلمني ويثير نفوري فإنَّ بذل الجهد لاحتماله كان تمريناً أكثر قيمة من قراءة «أپيكتيتوس» [فيلسوف وعالم أخلاق من المدرسة الرواقية (٥٠ ـ ١٣٠ م.)].

إنَّ الخُلُق عُرْف خاصّ؛ والاحتشام شأن عامّ؛ وكلّ رخصة واضحة للعيان كان وَقْعُها دائماً في نفسي وَقْعَ تفاخر سمج. وقد منعت الحمّامات المختلطة، سبب المشاجرات شبه الدائمة؛ وأمرت بإذابة الآنية الفضّيّة الكبيرة الحجم والعدد، وكان قد أشار بصنعها نَهِمُ «ڤيتلّيوس» [إمبراطور روماني (١٥ ـ ٦٩ م.)]، وأعدت أثمانها إلى خزائن الدولة. فلقد اكتسب قياصرتنا الأُوَل الصيت الكريه بأنَّهم يركضون وراء المواريث: وسننت لنفسي قاعدة أرفض بموجبها للدولة أو لي شخصياً أيّ إرث يمكن أن يعتقد الورثة المباشرون بأنَّ لهم فيه حقوقاً. وحاولت تقليص كميَّة العبيد الهائلة في خدمة البيت الإمبراطوري، وعلى الأخصّ تقليص اجتراء هؤلاء على معادلة أفضل المواطنين، وعلى إلقاء الرعب في قلوبهم في بعض الأحيان: لقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خاطب أحد رجالي يوماً شيخاً من مجلس الشيوخ بوقاحة؛ فأمرت بصفع ذلك الرجل. وبلغ كرهي للفوضى حدّ الأمر بجلد بعض مبذّري الديون في وسط «السيرك». ولكي لا يختلط كلّ شيء فقد ألححت على لبس الثوب الفضفاض أو الصدريّة الأرجوانيّة فوق الثياب، وهي ملابس مزعجة مثل كلّ ما هو تشريفيّ، ولست لأُكره نفسي على ارتدائها إلاّ في «روما». وكنت أنهض لاستقبال أصدقائي؛ وأظلّ واقفاً خلال اجتماعاتي لثورتي على لاأباليّة المسلك القاعد أو المُستلقي. واختزلت العدد الوقح للعربات التي تزدحم بها طرقاتنا لأنّ الماشي أميز من مئة عربة ملتصقٍ بعضها ببعض على طول منعطفات «الطريق المقدّس». واعتدت أن أُحْمَل من أجل زياراتي في محفَّة إلى قلب البيوت الخاصَّة موفِّراً بذلك على مُضيفي عناء انتظاري أو تشييعي إلى الخارج تحت شمس «روما» أو في لفح ريحها الغضوب.

والتقيت ذويّ: كنت أشعر دائماً ببعض الحنان نحو أختي «پولين»، وقد بدا «سرڤيانوس» نفسه أقلّ تنفيراً ممَّا كان في السابق. وحملتْ حماتي «ماتيديا» معها من «الشرق» الأعراض الأولى لمرض مميت: وتفنّنتُ في إلهائها عن آلامها بالمآدب الشهيّة، وفي إسكار هذه السيّدة المسنّة ذات السذاجات المعروفة عن الصبايا، إسكارها ببراءة بإصبع من الخمر. ولم يكن غياب امرأتي التي كانت قد لاذت بالريف في نوبة من نوبات غضبها ليقلّل شيئاً من الملذّات العائليَّة هذه. وربّما كانت من بين جميع الناس المخلوقَ الذي نجحت أقلّ النجاح في إرضائه: والحقّ أنّي حاولت قليلاً جدّاً أن أفعل ذلك. وكنت أغشى البيت الصغير الذي كانت الإمبراطورة الأرملة تنصرف فيه إلى

اللذاذات الجدّيّة التي يوفّرها التأمّل والكُتُب. وأجد من جديد صمت «پلوتينيا» الحلو. وكانت تُنكر ذاتها بلطف؛ وكانت هذه الحديقة وتلك الغُرف المُشرقة تتحوّل أكثر فأكثر كلّ يوم إلى حَرَم خاصّ بِـ «ربّة من ربّات الفنّ»، وهيكل خاصّ بإمبراطورة سبق أن كانت إلهيَّة. ومع ذلك فقد ظلّت صداقتها متطلّبة، بيد أنّه لم يكن لها بالإجمال غير تطلّبات حكيمة.

وعدت ألتقي أصدقائي؛ وعرفت اللذّة الدسمة في استعادة التواصل بعد غيباتٍ طويلة، والعودة إلى الحُكْم على الناس والخضوع لأحكامهم. وكان رفيق الملذّات والأعمال الأدبيَّة السابقة، «ڤكتور ڤوكونيوس»، قد مات؛ وتولّيت مهمّة حفل تأبينه؛ وقد ابتسم الناس لرؤيتي أذكر بين فضائل الفقيد عفَّة كانت ترفضها قصائده بالذات، ورؤيتهم بين الحاضرين في المأتم «تستيليس» ذا الخُصُلات العسليَّة الذي كان «ڤكتور» يدعوه قديماً هَمَّه الجميل. وكان نفاقي أقلّ خشونة ممَّا يبدو: كانت كلّ لذّة يُقْبَل عليها بتذوّق تبدو لي عفيفة. ورتّبت «روما» ترتيب بيت يتطلّع ربّه إلى إمكان تركه من غير أن يتأثّر بغيابه: لقد خاض معاونون جدد تجربتهم؛ وأخذ بعض الخصوم الذين أُعيد ولاؤهم يتعشّوْن في المقرّ الإمبراطوري مع أصدقاء الأيّام الصعبة. وكان «نيراتيوس پريسكوس» يرسم على مائدتي مشاريعه التشريعيَّة؛ وكان المهندس المعماري «أپولودور» يشرح لنا رسومه المُنْجَزة؛ وكان النبيل الواسع الثراء «سييونيوس كومودوس» المتحدِّر من أسرة «أتروريّة» عريقة ذات دمٍّ شبه ملكي ـ وهو خبير بالخمور والناس ـ يُحكم معي مناورتي القادمة في مجلس الشيوخ.

وكان ابنه «لوسيوس سييونيوس»، وهو إذّاك في حوالي الثامنة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عشرة من عمره، يُبهج تلك الحفلات، وكنت أريدها متقشِّفة، بما يتحلّى به أمير شاب من لطف مَرِح. وكانت له في تلك السنّ نزوات غير معقولة ولذيذة: ميله إلى إعداد أطباق نادرة لأصدقائه، وذوقه الرفيع للتزيين بالأزهار، وحبّه المجنون لألعاب القمار والحفلات التنكريّة. وكان الشاعر «مرسيال» «فرجيل» ـه ينشد قصائده الخليعة بتحدٍّ ساحر. وقد منّيت نفسي أماني أزعجتني كثيراً فيما بعد؛ فلقد شغل هذا الوحش الراقص ستّة أشهر من حياتي.

وكثيراً ما كان يغيب «لوسيوس» عن ناظري ثمَّ أعثر عليه من جديد خلال السنوات التي تتلو، حتّى إنّي لأكاد أحتفظ له بصورة مصنوعة من ذكريات متراكبة لا تتوافق بمجملها وأيّة مرحلة من حياته السريعة. وأمَّا الحَكَمُ الوقح قليلاً في شؤون الأناقة الرومانيّة، والخطيبُ المبتدئ المكبّ بحياء على نماذج من أساليب الكتابة، المطالبُ بأن أبدي رأيي في مقطع صعب، والضابطُ الشابّ القلق، المُرهِقُ لحيتَه الخفيفة جدّاً، والمريضُ المهدود بالسُّعال الذي سهرت عليه إلى أيّام الاحتضار، وأمّا ذلك كلّه فإنّه لم يكن له من وجود إلّا بعد ذلك بكثير جدّاً. وتنحصر صورة «لوسيوس» المراهق في طيّاتٍ من الذاكرة أشدّ خفاء: وجه وجسد وبياض لَبَنِيّ شاحب ووردِيّ وعديل كامل لقصيدة غزليَّة من قصائد «كاليماكوس» [شاعر ونحويّ إغريقي (٣١٥ ـ ٢٤٠ ق.م.)]، ولبعض السطور الواضحة والعارية ممّا نظمه الشاعر «ستراتون» [فيلسوف إغريقي من المشائين (مات ٢٦٨ ق.م.)].

غير أنّي كنت متعجّلاً ترك «روما». وكان أسلافي حتّى الآن قد

تغيّبوا عنها بصورة خاصَّة من أجل الحرب: وكانت مشاريعي الكبرى ونشاطاتي السلميَّة، وحتَّى حياتي نفسها، تبدأ بالنسبة إليَّ خارج الأسوار.

وكان قد بقي اهتمام أخير: مَنْحُ «تراجان» ذلك النصر الذي كان قد خامر أحلامه مريضاً. ولا يليق نصر قطّ إلَّا بالأموات. فهناك على الدوام شخص يأخذ علينا مواضع ضعفنا ونحن أحياء، كما كانت الحال قديماً مع «قيصر» وصلعه وغراميَّاته. وأمَّا الميت فله الحقّ بهذا النوع من التدشين وهو في القبر، في هذه الساعات المعدودة من الأبّهة الصاخبة قبل عصور المجد وآلاف السنين من النسيان. وجَدُّ الميت في مأمن من التقلّبات والسوء؛ فحتّى هزائمه تكتسب روعة الانتصارات. ولن يسجّل انتصار «تراجان» الأخير ذكرى غلبة مشكوك فيها تقريباً على «الپارتيّين»، وإنَّما ذكرى الجهد المشرِّف الذي كانته حياته برمّتها. وكنَّا قد اجتمعنا للاحتفال بأفضل إمبراطور عرفته «روما» منذ شيخوخة «أغسطس»، والأكثر مواظبة على العمل، والأنزه والأقلّ جَوْراً. ولم تكن عيوبه نفسها سوى هذه الخصائص التي تُظهر الشبه الكامل بين جذع تمثال من المرمر والوجه. وكانت روح الإمبراطور قد صعدت إلى السماء محمولة على الشكل الحلزوني الثابت لـ «الفيلق التراجاني». وأصبح أبي بالتبنّي إلهاً: كان قد اتّخذ مكانه بين تجسُّدات «مارس» الخالد الحربيَّة التي تأتي من عصر إلى عصر لقلْب العالم وتجديده. وإذ كنت أقف على شرفة المقرّ الإمبراطوري فقد أخذت أقيس تبايُناتي؛ واتّخذت وسائلي لغايات أكثر هدوءاً. وبدأت أحلم بسيادة أولمپيَّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تكن «روما» في «روما»: كـان ينبغي أن تهلك أو أن تُعادل بعـد اليوم نصف الدنيـا. وهذه السـطوح وتلك الشرفات وهـاتيك الجُـزُر الصغيرة من البيوت التي تذهِّبها الشمس الغـاربة بلون ورديّ شـديد الجمال لم تَعُدْ، كما كانت في زمن ملوكنـا، محاطـة بحرص بـالأسوار؛ وكنت أنا نفسي قد أعدت بناء قسم كبير من هذه الأسوار على امتـداد الغابات الجرمانيَّـة والأراضي السبخة الـبريطانيَّـة. وفي كلّ مـرّة كنت أنظر فيها من بعيـد، عند بعض منعـطفات طـريق مُشْمِس، إلى قلعة إغريقيَّة ومـدينتها المتقنـة مثل زهـرة، والمتّصلة بتلّتها اتّصـال التَّوَيْـج بالساق، كنت أشعـر بأنَّ هـذه النبتة التي لا مثيـل لها محـدَّدة بإتقـانها بـالذات، ومُنْجَـزَة في نقطة من الفضـاء وفي مَقْطَع من الـزمن. وكان حظّها الوحيد في النماء، كحظّ نماء النباتات، هو بذرتها: بِذَار الأفكار التي أخصبت اليونان بها العالم. بيد أنَّ «روما» الأثقـلُ، والأشدُ خُلُوّاً من الشكل، والأبهمُ امتداداً في سهلها على ضفَّة نهرها، كانت تتنظَّم باتّجاه عمليـات نمّو أكـثر اتّسـاعـاً: لقد غـدت المدينـة هي «الدولـة».

وكنت راغباً في أن يزيـد اتّساع «الـدولة»، وأن تصبـح نظامَ العـالم، نظامَ الأشياء. وكان على الفضائل التي فيهـا كفايـة للمدينـة الصغيرة ذات التلال السبع أن تلين وتتنـوّع لتلائم الأرض بـأسرها. ولسـوف يـتزايد تمـاثُل «رومـا»، وكنت أوّل من تجـرّأ عـلى نعتهـا بـالخـالـدة، بـالآلهات ـ الأمّهـات في العبادات الآسيـويّة: مُنْسِلَة للفتيـان ولمواسم

الحصاد، ضامّة إلى صدرها آساداً وخلايا نحل. غير أنّ كلّ خَلْق بشري يطمح إلى الخلود ينبغي أن يتكيّف والوتيرة المتغيّرة في الأشياء الطبيعيّة الكبرى ويتوافق مع زمن الكواكب والنجوم. فلم تَعُدْ مدينتنا «روما» البلدة الريفيَّة التي أنشأها «ايفندر» [بطل أسطوري روماني] القديم، الحُبلى بمستقبلٍ سَبَقَ أن انقضى جزء منه؛ لقد قامت «روما» الكاسرة، «روما» الجمهوريّة، بأداء الدور عنها؛ وها هي ذي حاضرة القياصرة الأوائل المجنونة تميل إلى أن تصبح أكثر حكمة؛ وستأتي «رومات» أخرى أَجِدُ صعوبة في تخيُّل وجوهها، ولكنّي أكون قد أسهمت في تكوينها. وعندما زرت المدن القديمة المقدَّسة ولكن المتطوِّرة، وبلا قيمة حاليَّة للعِرق البشري، قطعت على نفسي عهداً بتجنيب مدينتي «روما» هذا المآل المتحجِّر الذي آلت إليه مدينة مثل «طيبة» أو «بابل» أو «صور». فلسوف تنفلت من جسمها الحجريّ؛ وتؤلِّف لنفسها من كلمة «دولة» وكلمة مواطنيَّة وكلمة جمهوريَّة خلوداً آكد. وفي البلاد التي لم تعرف بَعْدُ الثقافة، على ضفاف «الران» أو «الدانوب» أو بحر «الباتاڤيّين»، كانت كلّ قريةٍ محميَّةٍ بواجهة من الأوتاد تذكّرني بخُصّ القصب وكومة الزبل التي كان ينام فيهما توأمانا الرومانيَّان المُشبَعان بلبن الذئبة: لسوف تنقل هذه الحواضر المستقبليَّة صورة «روما». وسنكون قد راكمنا إلى الأبد فوق هذه الأجساد المادِّيَّة الخاصَّة بالأمم والأعراق، وفوق كوارث الجغرافيا والتاريخ، وفوق مطالب الآلهة والأجداد المتفرّقة، ولكن من غير أن نكون قد هدمنا شيئاً، وحدَة مسلك بشريّ، ومذهباً تجريبيّاً حكيماً. وسوف تتأبّد «روما» في أصغر مدينة حيث يجهدُ قضاة في التحقّق من الأوزان التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يستخدمها الباعة، وفي تنظيف شوارعهم وإضاءتها، وفي مقاومة الفوضى والإهمال والخوف والظُلْم، وفي إعادة تفسير القوانين تفسيراً معقولاً. ولن تهلك إلاَّ مع آخر مدينة يَعْمُرها البشر.

«إنسانيّة، سعادة، حريّة»: إنَّ هذه الكلمات الجميلة المنقوشة على النقود المتداولة في عهدي، لم أبتدعها أنا. فأيّ فيلسوف يوناني، وعلى وجه التقريب كلّ رومانيّ مثقَّف يفترض عن العالم الصورة التي أفترضها. وقد سمعت «تراجان» يصرخ قائلاً وقد وُوجه بقانون جائر لأنَّه صارم جدّاً، إنَّ تطبيقه لا يستجيب أبداً لروح العصور. بيد أنّي ربّما كنت أوّل من أخضع بوعي جميع أعماله لروح العصور هذه، وجعل منها شيئاً ليس حُلماً ضبابيّاً من أحلام فيلسوف ولا تطلّعاً مُبْهماً قليلاً من تطلّعات أمير طيّب. ولقد شكرت الآلهة لأنّها أتاحت لي العيش في زمن كانت فيه المهمّة المسندة إليّ تقضي بإعادة تنظيم عالمٍ بشكل حذر، لا باستخراجِ مادّة من السديم لا شكل لها بَعْدُ، ولا بالنوم فوق جثّة لمحاولة بعثها من جديد. وكنت سعيداً بأنَّ ماضينا كان من الطول بما يكفي لأن يقدّم لنا قُدُوات، وبأنّه لم يكن من الثقل بحيث يسحقنا بها؛ وبأنَّ تطوّر تقنيّاتنا كان قد وصل إلى النقطة التي يسهّل عندها المحافظة على الصحّة في المدن، وازدهار الشعوب، لا إلى ذلك الإفراط الذي يوشك أن يحشو الإنسان بالمكتسبات غير المفيدة؛ وبأنّ فنوننا، هذه الشجرات التي أتعبتها وفرة عطائها، ماتزال قمينة ببعض الثمرات اللذيذة. وكت مغتبطاً بأن تكون دياناتنا الغامضة والمبجّلة والمُفْرَغة من كلّ تصلُّب أو طقس عاتٍ قد أشركتنا بشكل خفيّ في أقدم أحلام الإنسان والدنيا، ولكن من غير أن تمنع

علينا تفسيراً عَلْمانيّاً للوقائع، ونظرة عقلانيَّة إلى السلوك البشريّ. وكان يروق لي في النهاية ألَّا تكون تلك الكلمات نفسها عن «الإنسانيَّة» و«الحريَّة» و«السعادة» قد فرغت من قِيَمها لكثرة ما طُبِّقت تطبيقات مضحكة.

وإنّي لألمح اعتراضاً على كلّ جهد لتحسين ظروف الإنسان: وذلك لأنّ الناس قد لا يكونون جديرين به. غير أنّي أستبعده بلا عناء: فما دام حلم «كاليغولا» [إمبراطور روماني (١٢ ـ ٤٩ م)] سوف يبقى عصيّاً على التحقيق، وما دام الجنس البشري بأسره لن يُختصر في رأسٍ واحد يُقَدَّم للسكّين، فسيكون في وسعنا أن نتساهل فيه، وأن نستوعبه، وأن نستخدمه لأغراضنا؛ وسيكون من مصلحتنا بالطبع القيام على خدمته. وكانت طريقتي تستند إلى سلسلة من الملاحظات قمت بها عن نفسي منذ أمد طويل: لقد أقنعني على الدوام كلّ تفسير واع، وغزا قلبي كلّ تهذيب، وجعلني عاقلاً على الدوام تقريباً كلّ هناء. ولم أكن أصغي إلَّا بأُذنٍ واحدة إلى الناس من ذوي المقاصد السليمة الذين يقولون بأنّ السعادة تثير الحفيظة، وبأنَّ الحريَّة تُرَهِّل، وبأنَّ الإنسانيَّة تُفسد من تُمارس عليهم. وقد يكون الأمر كذلك: لكن ذلك يعني، في حالة الدنيا المألوفة، أن تُرْفَض تغذية إنسان ضامر تغذية ملائمة خوفاً من أن يشكو كِظَّة الدمّ بعد سنوات. وعندما يكون المرء قد خفَّف أكثر ما يمكن من التبعيَّات التي لا طائل تحتها، وتجنّب المصائب غير الضروريَّة، فإنَّه يبقى بَعْدُ، للحفاظ على فضائل الإنسان البطوليَّة، سلسلةُ الآلام الحقيقيَّة الطويلة، الموتُ والشيخوخةُ والأمراضُ المستعصيةُ على الشفاء والحبُ غيرُ المُشاطَر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والصـداقةُ الـطويلة المرفـوضةُ أو المخـذولـةُ وتفـاهـةُ حيـاةٍ أضيقَ من مشاريعنا وأشدُّ قتامةً من أحلامنا: جميع المصـائب التي تحدثهـا طبيعة الأشياء الإلٰهيّة.

يجب أن أعترف بأنّي قليـلاً ما أؤمن بـالشرائع. فـإذا كانت قـاسية جدّاً فإنّ المرء ينتهكها، وعن حقّ. وإذ كانت كثيرة التعقيـد فإنَّ تفنُّن البشر يهتدي بسهولة إلى الانزلاق بـين حلقات هـذه الشبكة السـابغة والهشَّة. ويُقابل احترام الشرائع القديمـة أعمقَ ما يتحـلّى به البشر من تقوى؛ ويُتّخذ كذلك مخدّة لخمول القضـاة. وتُشارك أقـدمُها في تلك الوحشيَّة التي تبذل ما في وسعها لتصحيحها؛ وأكثرها قابليّة لـلاحترام هي أيضـاً من نتاج القـوّة. ومعظم قـوانيننا الجـزائيَّة لا تصيب ـ قـد يكون ذلك لحسن الحظّ ـ سوى قسم صغير من المـذنبين؛ ولن تكـون قوانيننا المدنيَّة أبداً من المرونة بحيث تتكيَّف وتنوُّعَ الـوقائـع العريض السيَّال. وهي تتغيَّر بأبطأ ممَّا تتغيَّر التقـاليد؛ وإذ كـانت خطِرة عنـدما تتأخّر عن هذه فإنَّها تصبح أكثر خطراً عندما تتدخّل لاستباقهـا. ومع ذلك فإنَّـه تبرز هنـا وهناك من هـذه الكومـة من التجديـدات الخطِرة والـرتابـات البالية، كما يحدث في الطبّ، بعضُ المعـادلات المفيدة. ولقد علّمنا الفـلاسفة الإغـريق أن نعرف بشكـل أفضل قليـلاً طبيعة البشر؛ وخِيرةُ رجال القانون عندنا يعملون منـذ بضعة أجيـال باتّجـاه الحسّ المُشْتَرَك. وقد قمت أنا نفسي ببعض هذه الإصلاحات الجـزئيَّة التي هي وحـدها قـابلة للدوام. وكلّ قـانونٍ غـالباً مـا يُنْتَهَك قـانونٌ رديء: وعـلى المشترع أن يُلغيـه أو يغيّره خـوفاً من أن يمتـدّ الاحتقـار الذي تردّى فيـه ذلك القـانون المجنـون إلى غيره من القـوانين الأكـثر

عدالة. وقد وضعت نصب عينيَّ تغييباً حذِراً للقوانين الفائضة عن الحاجة، ومجموعةً صغيرة مسنونة بحزم من القرارات الحكيمة. وبدت اللحظة مؤاتية لإعادة تقييم جميع الأنظمة القانونيَّة القديمة بما يتناسبُ ومصلحةَ البشر.

وبينما كنت أزور وحدي ذات يوم في «إسبانيا» بجوار «تراغونيا» منجماً نصف مهجور، انقضّ عليَّ بسكِّين عبدٌ كانت حياته الطويلة قد انقضت بأسرها تقريباً في هذه الدهاليز تحت الأرض. وكان يثأر، لا عن سفاهةٍ قطّ، من شخص الإمبراطور لسِنِيه الثلاث والأربعين في العبوديَّة. ونزعت منه سلاحه بسهولة؛ وعهدت به إلى طبيبي؛ وانفثأ غضبه؛ وتحوّل إلى ما كانه حقّاً، كائناً ليس أقلّ إدراكاً من الآخرين، وأكثر إخلاصاً من كثيرين. وغدا هذا المذنب الذي كان تطبيق القانون بوحشيَّة سيُعدمه على الأثر، خادماً نافعاً لي. ومعظم الناس يشبهون هذا العبد: إنَّهم ليسوا إلاَّ خاضعين أشدّ الخضوع؛ وفترات بلادتهم الطويلة تقطعها بعض الثورات الضارية بقدر ما هي غير مُجدية. وكنت أرغب في أن أرى ما إذا لم تكن حرّيّةٌ موافَقٌ عليها بحكمة أكثرَ نفعاً، وإنّي لأدهش ألاَّ تكون مثل هذه التجربة قد أغرت عدداً أكبر من الأمراء. وهذا البربريّ المحكوم عليه بالعمل في المناجم غدا في نظري شعاراً لجميع عبيدنا، لجميع برابرتنا. ولم يَبْدُ لي مستحيلاً أن نُعاملهم كما كنت قد عاملت هذا الرجل، وأن ندرأ أذاهم بالمعاملة الطيِّبة، شرط أن يعرفوا أوّلاً أنّ اليد التي كانت قد نزعت سلاحهم كانت يداً ثابتة وواثقة. لقد هلكت جميع الشعوب حتّى الآن من جرَّاء قلَّة المروءة: كانت «إسبارطة» عاشت زمناً أطول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لو جعلت «الهيلوتيّين» يهتمّون ببقائها على قيد الحياة؛ ولو توقّف «أطلس» ذات يوم عن حمل ثقل السماء لزلزلت ثورته الأرض. ولقد وددت أن أتراجع إلى أبعد مسافة ممكنة، وأتجنّب إذا أمكن اللحظة التي ينقضّ فيها البرابرة في الخارج، والعبيد في الداخل، على عالَم يُطلب منهم أن يحترموه من بعيد أو يخدموه من أسفل، ولكنّه عالَمٌ ليست مرابحه لهم. وكنت أصرّ على أن يكون لأكثر المخلوقات حرماناً، العبدُ كانساً قمامات المدن، والبربريُّ الجائع المتسكّع على الحدود، مصلحةٌ في دوام «روما».

إنّي لأشكّ في أن تتوصّل كلّ فلسفة الدنيا إلى إلغاء الرقّ: سوف يغيّرون اسمه على أبعد تقدير. وأنا قادر على تخيُّل أشكال من العبوديّة أسوأ من أشكالنا لأنّها أكثر منها مَكْراً: فإمّا أن ينجحوا في تحويل الناس إلى آلات بلهاء وراضية تظنّ نفسها حرّة في حين أنّها مُسخّرة، وإمّا أن ينمّوا فيهم، باستثناء أوقات الفراغ والملذّات البشريّة، تذوّقاً للعمل أشدَّ ضراوة من شهوة القتال عند الأعراق البربريّة. ولاأزال أفضّل رِقّنا القائم على عبوديّة الفكر هذه، أو عبوديّة الخيال البشري. ومهما يكن الأمر فإنّ الحالة المُرْعِبة التي تضع الإنسان تحت رحمة إنسان آخر ينبغي أن تُعالج بدقّة بوساطة القانون. ولقد سهرت على ألاّ يكون العبد تلك البضاعة المُغْفَلَة التي تُباع من غير حساب للروابط العائليّة التي خلقتها لنفسها، أو ذلك الشيء المحتقَر الذي لا يُدوِّن قاضٍ شهادته إلاّ بعد إخضاعه للتعذيب، بدلاً من قبولها بعد حَلْف اليمين. ومنعت إكراهه على الحِرَف الشائنة أو الخطِرة، أو بيعَه إلى أصحاب بيوت الدعارة أو المدارس التي

يتخرّج بها المصارعون. فعلى الذين يستسيغون هذه المهن أن يمارسوها بأنفسهم: ولسوف تُمارَس تبعاً لذلك بشكل أفضل. وفي المزارع التي يفرّط فيها المشرفون بقوّة العبد، أبدلته بقدر الإمكان بعمّال مقيمين أحرار. وكُتُبُ النوادر المتداولة عندنا مليئة بقصص محبّي بطونهم الذين يُلقون بعبيدهم إلى الأسماك المفترسة، غير أنّ الجرائم الفاضحة التي يَسْهُل عقابها ليست شيئاً يُذكر في مقابل آلاف الجرائم الوحشيَّة العاديّة التي يرتكبها يوميّاً أهل اليسار ذوو القلوب الغليظة الذين لا يفكّر أحد في إقلاق راحتهم. ولقد نودي بالويل والثبور عندما طردت من «روما» نبيلةً ثريّةً ومُعْتَبَرة كانت تُسيء معاملة عبيدها الطاعنين في السنّ؛ وإنَّ أقلّ عاقّ يهمل أبويه العاجزيْن ليصدم أكثر فأكثر الرأيَ العام، ولكنّي أرى فرقاً ضئيلاً بين هذين الشكليْنْ اللاإنسانييْنْ.

ويحدِّد وضعَ النساء تقاليدُ غريبة: فهنّ في الوقت نفسه مستعبَدات ومَحْمِيَّات، ضعيفات وقويّات، محتَقرات جدّاً ومحترَمات جدّاً. وفي هذا السديم من العادات المتناقضة يتراكب واقع المجتمع وواقع الطبيعة: ولايزال من الصعب تمييز أحدهما من الآخر. ووضعُ الأمور المختلِطُ جدّاً هذا أشدُّ استقراراً في كلّ مكان ممّا يبدو في الظاهر: فبالإجمال تريد النساء أن يكنّ كما هنّ؛ إنّهنَّ يُقاومنَ التغيير أو يستخدمنه لأغراضهنّ وحدها. وليست حرِّيَّة نساء اليوم على الإطلاق، وهي أكبر، أو على الأقلّ أكثر بروزاً ممَّا كانت عليه في الأزمنة القديمة، إلاَّ أحدَ مظاهر الحياة الأكثر يُسراً في عهود الازدهار؛ فالمبادئ، وحتّى الأفكار المسبّقة التي كانت سائدة قديماً، لم يؤخذ بها بشكل جادّ. وسواء أكانت صادقة أم لم تكن فإنَّ المدائح الرسميَّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والنقوش على القبور مازالت تنسب إلى سيّداتنا نفس فضائل المهارة والعفّة والزهد التي كانت مطلوبة منها في عهد «الجمهوريّة». ومن جهة أخرى فإنَّ هذه التغييرات الحقيقيَّة أو المُفْتَرَضة لم تبدِّل شيئاً من الترخُّص في التقاليد عند عامَّة الشعب، ولا في المبالغة البرجوازيَّة الأبديَّة في الاحتشام، والزمن وحده هو الذي سيثبت قابليتهما للدوام. ويعود ضعف النساء، شأنَه شأنُ ضعف العبيد، إلى ضعفهنّ الشرعي؛ وتثأر قوَّتهنّ لنفسها في الأمور الصغيرة التي تكاد قدرتهنّ فيها لا تُحدّ. وإنّي نادراً ما رأيت منازل لم تكن تحكمُ داخلها النساء؛ وكثيراً ما رأيت الحاكم فيها أيضاً المدبِّر أو الطبّاخ أو المُعْتَق. وفي النظام الماليّ يبقينْ شرعاً خاضعات لشكلٍ ما من أشكال الوصاية؛ والعادة على الصعيد العملي في دكاكين «سوبور» أن تتربَّع بائعة الدواجن أو الثمار سيّدةً عند لوح قبض الأثمان. وكانت زوجة «أتيانوس» تدير أملاك الأسرة بالعبقريَّة الرائعة التي تُعرف لرجل الأعمال. وينبغي أن تختلف القوانين أضأل اختلاف ممكن عن المعمول به: لقد منحت المرأة حريَّة متزايدة في إدارة ثروتها، وفي الإيصاء والإرث. وألححت على ألَّا تتزوَّج فتاة من غير أن تبدي موافقتها: فهذا الانتهاك القانوني يعادل في التنفير غيرَه من الانتهاكات. والزواج هو شأنهنّ الأعظم؛ وإنَّه لمن العدل ألَّا يَعْقُدْنَهُ إلَّا بملْ رضاهنّ.

ويتأتّى قسم من أوصابنا من أنّ كثيراً من الناس أغنياء غنىً يندى له الجبين، أو فقراء فقراً لا يُرجى علاجه. ومن حسن الحظّ أنّ توازناً يميل إلى القيام في أيَّامنا هذه بين النقيضينْ: فثروات الأباطرة والمُعْتَقين الضخمة أصبحت أموراً من الماضي: لقد مات «تريمالسيون»

و«نيرون». بيد أنّ كلّ شيء يجب أن يتمّ تبعاً لنظام ذكيّ قائم على إعادة تنسيق اقتصاد العالم. وإذ وصلتُ إلى السلطة فقد استنكفت عن قبول الإسهامات الطوعيَّة التي تقدّمها المدن إلى الإمبراطور، فهي ليست سوى سرقة مُقَنَّعة. وأنصحك بالاستنكاف عن قبولها بدورك. وكان إلغاء ديون الأفراد على الدولة إلغاءً كاملاً تدبيراً أخطر، ولكنّه كان ضرورياً للتخلّص نهائيّاً بعد عشر سنوات من اقتصاد الحرب. وكان نقدُنا قد ضعف بشكل خطِر منذ قرن: ومع ذلك فإنّ خلود «روما» يقوّم بمعدّل ما نملك من قِطَعٍ ذهبيَّة: وعلينا نحن أن نعيد إليها قيمتها ووزنها المَقِيس بالأشياء بشكل ثابت وصُلب. وأراضينا لا تُزرع إلاَّ كيفما اتّفق: وحدها مقاطعات محظوظة مثل «مصر» و«إفريقيا» و«توسكانيا» وغيرها قليل عرفت كيف تخلق لنفسها جماعات فلاّحة مدرّبة بِدِراية على زراعة القمح أو الكرمة. وكان أحدُ همومي مساندةَ هذه الطبقة واستخراج معلّمين منها لتعليم سكّان قرويّين أكثر بدائيّة أو ريفيّة، وأقلّ مهارة. ووضعتُ حدّاً للأراضي التي تركها تستريح جماعة من كبار الملاّكين الذين قلّما يهتمّون بالخير العام: إنّ كلّ حقل لم يُزرع منذ خمسة أعوام يصبح بعد ذلك ملكاً للفلاّح الذي يتكفّل باستغلال خيره. وقُلِ الشيء نفسه تقريباً عن الأعمال المَنْجَميَّة. إنّ معظم أغنيائنا يقدّمون هباتٍ ضخمةً للدولة والمؤسَّسات العامَّة والأمير. وكثيرون منهم يتصرّفون على هذا النحو بدافع المصلحة، وأفراد منهم يفعلون بدافع الإخلاص، ولكنّهم يكسبون من ذلك جميعاً على وجه التقريب في نهاية المطاف. غير أنّي كنت راغباً في رؤية سخائهم يتّخذ شكلاً غير شكل التباهي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بـالتصـدُّق، وفي تعليمهمٍ زيـادة ثـرواتهم بشكـل حكيم في مصلحـة الجماعة، كما لم يفعلوا حتىً الآن إلاَّ لإغناء أولادهم. وفي هـذا الاتّجاه تسلّمت بنفسي إدارة الأمـلاك الإمـبراطـوريّـة: فليس لأحـد الحقّ في معاملة الأرض معاملة البخيل مخزونَه من الذهب.

إنّ تجّارنا هم أحيـاناً خِيـرةُ جغـرافيِّينـا، وخِيـرةُ فلكيِّينـا، وأعلمُ علمائنا الطبيعيّين. ومصرفيُّونا يُعَدُّون بين أمهر العارفين بالناس. وقـد استخـدمتُ الكفايـات؛ وناضلتُ بكـلّ قـواي في وجـه التعـدّيـات. وضاعف الدعمُ الممنوح لصانعي السفن عشرةَ أضعافٍ المبـادلاتِ مع الأمم الأجنـبيَّـة؛ ونـجحـتُ بـذلـك في زيـادة عـدد الأسـطول الإمـبرواطوري المُكْلِف بـأقلّ النفقـات: ففيـما يتعلّق بـالاستـيراد من «الشرق» وإفريقيا فإنّ إيطاليا جزيرة وتخضع لسماسرة القمح من أجل بقائها مادامت لا تنتجه بنفسها؛ والوسيلة الوحيدة لـدرء أخطار هـذا الوضع هي في معـاملة هذا الصنف من رجـال الأعمال الـذين لا غنىً عنهم معـاملة الموظّفـين المـراقَبـين عن كَثَب. ولقـد وصلت أقـاليمنـا القـديمة في هـذه الأعوام الأخـيرة إلى حالـة من الرخـاء بحيث لم يَعُدْ مستحيـلاً زيادتهـا، إلاَّ أنَّه من المهمّ أن يعمّ هـذا الرخـاء الجميـع لا مصرف «هـيرودوس أتيكـوس» فقط، ولا المُضـارِب الصغـير الـذي يستحوذ على كلّ نتاج قـرية إغـريقيّة من الـزيت. ولا يمكن نعت أيّ قانون يسمح باختزال عدد الوسطاء الذين تعجّ بهم مدننا بأنّه جـائر: فهم عِرق بذيء ومتكرِّش، يتهامس في كلّ الحانات، ويعتمد بمـرفقيه على جميع الألواح التي تتمّ فوقها الحسابـات، وهو عـلى أتمّ الاستعداد لإفساد كلّ سياسة لا تعمل لمصلحته على الفور. وإنّ توزيعاً حصيفـاً

لأهراء الدولة لِيُساعِدُ على حذف تضخّم الأسعار الفاضح في أوقات المجاعة، غير أنّي كنت أعتمد بالأخصّ على تنظيم المُنتجين أنفسهم، والكرّامين الغاليّين، وصيّادي «جسر أوكسين» الذين يلتهم رزقَهم الزريّ مستوردو الكاڤيار والسمك المملّح ممّن يَسمنون بفعل أعمالهم وأخطارهم. وكان أحد أجمل أيّامي ذلك اليوم الذي أقنعت فيه تجّار «الأرخبيل» بالتجمّع في هيئة والتعامل مباشرة مع أصحاب الحوانيت في المدن. ولم أشعر قطّ بعد ذلك بأنّي كنت أنفعَ منّي أميراً في ذلك اليوم.

غالباً ما لم يكن السلم في نظر الجيش سوى زمن من التبطّل المزعج بين معركتين: فالبديل عن البطالة أو الفوضى هو التحضير لحرب معيَّنة، ثمَّ الحرب. وقد أقلعت عن هذه الأنماط؛ ولم تكن زياراتي الدائمة للخطوط الأماميَّة غير وسيلة بين وسائل أخرى لإبقاء هذا الجيش المسالم في حالة نشاط مفيد. ففي كلّ مكان، في الأرض المنبسطة كما في الجبل، وعند حافّة الغابة كما في قلب القَفْر، ينشر الفيلق أو يجمّع أبنيته المتماثلة على الدوام، وحقول مناوراته، وأكواخه المبنيَّة في «كولونيا» لمقاومة الثلج، وفي «لمبيزيا» لمقاومة العاصفة الرمليّة، ومخازنه التي أمرت ببيع موادها غير المفيدة، وندوة ضبّاطه التي يترأسها تمثال للأمير. بيد أنّ هذا الانتظام لم يكن إلاّ ظاهريّاً. فهذه المعسكرات القابلة للتبادل فيما بينها تضمّ حشدَ العساكر المُلْحَقين المختلفَ في كلّ مرّة؛ فكلّ الأعراق تحمل إلى الجيش فضائلها وأسلحتها الخاصّة، وعبقريّة مُشاتها أو خيَّالتها أو نبّاليها. وقد وجدت فيها في حالتها الخام تلك التعدّدية في الوحدة التي كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقصدي الإمبراطوري. وسمحت للجنود باستعمال صيحاتهم القوميَّة في القتال والأوامر الصادرة بلغاتهم؛ وأقررت ارتباطات المحاربين القدماء بنساء من البرابرة واعترفت بشرعيَّة أولادهم. وجهدت هكذا في تلطيف وحشة حياة المعسكرات وفي معاملة هؤلاء الناس البسطاء بوصفهم بشراً. وعلى الرغم من المخاطرة بجعلهم أقلّ قدرة على التحرّك فقد أردت أن يكونوا أكثر تعلُّقاً بقطعة الأرض التي أخذوا على عاتقهم أن يدافعوا عنها؛ ولم أتردّد في ربط الجيش بمنطقته. وكنت أرجو أن أعيد إلى الوجود على مستوى الإمبراطوريَّة ما يعادل، أيَّام «الجمهوريَّة» الفتيَّة، الميليشات التي كان يدافع كلّ فرد من أفرادها عن حقله ومزرعته. وعملت بصورة خاصَّة على تنمية الفعالية التقنيَّة لدى الفيالق؛ ونويت أن أستخدم تلك المراكز العسكريَّة رافعةَ حضارةٍ وركناً صُلباً بما فيه الكفاية للدخول رويداً رويداً إلى حيث تكون آلات الحياة المدنيَّة الأدقّ قد تَثَلَّمَتْ. وأصبح الجيش صلة وصل بين شعب الغابة والسهب والمستنقع وبين ساكن المدن المرفّه، ومدرسة ابتدائيّة للبرابرة، ومدرسة جَلَدٍ ومسؤوليّة لـ «اليوناني» المتعلّم أو للفارس الشاب المتعوّد رفاهيَّات «روما». وكنت أعرف شخصيّاً الجوانب الشاقَّة في تلك الحياة، وأعرف كذلك سهولاتها وخُدَعها. وألغيت الامتيازات؛ ومنعت العُطَل الممنوحة بكثرة للضبّاط؛ وخلّصت المعسكرات من القاعات المخصَّصة للمآدب، ومن الأجنحة المخصَّصة للملذّات، ومن الحدائق الباهظة النفقات. وغدت تلك المباني التي لا نفع منها مشافيَ ومصحّات للمحاربين القدامى. وكنّا قبلاً نطوّع جنودنا في سنٍّ مبكّرة جدّاً ونحتفظ بهم طاعنين جدّاً في

السنّ، وهو أمر فيه قلّة اقتصاد وبعض جَوْر. وقد غيَّرت هذا كلّه. فـ «الانضباط السامي» يفترض المشاركة في إنسانيَّة العصر.

إنَّنا موظَّفون في «الدولة» لا «قياصرة». ولقد كانت تلك المتظلّمة على حقّ حين رفضتُ ذات يوم الإصغاء إليها حتىً النهاية فصرختْ قائلة إنَّه إذا لم أكن أجد الوقت الكافي للاستماع إليها فلن أجد الوقت الكافي لكي أحكم. ولم تكن الأعذار التي قدّمتُها بين يديها شكليَّة محض. ومع ذلك فإنَّ الوقت لا يكفي: فبقدر ما تكبر الإمبراطوريَّة تميل مختلف مظاهر السلطة إلى التركّز في يدي رئيس الموظّفين؛ وعلى هذا الرجل المتعجّل أن يلقي بالضرورة بجزء من مهمّاته على عواتق أشخاص آخرين؛ وسوف تتمثّل عبقريّته في إحاطة نفسه أكثر فأكثر بمجموعة شديدة الإخلاص من الموظّفين. وأكبر جريمة ارتكبها «كلوديوس» أو «نيرون» هي تركهما ببلادة مُعْتقيهما أو عبيدهما يستحوذون على أدوار الوكلاء والمستشارين ومبعوثي السيّد. وقد انقضى جزء من حياتي ورحلاتي في اختيار الزعماء الأوائل لبيروقراطيَّة جديدة، وفي تدريبهم، وفي المواءمة بأكثر ما يمكن من حصافة بين المواهب والمناصب، وفي تهيئة إمكانات توظيف مفيدة أمام هذه الطبقة الوسطى التي يتوقَّف عليها أمر «الدولة».. وأنا أعرف الخطر من هذه الجيوش المدنيَّة: إنَّه يختصر في كلمة: تأسيس الأنماط الرتيبة. فهذه اللوالب المركّبة لتدوم قروناً سوف يُصيبها الخلل إذا لم يُعتَنَ بها؛ وعلى السيّد أن ينظِّم حركاتها على الدوام؛ وأن يتوقّع ما سوف يلحق بها من البِلى أو يبادر إلى إصلاحه. ولكنّ التجربة تثبت أنَّه على الرغم من عنايتنا التي لا حدّ لها في اختيار من يخلفوننا ـ سوف يظلّ الأباطرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتوسّطو الذكاء هم الكثرة، وأنّه سوف يحكم تافهٌ واحدٌ على الأقلّ في كـلّ عصر. وفي زمن الأزمات يكـون في وسع هـذه المكـاتب الحسنـة التنـظيم أن تستمرّ في التفـرّغ لـلأمـور الأسـاسيّـة، وأن تؤدّي مهمّـة الـوسيط، الـطويلة جـدّاً في بعض الأحيـان، بـين أمـير حكيم وأمـير حكيم آخـر. إنَّ بعض الأباطـرة يجرّون وراءهم صفـوفاً من الـبرابرة مُوثَقين من رقابهم، ومواكب لا تنتهي من المغلوبين. وصفوة الموظّفين الذين عملتُ على تكوينهم يواكبونني بطريقة أخرى. ونصيحة الأمير: إنّـه بفضل هؤلاء الـذين يؤلِّفون تلك الصفـوة استـطعت التغيّب عن «رومـا» سنوات، وعـدم العودة إليهـا إلاَّ مارّاً مـرور الكـرام. وكنتُ أراسلهم بـوساطـة أسرع البُرُد؛ وفي حـال الخطر بـوساطـة الإشارات التلويحيَّـة. ولقد كـوّنـوا بـدورهم مسـاعـدين آخـرين نـافعـين. وإنَّ أهليَّتهم لهي من صُنعي؛ وقد أتاح لي نشـاطهم المنظّم خـير تنظيم أن أوظّف نفسي في مكان آخر. ولسوف يتيح لي من غير ما كبـير قلق أن أغيب في الموت.

لقد قضيتُ، من عشرين عامـاً من الحكم، اثني عشر عامـاً ثابت الإقـامـة. وكنت أقيم بـالتنـاوب في قصـور تجّـار «آسيـا»، والبيـوت الإغـريقيّة الـوادعة، والـدارات الجميلة المزوّدة بـالحـمّامـات وأجهـزة التدفئة التي يملكها المقيمون الـرومان في «بـلاد الغال»، وفي الأكـواخ والمـزارع. وكـانت الخيمـة الخفيفـة، العـمارة المصنـوعـة من القـماش والحبـال، لاتزال هي الأثـيرة عندي. ولم تكن السفن أقـلّ تنوُّعـاً من المنـازل الأرضيّة. كـانت لي سفينتي المزوّدة بغـرفة للريـاضة البـدنيّـة وبمكتبـة، بيد أنّي كنت أحـترس جدّاً من كـلّ ثبوت فـلا أتعلّق بـأي

منزل، حتّى وإن كان متحرّكاً. وكان قارب ملذّات يملكه مليونير شامي، والعمارات المتعدّدة السطوح في الأسطول، وزورق صيّاد يوناني تلائمني جميعاً بالسّوية. وأمّا الترف الأوحد فكان السرعة وكلّ ما يشجّع عليها، وأفضل الخيول، والعربات المريحة، وأقلّ الأمتعة إزعاجاً، وأكثر الثياب وما يضاف إليها من زخارف ملاءمةً للمناخ. إلّا أنّ المورد الأكبر كان قبل كلّ شيء حالة الجسد الخالي من العيوب: لم يكن سيْر عشرين فرسخاً سيراً حثيثاً شيئاً يذكر، ولا كانت ليلة بلا نوم لتُعتبر غير دعوة إلى التفكير. وقليلون بين الناس هم الذين يحبّون السفر طويلاً، هذا التعطيل الدائم للعادات، هذه الهزّة التي تعتري بلا توقّف جميع الأفكار المسبّقة. بيد أنّي كنت أعمل بحيث لم تكن عندي أيّة فكرة مسبّقة، وغيرُ القليل من العادات. وكنت أقدّر عمق الأسرّة اللذيذ، ولكن كذلك ملامسة الأرض الجرداء ورائحتها، وتفاوتات كلّ مقطع من دائرة العالم. وكنت مخلوقاً للتنوّع في الأقوات، الجريش البريطاني أو البطيخ الإفريقي. وحدث لي ذات يوم أن ذقت لحمَ الطرائدِ نصفَ الزَّنِخ الذي هو بهجة بعض الشعوب الجرمانيّة: وتقيّأت من جرّائه، إلّا أنّ التجربة كانت قد تمّت. وإذ كنت ثابت العزيمة في ما أوثره من أمور الغرام فقد كنت أخشى، حتّى في هذا، الرتابات. وكانت حاشيتي المحدودة بمن لا يُستغنى عنهم أو بمن تلذّ عشرتهم تعزلني قليلاً عن سائر الدنيا؛ وكنت أسهر على بقاء تحرّكاتي حرّة وغشيان مجلسي سهلاً. وكانت الأقاليم، تلك الوحدات الكبيرة الرسميّة التي كنت قد اخترت لها بنفسي شعاراتها، «بريطانيا» على مقعدها المصنوع من الصخور، أو «داسيا»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسيفهـا المعقوف، تتقسّم إلى غـابات كنت قـد تفيّأت ظلّهـا، أو آبار شربت منهـا، أو أفراد التقيتهم مصـادفة في أثنـاء المحطّات، أو وجـوه معـروفة، بـل محبوبـة في بعض الأحيان. وكنت أعـرف كلّ مِيـل من طرقاتنا، أجمل هبة ربّما كانت «روما» قـد قدّمتهـا إلى الأرض. بيد أنّ اللحظة التي لا تُنسى كانت تلك التي تتوقّف فيها الطريق عند خاصرة جبـل، ويرتفـع فيهـا المرء من صَدْع إلى صَـدْع، ومن كتلة إلى كتلة لمشاهدة بزوغ الفجر من فوق قمّة في جبال «البرانس» أو «الألپ».

لقـد طـاف بعض الـرجـال قبـلي في الأرض: «فيثـاغـورس» و«أفلاطون» وزهاء اثني عشر من الحكماء وعددٌ من المغامرين. وللمرّة الأولى كان المسافر هو في الوقت نفسه السيِّد صاحب الحرِّيّة المطلقة في أن يُشاهد ويُصْلح ويُبدع. وكان ذلك من حسن سعدي فـأدركت أنّه قد تمرّ عصور قبل أن يحدث من جديد هذا التوافق السعيد في منصب من المناصب، ومزاج من الأمزجة، وعالم من العوالم. وعندها أدركت الامتياز في أن يكون المرء إنساناً جديداً، وإنساناً متوحِّداً، قليلاً جـدّاً مـا هو متـزوِّج، وبلا أولاد، وتقـريباً بـلا أجداد، «عـوليس» [بـطل «الإلياذة» ملحمة «هوميروس»] من غير مأوى سـوى جزيـرة «إيتاك». وينبغي الاعـتراف هنا بمـا لم أعترف بـه لأيِّ إنسـان: لم أشعـر يـومـاً بـالانتماء بكلّيتي إلى أيّ مكـان، ولا حتّى إلى «أثينـا» مـدينتي الحبيبـة الغالية، ولا حتّى إلى «روما». وإذ كنت غريباً أينما حللتُ فإني لم أكن أحسّ بـأني معـزول في أيِّ مكـان. وكنت أمـارس في أثنـاء الـطريق مختلف الوظائف التي تتألّف منها حِرفة الإمـبراطور: كنت أحمـل فوق ظهـري الحياة العسكـريّة وكـأنّها ثوب أصبـح مُريحـاً لكثرة مـا لُبِس.

وعُدْتُ بلا عناء إلى التحدُّث بلغة المعسكرات، تلك اللاتينيّة المحرَّفة بفعل ضغط اللغات البربريّة، المزروعة شتائم طقوسيّة ودعابات سطحيّة؛ وعوّدت نفسي من جديد على العتاد المُرْهِق الخاصّ بأيّام المناورات، وعلى ذلك التغيّر في التوازن الذي يُحدثه في الجسد برمّته وجود الترس الثقيل في الذراع اليُسرى. وكانت مهنة المحاسب الطويلة تُفْرَض عليّ أكثر فأكثر في كلّ مكان، سواء تعلّق الأمر بتصفية حسابات إقليم «آسيا» أو حسابات ضيعة بريطانيّة صغيرة لحقتها الديون من جرّاء إنشاء مبنى للاستشفاء بالمياه الحارّة. وقد سبق أن تحدّثت عن وظيفة القاضي. وكانت أحداث مماثلة ناجمة عن وظائف أخرى تخطر على بالي: كنت أفكّر في الطبيب المتجوّل شافياً الناس من منزل إلى منزل، وفي عامل الطرقات وقد استدعي لإصلاح قارعة أو إعادة وصل قناة ماء، وفي المراقب الراكض من طرف السفينة إلى طرفها مشجّعاً المجذّفين، ولكن مستعملاً سوطه أقلّ ما يمكن من المرّات. واليوم، فوق شرفات «الدارة»، وأنا أنظر إلى العبيد يقلّمون الأغصان أو يعزقون المساكب، أفكِّر على الأخصّ في حركة البستاني الحكيم المستمرّة.

لقد سبّب لي الحِرَفيّون الذين كنت أصطحبهم في جولاتي قليلاً من الهموم: كان حبُّهم للسفر يعادل حبّي له. ولكن عانيت صعوبات مع رجال الأدب. فـ«فليغون» الذي لا يُستغنى عنه يملك عيوب امرأة عجوز، بيد أنّه أمين السرّ الوحيد الذي قاوم طول الممارسة: إنّه لايزال هنا. والشاعر «فلوروس» الذي ولّيته أمانة سرّ باللغة اللاتينيّة أخذ يهتف في كلّ مكان أنّه ما كان ليرغب في أن يكون «قيصر» وأن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكون عليه تحمّل الصقيع «السيتيّ» والأمطار «البريطانيّة». ولم تكن النزهات سيراً على الأقدام لتعني له شيئاً أيضاً. ومن ناحيتي فقد تركت له ملذّات الحياة الأدبيّة الرومانيّة والحانات التي يلتقي فيها الناس ليتبادلوا كلّ مساء الكلمات الطيّبة نفسها ويتركوا أنفسهم لِلَدْغ البعوض عينه بشكل أخويّ. وقد ولّيت «سوتيون» منصب القيّم على المحفوظات فأتاح له الوصول إلى الوثائق السرّية التي كان بحاجة إليها لكتابة سِيَر «القياصرة». ولم يكن هذا الرجل الحاذق الذي استحقّ لقب «الهادئ» قابلاً لأن يُعْقَل وجوده إلاّ داخل مكتبة: فبقي في «روما» وأصبح أحد خاصّة زوجتي، وعضواً في تلك الندوة الصغيرة التي تضمّ المحافظين الناقمين الذين كانوا يجتمعون عندها لانتقاد النمط الذي يسير عليه العالم. وقلّما كانت تلك الزمرة تروق لي: فأحلت «الهادئ» على المعاش فذهب إلى بيته الصغير في الجبال «السابينيّة» يحلم بهدوء بما كان من عيوب «تيبريوس» [إمبراطور روماني حكم من ١٤ إلى ٣٧ م]. وحصل «فاڤورنيوس دارل» لبعض الوقت على أمانة للسرّ باليونانيّة: لم يكن هذا القزم ذو الصوت المزماريّ خِلْواً من الرهافة. وكان واحداً من أكثر العقول التي صادفتها زيفاً؛ وكنّا نتشاجر، بيد أنّ سعة اطّلاعه كانت تسحرني. وكان يسلّيني وسواسه المرضيّ الذي كان يجعله يعتني بصحّته عناية عاشق بخليلته الحبيبة. وكان خادمه الهندي يطبخ له أرزّاً آتياً بأثمان باهظة من «الشرق»؛ وكان هذا الطبّاخ المجلوب من بعيد يتكلّم لسوء الحظّ اليونانيّة بشكل رديء جدّاً، ولا يعرف من أيّة لغة إلاّ القليل القليل: فلم يُطْلعني على أيّ شيء، من عجائب مسقط

رأسه. وكان «فافورنيوس» يُباهي بأنَّه أنجز في حياته ثلاثة أمور نادرة: كان «غاليّاً» فانخرط في الهلّينيّة بأفضل ممّا فعل أيّ شخص؛ وكان قليل الحَوْل ويتشاجر مع الإمبراطور بلا انقطاع فلا يزيده ذلك سوءَ حال، وتلك فرادة كانت في مصلحتي على كلٍّ حال؛ وكان عنّيناً ويدفع غرامة عن الزّنا باستمرار. والحقّ أنَّ المُعْجَبات به من الأقاليم كنّ يخلقنَ له متاعب كان عليّ أكثر من مرّة أن أنتشله منها. وطفح كيلي منه فحلّ «أوديمون» محلّه. بيد أنّي كنت بالإجمال مخدوماً بشكل يدعو إلى الاستغراب. وقد ظلّ احترام هذه الزمرة من الأصدقاء والمستخدمين ـ الآلهة تعرف كيف ـ حيّاً بعد حميميّة الأسفار الجافية؛ وكان تكتّمهم أعجب أيضاً، إن كان ذلك ممكناً، من إخلاصهم. ولسوف يكون لأمثال «سويتون» في مستقبل الأيّام قليل جدّاً من النوادر يلتقطونها عنّي. فما يعرفه الملأ عنّي قد بُحت به أنا نفسي. ولقد حفظ لي أصدقائي أسراري، السياسيّة وغيرها؛ ومن العدل أن أقول إنّني كثيراً ما فعلت لهم مثل ما فعلوا لي.

البناء معناه التعاون مع الأرض: إنّه وضع علامة بشريّة على منظر يتبدّل بفعلها إلى الأبد؛ وهو كذلك الإسهام في ذلك التغيير البطيء الذي هو حياة المدن. فكم من جهود لإيجاد الموضع الصحيح لجسر أو لنافورة ماء، أو لمنح طريق جبليّ ذلك الخطّ المائل الذي هو أكثر الخطوط وَفْراً وصفاء في الوقت نفسه... ولقد أدّى توسيع طريق «ميغار» إلى تبديل منظر الصخور «السكيرونيّة»؛ إن زهاء الألفي مرحلة من الطريق المبلّط المزوّد بالصهاريج والمراكز العسكريّة، وهي تربط «انتينويه» [مدينة مصريّة قديمة على النيل بناها «أدريان»] بالبحر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأحمر جعلت عهد الأمان يَخْلُف عهد الخطر في الصحراء. ولم يكن تبذيراً استخدام مداخيل خمسمئة مدينة من مدن «آسيا» لبناء نظام أقنية المياه في «طروادة»؛ وكانت قناة «قرطاجة» تعوّض بعض التعويض ويلات الحروب التأديبيّة. وإقامة التحصينات تعادل بالإجمال بناء السدود: كان الأمر يتمثّل في العثور على الخطّ الذي يمكن الدفاع منه عن جُرُف أو عن إمبراطوريّة، أو النقطة التي يمكن فيها استيعاب هجمات الأمواج أو هجمات البرابرة، أو صدّها أو تحطيمها. وحفر الموانئ كان معناه إخصاب جمال الخلجان. وإنشاء المكتبات كان معناه أيضاً بناء أهراء عامّة وجمعٍ احتياطات لمواجهة شتاء خاصّ بالعقل كنت أتوقّع، على الرغم مني، مجيئه تبعاً لبعض الأمارات. ولقد أعدت بناء أشياء كثيرة: ومعنى ذلك هو التعاون مع الزمن بما يحمل من مظهر الماضي، والوعي بجوهره أو تبديله، ومساعدته على مواصلة المسيرة نحو مستقبل أطول؛ ومعناه العثور على سرّ الينابيع تحت الحجارة. وإنَّ حياتنا لقصيرة: فنحن نتحدَّث عن العصور التي سبقت عصرنا أو التي ستليه وكأنّها غريبة عنّا تماماً؛ ومع ذلك فقد كنت ألامس منها، خلال ألعابي، الحَجَر. ومازالت هذه الحيطان التي أدعّمها دافئة من ملامسة الأجساد التي غابت؛ ولسوف تداعب أيدٍ لّما تظهرْ إلى الوجود تيجانَ هذه الأعمدة. وكلّما كنت أتبصّر في موتي، وعلى الأخصّ في موت شخص آخر، كنت أحاول أن أضيف إلى حيواتنا هذه الوصلات شبه المستعصية على الدمار. وقد آثرت في «روما» أن أستعمل الآجرّة الأبديّة التي لا تعود إلّا ببطء شديد إلى الأرض التي وُلِدت منها، والتي يتمّ تصدُّعها أو تفتُّتها

المستعصي على العيان بشكل يبقى معه البنيان جبلاً حتىً حين يتوقّف عن أن يكون في الظاهر قلعة أو سِيركاً أو ضريحاً. وكنت أستخدم في «اليونان» و«آسيا» المرمر المحلّي، هذه المادّة الجميلة التي ما إن تُصقل حتى تبقى أمينة لمستوى الإنسان بحيث يظلّ مخطّط المعبد برمّته قائماً في كلٍ مقطع من أسطوانة مكسورة. وفنّ العمارة غنيّ بإمكاناتٍ أكثر تنوّعاً من التي توحي بها أنساق «ڤيتروڤ» [معمار روماني عاصر «يوليوس قيصر»] الأربعة؛ فكُتَلُنا، مثل أنغامنا الموسيقيّة، قابلة لاحتشادات لا نهاية لها. وعدت من أجل «مجمع الأرباب» إلى «أترووريا» العتيقة ذات الكهنة والعرّافين؛ وعلى العكس من ذلك فقد أبرز لي محراب «ڤينوس» أشكالاً «إيونيّة» وسيولاً من الأعمدة البيضاء والورديّة حول إلهة الجسد التي منها خرج عِرق «قيصر». وقد استحقّ معبد «الأولمپ الصغير» في أثينا أن يكون نظير «الپرتينون»، فهو منبسط في السهل في حين ينتصب الآخر فوق التلّة، وضخم في حين أنّ الآخر تامّ الصنعة: الحميّة جاثية أمام السكون، والروعة عند قدمي الجمال. وكانت مصلّيات «انتينويوس» وهياكله، هذه الغرف السحريّة، والصروح المشيَّدة لعبور غامض من الحياة إلى الموت، والزوايا التي يُبتهل فيها للخلاص من ألمٍ أو سعادة خانقين، مكاناً للدعاء ولعودة الظهور: وكنت أنصرف فيها إلى حِدادي. وضريحي القائم على شاطئ «التيبر» يشبه إلى حدّ كبير جدّاً القبور القديمة التي على جانبي «الدرب الآپي»، بيد أنّ مقاساته نفسها تذكّر بـ «المدائن» و«بابل» وبالشرفات والأبراج التي يتقرّب الإنسان منها إلى الكواكب. ولقد أوصت «مصر» الجنائزيّة بالمسلاّت والدروب المحفوفة بتماثيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أبي الهـول» إلى القبر التـذكاري الـذي يفرض عـلى «روما» المجـافية بشكـل مُبهم ذكرى الصـديق المَبْكيِّ إلى الأبد. وكـانت «الدارة» قـبرَ الأسفار، ومعسكرَ المُتـرَحّلِ الأخـيرَ، والعديـلَ المبنيَّ بالـرخام لخيـام أمراء «آسيا» ومضاربهم. وكلّ ما يتقبّل ذوقنـا تجربتـه تقريبـاً كان قـد جُـرِّب في عـالم الأشكـال؛ وانتقلت إلى عـالم اللون: اليَشْب الأخضر خُضـرةَ أعماق البحـار، وحجر السُّمّاق المُحَبَّب كـاللحم، والبَـزَلْت، والسَّبَـج الكئيب. وكانت حُمـرة الستائـر تزدان بتـطريزات تـزداد دقّة ودرايـة؛ ولم تكن فسيفسـاء التبليط أو الجـدران تشكـو قطّ من بعض الاعتدال، فلا هي عـلى شيء من البياض ولا عـلى شيء من الحُلكة. وكـان كلّ حجـر تخثّـراً عجيبـاً لإرادة أو لـذكـرى أو لتحـدٍّ في بعض الأحيان. وكل بناء كان مخطّطاً لحلم من الأحلام.

«پلوتينوپوليس»، «اندرينوپل»، «أنتينويه»، «أدريانوتير». . . لقـد ضاعفت إلى أقصى حدٍّ ممكن هذه الخلايـا الخاصّـة بالنَّحلة البشريـة. فـالسّباك والبنّـاء، والمهندس والمعـماريّ يشرفون عـلى تلك الـولادات للمدن؛ وتتطلّب العمليّة أيضاً بعض مـواهب كشّاف الينـابيع. وإنّـه لمنظر جميل، في عالم ماتزال تسود نصفه الأحراج والصحـراء والسهول البور، منظر شارع مرصوف، أو معبد يُعبد فيه أيّ إلّه، أو الحمّامـات والمراحيض العامّة، والحانـوت الذي يتنـاقش فيه الحـلّاق وزبائنـه في أنباء «روما»، ودكّان حلوانيّ، أو بائع أخفاف، أر ربّمـا كُتُبيّ، ولافتة طبيب، ومسرح تُقـدَّم فيه من حـين إلى آخر مسرحيّـة من مسرحيّات «تيرانس». إنّ مرهفينا يشتكون من تسـاوق مدننـا: إنّهم يعانـون من الوقوع في كلّ مكان على تمثال لا يتغـيّر للإمـبراطور، وعـلى قناة المـاء

عينها. وإنَّهم لمخطئون: فجمال «نيم» يختلف عن جمال «آرل». بيد أنَّ ذلك التساوق القائم في ثلاث قارّات يُرضي المسافر إرضاءَ مَعْلَم لتحديد مسافات الطرق بالأميال؛ ولاتزال لأكثر مُدُننا غثاثةً هالتُها المُطَمْئِنة من مُوْصِل أو بريد أو مأوى. والمدينة: إنَّها الإطار، البناء البشري، الرتيب إذا شئنا، ولكن كما هي رتيبة خلايا الشمع المحشوّة بالعسل، ومحلّ الاتّصالات والمبادلات، والمكان الذي يأتي إليه الفلّاحون لبيع غِلالهم ويتباطأون لينظروا فاغري الأفواه إلى اللوحات المرسومة في رُواق... ومُدُني تولد من المصادفات: مصادفتي قطعة أرض، ومصادفة خططي إمبراطوراً أحداثَ حياتي إنساناً. فقد نشأتْ «پلوتينوپوليس» من الحاجة إلى إنشاء وكالات زراعيّة جديدة في «تراسيا»، ولكن من الرغبة العذبة في تكريم «پلوتينيا» أيضاً. وخُصِّصت «أدريانوتير» لتكون متجراً لحرّاس الغابات في «آسيا الصغرى»: وكانت في بادئ الأمر موضعاً لاستجمامي في الصيف، والغابة الغاصّة بالطرائد، وجناح الجذوع المقصّبة عند أسفل تلّة «أتيس»، والسيل المتوَّج بالزَبَد الذي يُسْتَحَمُّ فيه كلّ صباح. وتعيد «أدريانوپل» في «إيپيريا» فتح مركز مدينيّ في قلب إقليم عانى الإفقار: لقد خرجتْ من زيارة إلى محراب «دودونيا». ويعمر «أندرينوپل»، وهي مدينة فلّاحية وعسكريّة، ومركز استراتيجي على أطراف المناطق البربريّة، قدامى المحاربين في الحروب «السرماتيّة»؛ وأعرف شخصيّاً ما في كلّ واحد من هؤلاء الرجال من قوّة ومن ضعف، وأسماءهم، وعدد سني خدمتهم وعدد جِراحهم. و«أنتينويه»، وهي أعزّ تلك المدن، ومولودة عند موضع الشقاء، محشورة في شريط ضيّق من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأرض المجدبة، بين النهر والصخر. ولقد زاد تمسّكي بإغنائها بموارد أخرى التجارةَ مع الهند، والنقليّات النهريّة، والنِّعَم البارعة الخاصّة بحاضرة إغريقيّة. وليس هناك من مكان على الأرض تقلّ رغبتي في رؤيته من جديد عن رغبتي في رؤيتها؛ فقليلة هي الأمكنة التي أوليتها من الاهتمام أكثر ممّا أوليتها هي. فهذه المدينة باحة مُعَمَّدة أبديّة. وأنا أراسل حاكمها «فيدوس أكيلا» بشأن مداخل معبدها، وتماثيل جسرها المقنطر؛ ولقد اخترت أسماء مجمّعاتها السكنيّة و تقسيماتها الإداريّة، وهي رموز ظاهرة وخفيّة، ومجموعة كاملة ومنوّعة ومحفوظة عن ذكرياتي. وخطّطت بنفسي تصميم عِمادها الكورنثيّة التي تتجاوب على طول حوافّ النهرِ مع استقامة صفوف النخيل. واجتزت بفكري آلاف المرّات ذلك الموقع المربّع شبه الكامل المقطّع بشوارع متوازية والمقسوم قسمين بجادّة احتفاليّة تبدأ بمسرح إغريقي وتنتهي بقبر.

إنّنا مُرْهَقون بالتماثيل وغاصّون بالطّيبات المرسومة أو المنحوتة، غير أنَّ هذه الوفرة مدعاة للتوهّم؛ فنحن نُعيد بلا كلل إنتاج بضع دزينات من الروائع فلا نعود قادرين على إبداع شيء منها. وأنا أيضاً طلبت من أجل «الدارة» استنساخ «ارمافروديت» و«الصنتور» و«النيوبيد» و«ڤينوس». وحرصت على العيش أطول وقت ممكن وسط هذه الأنغام من الأشكال. وكنت أشجّع التجارب مع الماضي، وتقليد القديم تقليداً بارعاً يحاكي المقاصد والتقنيات المفقودة. وحاولت هذه التنويعات المتمثّلة في نَسْخِ تمثال «مرزياس» المسلوخ المصنوع من رخام أبيض في رخام أحمر، معيداً إيّاه بذلك إلى عالم الصور المرسومة، أو نقل الحبّة السوداء الخاصّة بتماثيل «مصر» إلى

رخـام جزيـرة «پاروس» الأبيض، أو تغييـر الوثن إلى شبـح . إنَّ فنّنـا كامل، أي تامّ الإنجاز، بيد أنَّ كماله قابل لتشكيلات تماثل في تنوّعها تشكيلات صوت صافٍ: وعلينا نحن أن نلعب هـذه اللعبة الحـاذقة المتمثّلة في الاقتراب والابتعاد إلى الأبد من هذا الحلّ الذي عثرنا عليه مرّة واحدة وأخيرة، والتوغّل إلى حدّ الصرامة أو الإفراط، وحبس مـا لا يُحصى من الأبنية الجديدة داخل هذه الكرة الجميلة. وهنـاك امتياز في أن يكون خلف المرء ألف نقطة للمقارنـة، وأن يستطيـع أن يُكمل بـذلك عـلى هواه أعـمال «سكوپـا» [نحّات يـونـاني]، أو أن يُعـارض بشغف أعـمال «پـراكسيتيـل» [نحّـات يـونـاني]. وجعلتني اتصـالاتي بـالفنـون الـبربـريّـة أعتقـد بـأنَّ كـلّ عِـرْق يحـدِّد نفســه في بعض المـوضوعـات، في بعض أنماطٍ من جملة الأنمـاط الممكنة؛ وتقـوم كـلّ حِقبة كذلك بعمليّة غربلة للإمكانات المتوافرة لكلّ عِرْقٍ. فقـد رأيت في «مصر» آلهـة وملوكـاً عـمالقـة؛ ووجــدت في مِعصم السجنـاء «السرماتيّين» أساور تكرّر إلى مـا لا نهاية الحصـان الراكض نفسـه أو الحيّـات المتناهشـة عينها. بيـد أنَّ فنّنا (أعني فنّ الإغـريق) قد اختـار الاكتفاء بالإنسان. فلقد عرفنا وحدنا أن نُبدي في جسد جـامدٍ القـوّةَ والـرشاقـة الكامنتيـن؛ ونحن وحدنـا جعلنا من جبيـن أملس معـادِلاً لفكرةٍ حكيمة. وإنّي مثل نحّاتينا: يرضيني مـا هو إنسـاني؛ فأنـا أجد فيه كلّ شيء حتّى ما هو خالد. وتتجمّع الغابـة الأثيرة عنـدي برمّتهـا في صـورة «الصنتور»؛ ولا تتنفّس العـاصفـة قطّ خيـراً ممّـا تفعـل في الـوشاح المنتفـخ الذي تتـوشّح بـه إلٓهة بَحْـرِيّـة. ولا قيمـة لـلأشيـاء الـطبيعيّة، ولا للشعـارات المقدّسـة إلّا مُثْقَلَةً بما تستـدعي من أفكـار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنسانيّة: كوز الصنوبر الذّكَريّ المأتميّ، والفسقيّة المزخرفة بالحمائم التي توحي بالقيلولة عند حافّة البِرَك، والعنقاء التي تحمل المحبوب إلى السماء.

كنت قليل الاهتمام بفنّ تمثيل الوجوه. وليس لوجوهنا الرومانيّة الممثّلة سوى قيمة زمنيّة راهنة: نُسَخٌ معلّمة بالغضون الحقيقيّة أو الثآليل الفريدة، ومكزوزات عن نماذج يُحاذيها المرء عَرَضاً في الحياة ولا يلبث أن ينساها حين تموت. وعلى العكس من ذلك فإنَّ الإغريق أحبّوا الكمال البشريّ إلى حدّ أنّهم قليلاً ما اهتمُّوا بوجوه الناس على تنوّعها. ولم أكن ألقي غير نظرة على وجهي بالذات، هذا الوجه الملوّح الذي سلبه شكلَه بياضُ المرمر، وتانك العينان المفتوحتان عن آخرهما، وذاك الفم الدقيق، على الرغم من كونه لحيماً، المراقَب إلى حدّ الارتجاف. بيد أنَّ وجه غيري قد شغلني أكثر ممّا شغلني وجهي. فما إن يصبحُ له شأن في حياتي حتى يتوقّف الفنّ عن أن يكون تَرَفاً ويغدو مورداً، شكلاً من أشكال النجدة. ولقد فرضت على الدنيا هذه الصورة: هناك اليوم من تماثيل وجوه الأطفال أكثر ممّا لأيّ رجل شهير، لأيَّة ملِكة. وقد أزعجني باديءَ الأمر أن أجعل النحت يسجّل الجمال المتتابع في شكلٍ متغيّر؛ ثمَّ أصبح الفنّ نوعاً من عمليّة سحريّة قمينة بالتذكير بوجه مفقود. وكانت النماذج الضخمة تبدو وسيلة للتعبير عن تلك المقاييس الحقيقيّة التي تُضفيها الطبيعة على الكائنات؛ ولقد أردت أن تكون تلك الصور كبيرة مثل وجه يُرى عن قُرب جدّاً، وعالية واحتفاليّة مثل الرؤى والتجلّيات في الكابوس، ووازنة بمثل ما ظلّت تلك الذكرى. وطالبت بإنجاز كامل، وإتقان

نقيّ، وبذلك الإلّه الذي هو كلّ شخص مات في العشرين من العمر في عين من أحبّوه، وبالشَبَه الحقيقي كذلك، وبالحضور المألوف، وبأن يكون كلّ شذوذ في أحد الوجوه أعزّ من الجمال. وكم دار من نقاش للإبقاء على خطّ ثخين في حاجب أو استدارة مورَّمة قليلاً في شفة... فلقد كنت أستميت في الاعتماد على أبديّة الحجر، وأمانة البرونز، لتخليد جسد قابل للفناء، أو سبق فناؤه، بيد أنِّي كنت أصرّ أيضاً على أن يتّخذ الرخام المدهون يومياً بمزيج من الزيت والأحماض ملاسة اللحم الفتيّ شبه اللدنة. وكنت أجد هذا الوجه في كلّ مكان: كنت أمزج الشخوص الإلّهيّة، والأجناس والصفات الأبديّة، «ديانا» إلّهة الغابات القاسية و«باخوس» السوداوي، و«هرميس» القوي إلّه الميادين الرياضيّة وصنوه الإله النائم ورأسه فوق ذراعيه في فوضى تُبديها زهرة. ولقد لاحظت الشَبَه الدقيق بين شابّ يفكّر وإلّهة الحكمة المسترجِلة «أثينا». وكان نحّاتيّ يضلّون قليلاً في الأمر؛ وكان أقلّهم نباهة يقعون في الترهّل والتضخيم؛ ومع ذلك فقد كان الجميع يشاركون بنصيبٍ من الحلم. فهناك تماثيلِ الفتى الحيّ ورسومه، تلك التي تعكس هذا المشهد الضخم والمتغيِّر الذي يكون بين الخامسة عشرة والعشرين: صورة الولد الهادئ الجانبيّة الجادّة؛ ذلك التمثال الذي جسر نحّات «كورنثيّ» أن يحتفظ فيه بعفويّة الصبي الذي ينفخ بطنه ويمحو طرفي كتفيه ويده فوق ردفه وكأنَّه يراقب لعبة نَرْدٍ عند ناصية أحد الشوارع. وهناك ذلك المرمر الذي خطّ فيه «پاپياس الأفروديسي» جسداً أكثر من عارٍ ومُفرَّغاً من أمصاله وله نداوة نرجسة هشّة. ولقد نحت «أريستياز» بناء على أمري، في حجر خشن بعض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخشونة، ذلك الرأس المتشوِّف الفخور. . . وهناك الوجوه المصوَّرة بعد الموت، وكان الموت قد عبرها، أي تلك الوجوه الكبيرة ذات الشفاه العليمة المحمَّلة بأسرار ليست أسراري لأنَّها ليست أسرار الحياة. وهنالك هذه النُّقَيْشَة التي زوّد فيها «أنطونيانوس الكاري» قاطفَ الكرمة المكتسي حريراً خاماً بسحر فردوسي، وكذلك خطم الكلب الودود الملتصق بساقٍ عارية. وذلك القناع الذي لا يكاد يُحْتَمَل، وهو من صنع المثّال «سيرين»، والذي ينصهر فيه الألم واللذّة ويتصادمان على هذا الوجه تصادُمَ موجتين على صخرة واحدة. وتلك التماثيل المتناهية في الصغر المصنوعة من الصلصال الزهيدة الثمن التي استُخدمت للدعاية الإمبراطوريّة: «الاستقرار على الأرض»، «عبقرية الأرض» التي أعيد إليها السلام، بصورة شابّ مستلقٍ يحمل أثماراً وأزهاراً.

لكلِّ إنسان مُنْزَلَقُه: ولكلِّ إنسان أيضاً غايته، وطموحه إذا شئنا، وأشدّ أذواقه خفاء، وأكثر مُثُله العليا وضوحاً. وكانت غايتي تحتبس في هذه الكلمة الدالّة على الجمال الذي يصعب جدّاً تعريفه على الرغم من كلِّ البديهيّات والمعاني والنواظر. فقد كنت أشعر بأنّي مسؤول عن جمال العالم. وأريد أن تكون المدن رائعة، حسنة التهوية، مسقيّة بالمياه الصافية، مأهولة بأناس لا تُتْلِف أجسادهم طوابع البؤس والعبوديّة، ولا يتلفها انتفاخ الثروة الفظّ؛ وأن يُسمع التلاميذُ، بصوت معتدل، دروساً ليست جامدة قطّ؛ وأن يكون في ما تأتيه النساء من أعمال داخل المنزل نوع من الكرامة التي تتحلّى بها الأمّهات، ومن الوداعة الصادرة عن مقدرة؛ وأن يغشى الملاعب

الـرياضيّـة فتيانٌ لا يكـونون جهلة أبـداً بالألعـاب ولا بالفنـون؛ وأن تحمل البساتين أجمل الثمار وتغلّ الحقول أغنى الغِلال. وكنت أريد أن تعمّ الجميعَ جلالةُ السلام الروماني الذي لا يشعر به أحد مـع وجوده وجودَ الموسيقى السماويّة السارية؛ وأن يستطيع أوضعُ مسافـرٍ الانتقالَ من بلد إلى آخـر، ومن قـارّة إلى أخـرى، بـلا شكليّـات مُـذِلّـة ولا أخطار، واثقاً في كـلّ مكان من حـدّ أدنى من الشرعيّة والثقـافة؛ وأن يستمرّ جنودنا في رقصتهم الناريّـة الخالـدة على الجبهـات؛ وأن يعملَ كلّ شيء من غير عقبـات، الورش والمعـابد؛ وأن تمخـر البحرَ أجمـلُ السفن وتعبر الطرقات مركبات كثيرة؛ وأن يكون للفلاسفة مكانهم في عالم جيِّد التنـظيم، وللراقصين مكـانهم أيضاً. ولقـد كان من الممكن أن يقترب هذا المثل الأعلى، المتواضع بوجه الإجمال، وفي أحيان كثيرة تقريباً لو وضع النـاس في خدمتـه جزءاً من الـطاقة التي يصرفـونها في أعمال خرقاء أو وحشيّة؛ وقد أتاح لي طـالعٌ ميمـون أن أحقّقه جـزئيّاً خلال ربع القرن هذا. ويحلو لـ «أريـان النيكوميـدي»، أحد أفضـل العقول في هذا الزمان، أن يـذكّرني بـالأبيات الجميلة التي حـدّد فيها «ترپاندر» العجوز في ثلاث كلمات المثل الإسبرطي الأعلى، نمطَ الحياة الكامل الذي حلمت به «لاسيـديمونيـا» [اسم آخر لـ «إسـبرطة»] من غير أن تبلغه قطّ: «القوة»، «العدالة» «ربّات الفن». وكـانت «القوّة» في الأساس، شرطاً لازماً لا وجود بـدونه للجمـال، ورسوخـاً لا وجود بدونه للعـدالة. وكـانت «العدالـة» توازنَ الأجـزاء، مجموعـةَ النِسَب المتنـاغمـة التي ينبغي ألاّ يُفسـدهـا أيّ إفـراط. ولم تكن «القـوّة» و«العـدالة» غـير آلة جيّـدة الدَّوْزَنـة في أيـدي «ربّـات الفن». فكـلّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بؤس، وكلّ قسوة يجب أن يُمنعا بوصفهما إهانات لا تُحصى لجسم البشريّة الجميل. وكان كلّ جَوْر نغماً نشازاً ينبغي أن يُجَنَّبه تناغمُ الأفلاك.

واستبقاني في «جرمانيا» ما يقرب من عام تحصيناتٌ أو معسكراتٌ برسم التجديد أو البناء، وطرق برسم الشقّ أو الإصلاح؛ وقوّت جبهاتنا على طول نهر «الران» قلاعٌ جديدة أقيمت على امتداد سبعين فرسخاً. ولم يكن هذا البلد الحافل بالكروم والأنهار الفوّارة ليقدّم لي شيئاً غير متوقَّع: فقد وجدت فيه من جديد آثار القائد الشاب الذي حمل إلى «تراجان» نبأ اعتلائه سدّة الحكم. ووجدت من جديد أيضاً، وراء آخر حصن لنا مصنوع من الخيزران المقطوع من أحراج التنّوب، الأفقَ الرتيب والأسود نفسه، والدنيا نفسها المسدودة في وجوهنا ابتداء من الحرف المحذور الذي توغّلت فيه فيالق «أغسطس»، ومحيط الأشجار، والاحتياطيّ من الرجال البيض الشُّقر. وما إن انتهت مهمّة إعادة التنظيم حتًى هبطتُ إلى مصبّ «الران» على امتداد السهول البلجيكيّة والباتافيّة. وكانت تلال منفردة تؤلِّف منظراً شماليّاً تقطعه أعشاب صافرة؛ وكانت منازل مرفأ «نوفيوماغوس» المبنيّة على مجموعة من الأوتاد تستند إلى السفن الراسية عند أقدامها؛ وطيور البحر تجثم فوق السطوح. وكنت أحبّ هذه الأمكنة الحزينة التي تبدو بشعة لعيون معاونيَّ، وهذه السماء الملبَّدة، وهذه الأنهار الموحلة وهي تحفر أرضاً بلا شكل ولا أَلَق، أرضاً لم يُشكِّل غرينَها أيُّ إله.

ونقلني زورق مسطّح القعر تقريباً إلى جزيرة «بريطانيا». وأعادتنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الريح عدّة مرّات متتالية إلى الساحل الذي كنّا قد غادرناه: وكلّفتني هذه الرحلة المعاكسة ساعات فراغ عجيبة. وكانت تتولّد من سحب ضخمة من البحر الهائج المتّسخ بالرمل، المحرَّك باستمرار في مُسْتَقَرِّه. وكما كان منّي قديماً عند «الداسيّين» و«السرماتيّين»، فقد تأمّلت «اليابسة» بتعبُّد، ولمحت هنا للمرّة الأولى «نپتوناً» أشدَّ سديميّة من «نپتوننا»، عالَماً مائعاً بلا حدود. وكنت قد قرأت عند «پلوتارك» أسطورة عن بحّارة تتعلّق بجزيرة قائمة في هذه النواحي المجاورة لـ «بحر الظُلُمات» وقد طارد إليها أهلُ «أولمپ» الغالبون فلولَ «العمالِيق» المغلوبين. ولايزال أولئك الأسرى الضِخام بين الصخر والموج، الذين يَسُوطهم إلى الأبد محيط لا يعرف الرُّقاد، العاجزون عن النوم بيد أنَّهم مشغولون على الدوام بالأحلام، لايزالون يفرضون على النظام الأولمپي عُنْفَهم وكَرْبهم ورغبتهم المصلوبة إلى الأبد. وعثرت في هذه الأسطورة الموضوعة عند أطراف الدنيا على نظريات الفلاسفة التي كنت قد تبنّيتها: لكلِّ إنسان أن يختار إلى الأبد، خلال حياته القصيرة، بين الأمل الذي لا يني وغيبة الرجاء الحكيمة، بين ملذّات السديم ونِعَم الاستقرار، بين «العملاق» و«الأولمپي». أن يختار بينهما أو أن ينجح يوماً في تطويع كلّ منهما للآخر.

إنَّ الإصلاحات المدنيّة التي تمّت في «بريطانيا» هي جزء من عملي الإداري الذي تحدّثت عنه في مكان آخر. والذي يهمّ هنا هو أنّني كنت أوّل إمبراطور يستقرّ بسلام في هذه الجزيرة القائمة عند حدود العالم المعروف، حيث كان «كلوديوس» الوحيدَ الذي خاطر بالبقاء بضعة أيّام بصفة قائد عام. وطَوال شتاء كامل غدت «لوندينيوم»

بـاختياري هـذا المركـز الفعّال للعـالم الذي كـانتـه «إنـطاكيـة» عقب ضرورات الحرب «الپارتيّة». وكانت كلّ رحلة تزحل على هـذا النحو مـركز ثقـل الحُكم فتضعه إلى حـين على ضفّـة «الران» أو عـلى جُرُف «التاميز» وتتيح لي أن أقيّم ما كان نقطة القوّة ونقطة الضعف في مثـل هذا المقرّ الإمبراطوري. وجعلتني هـذه الإقامـة في «بريـطانيا» أواجـه افـتراض دولةٍ مـركّـزة في «الغـرب»، عـالمٍ أطلنـطيّ. وتلك الـرؤى الفكريّة خـالية من القيمـة العمليّة: وتتـوقّفً مع ذلـك عن أن تكون غـير معقولـة ما إن يمنـحُ الحاسب من أجـل حسابـاته كميّـة لا بـأس بحجمها من مستقبل الأيّام.

كان «الفيلق السادس المظفّر» قـد نُقل إلى الأرض الـبريطانيّـة قبل وصولي إليها بثلاثة أشهر تقريباً. وقد حلّ فيها محلّ «الفيلق التاسـع» المسكين الذي كان «الكليدونيّون» قد أبادوه في أثناء الاضطرابات التي كـانت في «بريـطانيا» هجـوماً معـاكساً بشعـاً في مقـابـل حملتنـا عـلى «الپارتيّين». وفرض تدبـيران أنفسهما لمنـع تكرار مثـل هذه الكـارثة. فقد عُزِّز عساكرنا بإنشاء فيلق تابع من السكّان الأصليّـين: رأيت من فـوق أرض خضراء في «ايبوراكـوم» هذا الجيش الـبريـطاني الحـديث التكوين يتمرّن على القتال. وفي الوقت نفسه ساعد رفـع سور يقـطع الجـزيرة إلى قسمـين في أضيق جزء منهـا على حمـاية المنـاطق الخصبـة المتحضّرة في الجنـوب من هجمات القبـائـل في الشـمال. وقـد أشرفتُ بنفسي عـلى قسم من تلك الأعمال التي جـرت في كـلٍّ مكـان في وقت واحد على مساحة متجمّدة قدرها ثمانـون فرسخـاً: ووجدت في ذلـك فرصة لكي أجـرّب في هذا الفضـاء المحدّد تحـديداً جيّـداً والممتدّ من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ساحل إلى الآخر نظاماً دفاعيّاً قابلاً للتطبيق فيما بَعْدُ في كلِّ مكان غير هذا. بيد أنَّ هـذا العمل العسكـريّ المحض كان قـد سبق أن شجّع السلم ونشر الـرخاء في هـذا الجزء من «بـريطانيـا»؛ وقـامت قـرى؛ وحـدثت حركـة نزوح نحـو حدودنـا. وساعـدتْ حفّـاري فيلقنـا في مهمّتهم فرقٌ من السكّان الأصليّين؛ وكانت إقامة السور بالنسبـة إلى كثير من هؤلاء الجبليّين الـذين لمّا يكـونوا حتّى أمسِ قـد خضعـوا، الدليلَ الأوّل الذي لا يُدحض عـلى سلطان «روما» الحـامي؛ وكانت فلوس الرواتب أوّل عُملة رومانيّة تنتقل إلى أيديهم. وغدا هذا السور شعاري للعدول عن سياسة الفتح: فعند أسفل آخر قلعة من قلاعنـا أقمت معبداً للإلّه «تَرْم» [إلّه روماني يُعتبر حامي حدود الحقول].

لقد سحرني كلّ شيء في هذه الأرض الممطرة: نُتَف الضباب عنـد سفـوح التـلال، والبحـيرات المنـذورة لحـوريّـات أغـرب بكثير من حوريّاتنا، والعِرق السوداويُّ ذو العيون الرماديّـة. وكان دليـلي قائـداً شابّاً من الفيلق البريطاني التـابع: وكـان هذا الإلـه الأشقر قـد تعلّم الـلاتينيّة، ويغمغم بشيء من اليـونانيّـة، ويتدرّب بخجـل على نـظم أشعار غزليّة بهذه اللغة. وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة اتخـذت منه ترجماني إلى إحدى العرّافات الوثنيّات. فإذ كنّا جالسيْن في كوخ ملبّـد بالدخان يسكنه فحّام «سَلْتيّ» ونحن ندفّئ سيقاننا الملفوفة بـأقمطة من الصوف الخشن فقد رأينا امرأة عجـوزاً رنّحها المـطر وشعّثت شعرهـا الـريح تـزحف إلينا متـوحّشة خـائفـة وكـأنّها أحـد وحـوش الغـاب. وهجمت على أقراص صغيرة من خبز الشعير كانت تنضج في الموقـد. ولاطف دليـلي تلك المتنبّئة فـوافقت عـلى أن تستشـير لأجلي حلقـات

الدخان المتصاعدة والشرارات المفاجئة والأشكال الهشّة التي كانت تؤلّفها الزراجين وأكوام الرماد. ورأت مُدُناً تُبنى وجماهير فرِحة، ولكنّها رأت أيضاً مُدُناً محروقة وصفوفاً كئيبة من المهزومين تكذّب أحلامي عن السلام؛ ووجهاً عَذْباً وشابّاً رأت أنّه وجه امرأة ورفضت تصديق وجوده؛ وطيفاً أبيض ربّما لم يكن سوى تمثال، وهو شيء أكثر غموضاً بكثير من الطيف بالنسبة إلى هذه المرأة التي تعيش في الأحراج والمستنقعات. وعلى بُعْد بضعة أعوام مُبهمة، شاهدتْ موتي الذي كان بإمكاني التنبُّؤ به تماماً من دونها.

واستبقتني بلاد «الغال» الزاهرة و«إسبانيا» الغنيّة أقل ممّا فعلت «بريطانيا». وفي بلاد «الغال النربونيّة» عثرت من جديد على «اليونان» التي كانت قد جمعت مدارسها البديعة المتخصّصة في الفصاحة وأروقتها تحت سماء صافية الأديم. وتوقّفت في «نيم» لوضع تصميم لمبنى تذكاريّ مُهدى إلى «پلوتينيا» ومنذورٍ ليكون يوماً هيكلها. وكانت ذكريات عائليّة تربط الإمبراطورة بهذه المدينة قد جعلت هذا المشهد الجافّ المذهّب أحبّ إلى قلبي.

بيد أنَّ الثورة في «موريتانيا» كانت لاتزال تُرسل دخانها. فاختصرت رحلتي عبر «إسبانيا»، حتّى إنّي أهملت أن أتوقّف بين «قرطبة» والبحر لحظة في «إيتاليكا» مدينة صباي وأجدادي. وأبحرت إلى «إفريقيا» من «غادس».

كان المحاربون الموشومون الرائعون القادمون من جبال «الأطلس» لايزالون يزعجون المدن الساحليّة الإفريقيّة. وعشت هناك خلال بضعة أيّامٍ مقتضبةٍ المُعادِل «النوميدي» للاشتباكات «السرماتيّة»؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واستعرضتُ القبائل المُخْضَعَة واحدة واحدة، والولاء الفخور للزعماء الساجدين في قلب الصحراء وسط فوضى من النساء والصُّرَر والبهائم الجاثية على رُكَبِها. إلاَّ أنَّ الرمل كان يحلّ محلّ الثلج.

وكان لطيفاً لمرّة واحدة أن أقضي الربيع في «روما» وأن آوي إلى «الدارة» التي كان قد شُرِع بها وأتلقّى مداعبات «لوسيوس» اللذيذة وصداقة «پلوتينيا». بيد أنّ تلك الإقامة في المدينة ما لبثت أن قطعتها على الفور تقريباً شائعاتٌ منذرة عن وقوع حرب. فلم تكد تنقضي ثلاث سنوات على الصلح المعقود مع «الپارتيّين» وها هي أحداث خطيرة تنفجر على نهر «الفرات». ورحلت على الأثر إلى «الشرق».

كنت عازماً على تسوية تلك الإشكالات على الجبهة بوسيلة أقلّ ابتذالاً من تسيير الفيالق. ودُبِّر أمر مقابلة شخصيّة مع «خسرو». ولقد جلبت معي إلى «الشرق» ابنة الإمبراطور التي كانت قد أُسِرت وهي تقريباً في المهد خلال الحِقبة التي احتلّ فيها «تراجان» «بابل» واحتُفظ بها فيها بعدُ رهينة في «روما». وكانت صبيّة هزيلة واسعة العينين. وقد ضايقني وجودها ووجود نسائه بعض المضايقة خلال رحلة كان من المهمّ على الأخصّ القيام بها بلا تأخير. وقد حُمل هذا الرهط من المخلوقات المحجّبات على ظهور الجمال عبر «بادية الشام» داخل هوادج مَرْخِيَّة الأستار بمنتهى الصرامة. وفي أثناء المحطّات كنت أرسل في المساء من يسأل عمّا إذا لم يكن ينقص الأميرةَ أيُّ شيء.

وتوقّفت ساعة في «ليسيا» لإقناع التاجر «أوپراموواس»، وكان قد أثبت خصائصه بوصفه مفاوِضاً، بمرافقتي إلى أرض «الپارتيّين». ومنعه ضيق الوقت من عرض بذخه المعتاد. لم يكن الترهُّل بفعل الثراء قد قلّل شيئاً من قيمة هذا الرجل بوصفه رفيقَ دربٍ رائعاً ومُعتاداً جميعَ مصادفات الصحراء.

كان مكان اللقاء يقع على ضفّة «الفرات» اليسرى، غير بعيد من «دورا». وعبرنا النهر فوق طَوْف. وكان جنود الحرس الإمبراطوري «الپارتي» المدرّعون بالذهب والراكبون خيولاً ليست أقلّ منهم بَهْراً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للأنظار يشكّلون على طول حواف النهر خطّاً يُغشي الأبصار. وكان «فليغون» الذي لا يُفارقني شاحباً جدّاً. وشعر الضبّاط الذين كانوا يرافقونني هم أنفسهم ببعض الرهبة: فقد كان يمكن أن يكون هذا اللقاء شَرَكاً. وأمّا «أوبرامواس» الذي كان يألف استرواح هواء «آسيا» فكان مرتاحاً ومطمئناً إلى هذا الخليط من الصمت والجَلَبة، ومن السكون وإحضارات الخيول المفاجئة، ولهذا الترف المُلقى به على الصحراء إلقاءَ سجّادة على الرمل. وأمّا أنا فكنت خِلْواً بشكل رائع من كلّ قلق: لقد كنت مثل «قيصر» مُتّكِلاً على هذه الألواح التي تحمل طالعي. وقد قدّمت الدليل على هذه الثقة بإعادتي على الفور الأميرة إلى أبيها بدلاً من الاحتفاظ بها في خطوطنا حتّى عودتي. ووعدتُ كذلك بإرجاع عرش السلالة «الأرزاسيّة» الذهبيّ الذي كان «تراجان» قد أخذه ولم يكن لنا ما نفعله به وكان التطيّر الشرقي يعلّق عليه قيمة كبيرة.

لم تكن أُبَّهة تلك المقابلات مع «خسرو» غير مظهر خارجي. فما كان شيء ليميّزها من المحادثات بين جارَيْن يجهدان في تسوية قضيّة جدار مشترك بطريقة حبّيّة. وكنت مُشتبِكاً مع بربري مرهف يتكلّم اليونانيّة وليس أبله على الإطلاق، ولا هو قطّ بالضرورة أشدّ مكراً منّي، وفيه مع ذلك ما يكفي من الترجُّح لكي يبدو قليل الاطمئنان. ولقد ساعدتني معارفي الذهنيّة الغريبة على التقاط هذه الفكرة المستعصية على الالتقاط: كنت وأنا جالس قبالة الإمبراطور «الپارتي» أتدرّب على توقّع إجاباته وعدم التواني في توجيهها؛ وشرعت في مشاركته لُعبته؛ أخذت أتخيّل نفسي «خسرو» مفاوِضاً «أدريان». فأنا

أستفظع المناقشات غير المجدية التي يعرف فيها المرء سلفاً أنَّه سوف يستسلم أو لا يستسلم: والحقيقة تروقني في القضايا والأعمال، ولاسيّما بوصفها وسيلة للتبسيط والاستعجال. لقد كان «الپارتيُّون» يرهبوننا؛ وكنّا نحذر «الپارتيّين»؛ وكانت الحرب ستخرج من تزاوج خَوْفَيْنا. وكان «الستراپيون» يدفعون إلى هذه الحرب بداعي المصلحة الشخصيّة؛ وسريعاً ما أدركت أنَّ لـ «خسرو» أمثالَ «كيبتوس» و«پالما». وكان «فاراسمانيس»، أشدُّ أولئك الأمراء أنصافِ المستقلّين القابعين على الحدود إثارةً، أخطرَهم جميعاً على الإمبراطوريّة «الپارتيّة» مثلما هو علينا. ولقد اتُّهِمتُ بأنِّي حيّدت هذا المحيط المؤذي والخرِع بالموافقة على إعانته بالأموال. وكنت شديد الثقة بتفوّق قوّاتنا لكي أرهق نفسي بكبرياء خرقاء: كنت مستعدّاً للقيام بجميع التنازلات الجوفاء التي من شأنها أن تزيدنا هيبة، وغير مستعدّ لأيّ تنازل من نوع آخر. وكان أصعب ما في الأمر إقناع «خسرو» بأنّني إذا كنت أغدق قليلاً من الوعود فذلك لأنِّي أنوي الوفاء بها. ومع ذلك فقد صدّقني، أو تظاهر بتصديقي. ومايزال الاتّفاق المعقود بيننا خلال تلك الزيارة ساري المفعول؛ ولم يحدث منذ خمسة عشر عاماً من الطرفين على الجبهات ما يُعكِّر صفو السلام. وأنا أعتمد عليك في استمرار الأحوال على هذا المنوال بعد موتي.

وذات مساء، داخل الخيمة الإمبراطوريّة، لاحظت خلال حفلة أقامها «خسرو» على شرفي رجلاً عارياً نحيلاً وسط النساء والخدم ذوي الأهداب الطويلة وهو لا يُبدي حراكاً. وكانت عيناه المبحلقتان تبدوان وكأنّهما جاهلتان بهذا الخليط من الأطباق المثقلة باللحوم،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وذلك الحشد من البهلوانات والراقصات. ووجّهت إليه الحديث بوساطة ترجماني: فلم يتنازل للردّ. وكان ذلك الرجل حكيماً من الحكماء. بيد أنَّ مريديه كانوا أذرب لساناً؛ كان أولئك المتشرّدون الأتقياء قد جاءوا من الهند، وكان معلّمهم ينتمي إلى طائفة «البرهمانيّين» النافذة. وأدركت أنَّ تأمّلاته كانت تحمله على الاعتقاد بأنَّ الكون بأسره ليس سوى نسيج من الأوهام والأخطاء: كان التقشّف والتنسّك والموت بالنسبة إليه الوسيلة الوحيدة للإفلات من لُجّة الأشياء المتغيّرة هذه التي ترك لها فيلسوفنا «هيراقليطس» على العكس من ذلك العِنان لحمله والوصول به من وراء عالم الأحاسيس إلى فلك الإلهي النقيّ، تلك السماء الثابتة الخالية التي حلم بها «أفلاطون» أيضاً. وأحسست عبر تعثّرات تراجمتي بأفكار لم تكن غريبة كلّ الغرابة عن بعض حكمائنا، غير أنَّ «الهندي» كان يعبّر عنها بطريقة أكثر حسماً وأشدّ انكشافاً. كان ذلك «البرهماني» قد وصل إلى الحالة التي لا يفصله فيها شيء غير جسده عن الإلّه الذي لا يُلامَس، الإلّه الذي لا مادّة له ولا صورة، الإلّه الذي كان يرغب في الاتّحاد به: كان قد عزم على إحراق نفسه حيّاً في اليوم التالي. ودعاني «خسرو» إلى ذلك الاحتفال. وكانت قد نُصبت محرقة من الخشب الفوّاح؛ وألقى الرجل بنفسه فيها واختفى من غير أن تصدر عنه صرخة واحدة. ولم يُبدِ مريدوه أيّة أمارة من أمارات الأسف: فلم يكن ذلك في نظرهم مأتماً.

وأعدت التفكير في الأمر مليّاً خلال الليلة التالية. وكنت مستلقياً على سجّادة من الصوف الثمين تحت خيمة مضرَّبة بأقمشة برّاقة

وسميكة. وكان أحد الخدم يدلّك لي قدميّ. وكانت تترامى إليّ من الخارج الأصوات النادرة في تلك الليلة الآسيويّة: حديث بين عبيد يتهامسون عند بابي؛ حفيف خفيف صادر عن نخلة؛ «أوبرامواس» شاخراً خلف أحد الأستار؛ وقع حافر حصان في وضع شِكال؛ وأبعدَ قليلاً، آتياً من مضارب النساء، هديل أغنية حزينة. وكان «البرهماني» قد مقت كلّ هذا. فلقد أطعم هذا الرجل الثمِل بالرفض جسده للّهب كما يتقلّب عاشق في جوف سرير. وكان قد أزاح الأشياء والمخلوقات، ثمّ نفسه، وكأنّها ملابس تُخفي عنه ذلك الوجود الفريد، ذلك المركز اللامرئي والفارغ الذي كان يُؤْثِره على كلّ شيء.

وأحسست بأنّي مختلف عنه، وجاهز لِخيارات أخرى. ولم يكن التقشّف ولا الزهد ولا إنكار الذات بالغريبة عنّي تماماً؛ فقد سبق أن ذُقتها كما يفعل المرء على الدوام تقريباً حين يكون في العشرين من عمره. وكان عمري أقلّ من ذلك عندما قادني أحد الأصدقاء في «روما» لرؤية «أبيكتيتوس» العجوز في كوخه القذر في «سوبور» قبل أن ينفيه «دوميسيان» ببضعة أيّام. وقد بدا لي يومها أنّ العبد القديم الذي كان قد حطّم ساقه فيما مضى سيّدٌ عاتٍ من غير أن يتمكّن من انتزاع شكاة واحدة منه، والشيخ الهزيل المتحمّل بصبر داء الحصاة الطويلة، بدا لي أنّه يتمتّع بحرّيّة شبه إلهيّة. ولقد تأمّلت بإعجاب ذَيْنِك العكّازين وتلك الحصيرة وذلك المصباح الفخّاري وهاتيك الملعقة الخشبيّة في إناء من الصلصال، وكلّها أدوات بسيطة لحياة نقيّة. بيد أنّ «أبيكتيتوس» كان يستنكف عن أشياء كثيرة جدّاً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسرعان ما أدركت أنَّه ما من شيء كان، بالنسبة إليّ، أخطر استسهالاً من الاستنكاف. وأمَّا «الهندي»، وهو أقوم منطقاً، فقد رفض الحياة نفسها. وكان عليّ أن أتعلّم كثيراً من هذين المتزمّتيْن الصافييْن، شريطة أن أُحرِّف الأمثولة التي قدّماها لي عن معناها. فلقد جهد هذان الحكيمان في العثور على إلههما وراء محيط الأشكال، وأن يحوّلاه إلى تلك الميزة المتمثّلة بأنَّه واحد ولا يُلمس وبلا جسد، الميزة التي عدل عنها يوم أراد أن يكون هو الكون. وكنت ألمح بشكل مختلف علاقاتي بالإلهي. فأتخيّل نفسي ظهيراً لهذا في سعيه إلى تشكيل عالَم وتنظيمه، وإلى تنمية التفافاته وتشعبّاته وعطفاته ومضاعفتِها. وكنت أحد مقاطع العَجَلة، وأحد مظاهر هذه القوّة الفريدة المحشورة في تعدّدية الأشياء، نسراً وثوراً، إنساناً وبجعة، عضوَ ذكورةٍ وعقلاً معاً، «پروتيه» [إلّه بحري يملك موهبة التنبّؤ، غير أنّه لم يكن من الممكن انتزاع نبوءاته إلاَّ بالعنف] الذي هو في الوقت نفسه «جوپيتير».

في تلك الحقبة تقريباً بدأت أشعر بأنّي إلّه. لا تُسئ الظنّ: لقد كنت دائماً، وأكثر من أيّ وقت، هذا الإنسان المغتذي بالثمار وببهائمٍ الأرض، المُرْجِع إلى التربة بقايا أطعمته، المضحّي للنوم عند كل دورة من دورات النجوم، القلِق إلى حدّ الجنون حين يغيب عنه طويلاً دفء الحبّ. وقوّتي ومهارتي البدنيّة أو الذهنيّة كانت تحفظهما لي بعناية رياضة إنسانيّة صرف. ولكن ماذا أقول إنْ لم أقل إنّ كل هذا قد عِيش عَيْشاً إلَهيّاً؟ ولقد انقضت تجاريبُ الشبابِ المبنيّةُ على المصادفات، وانتهى استعجاله التمتّعَ بالوقت الذي يمرّ. وكنت أشعر

وأنا في الأربعين بأنّي خِلو من النزق، وواثق من نفسي، وكامل بقدر ما تسمح به طبيعتي، وأبديّ. وافهمْ جيّداً أنَّ الأمر يتعلّق هنا بمفهوم صادر عن العقل: وحدثت الهذيانات، إن لم يكن بدّ من تسميتها، فيما بعدُ. فلقد كنت إلّهاً لمجرّد أنّي كنت إنساناً. ولم يكن من شأن الألقاب الإلّهيّة التي أغدقتها «اليونان» عليّ فيما بعدُ إلّا الإفصاح عمّا كنت قد لاحظته بنفسي منذ زمن بعيد. وأظنّ أنه كان من الممكن أن أشعر بأنّي إلّه في سجون «دوميسيان» أو في قعر منجم. وإذا كنت أجسر على ادّعاء ذلك فلأنَّ هذا الشعور يكاد يبدو لي خارقاً، ولا يبدو لي فذّاً على الإطلاق. ولقد شعر به أناس غيري أو هُمْ سيشعرون به في المستقبل.

قلت إنّ ألقابي قد أضافت شيئاً قليلاً إلى ذلك اليقين المدهش: إنَّ أبسط أنماط منصبي إمبراطوراً قد صدّقت، في المقابل، ذلك اليقين. وإذا كان «جوپيتير» هو عقل العالَم فإنَّ الإنسان المكلَّف تنظيم الشؤون البشريّة وتلطيف حدّتها يستطيع أن يعتبر نفسه عن حقّ جزءاً من هذا العقل الذي يتحكّم بكلّ شيء. ولقد وَعَت البشريّة، عن حقّ أو عن خطأ، إلّهها على الدوام تقريباً بعبارة «العناية الإلّهيّة»؛ وكانت وظائفي تَضطرّني إلى أن أكون في نظر جزء من الجنس البشري تلك العنايةَ مُجَسَّدةً. وكلّما تطوّرت «الدولة» حابسةً الناس بزَرَدِها الضيّق البارد زادت صبوة الاطمئنان البشري إلى تصدير صورة معبودة لرجل حامٍ في الطرف الآخر من هذه السلسلة الضَّخمة. وسواء شئتُ أو أبيتُ فقد كانت الشعوب الشرقيّة في الإمبراطورية تعاملني على أنّي إلّه. وحتّى في «الغرب»، وحتّى في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«روما» التي لسنا فيها مُعْلَنين إلَهيّين رسميّاً إلّا بعد الموت، فإنّ التقوى الشعبيّة المبهمة تُسَرّ أكثر فأكثر بتأليهنا أحياء. وسرعان ما شاد العرفان بالجميل «الپارتي» معابد للإمبراطور الروماني الذي أقام السلام وعمل على استتبابه؛ لقد كان لي محرابي في «ڤولوجيزيا» في وسط هذا العالم الأجنبي المترامي. وإذ كنت بعيداً عن أن أرى في أمارات التعبّد هذه خطر جنون أو سيادة مطلقة عند الرجل الذي يتقبّلها فقد اكتشفت فيها كابحاً والتزاماً بالارتسام تبعاً لنموذج أبديٍّ ما، وضُمَّ جزء من الحكمة والمعرفة إلى القدرة البشريّة. وكون المرء إلَهاً يُلزمه إجمالاً بفضائل أكثر من التي يلزمه بها كونه إمبراطوراً.

وخضعت لتلقّي الأسرار في [مدينة] «أيلوزيس» [اليونانيّة] بعد ذلك بثمانية عشر شهراً. وكانت تلك الزيارة إلى «خسرو» منعطفاً في حياتي بمعنى من المعاني. فقد قرّرت بدلاً من العودة إلى «روما» تخصيص بضعة أعوام للأقاليم اليونانيّة والشرقيّة في الإمبراطورية: غدت «أثينا» أكثر فأكثر موطني، مركزي. وكنت مصرّاً على أن أروق في عين الإغريق، وكذلك على أن أتشرّب الهلّينيّة ما أمكن، غير أنَّ ذلك التدريب الذي حرّكته جزئيّاً دوافعُ سياسيّة غدا مع ذلك تجربةً دينيّة لا مثيل لها. فتلك الشعائر الكبرى لا تؤدّي إلّا إلى ترميز أحداث الحياة البشريّة، بيد أنَّ الرمز يصل إلى أبعد من العمل، ويفسّر كلاً من حركاتنا بتعابير خاصّة بميكانيكيّة أبديّة. وينبغي أن يظلَّ التعليم المتلقّى في «أيلوزيس» سرّياً: وعلى كلٍّ حال فإنَّ حظوظه في الانتشار قليلة لأنّه بطبيعته عزيز على الوصف. وإذا صيغ فإنّه لا يؤدّي إلّا أكثر البديهيّات ابتذالاً؛ وهنا يكمن بالضبط عمقُه. ولم

تضف الدرجات الأسمى التي عهد بها إليّ فيما بَعْدُ معلّم الأسرار شيئاً تقريباً إلى الهزّة الرئيسيّة التي شعرت بها أقوى شعور على يد أجهل حاجّ يشارك في طقوس التطهُّر ويستقي من النبع. ولقد سمعت أنغام النشاز تتحوّل إلى أنغام متساوقة؛ وتوكّأت للحظة على فلك آخر، وتأمّلت من بعيد، ولكن عن كثب أيضاً، ذلك الموكب البشريّ والإلهيّ الذي كان لي مكاني فيه، ذلك العالم الذي لايزال فيه الألم موجوداً، ولكن لا وجود فيه للخطأ. وكان المآل البشريّ، هذا الرسم الغامض الذي تعثر فيه أقلّ العيون دُرْبة على كثير من الأخطاء، يتلألأ تلألؤَ رسوم السماء.

ومن الملائم التنويه هنا بعادة قادتني طَوال حياتي على درب أقلّ سريّةً من دروب «أيلوزيس»، بيد أنها موازية لها بالإجمال: أريد الحديث عن دراسة النجوم. فقد طالما كنت صديقاً للفلكيّين وزبوناً للمنجّمين. وعِلْمُ هؤلاء الأخيرين غير مؤكّد، زائف في تفاصيله، وربّما هو صحيح في مجمله: فلمّا كان الإنسان، وهو جزء ضئيل من الكون، محكوماً بالقوانين التي تتحكّم بالسماء، فليس من غير المعقول البحثُ فوقُ عن موضوعات حيواتنا، وعن عوامل الاستلطاف الباردة التي تُسهم في نجاحنا وفي أخطائنا. ولم أكن لأغفل في كلّ أمسيّة من أمسيات الخريف أن أحيّي في الجنوب «برج الدلو»، «النديم» السماوي، «الموزِّع» الذي وُلدت تحت علامته. ولا كنت لأنسى أن أعاين لدى مرور كلّ منها «المُشتريَ» و«الزُّهرةَ» اللذين ينظّمان حياتي، ولا أن أقيس تأثير «زُحَل» الخطِر. وإذا كان انكسار الأشعّة البشريّة العجيب ذاك على قُبّة النجوم كثيراً ما شغل ساعات سهري فإنّي كنت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشدَّ اهتماماً بكثير بالرياضيات الفلكيَّة، بالنظريّات المجرّدة التي تتيحها تلك الأجسام الكبيرة المشتعلة. وكنت أميل إلى الاعتقاد، شأني في ذلك شأنُ بعض أشجع حكمائنا، بأنَّ الأرض تشارك هي أيضاً في تلك المسيرة الليليَّة والنهاريَّة التي تُعتبر مواكب «أيلوزيس»، على الأكثر، صورة بشريَّة عنها. وكنت أجد صعوبة في تصوُّر وجود كُرَة ساكنة، نقطةٍ ثابتة لا تكون في الوقت نفسه متحرّكة، في عالم ليس كلّ ما فيه إلاَّ زوبعة من القوى، ورقصة تقوم بها الذرّات، عالمٍ كلُّ ما فيه قائم في وقت معاً فوقُ وتحتُ، على الأطراف وفي المركز. وفي مرّات أخرى كانت تساور سهراتي الليليَّة حساباتُ مبادرةِ الاعتدالينْ التي أجراها قديماً «إيپارك الإسكندراني»: ولقد عثرت فيها، بصيغة براهين لا بصيغة خرافات أو رموز، ذلك السرّ «الإيلوزيسيّ» نفسه عن المرور والعودة. ولا يقع «برج العذراء»، في أيَّامنا هذه على الخريطة، في المكان الذي عيّنه «إيپارك»، بيد أنَّ هذا التبدّل هو تمام دورة، وهذا التغيير نفسه يؤكّد افتراضات الفلكيّ. وسوف تعود هذه السماء رويداً وبالضرورة إلى ما كانت عليه في زمن «إيپارك»؛ وتكون من جديد ما كانت عليه زمن «أدريان». لقد كانت الفوضى تندمج في النظام؛ والتغييرُ جزءاً من تصميم كان الفلكي قادراً على ضبطه سلفاً؛ وكان العقل البشري يُفصح هنا عن إسهامه في الكون بإنشاء فرضيّات صحيحة، كما بالصيحات الطقوسيَّة والرقصات في «إيلوزيس». وكان الإنسان المتأمِّل يسير بالضرورة، ومعه النجوم المتأمَّلة، إلى النهاية المعيّنة في مكان ما من السماء. بيد أنّ كلّ لحظة من ذلك السقوط كانت لحظةَ توقّف، مَعْلماً من المعالم،

مقطعاً من خطٍّ مُنْحَنٍ يماثل في صلابته سلسلة ذهبيّة. وكان كلّ انزلاق يقودنا إلى تلك النقطة التي تبدو لنا مركزاً لأنّنا قد وُجِدْنا فيها مصادفةً.

منذ ليالي صباي التي كانت فيها ذراع «مارولّينوس» المرفوعة تُعيّن لي المجرّات وفضولُ أمور السماء لم يفارقني. وفي أثناء السهرات الإجباريّة في المعسكرات راقبت القمر الساري عبر غيوم السماوات البربريّة؛ وأصغيت فيما بَعْدُ في ليالٍ أثينيّة صافية إلى الفلكيّ «تيرون الرودوسي» يشرح لي نظامه الخاصّ بالعالم؛ ورأيت وأنا ممدّد على متن سفينة وسط بحر «إيجة» ترجّح الصاري على مهل وهو يتنقّل بين النجوم سائراً من عين «الثور» الحمراء إلى دموع «الثريا»، ومن «الفرس الأعظم» إلى «البجَعة»؛ وبذلت جهدي في الردّ على الأسئلة الساذجة والخطيرة الشأن التي كان يطرحها عليّ الشاب الذي يتأمّل معي السماء نفسها. وهنا، في «الدارة»، أمرت ببناء مرصد يمنعني المرض اليوم من ارتقاء درجاته. وذات مرّة فعلت في حياتي ما هو أكثر: قدّمت إلى المجرّات تضحية ليلةٍ بأكملها. وكان ذلك بعد زيارتي إلى «خسرو» خلال الرحلة في «بادية الشام». فإذْ كنت مستلقياً على ظهري وعيناي مُبَحْلِقتان وقد تخلّيت لبضع ساعات عن كلّ همّ بشريّ فقد انصرفت من المساء حتىً الفجر إلى هذا العالمَ من اللهب والبلّور. وكانت تلك أجمل رحلاتي. وكان أكبر كواكب مجرّة «النسر الواقع»، النجمة القطبيّة التي سيهتدي بها الناس الأحياء بعد عشرات آلاف السنين على مفارقتنا الدنيا، يتلألأ فوق رأسي. وكانت نجوم «برج الجوزاء» ترسل لمعاناً خفيفاً في أضواء الغروب الأخيرة؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكـانت «الحيّة» تتقـدّم «برج القـوس»، و«النسر» يصعّـد إلى السَّمْت فاتحاً جناحيه على اتّساعهما، وعند قـدميه هـذه المجرّة التي لم يحـدّدها الفلكيّـون بعد، والتي أطلقت عليهـا مذّاك أعـزّ الأسـماء عـلى قلبي. وكـان الليـل، وهـو لا يكـون قطّ بمثـل الاكتـمال الـذي يعتقـده من يعيشون وينامون في غرفهم، أكـثر إظلامـاً، ثم أكثر صفـاء. وخمدت النيران التي كانت قد شُبَّت لإخافة بنات آوى؛ وذكّرتني تلك الكومـة من الجمر المتّقد بجدّي واقفاً في كَرْمه، وبنبوءاته التي أصبحت مـذّاك حاضراً ولن تلبث أن تغـدو ماضيـاً. وقد حـاولت الاتّحاد بـالإلهي في عـدّة أشكال؛ وعـرفت غير نشـوة؛ ومنها مـا هو في غـاية الفـظاعـة؛ وأخرى ذات حلاوة مثيرة. وكانت نشـوة الليل الشـاميّ جليَّة بشكـل عجيب. وقـد نقشت في ذاتي التحرّكـاتِ السماويّـةِ بـدقّـةٍ لم يكن أيّ رصد جزئي ليسمح لي قطّ ببلوغها. وإنّي لأعـرف بالضبط، في هـذه الساعة التي أكتب إليك فيها، أيَّـة نجوم تمـرّ هنا، في «تيبـور»، فوق هذا السقف المزخرف بالجصّ والرسوم الثمينة، وفي الخارج، هنـالك فوق أحد القبور. وبعد بضع سنوات غدا الموت هدف تأمّلي الثابت، الفكـرة التي مَخَضْتُهـا جميـع قـواي العقليّـة التي لم تكن «الـدولـة» تستنفدها. ومن يَقُلِ الموت يَقُلْ أيضاً العـالم الخفيّ الذي من الممكن بلوغه عن طريق هذا الموت. وبعد هذا القـدر من التفكّر والتجـارب القابلة للإدانة في بعض الأحيان، لاأزال أجهـل ما يجـري خلف هذه الستـارة السـوداء. بيـد أنَّ الليـل الشـاميّ يمثّـل نصيبي الـواعي من الخلود.

العصر الذهبيّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انقضى الصيف الذي تلا لقائي «خسرو»، في «آسيا الصغرى»: فقد توقّفت في «بيتينيا» لأشرف بنفسي على عملية قطع غابات «الدولة». وفي «نيكوميديا»، وهي مدينة مُشرقة متحضّرة ذات علوم، أقمت في منزل حاكم الإقليم «كْنييوس پومپييوس پروكولوس»، مَقَرِّ الملك «النيكوميدي» السابق، المفعم بالذكريات الشهوانيّة التي عاشها «يوليوس قيصر» الشابّ. وكانت النسائم العليلة التي تهبّ من «بحر مرمرة» تُروِّح هذه القاعات الرطبة والمعتمة. ونظّم لي «پروكولوس»، وهو رجل مرهف الذوق، اجتماعاتٍ أدبيّةً. وكان بعض السفسطائيّين من عابري السبيل وزمرٌ صغيرة من طلّاب الآداب وهُواتها يجتمعون في الحدائق عند حافّةِ بركة منذورة للإلّه «پان» [إلّه ريفي في الميتولوجيا اليونانيَّة يرعى الماشية ويحميها]. وكان أحد الخدم يغمس فيه من حين إلى حين جرّة من الصلصال ذي المسامّ؛ وكانت أصفى أبيات الشعر تبدو صفيقة إذا ما قورنت بهذا الماء الزلال.

وقرئت في ذلك المساء مقطوعة عويصة بعض الشيء لـ «ليكوفرون» [شاعر مسرحي ونحويّ إغريقي وُلد في أواخر القرن الرابع ومات في القرن الثالث ق.م.] الذي أحبّه من أجل مقابلاته المجنونة بين الأصوات والتلميحات والصور، ونظامه المعقَّد في الانعكاسات والترجيعات. وكان فتى قابع بعيداً يُصغي إلى تلك الفقرات الصعبة بانتباه يجمع بين الشرود والتفكّر، وتخيّلت على الأثر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

راعياً في قلب الغابات متأثراً بشكل مبهم بتغريد لا يُدرى من أين مصدرُه. ولم يكن قد أحضر ألواحاً ولا قلماً. وإذ كان جالساً على حافّة الفسقيّة فقد كان يلامس بأصابعه الصفحة الجميلة الملساء. وعلمت أنَّ أباه كان قد شغل منصباً متواضعاً في إدارة الأملاك الإمبراطوريَّة الواسعة؛ وإذ تُرك التلميذ صغيراً جدّاً لرعاية أحد الأسلاف فقد أُرسل إلى مُضيف من أقربائه، صانع سفن في «نيكوميديا»، كان يبدو غنيّاً لعينْ هذه الأسرة الفقيرة.

واستبقيتُه بعد رحيل الآخرين. وكان قليل العلم، جاهلاً تقريباً بكلّ شيء، رزيناً، كثير التصديق. وكنت أعرف مدينة «كلوديوپوليس» مسقط رأسه؛ ونجحت في حمله على الحديث عن منزله العائلي عند طرف أحراج الصنوبر الشاسعة التي تزوِّد سفننا بالسواري، وعن معبد «آتيس» القائم فوق التلّة، وكان يحبّ معزوفاته الموسيقيَّة الحادّة، وعن خيول بلده الجميلة وآلهته العجيبة. وكان ذلك الصوت الأبحّ قليلاً يتلفّظ باليونانيَّة بنبرة آسيويّة. وإذ أحسّ بغتة بأنَّ هناك من يُصغي إليه، أو ينظر ربّما إليه، فقد اضطرب وعاد إلى مواقف الصمت المعاندة التي لم ألبث أنْ أَلِفْتُها. وكانت علاقة حميمة قد ذرّت بقرنها. فلقد رافقني فيها بَعْدُ في جميع أسفاري، وبدأت بضع سنوات أسطوريّة.

كان «أنتينويوس» يونانيّاً: وقد رجعت بذكريات تلك العائلة العريقة المجهولة إلى عهد المستعمرين «الأركاديّين» الأوائل على شاطئ «بحر مرمرة». بيد أنّ «آسيا» كانت قد فعلت في هذا الدّم الحامز قليلاً فعل نقطة العسل التي تكدّر الخمرة الصافية وتعطّرها. ولقد وجدت فيه

تطيُّر مُريد من مريدي «آپولونيوس» والإيمان بالملكيَّة المطلقة الذي يتحلّى به فرد من أفراد الرعيَّة الشرقيَّة التابعة لـ «الملك الأعظم». وكان حضوره صامتاً بشكل غير مألوف؛ ولقد تبعني مثل حيوان أو جنيّ أليف. وكان فيه من الكلب الفتيّ مزاياه غير المحدودة في المَرَح واللامبالاة، وتوحُّشه واطمئنانه. وقد رزح هذا الكلب السلوقي الجميل الجشع إلى الملاطفات والأوامر بثقله على حياتي. وكنت أُعجب بتلك اللامبالاة شبه المتعالية بكلّ ما ليس من لذّته ولا هو ديدنه: وكانت تقوم عنده مقام نكران الذات والوازع الخُلُقي وجميع الفضائل المدروسة والمتقشِّفة. وكنت أدهش لتلك الرقّة الصارمة؛ ولذلك التفاني الكئيب الذي يرهن الكائن بأسره. ومع ذلك فإنَّ ذلك الخضوع لم يكن أعمى؛ فقد كانت تلك الجفون المُسْبَلَة أكثر الأحيان لإعلان الموافقة أو للحلم تنفتح مجدَّداً؛ وكانت أشدّ العيون في الدنيا يقظة تنظر إليَّ مواجهة؛ وكنت أشعر بأنّي أُحاكَم. بيد أنّي كنت أشعر بذلك شعور إلّه يحاكمه عبده: كانت فظاظاتي ومواقفي المفرطة في الارتياب (لأنّه كان لي مثل هذه المواقف فيما بَعْدُ) تُتَقَبَّل بصبر ووقار. ولم يسبق أن كنت سيِّداً مطلقاً إلاَّ مرّة واحدة، وإلاَّ على كائن واحد.

إذا كنت لمَّا أقلْ شيئاً عن جمال بهذا القدر من البروز فلا ينبغي أن يؤخذ ذلك على أنَّه نوعٌ من التحفُّظ يقوم به إنسان مغلوب تماماً على أمره. غير أنَّ الوجوه التي نستميت في البحث عنها تُفلت منّا؛ ولكنّ ذلك لا يكون أبداً إلاَّ لبرهة... وإنّي لألتقي رأساً مَحْنِيَّاً تحت شعر حالك السواد، وعينين يجعلهما امتداد الجفون تبدوان مائلتين، ووجهاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتيّاً عريضاً كأنّه ممدّد على جانبه. ولم ينقطع هذا الجسد الـرَّخْص عن التبـدُّل كما تتبـدّل النبتة، وبعض هـذه التبدّلات مَعْـزُوَّة إلى الـزمن. فلقد تغيَّر الصبيّ؛ لقد كبِر. وكان يكفي لتليينه أسبوع من التراخي؛ لقـد كان عصرُ يـومٍ ينقضي في الصيد يعيـد إليـه صـلابتـه، سرعتـه المعروفة عند الأبطال الرياضيّين. وكانت سـاعة في الشمس تُحيله من لون الياسمين إلى لون العسل. ولقد طالت ساقا المُهْر الثقيلتان بعض الثقل؛ وفقد الخدّ الاستدارة الـدقيقة التي كـانت له في الصِّبـا وتجوَّف قليلاً تحت الوجنة الناتئـة؛ واتّخذ أعـلى الصدر المنفـوخ بالهـواء الذي كان يملكه عدّاء المسافات الطويلة الانحناءاتِ الملساءَ الصقيلةَ في نحر كاهنة من كاهنات الإلّه «باخوس». وثقلت برطمـة الحَرَد في الشفتـينْ بمرارة حادّة وارتواء كئيب. والحقّ أنَّ هذا الوجه كان يتغيّر كـما لو أنّي كنت أنحتُه ليلَ نهارَ.

وعنـــدمـا ألتفتُ إلى تلك الأعــوام أظنّ أنّي أجــد فيهــا «العصر الذهبي». لقد كان كلّ شيء هيّنـاً: كانت جهـود الأمس تُكافَـأ بيُسر يكاد يكون إلّهيّاً. كان السفر لعبة: لذّةً مضبوطـةً، معروفـةً، مباشَـرَةً بمهـارة. ولم يكن العمل المتـواصل غـير نمطٍ من الشهوة. وقـد حازت حيـاتي، وكان كـلّ شيء فيها قـد حدث متـأخِّراً، السلطةُ، وكـذلك الهناءُ، روعةَ رابعة النهار وتوهّجَ ساعات القيلولة التي يسبح فيهـا كلّ شيء في جوّ من الذهب، الأشياء التي في الغرفـة والجسد المستلقي إلى جانبنا. وللشهوة المُشْبَعَة براءتها التي تماثل تقريباً في الهشاشة كلّ براءة أخرى: كانت بقيَّة الجمال البشري تنتقل إلى رتبة العَرْض وتتوقَّف عن أن تكـون تلك الطريـدة التي كنتُ صيّادهـا. وكـانت تلك المغـامـرة

المبدوءة بشكل مبتذَل تُغني حياتي، لكنّها كانت تبسّطها أيضاً: كان حساب المستقبلِ قليلاً ما يُحسب؛ وانقطعتُ عن طرح الأسئلة على الناطقين بوحي الآلهة؛ ولم تَعُدِ النجوم غيرَ رسوم رائعة على قُبّة السماء. ولم يكن قد سبق لي أن لاحظت بمثل هذا القدر من التلذُّذ شحوب السَحَر على أفق الجُزُر، وطلاوة الكهوف المخصَّصة لـ «حوريّات البحر» المسكونة بالطيور العابرة، وطيران السُّماني الثقيل عند الغَسَق. وأعدت قراءة ما نظم بعض الشعراء: فبدا لي نفر منهم خيراً ممَّا كانوا قبلاً، ومعظمهم شرّاً ممَّا كانوا. وكتبت أشعاراً بدت أقلّ كفاية ممَّا هي في العادة.

وكان هناك بحر الأشجار: غابات بلّوط الفلّين وأحراج الصنوبر في «بيتينيا»؛ وجناح الصيد ذو الأروقة المليئة بالمناور التي كان الصبيّ يتقلّب فيها مع كلابه على نمارق من الجلد وقد أخذه فتور مسقط رأسه فنثر كيفما اتّفق سهامه وخنجره وحزامه الذهبي. وكانت السهول قد اختزنت حرارة الصيف الطويل؛ وارتفع غبش من المروج عند ضفَّة نهر «سنغاريوس» حيث كانت تعدو جحافل من الخيول غير المروَّضة؛ وعند انبلاج النهار كنَّا ننزل فنستحمّ عند جُرُف النهر ساحقينْ في طريقنا الأعشاب الطويلة المبلَّلة بندى الليل، تحت سماء يتدلّى منها الهلال النحيل المتّخذ شعاراً لـ «بيتينيا». ولقد غُمر هذا البلد بالامتيازات؛ بل لقد سُمّي باسمي.

وحاصَرَنا الشتاءُ في «سينوب»؛ ودشَّنت فيها، في بردٍ شبه «سيتيّ»، أعمال توسيع الميناء وكان بحّارة الأسطول قد تولّوها بناءً على أوامري. وعلى طريق «بيزنطة» أشعل الوجهاء على مداخل القرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نيراناً هائلة ليتدفّأ عليها حرّاسي. وكان اجتياز «البوسفور» جميلاً تحت العاصفة الثلجيَّة؛ وتمّ اجتياز الغابة «التراسيَّة» على صهوات الخيل والريحُ الصرصر تتغلغل في طيّات المعاطف ونقر المطر يُسمع فوق الأوراق وعلى سقف الخيمة والتوقّف يحدث في معسكر العمّال الذي ستنتصب في موقعه «أندرينوبل»، وكان هناك هتافات قدامى المحاربين في الحروب «الداسيَّة»، والأرضِ الرخوة التي لن تلبث أن تخرج منها أسوار وأبراج. وأعادتني زيارةٌ لحاميات «الدانوب» في الربيع إلى البلدة الزاهرة التي هي اليوم «سرميزيجتوز»؛ وكان الصبيّ «البيتينيّ» يحمل في معصمه سِواراً من الملك «ديسيبال». وتمّت العودة إلى اليونان بطريق الشمال: وتباطأت طويلاً في وادي «تمپيه» المرشوش بالمياه الجارية؛ وسبقت «أوبيه» الشقراء «آتيك» ذات اللون الخمري. ولم يكن منّا إلاّ أن لامسنا «أثينا» ملامسةً؛ وخلال تدرُّبي على تلقّي «الأسرار» في «أيلوزيس» أمضيت ثلاثة أيّام بلياليها مختلطاً بحشد الحُجّاج الذين استُقبلوا بمناسبة هذا العيد نفسه: كان الاحتياط الوحيد الذي اتُّخذ هو منع الرجال من حمل السكاكين.

وأخذتُ «أنتينويوس» إلى «أركاديا» موطن أجداده: كانت الغابات فيها لاتزال مستعصية على التوغّل كما في الأزمنة التي عاشها فيها أولئك الغابرون من صيّادي الذئاب. وأحياناً كان أحد الفرسان يَذْعر حيَّة بضربة من سوطه؛ وعلى القمم الحجريَّة كانت الشمس تسطع وكأنّها في إبّان الصيف؛ وكان الصبيّ المستند بظهره إلى صخرة ينام ورأسه على صدره والريح تتلاعب بشعره وكأنّه نوع من «أنديميون» [أحد رعاة «كاريا»، وكان فائق الجمال، وقد أحبَّته «أرتيميس»

(القمر) فكانت تأتي في الليل للتملّي من جماله. وقد نال من «زيوس» أن يبقى خالداً شَرْطَ أن يظلّ نائماً] في رابعة النَّهار. ومزَّقت الكلاب أرنباً برِّيّاً كان صيّادي الشابُّ قد دجّنه بعد كبير عناء: وكان ذلك الحادث المصيبة الوحيدة التي حلّت في تلك الأيّام التي لا تعرف الظلال. واكتشف الناس في «مانتينيه» روابط قربى بهذه العائلة من المستعمرين «البيتينيّين» التي كانت مجهولة حتّى ذلك الحين؛ ولقد أغنيت هذه المدينة ـ وقد أصبحت للصبيّ فيها معابده فيها بَعْدُ ـ وزيّنتها. وكان محراب «نپتون» التذكاريّ الذي تحوّل إلى أطلال من الإجلال بحيثُ مُنع أيّ كان من دخوله: كانت تتواصل خلف أبوابه الموصدة على الدوام أسرارٌ أقدمُ عهداً من الجنس البشري. وبنيت معبداً جديد أوسع بكثير من الأوّل يرقد داخله البناء القديم مذّاك وكأنّه نواة في قلب ثمرة. وعلى الطريق، غير بعيد من «مانتينيه» جدّدت الضريح الذي يرقد فيه «إيپامينوندا»، وكان قد قتل في أثناء المعركة، بقرب رفيق شابّ كان قد سقط إلى جانبه؛ وقد رُفع عمود نُقشت عليه قصيدة لتخليد هذه الذكرى من زمن لو نُظر فيه إلى كلّ شيء عن بُعْد لبدا أنّه كان نبيلاً وبسيطاً، الحنانُ والمجدُ والموتُ. وفي «آكايي» أقيمت «الألعاب البرزخيَّة» بجلال لم يُشاهد مثله منذ الأزمنة القديمة، وكنت آمل وأنا أعيد هذه الاحتفالات الهلّينيّة الكبرى أن أصنع من اليونان مجدّداً وحدة حيَّة. وقادتنا رحلات قنص إلى وادي «هيليكون» الذي ذهّبته آخر ألوان الخريف الصهباء؛ وحططنا الرّحال عند نبع «نرسيس» بالقرب من محراب «إلّه الحبّ»: وكان رُفات دبّة فتيّة، وهو تذكار صيد معلّق بمسامير من ذهب على جانب المعبد، قد قُدِّم إلى هذا الإلّه، أحكمِ الآلهة طُرّاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رسا القارب الذي أعارني إيَّاه التاجر «إيراستوس الأفيزي» للإبحار داخل «الأرخبيل» في جون «فالير»؛ وأقمت في «أثينا» مثل إنسان يعود إلى منزله. وجرؤت على ملامسة ذلك الجمال، وحاولت أن أجعل من هذه المدينة الرائعة مدينة كاملة. ولأوّل مرّة عادت «أثينا» تحفل بالسكّان وأخذت تنمو بعد حقبة طويلة من الانحطاط؛ وضاعفت من مساحتها؛ وأعددت العُدّة على طول الـ «إيليزوس» لـ «أثينا» جديدة، مدينة «أدريان» إلى جانب مدينة «تيزيه». وكان كلّ شيء برسم التسوية، برسم البناء. فقبل ستّة قرون كان المعبد الكبير الذي خُصّص لـ «زيوس الأولمبي» قد هُجر حالَ البدء به. وشرع عمّال بالعمل؛ وعرفت «أثينا» من جديد نشاطاً سعيداً لم تكن قد ذاقته منذ أيَّام «بيريكليس» [سياسي أثيني ومصلح شهير (٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق.م)] . وأنجزت ما كان «سلوقيّ» قد حاول عبثاً إنهاءه؛ وأصلحت ما خلّفته أعمال السلب التي كان قد قام بها «سيلاّ» أحد قادتنا. واستدعت مراقبة الأشغال روحات وغدوات يوميَّة وسط متاهة من الآلات والبَكَرات المُحكمة وجذوع الأعمدة نصف المنصوبة والكُتَل البيضاء المكدّسة بإهمال تحت سماء زرقاء. وشعرت من جرّاء ذلك بشيء من الإثارة التي أُحِسُّ بها في ورش بناء السفن: لقد كانت عِمارةً مُعَوَّمةً تُقلع نحو المستقبل. وفي المساء كان الفنّ المعماري يُخلي المكان للموسيقى، ذلك البناء الخفيّ على الأنظار. ولقد مارست تقريباً جميع الفنون، غير أنَّ فنّ الأصوات هو الوحيد الذي مارسته باستمرار والذي أعترف لنفسي فيه ببعض الامتياز. وكنت في «روما» أكتم هذا التذوّق؛ وكان في مُكنتي أن أنصرف إليه من غير تكتّم في

«أثينا». كان الموسيقيّون يتجمّعون في الفناء المزروع بسروة عند أسفل تمثال «هيرميس». ستّة أو سبعة وحسب؛ جوقة من النايات والكنّارات كان ينضمّ إليها أحياناً عازف ماهر مزوّد بقيثارة. وكنت كثيراً ما أمسك بالناي المستعرِض الكبير. وكنّا نعزف أنغاماً قديمة، تكاد تكون مَنْسيَّة، وكذلك ألحاناً جديدة مؤلَّفة من أجلي. وكنت أحبّ تقشّف الألحان «الدُّورِيَّة» الرجوليّ، بيد أنّي لم أكن أكره الألحان الشهوانيَّة أو العاطفيَّة، ولا الفُتات الصادر عن رقّة في الحاشية أو عن اتّقانٍ في الصنعة، وهو ما يرفضه الصارمون الذين تتجلّى فضيلتهم في الخوف من كلّ شيء، بوصفه يسبّب الاضطراب في المشاعر أو في القلب. وكنت ألمح بين الأوتار طيف رفيقي الشابّ الموارب مشغولاً بحكمة في تأدية حصّته داخل المجموعة وأصابعه تتحرّك بعناية على امتداد الخيوط المشدودة.

كان ذلك الشتاء الجميل غنيّاً بالمخالطات الودّية: فقد دعاني «آتيكوس» الثريّ الذي كان مصرفه يموّل أعمال الصيانة التي أقوم بها، لا من غير أن يجني أرباحاً على كلٍّ حال، إلى حدائقه في «كيفيسيا» حيث كان يعيش مُكتَنَفاً بحاشية من مرتجلي الكلام والكُتّاب النابهي الذكر؛ وكان ابنه، الفتى «هيرود» محدِّثاً بارعاً ولبِقاً؛ وقد غدا نديمي الذي لا غنىً عنه في مآدب العشاء التي كنت أقيمها في «أثينا». وقد فقد كثيراً من ذلك الخجل الذي كان قد أبقاه صامتاً بحضوري عندما أرسله نظام الفتوّة الأثيني إلى الجبهات «السرماتيّة» لتهنئتي بارتقاء سدّة الحكم، بيد أن غروره المتنامي بدا لي أكثر ما يكون خَرَقاً عذباً. وسحرني الخطيب «پوليمون»، رجل «لاوديسيا»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العظيم الذي كان ينافس «هيرود» في مجال الفصاحة، وعلى الأخص في الغنى والثروة، بأسلوبه الآسيوي الجَزْل والمتماوج مثل مياه «پاكتول» [نهر صغير في آسيا الصغرى الغربيّة اسمه اليوم «سرت» أو «باغولي»]؛ كان هذا الجمّاعة الحاذق للكلمات يعيش كما يحكي، بأبّهة وتشوّف. غير أن أنْفَسَ لقاء بينها جميعاً كان لقاء «أريان النيكوميدي» أفضل أصدقائي. وإذ كان يصغرني بحوالي اثني عشر عاماً فقد سبق أن بدأ حِرفة سياسيّة وعسكريّة بديعة مايزال مستمرّاً في خدمتها والتشرّف بها. وكانت تجربته في الشؤون الكبرى ومعرفته بالخيول والطلّاب وجميع التمرينات البدنيّة ترفعه بما لا يُقاس فوق من هم مجرّد مُنشئي جُمَل. وكان في شبابه فريسة شهوة من تلك الشهوات الفكريّة التي قد لا يكون للحكمة الحقيقيّة وجود من دونها، ولا للعظمة الحقيقيّة: انقضى عامان من عمره في «نيكوپوليس» في «ايپير»، داخل الغرفة الصغيرة الباردة العارية التي احتُضر فيها «أپيكتيتوس»؛ وكان قد آلى على نفسه أن يجمع ويدوِّن كلمةً كلمةً آخرَ أقوال الفيلسوف المريض. وكان ذلك العهد من الحماسة قد طبعه بطابعه: لقد احتفظ منه بآداب رائعة وبنوع من البراءة الصارمة. وكان يمارس في الخفاء تقشّفات ما كان أحد ليرتاب بوجودها. بيد أنَّ التدرّب الطويل على رباطة الجأش لم يجعله يتصلّب في مسلك الحكيم الزائف: لقد كان شديد الرهافة بحيث أدرك أنَّ هناك حدوداً للفضيلة كما أنَّ للحبّ حدوداً، وأنَّ قيمتهما تكمن بالضبط في نُدرتهما، في مزيّة كونهما رائعةً فريدةً وإفراطاً حُلْواً. وغدا ذكاء «زينوفون» الوادع ومروءته الكاملة قدوته التي يحتذيها مذّاك. وكان يكتب تاريخ بلده «بيتينيا». وكنت قد وضعت بإدارتي الشخصيّة ذلك

الإقليم الذي أساء إدارته طويلاً جماعة من الحُكّام المستبدّين: فأحسن نُصحي في مخطّطات الإصلاح. ولم يكن هذا القارئ المواظب على قراءة الحوارات السُقراطيّة يجهل شيئاً من مخزونات الشهامة والتفاني، والحكمة أحياناً، التي عرفت اليونان كيف تمجّد بها تعلُّق الصديق بصديقه: كان يعامل محظِيَّ الشابَّ باحترام ممزوج بالحنان. وكان ذانك «البيتينيّان» يتحدّثان تلك اللهجة العذبة الخاصّة بـ «إيونيا»، ذات الإعرابات «الهوميروسيّة»، وقد أقنعتُ «أريان» فيما بَعْدُ باستعمالها في أعماله.

كان لـ «أثينا» في ذلك العهد فيلسوفها المتخصّص بحياة الزهد: كان «ديموناكس» يعيش في كوخ من أكواخ قرية «كولون» عيشاً مثاليّاً وبهيجاً. ولم يكن «سقراطَ»؛ ولا كان له فطنته ولا نشاطه، غير أنّي كنت أحبّ سذاجته الساخرة. وكان «أريستومين» الممثّل الهزلي الذي كان يؤدّي المهزلة الأثينيّة القديمة بحميّة صديقاً آخر من أولئك الأصدقاء البسطاء القلوب. وكنت أدعوه حَجَلي الإغريقي: كان قصيراً بديناً مرِحاً مثل طفل أو عصفور، وكان يعرف أكثر ممّا يعرف أيّ إنسان عن طقوس الماضي وشعره ووصفاته المطبخيّة. وقد سلّاني وفقّهني طويلاً. واستمال «أنتينويوس» في ذلك العهد الفيلسوف «شابرياس»، وهو «أفلاطوني» مطعَّم بعض الشيء بمذهب «أورفيه»، وأشدّ الناس براءة، فأبدى للصبي إخلاصاً شبيهاً بإخلاص كلب من كلاب الحراسة، إخلاصاً لم يلبث أن شملني فيما بَعْدُ. ولم تبدِّل فيه شيئاً إحدى عشرة سنة من حياة البلاط: إنّه على الدوام ذلك الشخص الطاهر، الورِع، المشغول بشكل عفيف بالأحلام، المتعامي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن المكائد، المتصامم عن الشائعات. وهو يضجرني أحياناً، غير أنّي لن أنفصل عنه إلاّ عند مماتي.

كانت علاقاتي بالفيلسوف الزاهد «أوفراتيس» أكثر اقتضاباً. وكان قد انسحب إلى «أثينا» بعد ظفره بنجاح باهر في «روما». وكنت قد اتّخذته قارئاً، بيد أنّ الآلام التي كان يسبّبها له خُراج في الكبد منذ أمد طويل والضعف الناتج عنها أقنعته بأنّ حياته لا تقدّم له ما يستحقّ عناء العيش. ولقد استأذنني الاستعفاءَ من خدمتي بالانتحار؛ وما كنت يوماً عدوًّ الخروج الطوعيّ؛ فلقد نظرت إليه على أنّه نهاية ممكنة في أثناء الأزمة التي سبقت موت «تراجان». وكانت معضلة الانتحار، وقد سكنتني مذّاك، تبدو لي حينها حلاًّ سهلاً. ونال «أوفراتيس» الترخيص الذي طلبه؛ وقد حمّلتُه فتايَ «البيتينيّ»، ربّما لأنّه كان يروقني أنا أن أتلقّى من يديْ مثل هذا الرسول ذلك الجواب النهائي. وحضر الفيلسوف إلى القصر في المساء نفسه للاشتراك في مجلس لم يكن ليختلف في شيء عن المجالس السابقة؛ وقتل نفسه في اليوم التالي. ولقد أتينا عدّة مرّات على ذكر تلك الحادثة؛ وقد بقي الصبي مكتئباً من جرّائها بضعة أيّام. كان هذا المخلوق الجميل الشهواني يَسْتَهْوِل الموت؛ ولم أكن قد لاحظت أنّه كان قد شرع بالتفكير فيه كثيراً. وكان يصعب عليّ شخصياً أن أفهم كيف يغادر امرؤ بملء إرادته عالَماً يبدو لي جميلاً، وألاّ يستنزفه حتّى النهاية، على الرغم من جميع الآلام، ومن آخر إمكان للتفكير وللتواصل، وحتّى لتوجيه نظرة. ولقد تغيّرت كثيراً مذّاك.

إنّ التواريخ لتختلط: وإنّ حافظتي لتتّخذ حيّزاً واحداً تتكدّس فيه

الحوادث والرحلات الخاصّة بعدّة فصول ومواسم. ولقد اتّجهت مقدّمة القارب الذي بذخ التاجر «ايراستوس الأفيزي» في إعداده، نحو «الشرق»، ثمّ نحو الجنوب، وفي نهاية المطاف نحو هذه الـ «إيطاليا» التي أصبحت في نظري هي «الغرب». ولقد لامسنا «رودس» مرّتين؛ وزرنا «ديلوس» ذات البياض الباهر أوّل الأمر في صبيحة يوم من نيسان (ابريل)، ثمّ في مُنْقَلَب الشمسِ والقمرُ بدْرٌ؛ وأتاح لي سوء الأحوال الجويّة على ساحل «أيبيريا» أن أمدّد زيارتي لـ «دودون». وفي «صقلّية» تأخّرنا بضعة أيّام في «سرقسطة» لاكتشاف سرّ الينابيع: «أريتوز» و«سيانيه» إنّهما لحوريّتان زرقاوان جميلتان. وأوحيت بفكرة إلى «ليسينيوس سورا» الذي سبق أن صرف ما يسمح له به كونه رجل «دولة» من أوقات فراغ في دراسة عجائب المياه. وكنت قد سمعت عن تقزّحات الفجر المدهشة على بحر «إيونيا» إذا شوهدت من أعلى بركان «أتنا». وقرّرت القيام بارتقاء الجبل؛ وانتقلنا من منطقة الكروم إلى منطقة الحِمم ثمّ إلى منطقة الثلج. وكان الصبي ذو الساقين الراقصتين يركض فوق تلك المنحدرات الصعبة؛ وصعد العلماء الذين رافقوني على ظهور البغال. وكان قد بُني لنا ملجأ عند القمّة ليتسنّى لنا انتظار بزوغ الفجر. وبزغ؛ وانتشر من أفق إلى أفق وِشاحٌ ضخم من أوشحة «إيريس»؛ والتمعت نيران عجيبة على ثلوجِ القمّة؛ وانفتح الفضاء الأرضي والبحر للأنظار حتّى «إفريقيا» التي كنّا نراها و«اليونان» التي كنّا نحدس بها. وكانت تلك ذروة من ذرى حياتي. ولم يكن ينقصها شيء، لا هُدْب سحابة مذهّب، ولا النسور، ولا نديم الخلود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يا لمواسم ركود مياه البحر، يا لمُنْقَلَب أيّامي . . . وإذ كنت أبعد ما أكـون عن المغالاة في تقـدير سعـادتي من بعيد فعـليّ أن أناضـل كيلا أمسخ صورتها؛ وإنّ مجرّد ذكـراها الآن لأقـوى من أن أحتملها. وإذ كنتُ أَصْدَقَ من معظم النـاس فإني أبـوح بصراحة بـالأسباب الخفيّـة الداعية إلى هذا الهناء: إنَّ ذلـك السكون المشجّـع جدّاً عـلى الأعمال والتدريبات الذهنيّة ليبدو لي أحد أجمـل آثار الحبّ. وإنّي لأعجب أن ينظر إلى هـذه الأفراح المفرطة الهشاشـة التي نادراً مـا تكون كـاملة في أثنـاء حياة بشـريّة، ومهـما يكن الشكل الـذي بحثنـا به عنهـا أو بـه تلقّيناها، أن ينظر إليها بهذا القدر من الـريبة بعضُ مـدّعي الحكمة، وأن يرتابوا في تعوّدها وكثرتها بدلاً من الارتياب في نقصها وخسارتها، وأن يقضـوا في إنهاك حـواسّهم وقتـاً من الأفضـل قضـاؤه في تنـظيم نفوسهم وتزيينها. وفي ذلك الحين سخّرت لترسيخ سعادتي وتذوقّهـا، والحكم عليها كذلك، ذاك الاهتمام المستمـرّ الذي طـالما أوليتـه لأدقّ التفـاصيل في أعـمالي؛ وماذا تكـون الشهـوة نفسهـا إن لم تكن لحـظةَ اهتمام شغوفٍ بالجسد؟ إنَّ كل سعادة هي من الروائع؛ وأدنى خـطأ يـزيّفها، وأدنى تـردّد يُفسدهـا، وأدنى تثاقـل يشوّههـا، وأدنى حمـاقـة تخبّلها. وليست سعادتي مسؤولة في شيء من تهوّراتي التي مـا لبثت أن حطّمتها فيما بَعْدُ: لقد كنت حكيماً بقدر ما عملت باتّجاههـا. ومازلت أظنّ أنّه كان في وسع إنسان أعقل منّي أن يكون سعيداً إلى يوم مماته.

ولم أحصل على أكمـل صورة وأجـلاها عن هـذه السعادة إلاَّ بعـد ذلـك بقليـل، في «فـريجيـا»، عنـد الـطرفـينْ اللذين تختلط عنـدهمـا «اليونان» و«آسيـا». وكنّا نعسكـر في مكان قَفْـرٍ موحِش عنـد ضريح «ألسيبياد» [قائد عام وسياسي إغريقي (٤٥٠ ـ ٤٠٤ ق. م.)] الـذي

مات هناك ضحيّةَ دسائس «السترابيّين». وكنت قد أمرت بأن يوضع على ذلك القبر المهمل منذ قرون تمثالٌ رخاميٌّ من نحت «پاروس» يُمثِّل ذلك الرجل الذي يعدّ واحداً من الذين أحبّتهم «اليونان» أشدّ الحبّ. وأمرت كذلك بأن تقام كلّ عام بعض الشعائر التذكاريّة؛ وضُحّي بِعجْل؛ واقتُطع جزء من اللحم لمأدبة المساء. وجرى سباق خيول مُرْتَجل في السهل، وقُدِّمت رقصات شارك فيها «البيتينيّ» بكلّ ما أوتي من سحر جامح؛ وبعد قليل، على حافّة آخر إبّالة، غنّى وهو يدفع بنحره الجميل القويّ إلى الخلف. وإنّي لأحبّ التمدُّد بالقرب من الموتى لتدبّر أمري؛ في ذلك المساء قارنت حياتي بحياة ذلك الشائخ العظيم المقبل على ملذّات الحياة وقد سقط مثقّباً بالسهام في هذا المكان يدافع عنه صديق شابّ وتبكي عليه إحدى سيّدات البلاط في «أثينا». ولم يكن شبابي قد صَبا إلى ما عرفه «ألسبياد» من هالات المجد: كان تنوّع شخصي يعادل أو يفوق تنوّع شخصه. وكنت قد تمتّعت بقدر ما تمتّع، وتفكّرت أكثر ممّا تفكّر، وعملت أكثر بكثير ممّا عمل؛ وكنت أملك مثله السعادة الغريبة بأن أكون محبوباً. ولقد فتن «ألسبياد» كلّ شيء، حتّى «التاريخ»، ومع ذلك فها هو ذا يخلّف أكداساً من الموتى الأثينيّين المهجورين في مناجم «سرقسطة»، ووطناً مترنّحاً، وآلهةَ مَفارِقِ الطرق وقد شوّهتهم يداه ببلاهة. وكنت قد حكمت عالماً أوسع بكثير جدّاً من الذي كان «الأثينيّ» قد عاش فيه؛ ولقد حافظت فيه على السلام؛ وجهّزته تجهيز سفينة جميلة عُوِّمت للقيام برحلة سوف تدوم قروناً؛ وناضلت ما وسعني النضال لتشجيع الحسّ الإلهي في الإنسان، من غير أن أضحّي مع ذلك بالإنساني فيه. وكانت سعادتي وفاء لي على ما أبديت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت هناك «روما». بيد أنيِّ لم أكن مجبراً على المراعاة والطمأنة والإرضاء. وكان العمل للإمبراطوريّة يفرض نفسه؛ وقد بقيت أبواب معبد «جانوس» [إله رومانيّ بوجهينْ متعاكسينْ] التي تُفتح في أوقات الحرب موصدةً؛ وأخذت المقاصد تؤتي ثمارها؛ وانسحب ازدهار الأقاليم على الحاضرة. ولم أعد أرفض لقب «أبي الوطن» الذي عُرض عليّ زمنَ ارتقائي سُدّة الحُكْم.

وكانت «پلوتينيا» قد فارقت الدنيا. وخلال إقامة سابقة في المدينة كنت قد رأيت للمرّة الأخيرة هذه المرأة ذات الابتسامة الفاترة التي جعلت منها المدوَّنات الرسميّة أمّاً لي، وكانت عندي أكثر من ذلك: صديقتي الوحيدة. ولم أجد منها في هذه المرّة سوى حُقّ صغير موضوع تحت «العمود التراجانيّ». وحضرت بنفسي احتفالات التمجيد بعد الموت؛ وخلافاً لمألوف العُرف الإمبراطوري فقد لبست الحِداد تسعة أيّام. غير أنَّ الموت لم يُبدِّل شيئاً كثيراً من تلك الحميميّة التي كانت قد استغنت منذ أعوام عن الحضور؛ لقد ظلّت الإمبراطورة ما كانته على الدوام بالنسبة إليّ: عقلاً، فكراً ارتبط بفكري ارتباطَ زوجينْ.

كانت بعض أشغال البناء العظيمة في طريقها إلى الانتهاء: زُيِّنت الـ «كوليزيه»، بعد إصلاحها وغسلها من ذكريات «نيرون» التي كانت لاتزال تسكن ذلك الموقع، بتمثال ضخم للشمس «هيليوس - ملكاً» تلميحاً إلى اسمي المعروف في نسبي «أيليوس» مكانَ صورة

ذلك الإمبراطور. وكانت اللمسات الأخيرة في طريقها إلى معبد «فينوس» و«روما» المبنيّ هو الآخر في موضع «البيت الذهبي» المُخْزي الذي كان «نيرون» قد عرض فيه بلا رونق ترفاً قوبل باستياء. «روما»، «الحبّ»: لقد تماهت ربّة «المدينة الخالدة» للمرّة الأولى بـ «أمّ الحبّ» الإمبراطورة الملهِمة كلَّ فرح. وكانت تلك إحدى أفكار حياتي. فلقد اتّخذتِ القوّة الرومانيّة على هذا النحو ذلك الطابع الكوني والمقدّس، ذلك الشكل السلميّ والحامي الذي كنت أطمح في أن أضفيه عليها. وكان يحدث لي أحياناً أن أماهي بين الإمبراطورة الميتة وتلك الـ «فينوس» الحكيمة، المستشارة الإلَهيّة.

وشيئاً فشيئاً أخذت جميع الرُّبوبيّات تبدو لي مصهورة بشكلٍ خفيّ في «كلّ» واحد، فيْضاً متنوّعاً إلى ما لانهاية، تجلّياتٍ متساويةً لقوّة واحدة: لم تكن تناقضاتها غير نمطٍ من أنماط توافقها. وفرض نفسه عليّ بناء معبدٍ لـ «جميع الآلهة»، «مجمع أرباب». واخترت مكانه فوق حطام حمّامات عامّة كان «أغريبا» صهر «أغسطس» قد منحها للشعب الروماني. ولم يكن قد بقي من البناء القديم غير رواقٍ واللوحة الرخاميّة التي عليها الإهداء إلى شعب «روما»؛ ولقد أُعيد وضع هذه اللوحة كما هي بعناية على واجهة المعبد الجديد. وما كان ليهمّني كثيراً أن يدوّن اسمي على هذا النُّصُب الذي كان فكرة من بنات أفكاري. بل لقد راقني على العكس من ذلك أن يربطه نقش مرّ عليه أكثر من قرن ببداية الإمبراطوريّة في عهد «أغسطس» الوديع. وحتّى في الموضع الذي جُدِّدتْ فيه، كنت أحبّ أن أشعر قبل كلّ شيء بأني مُتابع. وبالإضافة إلى «تراجان» و«نرفا»، وقد غَدَوا رسمياً أبي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجـدّي، تعلّقت حتّى بـأولئـك «القيـاصرة» الاثـني عشر الـذين اضطهدهم كثيراً «سوييتون» [مصنِّف تراجم (٧٠ ـ ١٢٨ م)]؛ وكان وضوح «تيبريوس»، عَدِّ عن قسوته، وسعةُ معارف «كلوديـوس»، عَدِّ عن ضعفـه، وتذوّقُ «نـيرون» للفنون مسلوخـاً منه كـلّ ادّعاء أحمق، وطِيبُ «تيتـوس»، عَدِّ عن مسـاخته، واقتصـاد «فسبزيـان» باستثنـاء شحّه المبالغ فيه، كـان كلّ ذلـك يشكّل عـدداً من الأمثلة التي نويت احتذاءها. وكانت تلك المبادئ قد أدّت دورها في القضـايا البشـريّة؛ وكان ينبغي عليّ بعد اليوم أن أختـار من بين أعـمالهم ما يهمّ إكـماله، وأن أُرسِّخ أفضلها، وأُصحِّح أردأها، إلى أن يأتي اليوم الـذي يأخـذ فيه أناس آخرون يتحلّون على وجه التقريب بما لي من مزايا، ولكنّهم على قدم المساواة معي في حمل المسؤوليّات، يأخـذون على عـاتقهم أن يفعلوا بأعمالي فِعلي بأعمال من ذكرت.

كان يوم إهداء معبد «فينوس روما» نـوعاً من حفـل تمجيد صحِبـه سباقَ عربات، وعرضُ مشاهد أمام الجمهور، وتوزيعُ توابل وعطور. واشترك في الموكب الفِيَلةُ الأربعـة والعشرون التي كانت قـد نَقَلَتْ إلى المكـان تلك الكتلَ الضخمـة من الحجارة، مخفّفـة بذلـك من أعـمال العبيـد الشاقّـة، فبدت أعمـدةً ومسلّاتٍ حيّـةً. واختير مـوعِداً لهـذا الاحتفال يومُ ذكرى مولد «روما»، وهو اليوم الثامن الذي يـلي الثالث عشر من نيسـان (ابريـل) من العام ٥٨٢ بعـد تأسيس المـدينـة. ولم يسبق أن كان الربيع الروماني أكثر عذوبة، ولا أكثر صخباً، ولا أكـثر زرقة. وأقيم في اليوم نفسـه، باحتفـاليّة أكـثر جِدّيّـة وشبه متكتّمـة، حفـل إهـداء داخـل «مجمـع الأربـاب». وكنت قـد صحّحت بنفسي

التصاميم الخجولة جدّاً التي أجراها المهندس المعماري «آپولّودور». وإذ استخدمتُ فنون اليونان لمجرّد الزخرفة، وبوصفها بذخاً مُضافاً، فقد عُدْتُ في تركيب البناء نفسه إلى أزمنة «روما» البدائيّة والأسطوريّة، إلى معابد «أترووريا» القديمة المستديرة. ولقد أردت أن يَنْسَخ محرابُ «جميع الآلهة» هذا شكلَ الكرة الأرضيّة وفلك الكواكب والنجوم، الكرة التي يحتبس فيها بِذار النار الأبديّة، والفلك الأجوف الذي يحتوي على كلّ شيء. وكان الشكل أيضاً شكل أكواخ الجدود التي ينسرب دخان أقدم نيران أوقدها الإنسان من ثقب في أعلى سقفها. وكانت القبّة المبنيّة من حجر طفحي صلب وخفيف، وقد بدا أنّها تُسهم كذلك في حركة اللهب المتصاعد، تتّصل بالسماء بثقب كبير أسود وأزرق على التوالي. ولقد صُمِّم هذا المعبد المفتوح والسرّي كما لو كان مِزْوَلة. وستدور الساعات دورة كاملة على هذه التجاويف الزخرفيّة السقفيّة التي صقلها حرفيُّون يونانيُّون بعناية، ويبقى قرص النهار معلّقاً فيها وكأنّه ترس من الذهب؛ ويترك المطر فوق الأرضيّة المبلّطة بِرْكة صافية؛ وتنسرب الصلاة وكأنّها دخان إلى هذا الفراغ الذي نضع فيه الآلهة. وكان ذلك الاحتفال في نظري ساعةً من تلك الساعات التي تتلاقى فيها كلّ الأشياء. وإذ كنت واقفاً في قعر هذه البئر في أثناء النهار فقد كانت إلى جانبي هيئة موظفي إمبراطوريتي، المواد التي يتألّف منها مصيري رجلاً ناضجاً، وكان قد سبق أن انتصف ترسُّخه. ولقد لمحتُ الطاقة الصارمة التي يمتلكها «مارسيوس تربو»، الخادم الأمين؛ وعزّةَ نفس «سرڤيانوس» الزاجرة، ولم تكن انتقاداته التي كان يتزايد خفوت الهمس بها لتبلغني قطّ؛ وأناقةَ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«لوسيوس سيونوس» المَلَكِيّة؛ وبعيداً قليلاً، في الدغشة الجليّة اللائقة بالتجلّيات الإلٰهيّة، الوجهَ الحالم للشابّ اليوناني الذي كنت قد جسّدت فيه كلّ قَدَري. وكانت زوجتي، الحاضرة هي أيضاً، قد تلقّت للتوّ لقب إمبراطورة.

كان قد مرّ وقت طويل وأنا أُوثر الخرافات الدائرة حول غراميَّات الأرباب ومشاجراتهم على تعليقات الفلاسفة الخرقاء على الطبيعة الإلٰهيّة؛ وكنت أرتضي أن أكون صورة أرضيّة عن هذا الـ «جوپيتير» الذي هو إلٰهٌ أكثر منه إنساناً، وسَنَدُ الدنيا، والعدلُ المجسّد، ونظامُ الأشياء، وعشيقُ أمثال «غانيميد» [ابن ملك طروادة من إحدى الحوريّات، خطفه «زيوس» وأصبح نديم الآلهة] و«أوروپا» [ابنة ملك فينيقيا. خطفها «زيوس» وأصبحت أمّ الملك «مينوس»]، وزوج مُهْمِل لِـ «جونون» [ربّة رومانيّة يعتبرها الرومان رمزاً للزوجة الشرعيّة] كئيبة. وشرع عقلي، وكان حاضراً في ذلك اليوم لوضع كلِّ شيء في ضوء بلا ظلال، يقارن الإمبراطورة بتلك الربّة التي كرّست على شرفها، خلال زيارة حديثة إلى «أرغوس»، طاووساً من الذهب مرصّعاً بالأحجار الكريمة. ولقد كان في وسعي التخلّص بالطلاق من هذه المرأة التي لم أحبّها يوماً؛ ولو كنت مِلْكَ نفسي لما تردّدت في ذلك. غير أنها قلّما كانت تزعجني، ولم يكن في مسلكها ما يُسوِّغ إهانة بمثل هذه العموميّة. ولقد استاءت حين كانت عروساً في مقتبل العمر من إهمالي إيّاها، ولكن استياءها كان شبيهاً تقريباً باستياء خالها من ديوني. وكانت تشهد اليوم، من غير أن يبدو أنّها مدركة ذلك، تجلّياتِ شغفٍ كان يتكشّف أنّه طويل الأمد. وإذ كانت شأنَ كثير من

النساء قليلةَ التأثُّر بالحبّ فقد كانت تسيء فهم سلطانه؛ وكان ذلك الجهل يستبعد التسامح والغَيْرة في آنٍ معاً. ولم تكن تتضايق إلاّ حين يهدّد الخطر ألقابها أو سلامتها، وما كان شيء من ذلك وارداً. ولم يكن قد بقي لها شيء من سحر المراهقة الذي استرعى انتباهي زمناً قصيراً فيما مضى: كانت تلك «الإسبانيّة» الشائخة قبل الأوان صارمةً وقاسية. ولقد حمدت لبرودتها أن حصّنتها من اتّخاذ عشيق؛ وكان يروقني أن تعرف كيف تضرب باعتزاز بُخُمرها سيّدةً مُسنّةً، وهي تشبه على وجه التقريب خُمُرَ أرملة. وكنت أحبّ بعض الحبّ أن تعلو صورة جانبيّة للإمبراطورة قطع النقود الرومانيّة، ومعها على الوجه الآخر كتابة تكون تارة عن «الخَفَر» وطوراً عن «الوداعة». وكان يحدث لي أن أفكّر في هذا الزواج الوهمي الذي يتمّ مساء احتفالات «أيلوزيس» بين الكاهنة الكبرى والكاهن ملقّن الأسرار، وهو زواج ليس ارتباطاً، ولا حتّى اتّصالاً، وإنما هو شعيرة مقدّسة بوصفها كذلك.

في الليل الذي تلا هذه الاحتفالات رأيت من أعلى إحدى الشرفات «روما» وهي تلتهب. وكانت نيران الفرح هذه تعادل الحرائق التي أشعلها «نيرون»؛ بل كانت تكاد تماثلها فظاعة. «روما»: البوتقةُ، ولكن التنّور أيضاً، والمعدنُ الذي يغلي، المِطْرَقةُ، ولكن السندان أيضاً، البرهانُ الواضح على تبدُّلات التاريخ وعمليّات بدئه من جديد، مكانٌ من أمكنة الدنيا لا بدّ أن يكون الإنسان قد عاش فيه عيشاً أكثر ما يكون صَخَباً. وكان احتراق «طروادة» الذي نجا منه أحد الهاربين حاملاً معه أباه العجوز وابنه الصغير و«آلهته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البيتيّة» يُفضي في ذلك المساء إلى هذه النيران الاحتفاليّة العظيمة. وفكّرت كذلك، بنوع من الذعر المقدّس، في الاشتعالات التي ستحدث في المستقبل. وتراءت لي ملايين الحَيَوات الماضية والحاضرة والمقبلة، وهذه الأبنية الحديثة المولودة من أبنية قديمة تتبعها هي الأخرى أبنية قيد الولادة، وهي تتلاحق في الزمن تلاحُقَ الأمواج؛ وبالمصادفة كانت هذه الأمواج الصاخبة تتكسّر في تلك الليلة عند قدميّ. وإنّي لأغضي عن تلك اللحظات من الهذيان التي أُلقِيَ فيها الأرجوانُ الإمبراطوري، هذا القماش المقدّس الذي نادراً ما رضيت أن أرتديه، فوق كتفيْ مخلوق كان قد غدا بالنسبة إليّ «قريني»: كان يلائمني بالطبع أن أعارض هذا الأحمر القاني بالذهب الشاحب المصطبغ به أحد الأعناق، ولكن أن أرغم على الأخصّ «سعادتي»، «طالعي»، هذين المفهومينْ الرجراجينْ الغامضينْ، على التجسّد في هذا الشكل الشديد الانتماء إلى الأرض، وعلى اكتساب دفء اللحم وثقله الباعث على الاطمئنان. وكانت جدران هذا «المقرّ الإمبراطوري» الذي كنت قليلاً ما أقيم فيه، وإن كنت قد أعدت بناءه، تترنّح وكأنّها خاصرتا قارب؛ وكانت الستائر المُزاحة للسماح بدخول الليل الروماني ستائرَ قمرٍ في كَوْثل سفينة؛ وكانت صيحات الجمهور الغفير صوتَ الرياح خَلَلَ حبال تلك السفينة. ولم تكن الصخرة الضخمة العائمة المترائية من بعيد في الظلّ، الأسسُ العملاقة التي سيقوم فوقها قبري الذي كان قد بُدِئَ بتشييده في تلك اللحظة على ضفاف «التيبر»، لتوحي إليّ بالرهبة ولا بالأسف ولا بتأمّلٍ لا جدوى منه في قِصَر الحياة.

شيئاً فشيئاً تغيَّر الضياء. فمنذ عامين وأكثر كان مرور الزمن يُقاس بتقدّم شباب يتشكّل ويتذهّب ويصعد إلى سَمْته؛ وأخذ الصوت الأبحّ يتعوّد الصياح بالأوامر إلى الملّاحين والمشرفين على رحلات الصيد؛ وأصبح شوط خطوةِ العَدّاء أطولَ؛ وساقا الفارس أقدرَ على السيطرة بدراية على المطيّة؛ وشرع التلميذ الذي كان قد حفظ مقاطع طويلة من شعر «هوميروس» عن ظهر قلب في «كلوديوپوليس» يُشغف بالشعر الشهوانيّ والفنيّ، ويَفتتِن ببعض المقاطع من «أفلاطون». وغدا راعيَّ الشابّ أميراً شابّاً. ولم يعُد الصبيّ المتفاني الذي كان يُلقي بنفسه عن حصانه، في أثناء المحطّات، ليقدِّم إليَّ ماءَ الينابيعِ المُتاحَ براحتيه: أصبح المُعطي يعرف الآن قيمةَ عطاءاتِه البعيدةَ المدى. وكنت خلال حفلات الصيد المنظَّمة في أملاك «لوسيوس»، في «توسكانا»، أتلذّذ في خلط هذا الوجه الكامل بالوجوه الثقيلة والمغمومة الخاصّة بكبار الوجهاء، وبالصور الجانبيّة الحادّة في وجوه «الشرقيّين»، وبالمشافر الغليظة التي للصيّادين البرابرة بالكلاب، وفي إكراه الحبيب الغالي على القيام بالدور الصعب الذي يؤدّيه الصديق. وفي «روما» حيكت دسائس حول هذا الرأس الشابّ، وبُذلت جهود خسيسة لصدّ ذلك التأثير، أو لاستبداله بتأثير آخر. وكان الإغراق في فكرة فريدة يمنح ذلك الشابّ ذا الثامنة عشرة مقدرة على اللامبالاة يفتقر إليها أحكم الحكماء: لقد عرف كيف يزدري كلّ ذلك أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتجاهله. بيد أنّ الفم الجميل كان قد اتّخذ طيَّـة كئيبة أدرك وجـودها النحّاتون.

وأُقدِّم هنا إلى علماء الأخـلاق فرصـة سائغـة للظفر بي. فمنتقـدِيَّ يستعدّون لأن يُظهروا في طيَّات شقائي عقابيلَ ضلال، نتيجة إفراط؛ وإنَّه ليصعب عليَّ تكذيبهم نظراً لسوء فهمي أين يكمن الضلال وأين يقـوم الإفـراط. وإنّي لأجهـد في حصر جـريمتي، إذا كـان هنـاك من جريمة، في حـدودها المضبـوطة؛ أقـول لنفسي إنَّ الانتحار ليس أمـراً نادراً، وأنَّه من المألوف أن يمـوت المرء في العشرين من عمره. وليس موت «أنيتنويـوس» معضلة ولا مصيبة إلاّ لي أنـا وحدي. وقـد يكون من الممكن أن تكون هذه الكارثة غير قابلة للانفصال عن قـدر غامـر من الفرح، عن فَضْلة من التجربـة، لكي لا أوافق على تجنيب نفسي أو تجنيب رفيقي الخطر. حتّى إنَّ ما يساورني من ندم وأسف قـد أصبح شيئاً فشيئاً شكـلاً من أشكال التملّك، وطـريقة للتـأكيد لنفسي بـأنّي كنت إلى النهاية سيّـد مصيره البـائس. بيد أنّي لا أجهـل أنَّه يجب أن يُحْسَب حسابُ قراراتِ ذلك الغريب الجميل الذي يظلُّه، على الـرغم من كـلّ شيء، كلُّ شخص نحبّـه. وإنّي إذ أُحمِّل نفسي الـذنب أجمع فإنَّما أحوِّل تلك الصورة الفتيَّـة إلى حجم تمثال من الشمـع قد أكـون عجنته ثمَّ حطَّمته بين يـدي. ولست أملك الحقّ في التقليل من قيمـة الـرائعـة الفـريـدة التي تمثّلت في رحيله؛ وعـليَّ أن أدع لهـذا الصبيّ استحقاق الميتة التي ماتها.

وغنيّ عن البيان أنّي لا أسيء الظنّ بالإيثار الشهـواني المبتَذَل جـدّاً الـذي كان يحـدّد في الحبّ خياري. فكثيـراً مـا تخلّلت حيـاتي ميولٌ

مشابهة، ولم تكن تلك الغراميَّات المتكرِّرة قد كلَّفت حتىّ الآن غير حدّ أدنى من الوعود والأكاذيب والآلام. ولا قادني تدلّهي بـ «لوسيوس» إلاَّ إلى بعض الحماقات الممكنِ إصلاحُ أمرها. وما كان شيء ليمنع أن يجري الأمر على هذا المنوال في تلك المحبَّة السامية؛ لا شيء سوى تلك المزيّة التي كانت تميِّزها بالتحديد عن غيرها. وكان من الممكن أن يقودنا التعوّد إلى تلك النهاية غير المجيدة ـ وإن كانت كذلك بلا كوارث ـ التي تقدّمها الحياة إلى كلّ الذين لا يرفضون تداعيها العذب بفعل الاستهلاك. وكان من الممكن أيضاً أن أرى الشهوة تتحوّل إلى صداقة، كما يريد الأخلاقيُّون، أو إلى عدم اكتراث، وهو أمر أكثر حدوثاً. ولكان مخلوق فتيّ انفصل عنّي في اللحظة التي كانت روابطنا ستبدأ فيها بالإثقال على نفسي؛ ولكانت نشأت في حياته أنماط شهوانيَّة أخرى، أو نفسُ الأنماط بأشكال أخرى؛ ولاحتوى المستقبل على زواج ليس أسوأ ولا أفضل من غيره من الزيجات، وعلى منصب في الإدارة الإقليميَّة، وعلى إدارة مِلْكيّة ريفيّة في «بيتينيا»؛ وفي أحوال أخرى على الخمول وحياة البلاط المتواصلة في أيّ منصب ثانوي؛ وفي أسوأ الأحوال على حرفة من الحرف التي يزاولها المحظيّون الذين زالت حُظْوَتُهم وتتمثّل في تحوّل الواحد منهم إلى مستودع للأسرار أو إلى قوّاد. وتكمن الحكمة، إن كنتُ أفقه منها شيئاً، في عدم تجاهل شيء من تلك المصادفات التي هي الحياة بالذات. مع احتمال بذل قصارى الجهد لإبعاد أسوأها. بيد أنّنا لم نكن، لا أنا ولا ذلك الصبيّ، حكيمينْ.

لم أكن قد انتظرت حضور «أنتينويوس» لكي أشعر بأنّي إلّه. إلاَّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنّ النجاح كان يضاعف من حولي فُرَصَ الانتشاء؛ وبدا أنّ المواسم كانت تتعاون مع شعراء حاشيتي وموسيقيّيها على أن تجعل من حياتنا احتفالاً أولمپيّاً. فيوم وصولي إلى «قرطاجة» انتهى موسم جفاف دام خمس سنوات؛ وهلّلت الحشود المحمومة تحت وابل المطر بأنّي موزّع الخيرات الهابطة من فوق؛ ولم تكن الأعمال التي جرت فيما بَعْدُ في «إفريقيا» سوى طريقة لإجراء هذا العطاء السماوي مجاريه. وقبل ذلك بزمن قليل، في أثناء محطّة في «سردينيا»، أجبرتنا عاصفة على الالتجاء إلى أحد أكواخ الفلاّحين؛ وعاون «أنتينويوس» مضيفَنا على تقليب زوج من شرائح سمك التونة على الجمر؛ وظننت نفسي «زيوس» زائراً «فيلمون» بصحبة «هرميس». فقد كان ذلك الشابّ المطويّ الساقين فوق سريرٍ ذلك الـ «هرميس» وهو يفكّ سيور نعليه؛ وكان «باخوس» يقطف هذا العنقود أو يذوق لي ذاك القدح من الخمرة الورديّة اللون؛ وكانت تلك الأصابع التي خشّنها وتر القوس أصابعَ «أيروس». وحدث أن نسيت، وسط هذا القدر من الأشخاص المتنكّرين، وخلال هذا القدر من الامتيازات والهالات، الشخصَ البشريَّ، الصبيَّ الذي كان يجهد عبثاً في تعلّم اللاتينيَّة، ويرجو المهندس «ديكريانوس» أن يُلقي عليه بعض دروس الرياضيّات، ثمّ يَعْدِل عن ذلك، والذي كان يبتعد، عند أقلّ لوم، للحَرَد على مُقَدَّم السفينة وهو ينظر إلى البحر.

انتهت رحلة «إفريقيا» في شمس تمّوز (يوليو) الساطعة على أحياء «لمبيز» الخارجة لتوّها إلى الوجود؛ ولقد ارتدى رفيقي بحبورٍ طفوليّ الدرع والبزّة العسكريَّة؛ وكنت لبضعة أيَّام «مارس» العاري المعتمر

الخوذة المشارك في تمرينات المعسكر، و«هرقل» الصنديد المنتشي بالإحساس بقوّته التي لاتزال غضّة. وعلى الرغم من الحرّ وأعمال الردم الطويلة التي تمّت قبل وصولي فقد كان الجيش يعمل مثل كلّ شيء بسهولة ربّانيّة: كان من المستحيل إرغام هذا العدّاء على قفز عقبة واحدة فوق ما قفز، أو فرض لعبة جديدة على فارس، من غير الإساءة إلى فعالية تلك الأعمال بالذات، أو من غير تحطيم هذه الكفاية في القوى التي تُشكّل جماها. ولم أحتج إلى لفت نظر الضبّاط إلّا إلى خطأ واحد يكاد لا يُدرك، وهو ترك جماعة من الخيل في العراء طَوال الهجوم الوهمي على أرض مكشوفة؛ وقد كفاني الحاكم «كورنيليانوس» مؤونة كلّ شيء. وكان نظام ذكيّ يسود هذه الكتل من الرجال، وحيوانات الجرّ، والنساء الأجنبيّات المصحوبات بأولاد أقوياء مندفعين إلى أطراف خيمة القيادة لتقبيل يديّ. ولم تكن تلك الطاعة طاعة العبيد؛ وكانت تلك الحميّة المتوحّشة موظّفة لدعم برنامجي لنشر الأمان؛ ولم يكن أيّ شيء ليكبِّد ثمناً باهظاً؛ ولا كان شيء، قد أُهمِل. وفكّرت في جعل «أريان» يكتب بحثاً في التخطيط الصحيح الشبيه بجسم تامّ الخَلْق.

وفي «أثينا» أتاح الـ «أولمبيون»، بعد ثلاثة أشهر من إهدائه، الفرصةَ لاحتفالات ذكّرت بالاحتفالات الرومانيّة، غير أنّ ما كان يجري في «روما» فوق الأرض كان قد تمّ هناك في الفضاء. فقد اتّخذت مجلسي عصر يوم أشقر من أيّام الخريف تحت ذلك الرواق المكشوف المبنيّ على قياس «زيوس» الذي يفوق قياس البشر؛ وبدا ذلك المعبد الرخاميّ المشيَّد في المكان الذي رأى فيه «دوكاليون»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

[ملك من ملوك «تيساليا» استطاع وحده النجاة بصحبة زوجته من الطوفان الذي أرسله «زيوس» لمعاقبة الناس على جحودهم] نهايةَ «الطوفان»، وقد فقد وزنه وعامَ مثل غمامة كثيفة بيضاء؛ وكان ثوبي الاحتفالي منسجماً مع ألوان المساء فوق جبل «هيميت» القريب جدّاً. وكنت قد كلّفت «پوليمون» بالخطاب الافتتاحي. وهنا كشفت لي «اليونان» تسمياتها الإلهيّة التي رأيت فيها بآنٍ منبعَ أبّهة وأخفى مقاصد الأعمال التي ستتمّ في أثناء حياتي، وكانت تلك التسميات: «أڤرجيت» [المحسن إلى وطنه]، و«الأولمبي» [ساكن جبل الأرباب]، و«إيپيفان» [لقب يُطلق على ملوك «الشرق»] و«سيّد كلّ شيء». وأجمل هذه الألقاب وأصعبها استحقاقاً: «الإيونيّ» و«صديق الهلّينيّين». وكان في «پوليمون» شيء من شخصيّة الممثّل، بيد أنّ ما يرتسم على وجه ممثّل مسرحيّ كبير يُعبّر أحياناً عن انفعال يشترك فيه جمعٌ غفير بأكمله، عصرٌ بأكمله. وقد رفع عينيه واستغرق في التأمّل قبل استهلال خطابه فبدا أنّه يستجمع في ذاته كلّ الهبات المجموعة في هذه اللحظة من الزمن. ولقد تعاونتُ مع الأجيال، مع الحياة الإغريقيّة نفسها؛ وكان السلطان الذي أمارسه قدرةً خفيّةً أكثر ممّا هو نفوذ، قدرة تفوق طاقة الإنسان، ولكنّها لا تنجع إلّا بوساطة شخص من البشر؛ ولقد كان زواج «روما» و«أثينا» قد تمّ؛ والتقى الماضي وجهاً من وجوه المستقبل؛ وعادت «اليونان» تُقلع إقلاع سفينة سكّنها الهدوء طويلاً وأحسّت من جديد بدفع الريح في أشرعتها. وعندها فقط شعرت باكتئاب سوداويّ يعتصر فؤادي لحظة: لقد تفكّرت أنّ كلمتيْ «إنجاز» و«كمال» تتضمّنان في ذاتهما كلمة «نهاية»: قد لا أكون فعلت غير أن قدّمت فريسة إضافيّة لـ «الزمن» المُلْتَهِم.

دخلنا بعد ذلك قلب المعبد حيث كان النحّاتون لايزالون يعملون؛ كان مشروع تمثال «زيوس» من الذهب والعاج ينير العتمة بشكل غامض؛ وعند أسفل السِقالة كان الثعبان الكبير غير السامّ الذي استقدمتُه من الهند للتضحية به في هذا المحراب الإغريقي قابعاً في سلّته المصنوعة من الأسلاك المعدنيَّة، بهيمة إلَهيَّة، شعاراً زاحفاً لروح «الأرض»، شريكاً في كلّ زمن للشابّ العاري الذي يرمز إلى «قرين» الإمبراطور. وقد قدّم «أنتينويوس» ـ وكان قد انسجم أكثر فأكثر في أداء هذا الدور ـ بنفسه إلى الوحش قُوتَه من القراقف المقروضة الأجنحة. ثمَّ صلّى رافعاً ذراعيه. وكنت أعلم أنَّ تلك الصلاة المُقامة لي لم تكن موجّهة إلّاَ إليّ وحدي، بيد أنّي لم أكن إلَهاً بما يكفي للحدس بمغزاها، ولا لمعرفة ما إذا كانت ستُستجاب في يومٍ من الأيّام. وكان راحةً للنفس الخروجُ من ذلك السكون، من ذلك الشحوب الأزرق، والعودةُ إلى شوارع «أثينا» المشتعلة بالمصابيح، وإلى أُلفة عامَّةِ النَّاس. وإلى الصيحات في هواء المساء المُغْبَر. وغدا الوجه الشابّ الذي سيزيّن عمّا قريب عدداً من نقود العالم الإغريقي حضوراً ودّيّاً وبُشرى في عين جماهير النَّاس.

لم يكن حبّي قد فَتَر، بل زاد. بيد أنَّ ثقل الحبّ، شأنُه شأنُ ذراع مُراحة بحنان وبشكل موارب فوق صدر، أخذ يُصبح رويداً رويداً فادحَ الاحتمال. وعاد الممثِّلون الثانويّون إلى الظهور: وإنّي لأذكر ذلك الشابّ الصلب والمرهَف الذي صحبني خلال إقامة في «ميليه» ولكنّي هجرته. وأستعرض تلك الأمسية في «سَرْد» حيث كان الشاعر «ستراتون» ينتقل بنا من مكان مشبوه إلى آخر ومن حولنا المغامرات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المُريبة. وكان «ستراتون» هذا الذي فضّل على بلاطي الحرّيّة الغامضة في حانات «آسيا» رجلاً دسِماً هُزَأةً شرهاً إلى إثبات بطلان كلّ ما ليس لذّة خالصة، وربمّا كان يفعل ذلك للاعتذار عن أنّه قد ضحّى من أجلها بكلّ ما عداها. وتراءت تلك الليلة في «إزمير»، وكنت قد أرغمت فيها المحبوب على تحمّل حضور إحدى نساء البلاط. وكان الصبيّ يكوّن عن الحبّ فكرة ظلّت قائمة لأنّها كانت حصريّة؛ وكان تقزّزه يبلغ حدّ الغثيان. ثمّ إنّه تعوّد. وإنّ تلك المحاولات التي لا طائل تحتها لتُفسَّر بعض التفسير عن طريق استطابة المجون؛ وكان يخالطها الأمل في استنباط حميميّة جديدة لا ينقطع فيها رفيق اللذّة عن أن يكون المحبوبَ والصديق؛ وتخالطها الرغبة في تلقين الآخر، في إذهاب فتوّته بتجارب كانت من قبل تجارب فتوّتي؛ وتخالطها كذلك، وربمّا بشكل أكثر كتماناً، النيّةُ في دفعه شيئاً فشيئاً إلى مرتبة اللذّات المبتَذَلة التي لا تُلْزِم بشيء.

وكان الكَرْب يداخل حاجتي إلى زجر ذلك الحنان الوارف الذي يوشك أن يُربِك حياتي. وخلال رحلة إلى «طروادة» زرنا سهل «سكماندر» تحت سماء خضراء تلوّح بالكارثة: كان الفيضان الذي جئت أتحقّق من أضراره في مواضعها قد حوّل جثوات القبور القديمة إلى جُزُر صغيرة. وقد وجدت بعض الهُنيهات للتأمّل على قبر «هكتور» [أشرس المدافعين عن «طروادة» في «الإلياذة»]؛ وذهب «أنتينويوس» يحلم على قبر «پتروكل» [بطل إغريقي في حرب «طروادة» قتله «هكتور» فانتقم له صديقه «أخيل» بقتل قاتله]. ولم أستطع أن أتعرّف في الغزال الفتيّ الذي يرافقني على مزاحم لرفيق

«أخيل»؛ واستهزأتُ بقصص الإخلاص الوَلوع التي تُزهر على الأخصّ في الكتب؛ فالكائن الجميل المشتوم يصبطغ وجهه بحُمرة تضارع حُمرة الدمّ. وكانت الصراحةُ أكثر فأكثر الفضيلةَ الوحيدة التي أتكلّفها: فلقد تبيّنَ لي أنّ الآداب البطوليَّة التي أحاطت بها «اليونان» تعلُّق رجل ناضج برفيق أفتى منه ليست في كثير من الأحيان غير تصنّع ونفاق. وإذ كنت أكثر تأثُّراً ممَّا أظنّ بالأفكار المسبَّقة الرائجة في «روما» فقد تذكّرت أنَّ تلك الأفكار تمنح اللذّة حظّها، ولكنّها ترى في الحبّ هوساً مُخْجِلاً؛ واستحوذ عليَّ من جديد سُعْري بألاَّ أخضع إطلاقاً لأيّ كان. وكنت أسخط على العيوب التي رافقت الشباب ولم تكن بوصفها كذلك لتنفصل عن مجال اختياري؛ وانتهى بي الأمر إلى أن عثرت في ذلك الهوى المختلف على كلّ ما كان قد أحفظني لدى العشيقات الرومانيَّات: وعادت العطور والتحضيرات وبذخ الحُلى البارد تتّخذ مكانها في حياتي. وكانت مخاوف غير مُبرَّرة تقريباً قد خالطت ذلك القلب المغموم؛ ورأيته مهموماً لأنَّه لن يلبث أن يصبح في التاسعة عشرة. وكانت نزوات خطِرة وغضباتٌ تُحرِّك حلقات «ميدوز» فوق ذلك الجبين العنيد تتعاقب وسوداويَّةً شبيهةً بالذهول، ورقّةً تزداد انحطاماً. وحدث لي أن ضربته: ولسوف أذكر على الدوام تينك العينين المذعورتين. غير أنّ الوثن المصفوع ظلَّ هو الوثن، وبدأت التضحيات التكفيريَّة.

وجاءت جميع (أسرار) «آسيا» تدعم الفوضى الشهوانيَّة في ما يصدر عنها من موسيقى حادّة الأصوات. وكان زمن «أيلوزيس» قد ولَّى إلى غير رجعة. وكانت التدريبات على العبادات السريَّة أو العجيبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ وهي ممارسات متسامَح بهـا أكثر ممّـا هي مُرَخَّصـة، وكان المشرِّع في داخلي ينظر إليها بريبـة ـ ملائمـةً في تلك الحقبة من الحيـاة التي يغدو فيها الرقص دُواراً وينتهي الغناء صُراخاً. وكنت قـد لُقِّنتُ في جزيـرة «سـاموتـراس» أسرار «كبار الآلهـة» القدمـاء والفاسقـين، المقـدَّسـين تقـديس اللحم والدم؛ ولامست عقبيّ الأفـاعي المكتظّة بـالحليب في غـار «تروفـونيوس»؛ وأفسحت الاحتفـالات «التراسيَّـة» بـ «أورفيـه» [شاعر ومغنٍّ أسطوري] المجال لـطقوسٍ إخـوانيّة متـوحّشة. ووافق رجل «الدولـة» الذي كـان قد حـظر تحت طائلة أشـدّ العقوبـات كلَّ أشكال التمثيل والتشويه على مشاهدة مُجون «الـربّة» الشـاميَّة: فلقـد رأيت تدويم الرقصات الدامية الفظيـع؛ وكان رفيقي الشـابّ المبهور مثل جَدْي بحضور حيوان زاحف، يتأمَّل برعب أولئك النـاس الذين اختاروا لمتطلّبات السنّ والجنس جواباً يماثل الموت في حسمـه الأمور، بل ربمّا كان أفظع منه وأبشع. بيد أنّ طامَّة الفظاعة بُلغتْ أثناء إقـامة في «تدمر» حيث اسضافنا التـاجر العـربي «ميليس أغريبـا» مدّة ثـلاثة أسابيع وسط بذخ رائع وبربريّ. وبعد أن شرب «ميليس» هذا يوماً، وكان من كبار الأعيان في إقامة الشعائـر للإلّـه «ميترا» وقلّما كـان ينظر بعين الجدّ إلى واجباته الرعويَّة، اقترح على «أنتينويوس» أن يشارك في أضحية الثور. وكان الفتى يعرف أنّي خضعت ذات يـوم لاحتفال من هذا النوع؛ واستجاب بحميَّة. ولم أعتقد أنّ عليَّ معارضة تلك النزوة التي لم يكن يُـطلب للقيـام بهـا إلّا حـدٌّ أدنى من التـطهُّـر والتقشُّـف. ووافقت عـلى أن أقوم بنفسي بـدور خـادم القـدّاس مـع «مـاركـوس أولپيـوس كاستـوراس» أمين سرّي للّغـة العربيّـة. ونزلنـا في الساعـة

المعيَّنة إلى القبو المقدّس؛ واستلقى «البيتيني» لتلقّي الرشاش الدموي. غير أنّي حين رأيت ذلك الجسد المقلَّم بالأحمر يبرز من الحفرة، وذاك الشعر الملبّد بوَحْلٍ لَزِج، وذيّاك الوجه الملطّخ ببقع لم يكن بالإمكان غسلها وينبغي تركها تزول من تلقاء نفسها، أخذ بخناقي الاشمئزاز والهول من تلك الشعائر المريبة التي تتمّ تحت الأرض. وما هي إلاّ أيّام حتّى أصدرت أمراً بمنع العساكر المحتشدة في «أيميز» من دخول كهف الإله «ميترا» المُظْلِم.

لقد تلقّيت نُذُري: فقد سمعت في الليل ـ شأني شأنُ «مارك ـ أنطونيو» قبل معركته الأخيرة ـ موسيقى تبديل الأرباب الحُماة الراحلين وهي تبتعد... سمعتها من غير أن أتنبّه لها. وكانت سلامتي قد أصبحت سلامة فارس يعصمه طلسم من كلّ سقطة. وفي «ساموزات» عُقد اجتماع برعايتي لصغار ملوك «الشرق»؛ وخلال بعض رحلات الصيد في الجبل علّمني «أبغر» ملك «خراسان» بنفسه فنّ الصيّاد بالبازي؛ وكانت عمليّات إحاشة مدبّرة وكأنّها مشاهد مسرحيّة تدفع إلى شِباك أرجوانيّة قطعاناً كاملة من الظباء؛ وكان «أنتينيوس» يثبّت قدميه بكلّ قواه للجم اندفاعة زوج من الفهود كانا يجذبان طَوْقهما الذهبي الثقيل. واتُّخذتْ ترتيبات في العراء بكلّ ما فيه من روائع؛ وكانت المفاوضات في مصلحتي بشكل لا يقبل التبديل؛ وظللت المقامرَ الذي يربح في كلّ دورة. وانقضى الشتاء في ذلك القصر من قصور «إنطاكية» حيث كنت قد طلبت من السَحَرة فيما مضى أن يُبصِّروني بالمستقبل. بيد أنّه لم يكن في مقدور المستقبل بعد اليوم أن يحمل إليَّ شيئاً، شيئاً يمكن أن يبدو على الأقلّ وكأنّه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مِنحة. فقد كانت مواسم قِطافي قد تمّت؛ وكان عصير الكروم قد ملأ حوض حياتي. وكنت قد توقّفت والحقّ يُقال عن تنظيم مآلي، غير أنَّ الممارسات الانضباطيَّة المُنْجَزة بعناية فيما مضى لم تعد تتراءى لي إلاَّ على أنَّها المرحلة الأولى في قَدَر الإنسان؛ وكان شأنُها شأنَ تلك السلاسل التي يُرغِم الراقص نفسَه على حملها ليقفز بشكل أفضل عندما ينفصلُ عنها. وظلّ التقشّف في بعض الأمور ساريَ المفعول: فقد استمررتُ في حظرٍ تقديم الخمرة قبل انقضاء نوبة الحراسة الليلة الثانية: وإنّي لأذكر أنّي كنت قد رأيت على تلك الموائد الخشبيّة المصقولة بالذات يد «تراجان» المرتعشة. إلاَّ أنَّ هناك انتشاءات أخرى. ولم يكن أيّ ظلّ يتراءى على أيَّامي، لا الموت ولا الهزيمة ولا ذلك الاندحار الأبرع الذي يفرضه المرء على نفسه ولا الطعن في السنّ الذي لا بدّ من أن يأتي. ومع ذلك فقد كنت أتعجّل وكأنّ كلّ ساعة من هذه الساعات هي الأجمل والأخيرة.

كانت إقاماتي المتكرِّرة في «آسيا الصغرى» قد وصلتني بزمرة صغيرة من العلماء المنصرفين بجدّ لملاحقة الفنون السحريَّة. ولكل عصر جساراته؛ وإنَّه ليروق لأفضلِ عقول عصرنا، وقد تعبتْ من فلسفة أخذت تتحوّل أكثر فأكثر إلى خُطَب مدرسيَّة طنَّانة، أن تطوف حول هذه الجهات المحظورة على الإنسان. ففي «صور» كشف لي «فيلون الجُبيلي» بعض أسرار الفنيقيّ القديم؛ وقد لحق بي إلى «إنطاكية». وكان «نومينيوس» يقدِّم فيها بصدد أساطير «أفلاطون» عن طبيعة النفس تفسيراً كان لاينفكّ خجولاً ولكن من شأنه أن يقود فِكراً أجرأ من فِكره إلى أبعد من ذلك. وكان تلامذته يستحضرون العفاريت:

وكانت لعبةً مثل سائر الألعاب. وكانت وجوه يبدو أنَّها مصنوعة من النخاع الذي منه أحلامي تتراءى لي في دخان صَمْغ المَيْعة وتترنّح وتذوب غير تاركة لي سوى الشعور بشَبَهٍ بينها وبين وجه معروف وحيّ. وقد لا يكون كلّ ذلك إلّا مجرّد حيلة من حيل المشعوذين؛ وفي هذه الحال كان المشعوذ بارعاً في حرفته. وعُدتُ إلى دراسة التشريح، وكنت قد لامستها ملامسة في أيّام الشباب، بيد أنّ ذلك لم يكن بغية التبصُّر بحكمة في بنية الجسد. وكان الفضول قد استبدّ بي عن تلك المناطق المتوسّطة التي تختلط فيها الروح بالجسد ويستجيب الحلم للواقع، وفي بعض الأحيان عن الأسبقيّة التي يتبادل فيها الموت والحياة نعوتهما وأقنعتهما. ولم يكن طبيبي «هرموجين» يقرّ هذه التجارب؛ ومع ذلك فقد عرّفني بقلّة من ذوي الخبرة المشتغلين بهذه المعطيات. وحاولت معهم أن أحدّد موضع إقامة الروح وأعثر على الروابط التي تربطها بالجسد وأقيس الوقت الذي تقضيه للانفصال عنه. وضُحّي ببعض الحيوانات في سبيل هذه الأبحاث. وقادني الجرّاح «ساتيروس» إلى عيادته لمشاهدة عمليّات احتضار. وكنّا نحلم بصوت مرتفع: ألا تكون الروح إلّا نهاية الجسد السامية، وإلّا تجلّياً هشّاً لعناء الوجود ولذّته؟ أتكون على العكس من ذلك أقدَم من هذا الجسد المفصَّل على صورتها، وتستخدمه هي كيفما اتّفق آلةً من آلاتها؟ وهل في الوسع استدعاؤها إلى داخل الجسد لإعادة ذلك الاتّحاد بينهما، لإعادة ذلك الاشتعال الذي نسمّيه الحياة؟ وإذا كانت للأرواح هويّاتها الخاصّة فهل تستطيع أن تتبادل، أن تذهب من كائن إلى آخر مثل عثكول الثمار أو جرعة الخمر التي يتناقلها عاشقان من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلال قُبْلة؟ إنَّ كلّ عاقل ليغيّر رأيه عشرين مرّة في السنة بصدد هذه الأمور؛ وكان الشكّ ينازع في نفسي الرغبَة في المعرفةِ والحماسةَ للتهكّم. بيد أنّي كنت مُقتنِعاً بأنَّ ذكاءنا لا يدعُ غير راسب هزيل من الوقائع يرشح إلينا: لقد أخذ اهتمامي يتزايد بعالم الحسّ الغامض، هذا الليل البهيم الذي تتكاثر فيه وتحوّم شموس تُعشي الأبصار. وذات مساء من ذلك العهد حكى لنا «فليغون»، وكان جمّاعة لقصص الأشباح، حكاية «خطيبة كورنثيا» التي أكّد لنا صحّتها. وهزّت كلاً منّا، ولكن بدرجات متفاوتة في العمق، هذه المغامرةُ التي أعاد الحبّ فيها نَفْساً إلى الدنيا وردَّ عليها جسداً بصورة مؤقّتة. وحاول عدّة أشخاص أن يبتعثوا تجربة مماثلة: جهد «ساتيروس» في استحضار معلّمه «أسپازيوس» الذي كان قد عقد معه معاهدة من تلك المعاهدات التي لا يُوفى بها أبداً وتنصّ بنودها على أن يَعِدَ من يموتون بتزويد الأحياء بالمعلومات. وقد قطع لي «أنتينويوس» عهداً من هذا النوع استخففت به لعدم وجود أيّ سبب يحمل على الاعتقاد بأنَّ هذا الولد لن يعيش بعدي. وسعى «فيلون» لإظهار زوجته. وسمحت بأن يُنطق باسميْ أبي وأمّي، بيد أنّ نوعاً من الحياء منعني من استحضار «پلوتينيا». ولم تنجح أيّ من تلك المحاولات. غير أنَّ أبواباً غريبة كانت قد فُتحت.

قبل الارتحال عن «إنطاكية» ببضعة أيّام ذهبت، كما في الماضي، للتضحية على قمّة جبل «كاسيوس». وقد تمّ الصعود ليلاً: وكما كان الأمر في جبل «أتنا» فإنّي لم أحضر معي غير نفر قليل من الأصدقاء من ذوي الأقدام الثابتة. ولم يكن هدفي فقط أن أودّي شعيرة

استرضائيّة في ذلك المحراب الأقدس من سواه: كنت أبغي أن أرى مجدَّداً من فوق ظاهرةَ الفجر اليوميَّة الخارقة التي لم أتأمَّلها يوماً من غير صيحة فرحٍ خفيَّة. وفي ذروة الجبل تقوم الشمس بلألأة الزخارف النحاسيَّة التي تزيّن المعبد، وتبتسم الوجوه المنوَّرة وسط الضوء في حين تكون سهول «آسيا» والبحر لاتزال غارقة في الظلّ؛ ويكون الإنسان الذي يصلّي عند القمَّة المستفيدَ الوحيد لبضع لحظات من طلوع الصباح. وأُعِدَّ كلّ شيء للقيام بأُضحية؛ وصعدنا على صهوات الخيل في بادئ الأمر، ثمَّ سيراً على الأقدام، على امتداد المنعرَجات الخطِرة التي يحِفّ بها الوزّال والمُصْطِكا اللذان يستدلّ المرء على وجودهما ليلاً من أريجهما. وكان الهواء ثقيل الوطأة؛ وكان هذا الربيع لاهباً كالصيف في أمكنة أخرى. ولأوّل مرّة ضاقت أنفاسي وأنا أرتقي جبلاً: واضطررت إلى الإلقاء بنفسي على كتف الفتى الأثير. وهبَّت على بُعْد مئة خطوة تقريباً من القمّة عاصفةٌ كان قد توقَّع حدوثها منذ بعض الوقت «هرموجين» الخبير بالأرصاد الجويَّة. وخرج الكهنة لاستقبالنا على وَمْض البرق؛ وهرعت الزمرة المبلَّلة بالمطر حتّى العظم تتحلّق حول المذبح المعدّ للتضحية. وكانت على وشك التمام عندما قتلت الصاعقة المنفجرة فوقنا المشرِف على التضحية والضحيّةَ دَفعةً واحدة. وإذ انقضت لحظة الرّعب فقد أكبَّ «هرموجين» بفضول الطبيب على الرهط المصعوق؛ وهتف «شابرياس» والكاهن الأكبر إعجاباً: كان الإنسان والبهيمة اللذان ضحَّاهما ذلك السيف الإلهي قد ارتبطا بخلود «قريني»: لقد أمدّت هاتان الحياتان البديلتان في أجل حياتي. وكان «أنتينويوس» المتعلّق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بذراعي يرتعش، لا رُعباً كما اعتقدتُ حينذاك، وإنّما تحت وطأة فكرة فهمتها فيما بَعْدُ. فلا بدّ أنّ مخلوقاً مُفزَّعاً من الانهيار، أي من الشيخوخة، كان قد عاهد نفسه منذ زمن طويل بأن يموت عند ظهور أوّل علامة من علامات الأفول، أو حتّى قبل ذلك. وأراني اليوم مدفوعاً إلى الاعتقاد بأنَّ ذلك الوعد الذي قطعه كثيرون منّا على أنفسهم، ولكن من غير أن يَفُوا به، كان هو قد قطعه منذ زمن بعيد، منذ أيَّام «نيكوميديا» واللقاء عند حافّة البِرْكة. وكان ذلك الوعد يفسّرٌ كسَلَه وحميّتَه للذّة وحزنَه وعدمَ اكتراثه الكامل بكلّ مستقبل. ولكن كان ينبغي أيضاً ألَّا يتّخذ ذلك الرحيلُ شكلَ ثورة وألَّا يتضمّن أيَّ شكوى. وقد دلّه برق جبل «كاسيوس» على مَخْرَج: كان من الممكن أن يصبح الموت شكلاً أخيراً من أشكال القدّاس، وهِبةً أخيرة، بل الهبة الوحيدة الباقية. ولم يكن انبلاج الفجر شيئاً يُذكر بجانب الابتسامة التي ارتسمت على ذلك الوجه المضطرب. وبعد بضعة أيَّام رأيت مرّة أخرى تلك الابتسامة، ولكنّها كانت أكثر إخفاء وتلبيساً: ففي أثناء العَشاء أراد «پوليمون»، وكان يتعاطى أمور الكشف عن الطالع، تفحّصَ يد الفتى، تلك الراحة التي كان يُفزعني فيها أنا نفسي أفولٌ مذهل في الطوالع. وسحبها الولد وطبّقها بحركة لطيفة وشبه حَيِيّة. فلقد كان مُصِرّاً على الاحتفاظ بسرّ لُعبته، وسرّ نهايته.

توقّفنا في «أورشليم» [القدس]. ودرست فيها على الأرض تصميماً لمدينة جديدة نويت أن أبنيها في موضع المدينة التي هدّمها «تيتوس». وكانت الإدارة الحسنة السائدة في «اليهودية» وازدهار التجارة في «الشرق» يتطلّبان في مفترق الطرق هذا قيامَ حاضرة كبيرة. وقد ارتأيت شكل الحاضرة الرومانيّة المألوف: سيكون لحاضرة «ايلياد» معابدها وأسواقها وحمّاماتها العامّة ومحرابها الروماني الخاصّ بـ «ڤينوس». وجعلني تعلّقي الحديث العهد بالعبادات المشبوبة العاطفة أختار فوق جبل «مورية» أَلْيَقَ الكهوف بإقامة الاحتفالات بـ «أدونيس». وساءت تلك المشاريعُ عامّةَ الناس من اليهود: كان أولئك المحرومون يفضّلون أطلالهم على مدينة كبرى تُتاح فيها جميع نِعَم الكسب والمعرفة واللذّة. ونكّدتِ الجماهير صفو العمّال الذين قاموا بأولّ ضربة مِعْول في تلك الجدران المتداعية. وتغاضيت عن ذلك: وبدأ بالعمل في «أورشليم» [القدس] «فيدوس أكيلا» الذي سوف يستخدم بعد ذلك بقليلٍ مهارتَه التنظيميّة في بناء «أنتينويه». ورفضت أن أرى في تلك الأكداس من الأنقاض تنامياً سريعاً للبغضاء. وبعد ذلك بشهر وصلنا إلى «پيلوز». وحرصت على أن أشيد فيها قبر «پومپيوس» [قائد عام وسياسي روماني (١٠٦ - ٤٨ ق.م.)]. وكنت كلّما أوغلت في أعمال «الشرق» هذه أزداد إعجاباً بالعبقريّة السياسيّة التي يتحلّى بها هذا المغلوب إلى الأبد على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يد «يوليوس» الكبير. وكان «بومپيوس» الذي جهد في تسوية أوضاع ذلك العالم الآسيوي المُقَلْقَل يبدو لي أحياناً وقد عمل من أجل «روما» بأجدى ممّا عمل «قيصر» نفسه. وكانت أعمال الترميم تلك آخرَ قربانٍ من القرابين التي قدّمتُها لموتى «التاريخ»: وكان عليّ أن أهتمّ عمّا قليل بقبور أخرى.

كان الوصول إلى «الإسكندرية» سرّيّاً. فقد أُرجىء الدخول الاحتفالي حتى مقدم الإمبراطورة. إذ أُقنعتْ زوجتي، وكانت قليلة الأسفار، بقضاء الشتاء في جوّ «مصر» الأكثر اعتدالاً؛ وكان على «لوسيوس» الذي لم يبرأ تماماً من سُعال مستعصٍ على الشفاء أن يجرّب العلاج نفسه. وقد احتشد أسطول من القوارب لرحلة في «النيل» كان من ضمن برنامجها سلسلةٌ من أعمال التفتيش الرسميّة واحتفالاتٌ ومآدبُ تُنذر بأن تكون متعبة بالقدر الذي عليه موسم ينقضي في «المقرّ الإمبراطوري» من التعب. وكنت أنا نفسي قد قمت بترتيب ذلك كلّه: فلم يكن البذخ ولا أبّهة بلاط من البلاطات لِيَخْلُوَا من قيمة سياسيّة في هذا البلد القديم الذي أَلِف زَهْوَ الملوك.

بيد أنّي كنت أكثر اهتماماً بأن أقضي الأيّام القليلة التي ستسبق وصول ضيوفي، في الصيد. ففي «تدمر» كان «ميليس أغريپا» قد نظّم لنا بعضاً منه في الصحراء؛ بيد أنّنا لم نوغل بعيداً لملاقاة الأُسُود. وكانت «إفريقيا» قد أتاحت لي قبل سنتين من ذلك بعض الفرص الجميلة لصيد الكاسر العظيم؛ ولم يؤذن لـ «أنتينويوس»، وكان وقتها صغيراً جدّاً وقليل الخبرة، بأن يتّخذ مكاناً في الصفّ الأوّل. وهكذا كنت أضمر له من مواقف الإحجام ما لم أكن لأفكّر

قطّ في إضماره لنفسي. وإذ أذعنتُ كما كان يحدث على الدوام فقد وعدتُه بالدور الرئيسي في رحلة صيد الأسد هذه. فقد ولّى زمن معاملته معاملة الأولاد، وكنت فخوراً بهذه القوّة الفتيّة.

انطلقنا إلى واحة «آمون» [إله فرعوني] على مسيرة بضعة أيّام من «الإسكندرية»، وكانت تلك هي الواحة التي تلقّى فيها «آمون» في ذلك الزمن سرّ مولده الإلهي من أفواه الكهنة. وكان السكّان الأصليُّون قد أعلنوا عن وجود حيوان كاسر خطِر بشكل لا يوصف في تلك الأنحاء، وقالوا إنّه كثيراً ما هاجم الإنسان. وفي المساء أخذنا نقارن بمرح حول نار المعسكر ما نحن مقبلون عليه من مآثر بمآثر «هرقل». بيد أنّ الأيّام الأولى لم تحمل إلينا إلاّ بضعة غزلان. وفي هذه المرّة قرّرنا أن نذهب كلانا للتربّص بالقرب من منقع ماء مُتْرِب مزروع بقضبان القصب. وكان الأسد يمرّ به للشرب منه عند الغَسَق. وقد كُلّف الزنوج بإحاشته إلينا على صخب النفير والصنوج والصياح؛ وأمّا البقيّة الباقية من حاشيتنا فقد تركناها على مسافة يسيرة. وكان الهواء ثقيلاً وساكناً؛ حتّى إنّه لم يكن ضروريّاً الانشغال باتّجاه الريح. كنّا قد أوشكنا على تجاوز الساعة العاشرة لأنّ «أنتينويوس» كان قد لفت نظرى على الغدير إلى نيا فرات حمراء ماتزال تامّة التفتّح. وفجأة ظهرت البهيمة الملكيّة في حفيف من القصب الموطوء وأدارت نحونا خطماً جميلاً مُرعِباً، وجهاً من أشدّ الوجوه التي يمكن أن يحملها الخطر إيحاءً بالألوهيّة. وإذ كنت قابعاً في الخلف قليلاً فلم أملك الوقت للإمساك بالصبيّ الذي هَمَزَ جواده بنزق وقذف برمحه ومِزراقيْه بمهارة ولكنْ من مسافة قصيرة جدّاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وانهار الكاسر المطعون في عنقه وهو يضرب الأرض بذيله؛ ومنعنا الرمل المُثار من أن نتبينّ شيئاً غير كتلة مُزَمجِرة غير واضحة المعالم؛ ونهض الأسد في نهاية المطاف واستجمع قواه للوثوب على الفرس والفارس الأعزل. وكنت قد توقّعت هذا الخطر؛ ولحسن الحظّ أنّ مطيّة «أنتينويوس» لم تتحرّك: كانت بهائمنا مروّضة ترويضاً رائعاً لمثل هذا النوع من الألعاب. واعترضتُ بفرسي مولّياً خاصرته اليمنى؛ وكنت متعوّداً هذا النوع من التمرينات؛ ولم يكن من الصعب كثيراً عليّ أن أُجهز على الوحش الكاسر الذي كان قد طُعن حتّى الموت. وتداعى للمرّة الثانية؛ وتمرّغ الخطم في الوحل؛ وسال في الماء خيط من الدم الأسود. ونَفَقَ القطّ الكبير الملوَّن بلون الصحراء والعسل والشمس بجلالٍ يفوق جلال البشر. ونزل «أنتينويوس» عن متن فرسه المغطّى بالزَبَد وهو لايزال يرتعش؛ وانضمّ إلينا رفاقنا؛ وجرّ الزنوج إلى المعسكر الضحيّة الضخمة النافِقة.

وارتُجل نوع من وليمة؛ ووزّع علينا الفتى المنبطح على بطنه أمام صينيّة من النحاس أنْصِبتنا من لحم الحَمَل المطبوخ تحت الرماد. وشربنا على شرفه خمرة مصنوعة من التمر. وكانت حماسته تتعالى تعاليَ الغِناء. وربّما كان يبالغ في تقدير مغزى النجدة التي حملتُها إليه جاهلاً أنّني كنت سأفعل ما فعلتُ من أجل أيّ صيّاد في خطر؛ ومع ذلك فإنّنا كنّا نشعر بأنّا دخلنا ذلك العالم البطوليّ الذي يموت فيه المحبُّ من أجل حبيبه. وكان العرفانُ بالجميل والزهوُ يتعاقبان على فرحته تعاقبَ المقاطع في قصيدة غنائيّة. وقام الزنوج بعمل رائع: ففي المساء كان الجلد المسلوخ يترجّح تحت النجوم معلّقاً إلى وتدين على

مدخل خيمتي. وعلى الرغم من المطيِّبات التي كانوا قد ضمّخوه بها فإنَّ رائحته الوحشيّة ظلّت تسكننا طَوال الليل. وفي اليوم التالي غادرنا المعسكر بعد فطور مؤلّف من الفواكه؛ وفي لحظة الرحيل لمحنا في حفرة ما كان قد تبقّى من البهيمة الملكيّة في الليلة الماضية: لم يكن ذلك سوى جثّة حمراء تعلوها سحابة من الذباب.

وعدنا إلى «الإسكندرية» بعد ذلك ببضعة أيَّام. ونظّم الشاعر «پانكراتيس» لأجلي حفلة في «المتحف»؛ وقد جُمعت في قاعة للموسيقى مجموعةٌ من الآلات الثمينة: الكنّارات «الدُّورِيّة» القديمة، وهي أثقل من كنّاراتنا وأقلّ تعقيداً، وتقارب قيثارات «فارس» و«مصر» المعقوفة، والشبّابات «الفريجيّة» الحادّة مثل أصوات الخِصيان، وبعض نايات هنديّة نحيلة أجهل اسمها. وضرب «حبشيّ» ضرباً طويلاً على قَرَعاتٍ إفريقيّة. وعزفت امرأة جمالها بارد بعض البرودة، وكان من الممكن أن تُغويني لو لم أكن قد عزمت على تبسيط حياتي باختصارها إلى ما كان أساسيّاً في نظري، على قيثار مثلَّث الشكل حزين النَغَم. وأرفق موسيقيٌّ المفضّلُ «ميزوميديس الكريتي» بالعزف على الأرغن المائي إنشادَه قصيدته عن «سفنكس» [أبو الهول]، وهي عمل مُحيِّر ووعر المسالك ومتباعد كالرمل في مهبّ الريح. وكانت قاعة الاحتفالات الموسيقيّة تفضي إلى فِناء داخلي: وكانت نيلوفراتٌ مفروشةً فوق ماء بِركة تحت اللهب شبه الخانق في أصيل يوم من أيّام شهر آب (أغسطس). وأصرّ «پانكراتيس» في أثناء إحدى الاستراحات على جعلنا نهلّل إعجاباً بتلك الأزهار النادرة في نوعها، ولم تكن تُزهر إلاَّ في آخر الصيف. وما لبثنا أن عرفنا فيها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أزهارنا القرمزيّة في واحة «آمون»؛ واشتعل «پانكراتيس» حماسةً لفكرة الحيوان المفترس المجروح النافق بين الأزهار. واقترح عليّ نـظم واقعة الصيد تلك شِعْراً: كان المفترض أن يكون دم الأسد قد صبغ زنـابق المـاء. ولم تكن الصيغة بـالجديـدة: ومع ذلـك فقد أوصيت بـالأمـر. وصاغ على الفور «پانكراتيس» هذا، وكانت له كلّ مواصفـات شاعـر من شعراء البلاط، بضعة أبيات رائقـة في الثناء عـلى «أنتينويـوس»: لقد قُدِّم فيها الورد والزنبق الياقوتيّ والخزامى قـرابين لتـلك التُّوَيجـات الأرجـوانيّة التي غـدت تحمل بعـد ذلك اليـوم اسم الحبيب. وصـدر الأمـر إلى أحد العبيـد بخوض الـبِركة لقـطف ملء باع منهـا. وقبِـل الشـاب ـ المتعوّد عـلى آيات التكـريم ـ برزانـةٍ تلك الأزهارَ الشَّمْعِيّـة ذات السوق الملتفّة الرخوة؛ ولقد انغلقت كما تنغلق الأجفـان عندمـا حلّ الليل.

في أثناء ذلك وصلت الإمبراطورة. وكانت الرحلة الطويلة قد أرهقتها: كانت قد غدت أشدّ هشاشة من غير أن تنقطع عن أن تكون قاسية. ولم تكن مخالطاتها السياسيّة تسبّب لي إزعاجاً كما حينما كانت تشجّع «سويتون» بحماقة؛ فما كانت تحيط نفسها بغير نساء أديبات غير مُؤْذِيات. وكانت نَجِيَّتها في ذلك الحين، وهي امرأة تُدعى «جوليا بلبِيّا»، تنظم بشكل لا بأس به أبياتاً باللغة اليونانيّة. وأقامت الإمبراطورة وحاشيتها في مقرّ الأدباء، ولم يكنّ يغادرنه إلاّ قليلاً. وكان «لوسيوس»، على العكس من ذلك، جشعاً كدأبه دائماً إلى جميع الملذّات، بما في ذلك ملذّات الفِطنة والعيون.

ولم يكن، وهو في السادسة والعشرين، قد فقد شيئاً تقريباً من ذلك الجمال الأخّاذ الذي كان يحمل الشبيبة على الهتاف له في شوارع «روما». وقد ظلّ غير معقول وساخراً ومرِحاً. وكانت نزواته الماضية قد تحوّلت إلى عادات مُستحكِمة؛ ولم يكن يتزحزح إلاّ برفقة طبّاخه؛ وكان بُستانيّوه يجمعون له، حتّى في أعجب الرياض، أزهاراً نادرة؛ وكان يجرّ معه إلى كلّ مكانٍ سريرَه الذي كان قد صمّم شكله بنفسه، أربعة فُرُش محشوّة بأربعة أنواع خاصّة من الطيوب، وكان ينام عليها تحيط به عشيقاته الشوابّ ومثلهنّ عدداً من الوسائد. وكان خَدَمه المتبرِّجون المعفَّرون بالمساحيق اللابسون أزياء مضحكةٍ كما في مشاهد آلهة «الرياح والحبّ» يتقيّدون جهدهم بنزوات شاذّة قد تكون أحياناً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في منتهى القسوة: كان عليّ التدخُّل لمنع ممثِّل «ريح الشمال» الصغير الذي كان سيّده مُعجَباً بنحوله من قتل نفسه جوعاً. ولقد كان ذلك كلّه منفِّراً أكثر ممّا هو ودّي. وزرنا معاً كلّ ما يُزار في «الإسكندرية»: المنارة وضريح «الإسكندر» وضريح «مارك أنطونيو» حيث تنتصر «كليوبترا» إلى الأبد على «أوكتاڤيا»، من غير أن ننسى المعابد والمُحتَرَفات والمعامل وحتّى حيّ المُحنّطين. واشتريت من عند نحّات عدداً من تماثيل «ڤينوس» و«ديانا» و«هيرميس» من أجل مسقط رأسي مدينة «إيتالِكا» التي نويت تحديثها وزخرفتها. وأهدى إليّ «سيپاريس» كاهن المعبد آنيةً من زجاج الأوپالين؛ وأرسلتها إلى «سرڤيانوس» الذي جهدتُ في الإبقاء على صلات به لا بأس بها من أجل خاطر أختي «پولينيا». ووُلدت في أثناء تلك الجولات الباذخة إلى حدٍّ ما مشاريع كبرى عن أعمال للصيانة والإصلاح.

الديانات في «الإسكندرية» متنوّعة تنوُّع التجارات الكبرى: تكون نوعيّة النتاج فيها أكثر إثارة للريْب. ويتميّز المسيحيّون على الأخصّ بوفرة من الطوائف أقلّ ما يقال فيها إنّها عديمة الجدوى. وكان هناك دجّالان، «ڤالنتان» و«بازيليد»، يكيد أحدهما للآخر وتراقبهما الشرطة الرومانيّة عن كَثَب. وكانت حثالة الشعب المصري تنتهز كلّ مراعاة شعائريّة للانقضاض بالهراوات على الغرباء؛ ويثير موت الثور «آپيس» في «الإسكندرية» من الشعب فوق ما تثيره خلافة الإمبراطور في «روما». ويبدّل الناس المرموقون فيها آلهتهم كما يبدّل الناس في الخارج طبيبهم ومن دون الحصول على مزيد من الفوز. غير أنّ الذهب هو وَثَنهم الأكبر: لم أرَ في أيّ مكانٍ ملتمسين للذهب أوقح

منهم. وكانت تنتشر في كلّ مكان تقريباً كتابات تمجيديّة تذكّر بمآثري، بيد أنّ رفضي إعفاء الشعب من ضريبة كان مجردُّ دَفْعِها مُرهقاً ما لبث أن أثار عليّ أولئك السوقة. وقد شُتم مرافقاي الشابَّان عدّة مرّات؛ وأُخذ علي «لوسيوس» بذخُه، وكان مُفرطاً على كلٍّ حال؛ وعلى «أنتينويوس» أصله الغامض الذي كانت تشاع عنه حكايات غير معقولة؛ وعليهما معاً سطوتهما المفترَضة عليّ. وكان هذا الزعم الأخير مثيراً للسخرية: لم يكن لـ«لوسيوس» أيّ نفوذ سياسي على الرغم من أنّه كان يدبّر القضايا العامّة بحصافة خارقة؛ ولم يحاول «أنتينويوس» أن يكون له نفوذ. وما كان من شأن النبيل الشابّ العارف بأحوال الدنيا سوى الهزء من تلك الشتائم. بيد أنّ «أنتينويوس» كان يتألّم لها.

وكان اليهود، يوجّههم إخوتهم في الدين في «اليهوديّة»، يزيدون في إحماض ذلك العجين المحمضّ من قبل. وأرسل إليّ كنيس «أورشليم» [القدس] أجلّ أعضائه: وكانت مهمّة «عقيبة»، وهو شيخ يناهز التسعين من العمر ولا يعرف اليونانيّة، أن يقنعني بالتخلّي عن المشاريع التي هي في طريقها إلى التنفيذ في «أورشليم» [القدس]. وإذ استعنت ببعض التراجمة فقد أجريت معه عدّة مقابلات لم تكن من جانبه سوى ذريعة إلى مناجاة نفسه. وشعرت في أقلّ من ساعة بأنّي قادر على تحديد فكرته بالضبط، هذا إذا لم أَقُلْ إني كنت قميناً بالموافقة عليها؛ ولم يبذل هو الجهد نفسه فيما يخصّ فكرتي. فما كان ذلك المتعصّب حتّى ليشكّ في إمكان أن يفكّر المرء في مقدِّمات منطقيّة غير مقدّماته هو؛ وكنت أفسح لهذا الشعب المحتقَر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكاناً بين أمكنة أخرى في الجماعة الرومانيّة: وكانت «أورشليم» [القدس] في فم «عقيبة» تعني لي إرادته بأن تبقى إلى النهاية قلعة عِرقٍ ورَبٍّ معزولين عن الجنس البشري. وكان يعبّر عن هذه الفكرة النَّزِقة بمهارة مُتعِبة: كان عليٌّ تلقّي سلسلة طويلة من الأسباب المستنبط بعضها من بعض بدرايةٍ عن تفوُّقِ بني إسرائيل. وبعد ثمانية أيّام شعر ذلك المفاوِض الشديد التشبُّث بأنّه قد أخطأ الطريق؛ وأخبر برحيله. وأنا أكره الهزيمة، حتّى هزيمة الآخرين؛ وإنّها لتهزّني على الأخصّ عندما يكون المهزوم شيخاً. وكان جهل «عقيبة» ورفضه كلّ ما عدا كتبه المقدّسة وشعبه يُضفيان عليه نوعاً من البراءة الضيّقة. بيد أنّه كان من الصعب أن يرقّ المرء لهذا المتعصِّب. وبدا أنّ طول العمر كان قد حرمه من كلّ مرونة بشريّة: كان هذا الجسد المعروق وذلك الفكر الجافّ مزوَّدَيْن ببأسٍ شبيه ببأس جرادة. ويبدو أنّه مات بعد ذلك بطلاً مدافعاً عن قضيّة شعبه، أو بالحري عن شريعته: كلّ إنسان يَنْذُر نفسه لآلهته.

أخذت تسليات «الإسكندرية» بالنضوب. واقترح «فليغون»، وكان يعرف ما في كلّ مكان من طرافة محليّة، ويعرف الوسيطة أو الخنثى الشهيرة، أن يقودنا إلى إحدى الساحرات. وكانت وسيطة الغيب تلك تسكن «كانوپ». وذهبنا ليلاً إلى هناك في قارب عبر بنا القناة ذات المياه الثقيلة. وكانت الرحلة كئيبة. وكانت تسود كالعادة بين الشابَّيْن عداوة صمّاء: كانت الحميميّة التي أُرغِما عليها تضاعف نفور أحدهما من الآخر. وكان «لوسيوس» يخفي نفوره تحت اتّقاد ساخر؛ وكان فتاي الإغريقي يحتبس داخل واحدة من نوبات سُخطه

الشديد. وكنت أنا نفسي مُنْهَكاً؛ وكنت قد أصبت عندما عدت من أحد السباقات التي جرت تحت شمس ساطعة قبل بضعة أيّام بإغماء كان الشاهدان الوحيدان عليه «أنتينويوس» وخادمي الأسود «أوفوريون». ولقد قلقا لذلك أشدّ القلق؛ وأرغمتُهما على الصمت.

لم تكن «كانوپ» غير إطار زخرفيّ: كان بيت الساحرة واقعاً في أقذر جزء من مدينة الملذّات تلك. ونزلنا على شرفة متداعية. وكانت الساحرة بانتظارنا في الداخل مزوّدة بآلات مريبة خاصّة بمهنتها. وكانت تبدو مؤهَّلة لها؛ فما كان فيها أيّ شيء من عرّافات المسارح؛ بل إنّها لم تكن عجوزاً.

كانت تنبّؤاتها غاية في التشاؤم. ولم يكن الناطقون بوحي الآلهة يخبرونني في كلّ مكان منذ بعض الوقت بغير مشكلاتٍ من كلّ نوع واضطراباتٍ سياسيّة ودسائسَ من التي تُحاك في القصور وأمراضٍ خطيرة. وأظنّ اليوم أنّ تأثيرات بشريّة بكلّ معنى الكلمة تُمَارس على أفواه الظلّ هذه، لإخطاري أحياناً ولإفزاعي في معظم الأحيان. وكان يعبّر فيها عن الوضع الحقيقيّ في جزء من «الشرق» بصورة أوضح من التي تقدّمها تقارير قناصلنا. وتلقّيت هذه الكشوف المزعومة بهدوء، إذ لم يكن احترامي لعالم الغيب ليبلغ حدّ الوثوق بهذه الثرثرات الإلهيّة: كنت قبل عشرة أعوام، أي بعد تسلّمي سدّة الإمبراطوريّة بقليل، قد أقفلت مهبِط وحي الآلهة في «دافنيه» بالقرب من «إنطاكية»، وكان قد تنبّأ لي بالحكم، وذلك خوفاً من أن يفعل الشيء نفسه مع أوّل طامح يأتيه. بيد أنّه مؤسف على الدوام أن يسمع المرء حديثاً عن أمور محزنة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد أن جهدت العرّافة في إقلاقنا عرضتْ علينا خدماتها: كان واحد من تلك التضحيات السحريّة التي يحتكرها سحرة «مصر» كافياً لتسوية الأوضاع بشكل ودّي مع القدر. وكانت تدخّلاتي في السحر الفنيقي قد أفهمتني قبلاً أنّ ما تحمله هذه الممارسات الممنوعة من رعب يعود إلى ما تُخفيه عنّا بأكثر ممّا يعود إلى ما تبديه لنا: فلو لم يكن الناس قد عرفوا مقتي للأضحيات البشريّة فلربّما كانوا نصحوني بذبح عبد من عبيدي. ولقد أكتفي بالحديث عن حيوان عادي.

كان ينبغي أن تكون الضحيّة بقدر الإمكان ممّا تملك يدي؛ ولم يكن ممكناً أن يكون المضحّى به كلباً، وهو بهيمة يعتقد التطيّر المصري أنّه نَجِس؛ وكان طائر يفي بالمرام، غير أنّي لا أسافر مصحوباً بقفص طيور. وعرض عليّ محبوبي الشابّ صقره. وهكذا تمّت الشروط: كنت قد أعطيته ذلك الطائر الجميل بعد أن تلقّيتُه شخصيّاً هديّة من ملك «خراسان» وكان الصبي يطعمه بيده؛ وكان أحد المُقْتَنَيات النادرة التي تعلّق بها. ورفضت بادئ الأمر؛ وألحّ بصرامة؛ وفهمت أنّه كان يعزو إلى هذه المنحة مغزى خارقاً فقبلت بدافع الحنان. وذهب بريدي «مينيكراتيس» مزوّداً بأدقّ التفاصيل لجلب الطائر من مسكننا في الـ «سيرابيوم» [معبد الإلّه المصري «آپيس»]. وكانت المسافة تتطلّب أكثر من ساعتين حتّى في حال الإحضار السريع. ولم يكن يرد في حسباني أن أقضيهما في كوخ الساحرة القذر، وكان «لوسيوس» يشكو من رطوبة القارب. ووجد «فليغون» مخرجاً: أقمنا كيفما جرى الأمر عند إحدى القوّادات بعد أن تخلّصنا من موظّفي المنزل؛ وقرّر «لوسيوس» أن ينام؛ واستغللت هذه

الفترة لإملاء بعض البلاغات؛ وتمدّد «أنتينويوس» عند قدميّ. وأخذ قلم «فليغون» يصرّ تحت نور المصباح. وكنّا قد دخلنا في الهزيع الأخير من الليل عندما أحضر «مينيكراتيس» الطائر والقفّاز وغطاء الرأس والسلسلة.

ورجعنا إلى الساحرة. ونزع «أنتينويوس» الغطاء عن رأس صقره وداعب طويلاً رأسه الصغير الناعس المتوحّش وحمله إلى المُعِزِّمة التي بدأت سلسلة من الرُّقى السحريّة. وعاد الطائر المخلوب إلى النوم. وكان مهمّاً ألّا تتخبَّط الضحيّة وأن يبدو الموت طوعيّاً. وسُجِّيتِ البهيمة بلا حراك، بعد دهنها بالعسل وعطر الورد، في قعر حوض مليء بماء النيل؛ وتماهى المخلوق الغريق مع «أوزيريس» مجروفاً بتيّار النهر؛ وكانت السنوات الباقية للطائر على الأرض تنضاف إلى سنوات عمري؛ واتّحدت الروح الشمسيّة الصغيرة بِـ «قرين» الإنسان الذي ضُحِّي بها من أجله؛ وقد أصبح في وسع هذا «القرين» الخفيّ بعد اليوم أن يظهر لي ويخدمني بالشكل الذي هو عليه. ولم تكن المعالجات الطويلة التي تلت أكثر إثارة للاهتمام من طبخ أحد الأطعمة. وشرع «لوسيوس» يتثاءب. وحاكتِ الاحتفالاتُ إلى النهاية مأتماً بشريّاً. واسترسلت عمليات التبخير والتهليل حتّى الفجر. ووُضع الطائر في نعش مُفعم بالطيوب فدفنته الساحرة أمام أعيننا عند حافّة القناة في مقبرة مهجورة. وبعدها قرفصت تحت شجرة لتعُدّ واحدة بواحدة قطع الذهب التي دفعها لها «فليغون» لقاء عملها.

وصعدنا إلى القارب. وكانت تهبّ ريح باردة ببرودة لا مثيل لها. ورفع «لوسيوس» الجالس بقربي أغطية القطن المطرّز بأطراف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصـابعه؛ وظللنـا بـدافـع الأدب نتبـادل بـلا تـوقّف أحـاديث تتعلّق بشؤون «رومـا» وفضائحهـا. وكان «أنتينـويوس» المستلقي في مؤخـرّة القارب قد أراح رأسـه على ركبتيّ؛ ولقـد تظاهـر بالنـوم لينفصل عن ذلـك الحديث الـذي لم يكن يعنيه. وانـزلقت يدي عـلى رقبتـه تحت شعره. وكان يساورني في أشدّ اللحظات عبثاً أو كمداً شعور بضرورة البقاء على صلة بالأشياء الطبيعيّة العظمى، التفافِ الغـابات ورقـابِ الفهود العَبِلة واندفاقِ الينابيـع المنتظم. بيـد أنّه مـا من مداعبـة تبلغ الـروح. وكانت الشمس تسـطع عندمـا وصلنا إلى الـ «سـيراپيـوم»؛ وكان باعة البطيخ ينادون على بضاعتهم في الشـوارع. ونمت إلى وقت جلسة «المجلس» المحلّي التي كنت أحضرُها. وقد علمت فيـما بعد أنّ «أنتينـويوس» انتهـز غيـابي هـذا لإقنـاع «شـابـريـاس» بمـرافقتـه إلى «كانوپ». وقد عاد إليها لمقابلة الساحرة.

إنّـه اليوم الأوّل من شهـر «أتير» من السنـة الثـانيـة لِـ «الأولمپيـاد» السادس والعشرين بعد المئتين. . . وإنّها ذكرى موت «أوزيريس» إلّه الاحتضارات: كان العويل الحادّ يتردّد منذ ثلاثة أيّام في جميـعِ القرى على طول النهر. وقد أبـدى مُضيفِيّ الرومـان، وكانـوا أقلّ منّي أُلفـة لأسرار «الشرق»، بعض الفضـول بـإزاء تلك الاحتفـالات الخـاصّـة بعرِقٍ مختلف عنّا. وكانت على العكس من ذلـك تُرهقني. وكنت قـد أوقفت قاربي على مسافة معيّنة من القوارب الأخـرى، بعيداً عن كـلّ مكان معمور: ومع ذلك فقد كان ينتصب عـلى محاذاة الشـاطئ معبد فرعوني نصف مهجور؛ وكان لايزال يحتفظ بديْره الخاصّ بـرهبانـه؛ فلم أنجُ تماماً من ضجيج الانتحاب.

كان «لوسيوس» قد دعاني في المساء السابق للعشاء على قاربه. وقد ذهبت إليـه مـع غـروب الشمس. ورفض «أنتينـويـوس» أن يتبعني. وتـركته عنـد عتبة قمـرتي في مقدّمـة القارب مستلقيـاً على جلد أسـد مشغولاً بلعبة الأكعـاب مع «شـابريـاس». وما هي إلّا نصف سـاعة حتّى غـيّر رأيه واستـدعى زورقاً. وقـطع بعكس مجرى النهـر المسافـة الكبـيرة التي كـانت تفصلنـــا عن القـوارب الأخـــرى يعـاونـــه أحـد الملّاحين. وأدّى دخـوله الخيمـة التي أقيمت مأدبـة العشاء تحتهـا إلى انقطاع التصفيق الذي كان يرافق تلوّيات إحدى الـراقصات. وكـان قد ارتدى ثوباً شاميّاً طويلاً رقيقاً رقّة قشرة الثمرة ومزروعـاً بالأزهـار والحيوانات الخرافيّة. وكـان قد ألقى ردنـه الأيمن ليستطيـع التجذيف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بيسر: وكان العَرَق يترجرج فوق ذلك الصدر المصقول. ورشقه «لوسيوس» بإكليل من الزهر فتلقّفه وهو طائر؛ ولم يتوقّف مَرَحه شبه الصارخ لحظة واحدة مع أنّه لم يَكَدْ يُسنده غير قدح من النبيذ اليوناني. ورجعنا معاً في زورقي ذي المجذِّفين الستّة مصحوبيْن من فوقنا بتمنّي «لوسيوس» اللاذع لنا بقضاء أمسية طيّبة. واستمرّ المَرَح الوحشيّ. غير أنّه حدث لي أن لامست في الصباح وجهاً أثلجته الدموع. وسألته بنزق عن سبب هذه الدموع؛ وأجاب بتواضع محتجّاً بالتعب. وتقبّلت تلك الكذبة؛ وعدت إلى النوم. لقد جرى احتضاره الحقيقي في هذا السرير، وبجانبي.

كان بريد «روما» قد وصل للتوّ؛ وانقضت الصبيحة في قراءته والردّ عليه. وكان «أنتينويوس» كعادته يذرع الغرفة صامتاً جيئة وذهاباً: ولست أدري في أيّ لحظة خرج هذا السلوقي الجميل من حياتي. وحوالي الساعة الثانية عشرة دخل «شابرياس» مضطرباً. فقد غادر الشابّ القارب خلافاً لكلّ القواعد من غير أن يعيّن غاية غيابه ولا مداه: كانت ساعتان على الأقلّ قد انقضتا على رحيله. وتذكّر «شابرياس» عبارات غريبة نُطق بها في العشيّة وتوصية قيلت في الصباح بالذات وكانت تخصّني. ونقل إليّ مخاوفه. ونزلنا على عَجَل إلى الضفّة. وتوجّه المربّي العجوز مدفوعاً بالغريزة إلى مُصَلًّى قائم على الشاطئ، وهو بناء صغير منفرد تابع لملحقات المعبد، وكان هو و«أنتينويوس» قد زاراه من قَبْلُ معاً. وعلى مائدة خاصّة بالقرابين كان رماد أضحية لايزال دافئاً. وأدخل فيه «شابرياس» أصابعه وأخرج منه خصلة شعر مقصوصة شبه سليمة.

لم يبقَ أمامنا غير استكشاف الضفّة. كانت سلسلة من الصهاريج استخدمت ولاشكّ في الماضي لاحتفالات مقدّسة تتّصل بجُوَيْنٍ من جُوَيْنات النهر: وعلى حافّة الحوض الأخير لمح «شابرياس» في الغسق المنتشر بسرعة ثوباً مطويّاً ونعلينْ. ونزلت الدرجات الزلِقة: كان ممدَّداً في القعر وقد غاص في الوحل. وتمكّنت بمساعدة «شابرياس» من رفع الجثمان الذي ثَقُل فجأة ثِقل الحَجَر. ولوّح «شابرياس» لبعض الملّاحين فارتجلوا مَحْمَلاً من القماش. ولم يستطع «هرموجين» الذي استُدعي على عجل إلّا تأكيد حدوث الموت. لقد كان هذا الجسد الشديد الوداعة يأبى أن يستعيد حرارته، أن يحيا من جديد. ونقلناه إلى القارب؛ وأخذ كلّ شيء ينهار؛ وبدا أنّ كلّ شيء ينطفئُ. وتداعى «زيوس الأولمبي» و«سيّد كلّ شيء» و«مخلّص العالم»، ولم يبقَ غير رجل أشيب منتحباً على متن قارب.

بعد يومين أفلح «هرموجين» في جعلي أفكّر في الجنازة. ودلّتنا طقوس التضحية التي كان «أنتينويوس» قد اختار إحاطة موته بها على الطريق الواجب اتّباعه: لم يكن مجّاناً أن وافقت ساعةُ تلك النهاية ويومُها الساعةَ واليومَ اللذين ينزل فيهما «أوزيريس» إلى القبر. وذهبت إلى الضفّة الأخرى، إلى «هرموپوليس»، لرؤية المحنّطين. وكنت قد رأيت أمثالهم يعملون في «الإسكندرية»؛ وكنت أعلم ما سألحق من إهانات بذلك الجسد. بيد أنّ النار التي تشوي ذلك اللحم الذي كان حبيباً وتفحّمه فظيعة هي الأخرى؛ والأرض التي يتحلّل فيها الأموات. وكانت الرحلة مقتضَبة؛ وإذ قرفص «أوفريون» في زاوية من قمرة المقدّمة فقد أخذ ينعب بصوت خافت نعيباً جنائزيّاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إفريقيّاً لا أدري ما هو؛ وبدا لي ذلك الإنشاد المكتوم الأبحّ وكأنّه صياحي أنا تقريباً. ونقلنا الميت إلى قاعة مغسولة بكثير من الماء ذكّرتني بعيادة «ساتيروس»؛ وساعدت المُقَوْلِب في دهن الوجه بالزيت قبل تغطيته بالشمع. وأصبح لجميع الاستعارات معنى: لقد أمسكت بهذا القلب بين يديّ. وعندما غادرته لم يكن الجسد الخاوي غير تجهيزة قام بها محنِّط، حالة أولى من رائعة فظيعة، مادّة نفيسة عولجت بالملح ومعجون المُرّ فلا سبيل أبداً للهواء والشمس إلى مسّها بسوء.

وفي طريق العودة زرت المعبد الذي تمّت التضحيّة بالقرب منه؛ وتحدّثت إلى الكهنة. فلسوف يغدو محرابهم المجدَّد مزاراً لمصر بأسرها؛ ويُخصَّص ديرهم، بعد إغنائه وتوسيعه، لخدمة إلهي من الآن فصاعدا. فحتىّ في أشدّ لحظاتي خموداً لم أكن لأشكّ قطّ بأنّ تلك الفتوّة كانت إلهيّة. ولسوف تبجّله «اليونان» و«آسيا» على طريقتنا بإقامة ألعاب ورقصات وتقديم قرابين على قدميْ تمثال أبيض عارٍ. وسيكون لـ «مصر» التي شهدت الاحتضار نصيبها هي الأخرى من التمجيد والتأليه. وسيكون أكثر الأنصبة قتامة وخفاء وقسوة: سيؤدّي هذا البلد نحوه دورَ المحنِّط الأبديَّ. وسوف يُنشد كهنةٌ حليقو الرؤوس طَوال قرون ابتهالات يُذكر فيها اسمه الذي ليس له قيمة عندهم ويحتوي عندي على كلّ شيء. وسيجول القارب المقدّس كلّ عام بتمثاله فوق ضفّة النهر؛ وستمشي نوادبُ في الأوّل من شهر «أتير» فوق هذه الضفّة التي مشيتُ فوقها. إنّ على كلّ قلب واجباً مباشراً وداعياً مهيمناً على جميع الدواعي الأخرى: وكان الداعي في تلك اللحظة حماية النَّزْر اليسير الذي بقي لي من أن يعتوره الموت.

وكان «فليغون» قد جمع لي فوق الضفّة مَنْ في حاشيتي من المعماريّين والمهندسين؛ وإذ كنت مدعوماً بنوع من السُّكْر الذي يحتفظ فيه المرء بوَعْيه فقد قُدتهم إلى التلال المُحْصِبة؛ وشرعت أشرح لهم مخطّطي، وهو نشر مراحل سور التسبيح الخمس والأربعين؛ ورسمت على الرمل مكان قوس النصر ومكان الضريح. وكانت «أنتينويه» في طريقها إلى إبصار النور: لعلّه كان انتصاراً على الموت أن يُفرض على هذه الأرض المشؤومة بناء مدينة إغريقيّة بأسرها، قلعة تستدعي احترام الرُّحّل «الأريتريّين»، سوقٍ جديدة على طريق «الهند». إنّ «الإسكندر» كان قد احتفل بمأتم «هيفستيون» بالتخريب والمذابح. ورأيت من الأجمل مَنْح المحبوب مدينة تختلط فيها شعائر تمجيده بالذهاب والإياب على الساحة العامَّة فيتكرّر اسمه في أحاديث المساء ويتقاذف الشبّان الأكاليل في أوقات المآدب. غير أنّ تفكيري ظلَّ يعوم فوق نقطة واحدة. فقد كان يبدو لي مستحيلاً ترك هذا الجثمان في أرض غريبة. وكما أنّ إنساناً غير متيقّن من المرحلة التالية يأمر بالسكنى في عدّة فنادق في وقت واحد فقد أمرت له بنصب في «روما» على ضفاف «التيبر» بجوار قبري؛ وفكّرت كذلك في المصلّيات المصريَّة التي كنت قد بنيتها بدافع من نزوة في «الدارة» والتي تكشّف فجأة أنّها كانت نافعة ويا للأسى. وحُدِّد يوم للجنازة في نهاية الشهرين اللذين طالب بهما المحنِّطون. وكلّفت «ميزوميديس» بتأليف جوقات جنائزيّة. ورجعت إلى القارب في ساعة متأخِّرة من الليل؛ وجهّز لي «هيرموجين» شراباً تُعينني جرعات منه على النوم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تــواصــل التصـعيــد في الـنهــر، بيــد أنّي كـنت أبـحــر عــلى الـ «الستيكس». وكنت قـد رأيت فيـما مضى في معسكــرات الأسرى على ضفاف «الدانوب» أناساً بائسين مْمدَّدين إلى جدار يضربون به من غـير توقّف جبـاههم في حركـة متوحّشــة، غير معقـولة وعـذبة، وهم يردّدون بلا انقطاع الاسم نفسه. وفي أقبية الـ «كوليزيه» أُريتُ أسوداً أخذت أحوالها تسوء لأنّهم حرموها من الكلب الذي كـانت قد ألفت العيش معه. وجمعت أفكاري: كان «أنتينويوس» قد مات. وكنت قد أعولت وأنا صبيّ فوق جثّة «مارولينوس»التي مزّقت الغربان أوصالها. بيد أنّ عويلي كان شبيهاً بعويل حيوان بلا عقل في الليل البهيم. وقد مـات أبي، غير أنّ اليتيم ذا الأعـوام الاثني عشر لم يكن قد لاحظ إلاّ فوضى المنزل ودموع أمّه وفزعه هـو؛ ولم يكن قد عـرف أيّ شيء عن الويلات التي قـاساهـا المُحْتَضَر. وماتت أمّي بعـد ذلك بكثير، زمن بعثتي إلى «پـانونيـا» على وجـه التقريب؛ ولست أذكـر تاريـخ مـوتهـا بالضبط. ولم يكن «تراجان» سوى مريض انبغى حملُه على الإيصـاء. ولم أكن قد شهدت موت «پلوتينيا». ومات «أتيانـوس»؛ وكان شيخـاً هرِماً. وكنت قد فقدت خلال الحروب «الداسيّة» رفاقاً كنت اعتقدت اعتقاداً قويّاً أنّي أحبّهم؛ بيد أنّنا كنّا في شرخ الشباب، وكانت الحيـاة والمـوت مُسْكِـريْن ويسيـريْن سـواء بسـواء. ومـات «أنتينــويـوس». وتـذكّرت الأفكـار المبتذلـة التي كثيراً مـا تُسمع: يمـوت المـرء في كـلّ عمر؛ من يموتـون صغاراً تحبّهم الآلهـة. وكنت أنا نفسي قـد أسهمت

في هذا التفريط الحقير بالكلمات؛ ولقد تحدّثت عن الموت من النعاس، والموت من الضجر. وكنت قد استخدمت كلمة الاحتضار، وكلمة الحِداد، وكلمة الخسران. لقد مات «أنتينويوس».

«الحبّ»، أَحْكَمُ الآلهة... غير أنّ الحبّ لم يكن مسؤولاً عن ذلك الإهمال، عن تلك الفَجاجات، عن تلك اللامبالاة الممتزجة بالهوى امتزاج الرمل بالذهب الذي يجرفه نهر، عن ذلك العمى المضحك يصاب به إنسان سعيد جدّاً وهو في طريقه إلى الشيخوخة. أفكان في مقدوري أن أكون راضياً مثل هذا الرضى الصفيق؟ لقد مات «أنتينويوس». وإذ كنت بعيداً عن أن أحبّ حبّاً شديداً، كما كان يزعم ولا شكّ «سرفيانوس» في ذلك الحين في «روما»، فإنّي لم أحبّ بما يكفي لإرغام ذلك الصبي على العيش. وكان «شابرياس» الذي يعتبر، بوصفه ممّن تلقّوا تعاليم «أورفيه»، أنّ الانتحار جريمة، يلحّ على الجانب التضحيويّ لتلك النهاية؛ وكان يعتريني أنا نوع من السرور المنفِّر من جرّاء ترددي لنفسي أنّ تلك المِيتة كانت مِنْحة. ولكنّي كنت الوحيد لقياس كميّة الحموزة المختمِرة في قعر العذوبة، وحصّة القنوط المختبئة في نكران الذات، ومدى الحقد المختلط بالحبّ. ولقد رمى في وجهي إنسان مُهان ذلك البرهان على التفاني؛ وعثر صبي أقلقه أن يفقد كلّ شيء على وسيلة لربطي به إلى الأبد. وإذا كان قد أَمِلَ في حمايتي بوساطة هذه التضحية فلا بدّ أن يكون قد ظنّ أنّه ليس محبوباً كثيراً لكيلا يشعر بأنّ أسوأ الشرور سيكون فَقْدي إيّاه.

وانقطع مجرى الدموع: لم يَعُدْ على الأعيان المقتربين منّي أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُشيحوا بأنظارهم عن وجهي وكأنّ البكاء من البذاءات. واستؤنفت الزيارات إلى المزارع النموذجيّة وأقنية الرِّي؛ ولم يَعُدْ مُهمّاً كثيراً كيفيّة توظيف الساعات. وكان قد عمّ الدنيا ألفُ صوت خامد بشأن مصيبتي؛ وحتىً على القوارب المرافقة لقاربي كانت تدور أحاديث فظيعة عن فضيحتي؛ وتركتُ الناس يتقوّلون إذ لم تكن الحقيقة من الحقائق التي يمكن الجهرُ بها. فأبرع الأكاذيب كانت صحيحة على طريقتها؛ وقد اتُّهمت بأنّي ضحّيت به، وكنت قد فعلتُ بمعنى من المعاني. ونقل إليّ «هرموجين»، وكان يحمل إليّ بصدق هذه الأصداء من الخارج، بعض رسائل الإمبراطورة؛ ولقد بدت لائقة؛ والناس لائقون على الدوام تقريباً بإزاء الموت. وكان ذلك التعاطف مبنيّاً على سوء تفاهم: ارتضى الناس أن يَرْثوا لي شرط أن أتعزّى بأسرع ما يمكن. وأمّا أنا فقد ظننت أنّي هدأت تقريباً؛ ولقد خجلت على وجه التقريب للأمر. ولم أكن أعلم أنّ الألم يحتوي على متاهات غريبة لم أكن قد انتهيت من السير فيها.

وجهد الناس في تسليتي. فبعد بضعة أيّام على وصولنا إلى «طيبة» علمت أنّ الإمبراطورة وأفراد حاشيتها قد ذهبوا مرّتين إلى تمثال «ممنون» الضخم على أمل سماع الصوت الغامض الذي يرسله الحجر عند الفجر، وهي ظاهرة شهيرة يرجو جميع المسافرين شهود حدوثها. ولم تحدث المعجزة؛ وخيّل إلى الناس بفعل التفاؤل أن تحدث بوجودي. ورضيت بأن أصحب النساء في غدٍ؛ وكانت جميع الوسائل صالحة لتقصير طول ليالي الخريف التي لا تنتهي. وفي ذلك الصباح دخل جناحي «أوفوريون» في حوالي الساعة الحادية عشرة لتقوية نور

المصباح ومساعدتي في ارتداء ملابسي. وخرجت إلى سطح السفينة؛ وكانت السماء التي لاتزال شديدة الدكنة هي سماء قصائد «هوميروس» الجافّة غير المبالية بأفراح الناس وأتراحهم. وكان ذلك الأمر قد حدث منذ أكثر من عشرين يوماً. واتّخذت لي مكاناً في الزورق؛ ولم تنقضِ الرحلة القصيرة من غير صيحات ولا من غير مواقف ذعر من النساء.

وأنزلونا غير بعيد من التمثال الجبّار. وامتدّ زِيق ورديّ ناصل نحو «الشرق»؛ وكان نهار إضافي يبدأ. وحدث الصوت الغامض ثلاث مرّات؛ ويشبه ذلك الصوتُ الصوتَ الصادر عن وتر قوسٍ يتقطّع. وتمخّض ذهن «جوليا بلبِيّا» الذي لا ينضب عن سلسلة من القصائد على الفور. وسعت النِّساء لزيارة المعابد؛ ورافقتُهنَّ لحظة على امتداد الجدران المرشوشة بالكتابات الهيروغليفيّة الرتيبة. وأرهقتني تلك الشخوص الجبّارة للملوك جميعهم متشابهون وجالسون جنباً إلى جنب مُسندين أمامهم أقدامهم الطويلة المسطّحة، وتلك الكتل الساكنة التي لا يظهر فيها شيء ممّا يؤلّف في نظرنا الحياة، لا الألم ولا الشهوة ولا الحركة التي تحرّر الأطراف ولا الاستغراق في التفكير الذي ينظّم العالم حول رأس مَحْنِيّ. وبدا أنّ الكهنة الذين كانوا يرشدونني لم يكونوا تقريباً خيراً منّي علماً بتلك الحَيَوات التي أُلغيت؛ وكان يرتفع من حين إلى آخر نقاش بشأن أحد الأسماء. وكان يُعلم بشكل مبهم أنّ كلّاً من أولئك الملوك كان قد ورث مملكة وحكم شعوبه وأنجب خليفته: لم يكن قد بقي شيء آخر. وكانت تلك السلالات الغامضة تعود إلى أبعد من «روما»، وأبعد من «أثينا»، وأبعد من اليوم الذي مات فيه «أخيل» تحت أسوار «طروادة»، وأبعد من الدورة الفلكيّة البالغة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خمسة آلاف عام التي حسبها «مينون» لـ «يوليوس قيصر». وإذ شعرت بالإنهاك فقد صرفت الكهنة؛ واسترحت بعض الوقت في ظلّ التمثال الجبّار قبل العودة إلى القارب. وكانت ساقاه مغطّاتين حتى الركبتين بكتابات يونانيّة خطّها بعض المسافرين: أسماء، تواريخ، دعاء، شخص اسمه «سرڤيوس سوياڤيس»، وشخص اسمه «أومين» كانا قد وقفا في هذا المكان بالذات قبلي ستة قرون، وشخص اسمه «پانيون» كان قد زار «طيبة» قبل بستّة أشهر... قبل ستّة أشهر... وراودتني نزوة لم أكن قد شعرت بها مذُ كنت صبيّاً حين كنت أكتب اسمي على لحاء أشجار الكستناء في حقل بـ «إسبانيا»: تناول الإمبراطور الذي كان يرفض أن تنقش تسمياته وألقابه على الأنصاب التي كان قد بناها، تناول خنجره وخدش في ذلك الحجر الأصمّ بعض الحروف الإغريقيّة، صيغة مختصرة مألوفة لاسمه: «أدريانو». وكان ذلك أيضاً معارضة للزمن: اسم، قسط من الحياة لن يحسب إنسان عناصره التي لا تُحصى، علامة تركها رجل ضائع في توالي القرون هذا. وفجأة تذكّرت أنّنا في اليوم السابع والعشرين من شهر «أتير» واليوم الخامس قبل غرّة شهر كانون الأوّل (ديسمبر). وكان يوم ميلاد «أنتينويوس»: فلو كان الصبي حيّاً لكان عمره اليوم عشرين عاماً.

عدت إلى متن القارب؛ وكان الجرح الذي التأم بسرعة قد انفتح من جديد؛ وأخذت أصرخ ووجهي مدفون في وسادة دسّها «أوفوريون» تحت رأسي. وانطلقنا أنا وتلك الجثّة على غير هدى يحملنا باتّجاهين متعاكسين تيّاران من تيّارات الزمن. إنّه اليوم الخامس

قبل غرّة شهر كانون الأول (ديسمبر)، واليوم الأوّل من شهر «أتير»: كانت كلّ لحظة تمرّ تعمّق انسياح ذلك الجسد وتُخفي تلك النهاية. وأخذت أصعّد في المنحدر الزلِق؛ واستخدمت أظفاري في نبش ذلك اليوم الميت. ولا يذكر «فليغون» الذي كان جالساً قبالة العتبة ذَرْعَ قمرة المقدّمة جيئة وذهاباً إلاَّ من خلال شقّ النور الذي كان قد أزعجه في كلّ مرّة كانت فيها يدٌ تدفع مصراع الباب. وكنت أتفحّص جدول توظيف ساعاتي شأن متّهم بجريمة: أُمْلِية، ردّ على مجلس شيوخ «أيفيز»؛ إلى أيّ فئة من الكلمات كان ينتمي ذلك الاحتضار؟ وأخذت أعيد تركيب انثناء العبّارة تحت الخطى الحثيثة، والجُرُف القاحل، والرَّصْف المسطّح؛ والسكين التي تحزّ خصلة شعر بجانب الصدْغ؛ والجسد المنحني؛ والساق التي انثنت للسماح لليد بفكّ رباط النعْل؛ وطريقة فذّة في فَرْج الشفتين لدى إغماض العينين. لقد لزم السبّاح الماهر قرارٌ مستميتٌ للاختناق في ذلك الوحل الأسْوَد. وحاولت أن أسرح بفكري في تلك الثورة التي نمرّ بها جميعاً، في القلب وقد استنكف، في العقل وقد تعطّل، في الرئتين وقد توقّفتا عن استنشاق الحياة. لسوف أصاب باضطراب مماثل؛ لسوف أموت ذات يوم. بيد أنَّ كلّ احتضار يختلف عن الآخر؛ ولم تكن جهودي لتخيُّل احتضاره لتؤدّي إلى غير اختلاق لا قيمة له: لقد مات وحيداً.

وقاومت؛ وناضلت الألم كما يُناضَل انحلال الجسد. وتذكّرت مواقف المعاندة، والأكاذيب؛ وقلت لنفسي إنّه كان قد تغيّر وسَمِنَ وشاخ. إنّها جهود ضائعة: فكما يضنى عامل مُتْقِن لمحاكاة إحدى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الروائع أخذت أستميت في مطالبة ذاكرتي بدقّة غير معقولة: أعدت خلق ذلك الصدر الشامخ المنتفخ كالترس. وكانت الصورة تبرز أحياناً من تلقاء ذاتها؛ وكان دفق من العذوبة يستحوذ عليّ؛ وكنت قد استعدت صورة بستان في «تيبور»، والمراهق يجمع ثمار الخريف في درّاعته المشمَّرة لاستخدامها بشكل سلّة. كان كلّ شيء غائباً في وقت واحد: شريك الاحتفالات الليليّة والشاب المقرفص لمعاونة «أوفوريون» في ضبط ثنيات ثوبي الفضفاض. وإذا صدّقنا الكهنة فإنَّ الخيال أيضاً كان يتألّم، ويأسف على الملاذ الدافئ الذي كان له من جسده، ويرود مُنتِحباً الأرجاءَ المألوفة لديه، وكان بعيداً وقريباً جدّاً، وضعيفاً جدّاً في الوقت الحاضر ليعبّر لي عن وجوده. وإذا كان ذلك صحيحاً فإنَّ صممي كان شرّاً من الموت نفسه. ولكن أأكون قد فهمت جيّداً في ذلك الصباح ما كان يدور في خلد الصبيّ الحيّ الناشج إلى جانبي؟ لقد دعاني «شابرياس» ذات مساء ليُريني في مجرّة «النسر» نجماً كان حتّى ذلك الحين لا يكاد يُرى وقد أخذ ينبض فجأة وكأنَّه جوهرة ويخفق وكأنَّه قلب. وجعلت منه نجمه وطالعَه. وكنت أجهد كلّ ليلة في متابعة مجراه؛ ولقد رأيت صُوَراً غريبة في ذلك الجزء من السماء. وظُنّ بي الجنون. غير أنَّ ذلك لم يكن يهمّ كثيراً.

الموت بشع، غير أنَّ الحياة بشعة أيضاً. وكان كلّ شيء يقطِّب. ولم يكن إنشاء «أنتينويه» إلّا لعبة ساخرة: مدينة تضاف إلى ما هو قائم من مدن، ملاذ يُقدَّم بين يدي غشّ التّجار وحيلهم، وابتزازات الموظّفين، وأعمال البِغاء، والفوضى، والجبناء الذين يبكون موتاهم قبل أن ينسَوْهم. ولم يكن الاحتفال لتمجيد الصبي ليُجدي: فلن

تفيد مثل تلك التشريفات على رؤوس الأشهاد إلاّ في جعله ذريعة للدناءات ومواقف السخرية، وغرضاً بعد الموت للطمع أو للتشهير، حديث خرافة من تلك الأحاديث نصف العفِنة التي تضيق بها حنايا التاريخ. ولم يكن حِدادي غير شكل من أشكال الطَّفْح، وغير مجون فظّ: لقد ظلِلْت ذلك الذي ينتهز ويتمتّع ويختبر: كان المحبوب يضع موته بين يديّ. وكان رجل يقاسي الحرمان يبكي على ذاته. وكانت الأفكار تَصِرّ وتئزّ؛ والكلمات تدور في الفراغ؛ والأصوات تضجّ ضجيج الجراد في الصحراء أو الذباب فوق كومة من الأقذار؛ وكانت قواربنا ذات الأشرعة المنتفخة انتفاخَ أعناق اليمام تسير بالمكيدة والكذب؛ وكان الحمق مبسوطاً فوق جباه الناس. وكان الموت يبرز في كلّ مكان بشكل خَوَر أو بشكل انحلال: بقعة ذابلة في ثمرة، خرق لا يكاد يُرى في أسفل ستارة، جيفة على الجُرُف، بُثور في وجه، أثر السِّياط على ظهر بحّار. وكانت يداي تَبْدُوانِ وسختين قليلاً على الدوام. وكنت في ساعة الاستحمام، وأنا أمدّ ساقيّ لنتف شعرهما، أنظر باشمئزاز إلى هذا الجسد الصلب ـ هذه الآلة غير القابلة تقريباً للتلف ـ الذي يهضم الطعام ويسير ويتمكّن من النوم، وربّما عاد يوماً من الأيام فتآلف وأنماط الغرام المكرورة. ولم أكن أتساهل إلاّ في حضور بضعة الخدم الذين كانوا لايزالون يذكرون الفقيد؛ فعلى طريقتهم كانوا قد أحبّوه. وكان يُرجِّع صدى حزني ألمٌ غبيّ بعضَ الغباء يُبديه مدلِّكٌ أو الزنجيّ العجوز القائم على العناية بالمصابيح. بيد أنَّ كَرْبهما لم يكن يمنعهما من الضحك بهدوء فيما بينهما وهما يتردان على الشاطئ. وبينما كنت مستنداً ذات صباح إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

درابزين القارب لمحت في الجزء المخصّص عبداً يستخرج أحشاء واحد من تلك الفراخ التي تفرّخها «مصر» بالآلاف في أفران قذرة؛ وقد أخذ بكلتا يديه كومة الأحشاء اللزجة وقذف بها إلى الماء. وبالكدّ وجدت الوقت لإدارة وجهي للتقيُّؤ. وعند توقّفنا في «فيلة»، وفي أثناء احتفال أقامه لنا حاكمها تسلّل لمشاهدة الرقص في أجنحة الطبقة الأولى طفل في الثالثة أسود بلون البرونز هو ابن بوّاب نوبيّ؛ فوقع. وبُذلت أقصى الجهود لإخفاء الحادث؛ وحبس البوّاب دموعه كيلا يعكّر صفو ضيوف سيّده؛ وأُخرج مع الجثّة من باب المطابخ؛ وعلى الرغم من كلّ شيء فقد لمحت كتفيه ترتفعان وتنخفضان في تشنّج كما لو أنّهما كانتا تفعلان ذلك تحت وطأة سَوْط. واعتراني شعور بأنّي اضطلع بالألم الذي يساور هذا الأب اضطلاعي بألم «هرقل» و«الإسكندر» و«أفلاطون» وهم يبكون أصدقاءهم الموتى. وأرسلت بعض القطع الذهبيّة إلى ذلك المنكود؛ فلم يكن في الوسع أكثر من ذلك. وبعد يومين رأيته مرّة أخرى؛ وكان يتفلّى من القمل بوداعة وهومستلقٍ في الشمس بعرض العتبة.

وتقاطرت الرسائل؛ وأرسل إليّ «پانكراتيس» قصيدته التي انتهت بعد لْأي؛ ولم تكن سوى تضمينات هزيلة لأبيات هوميروسيّة من ستّة أوتاد، بيد أنّ الاسم الذي كان يتردّد في كلّ سطر من سطورها تقريباً جعلها أشدّ إثارة لنفسي من كثير من الروائع. وبعث إليّ «نومينيوس» بـ «تعزية» مطابقة للقواعد المرعيّة؛ وقضيت ليلة كاملة في قراءتها؛ ولم تكن قد غابت عنها أيّة فكرة مُبْتَذَلة. فقد عولجت فيها على امتداد سطرين تلك المجاهدات الضعيفة التي يبذلها المرء في وجه الموت:

وتمثّل السطر الأوّل في تقديمه إلينا على أنّه شرّ لا مناص منه؛ في تذكيرنا بأنّه لا الجمال ولا الشباب ولا الحبّ يمكن أن تفلت من الفساد والانحلال؛ في التأكيد لنا أخيراً بأنّ الحياة وموكب آلامها أبشع من الموت نفسه، وأنّ الهلاك خير للإنسان من الشيخوخة. وإنّ هذه الحقائق لتُستخدم لحملنا على الاستسلام؛ إنّها تسوِّغ على الأخصّ القنوط. وكان السطر الثاني من الحجج يناقض الأوَّل، غير أنّ فلاسفتنا لا ينظرون إلى ذلك عن كَثَب: فلا يتعلّق الأمر بالخضوع للموت، وإنّما بإنكاره. فالروح وحدها هي التي يُحسب حسابُها؛ كانوا يطرحون بوقاحة، وكأنّه أمر واقع، خلودَ هذا الكيان الغامض الذي لم تسبق رؤيته عاملاً في غياب الجسد، قبل تكليف أنفسهم بإقامة البرهان على وجوده. ولم أكن متأكِّداً كلّ التأكّد: مادامت البسمة والنظرة والصوت، هذه الحقائق التي لا تُوزَن، تتلاشى، فلماذا لا تتلاشى الروح؟ ولم تكن هذه لتتراءى لي بالضرورة أكثر لامادّيّةً من حرارة الجسد. لقد كان يُبتَعَد عن ذلك الرفات الذي غابت عنه الروح: مع أنّه كان الشيء الوحيد الذي بقي لي، دليلي الوحيد على أنّ هذا الحيّ كان قد وُجد. وكان خلود العِرق يُوظَّف لإخفاء كلّ مِيتة تلحق بإنسان: لم يكن يهمّني كثيراً أن تتعاقب أجيال من «البيتينيّين» إلى آخر الزمان على ضفّة الـ «سانغاريوس». وكان يُحكى عن المجد، وهو كلمة جميلة تُفعم القلب، بيد أنّه كان يُجْهَد لإقامة خلط كاذب بينه وبين الخلود، كما لو أنّ أثر كائنٍ ما يتساوى ووجودَه. وكانوا يُرُونني الإلّه المهيمن في محلّ الجثّة: وكنت قد صنعت هذا الإلّه؛ وكنت أومن به على طريقتي، بيد أنّ أكثر مآلٍ بعد الموت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمعاناً في عمق أفلاك الكواكب ما كان ليُعوّض هذه الحياة المقتضبة؛ وما كان الإلّه ليقوم مقام الحيّ المفقود. وكنت أستنكر ذلك الاستعار الذي يبديه الإنسان في احتقاره الوقائع لحساب الافتراضات، وعدم اعترافه بأحلامه على أنها أحلام. وكنت أفهم بطريقة مختلفة واجباتي بوصفي لأزال على قيد الحياة. فلسوف يكون ذلك الموت عبثاً من العبث لو لم أكن أملك الشجاعة للنظر إليه مواجهة، وللتعلّق بحقائق البرد والصمت والدم المتخثّر والأطراف الساكنة التي يسرع الإنسان إلى سترها بالتراب والنفاق؛ وكنت أوثر تلمُّس الطريق في الظلام من دون عَوْن المصابيح الضئيلة الأنوار. وأحسست بأنَّ مَنْ حولي بدأوا يتأفّفون من ألم بمثل هذا الطول: كان العنف فيه يُخزي على كلّ حال أكثر ممّا يُخزي السبب. فحتّى لو أرخيت لنفسي العِنان فتذهبَ المذهبَ نفسه في التأوّه لموت شقيق أو ابن لكانوا أخذوا عليّ كذلك بكائي كما تبكي امرأة. فذاكرةُ معظم الناس مقبرةٌ مهجورة يرقد فيها غير مُكَرَّمين موتى انقطعوا عن إعزازهم. وكلّ ألم يطول يلحق الإهانة بنسيانهم.

وأعادتنا القوارب إلى نقطة النهر التي بدأت ترتفع فيها «أنتينويه». وكانت أقلّ عدداً منها في الذهاب: كان «لوسيوس» الذي قليلاً ما كنت أراه قد ذهب إلى «روما» حيث كانت زوجته الشابّة قد وضعت غلاماً. ولقد خلّصني ذهابه من عدد من الفضوليّين والمزعجين. وكانت الأشغال التي بدأت قد أفسدت شكل الجُرُف؛ وأخذ مخطّط الأبنية القادمة يرتسم بين أكداس الترابِ المرفوع؛ بيد أنّي لم أتعرّف بالضبط إلى مكان الأضحية. وسلّم المحنطون ما قاموا به من عمل:

وُضـع النعشَ الـرقيق المصنـوع من خشب الأرز داخـل حــوض من الرخام السماقيّ نُصِبَ واقفاً في أكثر قاعـات المعبد استتـاراً. واقتربت بخجل من الميت. وبدا في كـامل ثيـابه: كـان غطاء الـرأس المصريّ الصلب يغطّي الشعر. ولم تكن الساقان الملفوفتان بـالضمّادات سـوى لفـافة بيضـاء طويلة، غـير أنَّ صورة الصقـر الفتيّ الجانبيّـة لم تتغـيّر؛ وكانت الأهداب تلقي على الخدّين المـبرَّجين ظـلاًّ كنت أعرفـه. وقبل الانتهـاء من تقميط اليدين تـركوني أتـأمّل الأظفـار الذهبيّـة. وبدأت الصلوات؛ وأخذ الميت يصرّح بلسان الكهنة أنّه طـالما كـان صادقـاً، وطالما كان عفيفاً، وطالما كان متعاطفاً وعادلاً، ويدّعي فضائل لو أنَّـه كان قد مارسها لَأزاحَتْه إلى الأبد عن الأحياء. وكانت رائحـة البخور الزنخة تملأ القاعة؛ وحاولت أن أمنح نفسي عَبْر إحدى السحب وَهْمَ ابتسـامة؛ وبـدا الوجـه الذي لا حـراك به مـرتعشاً. ولقـد شاهـدت الخُدَع السحريّة التي يرغم بها الكهنة روح الميت على تجسيد جزء منها داخـل التماثيـل التي ستحتفظ بذكـراه؛ كما شـاهدت إيعـازات أشـدّ غرابة. وعندما انتهى الأمر وُضع قنـاعُ الذهب المقـولب على الشمـع الجنائزي في مكانه؛ وتوافق كلّ التـوافق مع القَسَـمات. وكانت هـذه المسـاحة غـير القابلة للفسـاد على وشـك أن تمتصّ بنفسها إمكـاناتهـا الخاصّة بالإشعاع والدفء؛ ولسوف ترقد إلى الأبد في هذا الصنـدوق المحكم الإغلاق، رمز الخلود الساكن. ووُضعت فوق الصدر باقة من زهـر الأكـاسيـا. ووضـع حـوالي اثني عشر رجـلاً الغِـطاء الثقيـل في موضعه. بيد أنّي كنت لاأزال متردّداً في مـوقع القـبر. وتذكّـرت أنّي إذا كنت قد أمرت في كلّ مكان باحتفالات تمجيديّة وبألعاب جنائزيّـة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبسكّ نقود وبإقامة تماثيل في الساحات العامّة فقد استثنيت «رومـا»: لقد خشيت أن أزيد من العِداء الذي يحيط تقريباً بكلّ مَحْظيّ أجنبي. وقلت في نفسي إنّني لن أكون موجوداً على الدوام لحماية ذلك الرَّمس. وبدا كذلك أنّ النُصُب المرصود إقامته عند أبواب «أنتينويه» عامّ كثيراً وقليل الأمان. واتّبعت مشورة الكهنة. وقد عيّنوا لي عند سفح جبـل من السلسلة العربيّة، على بعد ثلاثة فراسخ تقريباً من المدينة، كهفـاً من تلك الكهوف التي نذرهـا ملوك «مصر» قديمـاً لتكون قبـوراً لهم. وحملت مركبة تجرّها الثيران الناووس إلى ذلك المنحدر. وأُنْزِل بوساطة الحبال إلى تلك الدهاليز المَنْجَمِيّة؛ وأسند إلى جـوانب صخرة. ولقـد نزل صبيّ «كلوديوپوليس» إلى القبر نزولَ أحد الفـراعنة، نـزولَ أحد البطالسة. وتركناه وحيداً. ودخل ذلك الزمنَ الذي بلا هواء وبلا نور وبلا فصول وبلا نهاية، الزمن الذي تبدو كلّ حياة إلى جانبه قصيرة؛ كـان قد بلغ ذلـك الاستقرار، بـل ربّما ذلـك السكون. ولسـوف تمرّ القرون التي لايزال يحتويها حشا الزمان، سوف تمرّ بالآلاف فـوق هذا القبر من غير أن تُعيد إليه الوجود، ولكن من غـير أن تضيف كذلـك شيئـاً إلى مـوتـه، ومن غـير أن تمنـع أن يكـون قـد وُجـد. وأمسـك «هيرموجين» بذراعي لمساعدتي على الصعود إلى الهواء الطلق؛ وكانت شِبْهَ فرحةٍ العودةُ إلى السطح ورؤيةُ السماء الباردة بـين حاشيتـين من الصخـور الصمّاء. وكـانت بقية الـرحلة قصيرة. وفي «الإسكنـدريـة» أبحرت الإمبراطورة من جديد إلى «روما».

الانضباط الجليل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عـدت إلى «اليونـان» بطريق الـبرّ. وكانت الـرحلة طويلة. وكنت على حقّ في أن أفكّر في أنّها ستكون ولا ريب آخر جـولة رسميّـة أقوم بهـا في «الشرق»؛ وازددت إصراراً عـلى رؤيـة كـلّ شيء بـأمّ عيني. وظهرت لي «إنطاكية» التي توقّفت فيها بضعة أسابيع بمظهر جـديد؛ كنت أقلّ تأثّـراً من قبـل بمباهـج المسـارح وبـالاحتفـالات وبملذّات حدائق «دافنيه» وبملامسة الحشود المبرقشـة. وازددت ملاحـظة للخفّة الأبـديّة التي يُبـديها هـذا الشعب الساحـر الكثير الغِيبـة الـذي كـان يـذكّرني بشعب «الإسكنـدرية» وبِخَرَقِ الممارسـات الذهنيّـة المزعـومـة وبابتذال الترف الذي يبديه الأثرياء. فلم يكد أيّ من أولئك الوجهاء بمجملهم يعتنق برامج الأعـمال الإصلاحيّـة التي وضعتها لِـ «آسيـا»؛ فقـد كانـوا يكتفون بـاستغلالهـا لمصلحة مـدينتهم، وبصورة خـاصّـة لمصلحتهم هم. وفكّرت لحظة في زيادة أهمّية «إزمـير» أو «پرغـما» على حساب العاصمة الشاميّة المتعجرفة؛ بيد أنّ عيـوب «إنطاكيـة» لصيقة بكلّ حاضرة: ما من مدينة من هذه المدن الكبرى يمكن أن تُنتزع منها تلك العيـوب. وحملني اشمئزازي من الحيـاة المدينيّـة على أن أنصرف أكثر فأكثر إن أمكن إلى الإصلاحات الريفيّة؛ ووضعت اللمسة الأخيرة للعمليّـة الطويلة والمعقّـدة لإعادة تنـظيم الممتلكات الإمـبراطوريّـة في «آسيا الصغرى»؛ ووجد الفلاّحـون أنفسهم من جرّاء ذلـك في وضع أفضل، وكذلك «الدولة». وفي «تراس» أصررت عـلى العودة لـزيارة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أندرينوپل» حيث كان قد تقاطر قُدامى المحاربين في المعارك «الداسيّة» و«السرماتيّة» منجذبين بهبات الأراضي واختزال الضريبة. وكان يجب أن يُنفَّذ المخطّط نفسه في «أنتينويه». فقد كنت وافقت منذ مدّة طويلة على منح إعفاءات مماثلة في كلّ مكان للأطباء والمعلّمين على أمل بقاء طبقة وسطى جادّة ومتعلّمة ونموّها. وإنّي لأعرف عيوبها، بيد أنّه ما من «دولة» تدوم إلاّ بها.

كانت «أثينا» لاتزال هي المحطّة المفضّلة؛ وكان يُسعدني أن يخضع جمالها خضوعاً يسيراً جدّاً للذكريات، ذكرياتي أنا أو ذكريات التاريخ؛ وكانت هذه المدينة تبدو جديدة كلّ صباح. وقد أقمت هذه المرّة عند «أريان». وإذ كان قد لَقِن الأسرار مثلي في «أيلوزيس» فقد تبنّته إحدى كُبريات العائلات الكهنوتيّة في المنطقة الأثينيّة، عائلة «كيريكس»، كما كانت قد تبنّتني أنا عائلة «أومولپيدس». ولقد تزوّج فيها، وكانت زوجته شابّة أثينيّة رقيقة وشامخة. وأحاطاني كلاهما بالرعاية بشكل محتشم. وكان منزلهما قائماً على بُعْد خطوات من المكتبة العامّة الجديدة التي كنت قد زوّدت بها «أثينا» قبل مدّة، والتي لم يكن ينقصها شيء ممّا يمكن أن يعضد التأمّل أو السكون الذي يسبقه، فهناك مقاعد مريحة، وتدفئة ملائمة خلال أيّام الشتاء القارسة في أكثر الأحيان، وسلالم سهلة المرتقى للوصول إلى الأروقة التي تُحفظ فيها الكتب، ومرمر وذهب بَذْخُهما ملطّف وهادئ. وقد روعي بشكل خاص اختيار المصابيح وموضعها. وأخذت أشعر بمزيد الحاجة إلى جمع المجلّدات القديمة وحفظها، وإلى تكليف كَتَبَة مُتْقِنين بنَسْخ نُسَخٍ جديدة عنها. ولم تكن هذه المهمّة تبدو لي أقلّ إلحاحاً من مساعدة

قدامى المحاربين ولا من الأعطيات للأُسَر الفقيرة الكثيرة الأفراد؛ وكنت أقول لنفسي إنَّ بضع حروب وما يتبعها من بؤس، وحقبة من الفظاظة والتصرّفات الوحشيّة يرتكبها بعض أهل السوء من الأمراء، كافية لكي تهلك إلى الأبد الآراء الواصلة إلينا بفضل هذه الأشياء الهشّة المصنوعة من الألياف والحِبْر. وكان يتراءى لي أنَّ كلّ مَنْ يسعفه الحظّ للإفادة نوعاً ما من هذا الإرث الثقافي مكلَّف بوصيّة استئمان تجاه الجنس البشريّ.

قرأت كثيراً في تلك المدّة. وحرّضت «فليغون» على نظم سلسلة من التأريخات بعنوان «أولمپيات» تكون تكملة لـ «هلّينيات» «زينوفون» وتنتهي بانتهاء حُكمي: وإنَّه لمشروع جريء لأنَّه يجعل من تاريخ «روما» العريض مجرّد تتمّة لتاريخ «اليونان». وأسلوب «فليغون» جافّ بشكل مؤسف، غير أنَّه سيكون أمراً لا بأس به أن تُجمَع الوقائعُ وتُقرَّر. ورغّبني هذا المشروع بإعادة تصفُّح ما كتبه المؤرّخون فيما مضى؛ وملأتني أعمالهم المنقودة على هَـذْي تجربتي الخاصّة بالأفكار القاتمة؛ فقد بدت طاقةُ كلّ رجل دولة وصدقُ عزيمته شيئاً لا يُذكَر بإزاء هذا السياق الطارئ والمحتوم، بإزاء هذا السيل من المصادفات الشديدة الاختلاط بحيث لا يمكن توقُّعها أو توجيهها أو الحُكْم عليها. وشغلني أيضاً أمر الشعراء؛ وكنت أحبّ أن أَطْرُدَ خارج ماضٍ مُغْرِق في القِدم بضعة الأصوات الرّنانة والصافية تلك. واتّخذت صديقاً من «تيوغنيس» الأرستقراطيّ المنفيّ المراقِب بلا وَهْمٍ ولا شفقة لقضايا البشر، المستعدّ على الدوام لفضح هذه الأخطاء وتلك الذنوب التي ندعوها آلامنا. فهذا الرجل الشديد الوعي كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قـد ذاق ملّذات الحُبّ الموجِعـة؛ وعلى الـرغم من الشكوك ومـواقف الحسد والغَيْرة والمطاعن المتبادلة فقد امتدّت علاقته بـ «سيرنوس» حتّى شاخ أحدهما وبلغ الآخر سنَّ الرشد: لقد كان الخلود الـذي وَعَدَ بـه فتى «ميغار» أكثر من مجرّد كلمة لا خير فيها، لأنَّ تلك الذكرى بلغتني من مسافة قَدْرُها أكـثرُ من ستة قـرون. بيد أنّي تعلّقت عـلى الأخص بـ «أنتيـماك» من بـين الشعـراء القـدمـاء: كنت أقـدّر هـذا الأسلوب الغـامض والكثيف، وتلك الجُمَل الضخمـة مع أنَّها مكثّفـة إلى أبعـد الحدود وكأنّها أقداح من البرونز مليئة بخمرة قويّة. وكنت أوثر وصفـه رحلةَ «جازون» [قائـد الزورق الشراعي الـذي انطلق في الميثـولوجيـا اليونانيّة بحثاً عن «الشَّعْر الذهبي» لتقديمه إلى «بيلياس»] على قصـائد «أپولونيوس» الملحميّة الأشدّ إثارة عن «المغـامرين» [بقيـادة «جازون» المشار إليه قبـلاً]: كان «أنتيـماك» قد أدرك بشكـل أفضل سرّ الآفـاق والأسفار والظلّ الـذي يُلقيه الإنسـان الزائـل على المشـاهد الأبـديّة. وكان قد بكى بلوعة امرأته «ليديه»، وعنون قصيدة طويلة بـاسم هذه الفقيدة ضمّنها جميع الأساطـير عن الألم والحِداد. و«ليـديه» هـذه التي ربّما لم أكن لألحظ وجودها وهي حيّة غـدت عندي وجهـاً مألـوفاً أعـزَّ عليّ من كثير من الشخصيّات النسويّة التي عرفتها في حياتي. وأعادت إليّ هذه القصائد التي تكاد تكون منسيّة الثّقة بالخلود شيئاً فشيئاً.

أخـذت أراجع أعـمالي الشخصيّة: قصـائدَ الغـزل، ومقـطوعـات المناسبات، والغنائيّةَ التي نظمتها تكريماً لذكرى «پلوتينيا». فقد تساور يوماً أحدَهم الرغبةُ في قراءة هـذا كلّه. وجعلتني مجموعـة من الأبيات المُفْحِشـة أتردّد؛ وانتهى بي الأمـر مع ذلـك إلى إدمـاجهـا. فـأشـرفُ

الناس عندنا يكتبون أمثالها. ويتّخذون منها لُعبة؛ وكنت أفضِّل أن تكون أبياتي شيئاً آخر، الصورةَ الصحيحة لحقيقة عارية. بيد أنَّ الأفكار العامّة تقيّدنا هنا كما تقيّدنا في مكان آخر: لقد بدأت أدرك أنَّ جرأة الفكر ليست كافية وحدها للتخلّص من تلك الأفكار، وأنَّ الشاعر لا ينتصر على الأنماط المكرورة ولا يفرض فكرته على الكلمات إلّا بفضل جهود تُماثِل في طولها ومواظبتها ما أقوم به من أعمال بوصفي إمبراطوراً. ولم أكن قادراً من جهتي على الطموح إلى غير النِّعَم التي يحظى بها الهاوي: فلو بقي من هذا الرُّكام بيتان أو ثلاثة لكان ذلك كثيراً. ومع ذلك فإنّي بدأت في ذلك العهد كتابة أَثَرٍ طموح، نصفه نَثْر ونصفٌ شِعْر، كنت أنوي أن أمزج فيه بين الجِدِّ والسخرية وأضمّنه الوقائعَ العجيبة التي رصدتها خلال حياتي، وبعضَ التأمّلات والأحلام؛ وكان في وسعٍ أدقِّ الخيوط أن يجمع بعض هذا كلّه إلى بعض؛ وكان ليكون نوعاً من «ساتيريكون» [رواية مزج فيها كاتبها «بيترون» بين النثر وأبيات من الشعر وانتقد المجتمع البشريّ بأسلوب ساخر] أشدّ شراسة. وكنت سأعرض فيه فلسفة غدت فلسفتي، وهي الفكرة «الهيراقليطيّة» عن التبدُّل والرجعة. غير أنّي وضعت جانباً ذلك المشروع الفضفاض جدّاً.

قابلتُ عدّة مرات في ذلك العام الكاهنة التي سبق أن لقَّنتني أسرار «أيلوزيس»، والتي ينبغي أن يظلّ اسمها طيَّ الكتمان، وحدَّدتُ في تلك المقابلات أنماط التعبُّد لـ «أنتينويوس» نمطاً نمطاً. واستمرّت الرموز «الأيلوزيسيّة» الكبرى تُقطِّر لي فضيلة مهدِّئة؛ وقد لا يكون للعالم أيّ معنى، بيد أنّه لو كان له من معنى فإنّه يُعبِّر عنه في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أيلوزيس» بأحكم وأنبل ممّا يُعبَّر عنه في مكان آخر. وبتأثير من هذه المرأة نويت أن أجعل من تقسيمات «أنتينويه» الإداريّة ووحدات تلك التقسيمات، ومن شوارعها ومجمّعاتها السكنيّة، مخطّطاً لعالم إلهيٍّ وصورة منقولة في الوقت نفسه عن حياتي الخاصّة. ودخل فيها كلُّ شيء، «هستيا» و«باخوس»، آلهة البيت وآلهةُ الفِسق والمجون، الربوبيّات السماويّة وربوبيّاتُ العالم الآخر. ووضعت فيه سَلَفَيَّ الإمبراطوريّين «تراجان» و«نرفا» اللذين كانا قد أصبحا جزءاً لا يتجزّأ من نظام الرموز هذا. وكانت «پلوتينيا» موجودة فيه؛ وكانت تُرى فيه «ماتيديا» الطيّبة متماهية بِـ «ديمتر» [إلهة الأرض المزروعة عند اليونان]؛ وزوجتي نفسها، وكان بيني وبينها في ذلك العهد علاقات ودّية، كانت متمثّلة في ذلك الموكب من الأشخاص الإلهيّين. وبعد ذلك بأشهر أطلقت اسم أختي «پولينيا» على أحد أحياء «أنتينويه». وكان الأمر قد انتهى بي إلى مقاطعة امرأة «سرڤيانوس»، غير أنّ «پولينيا» ميتةً وجدت في مدينة الذكرى هذه مكانها الفريد أُختاً. وغدا هذا المكان الكئيب مشهداً مثاليّاً للاجتماعات والذكريات، «شانزيليزيه» حياةٍ، المكان الذي تنحلّ فيه التناقضات، والذي كلُّ شيء فيه مقدّسٌ على قدم المساواة بحسب مرتبته.

وإذ كنت واقفاً في نافذة بيت «أريان» في الليل المزروع بالكواكب فقد أخذت أفكّر في تلك العبارة التي كان الكهنة المصريون قد نقشوها على نعش «أنتينويوس»: «لقد أطاع أمر السماء». أيمكن أن تُصْدِر إلينا السماء أوامر وأن يسمعها خِيارنا في الوقت الذي لا يُحسّ فيه سائرنا بغير الصمت المُطْبِق؟ كانت الكاهنة «الأيلوزيسيّة»

و«شابرياس» يعتقدان بذلك. وكان بودّي أن أرى أنّهما على حقّ. وتراءت لي في الفكر تلك الراحة التي صقلها الموت، كما كنت قد رأيتها للمرّة الأخيرة صباح يوم التحنيط؛ لم تكن فيها الخطوط التي كانت من قبل تُقلق خاطري؛ كان شأنُها شأنَ تلك الألواح الشمعيّة التي يُمحى منها أمرٌ تمّ تنفيذُه. غير أنّ هذه التأكيدات السامية تنير من غير أن تدفّئ، شأنُها شأنُ نور النجوم، ويبقى الليل حواليها أشدّ ظُلمة. وإذا كانت التضحية التي أقدم عليها «أنتينويوس» قد وُزنت في مكانٍ ما لمصلحتي في ميزان إلَهيّ فإنّ نتائج هِبَةِ النفس البشعة تلك لمّا تَكُنْ قد تجلّت؛ ولا كانت حسناتها حسناتِ الحياة، ولا حتّى حسناتِ الخلود. وبالكدّ كنت أجرؤ على البحث عن اسم لها. وأحياناً، وعلى فترات نادرة، كان وَمْضٌ خفيف ينبض ببرودة عند أفق سمائي؛ ولم يكن ليُجمّل الدنيا، ولا ليُجمّلني أنا نفسي؛ وظللت أشعر بأنّي أكثر تَلَفاً منّي مُنْقَذاً.

في ذلك العهد تقريباً أرسل إليّ «كوادراتوس» مطران النصارى إشارة بديانته. وكنت قد وطّدت النفس على الاحتفاظ نحو تلك الطائفة بالمنحى السلوكي الشديد الإنصاف الذي كان منحى «تراجان» في أفضل أيّامه؛ وكنت قد ذكّرت لتوّي حكّام الأقاليم بأنّ حماية القوانين تشمل جميع المواطنين، وبأنّ المشهِّرين من النصارى سيُعاقَبون إذا وجّهوا إليهم اتّهامات لا يستندون فيها إلى أدلّة. بيد أنّ كلّ تسامح يُغدَق على المتعصّبين يجعلهم يعتقدون على الفور بالتعاطف مع قضيّتهم؛ وإنّي لآسى أن أتصوّر أن يكون «كوادراتوس» قد رجا أن يجعل منّي نصرانيّاً؛ لقد حرص على كلّ حالٍ على أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يثبت لي امتياز عقيدته، وعلى الأخصّ عدم الإضرار بـ «الدولة». وقرأت عمله؛ بل لقد ثار فضولي لتكليف «فليغون» أن يجمع لي المعلومات عن حياة النبيّ الشابّ المدعوّ «يسوع» الذي أسّس الطائفة ومات ضحيّة عدم التسامح اليهودي منذ ما يقرب من مئة عام. ويبدو أنّ هذا الحكيم الشابّ قد ترك تعاليم تشبه إلى حدٍّ ما تعاليم «أورفيه» الذي يقارنه به مريدوه أحياناً. ولم يمنعني نثر «كوادراتوس» الفريد في تفاهته من تذوّق السحر المؤثّر الناجم عن تلك الفضائل التي يتحلّى بها أولئك الناس، وتذوّق لطفهم وسذاجتهم وتعلّقهم بعضهم ببعض؛ وكان ذلك كلّه شبيهاً بالأخَوِيّات التي ينشئها العبيد أو الفقراء في كلّ مكان تقريباً على شرف آلهتنا في ضواحي المدن العامرة بالعامّة من الناس؛ ففي كنف عالَم يظلّ بالرغم من جميع جهودنا قاسياً وغيرَ مكترث بآلام الناس وآمالهم، تقدّم هذه المجتمعات الصغيرة القائمة على التعاون المتبادل إلى المنكودين نقطة ارتكازٍ وعزاءً. غير أنّي كنت مع ذلك حسّاساً أيضاً تجاه بعض الأخطار. فذلك التمجيد لفضائل الولد والعبد كان يتمّ على حساب صفات أكثر فحولة وأشدّ وضوحاً؛ وكنت أحدس تحت تلك البراءة المغلقة والماسخةِ التصلُّبَ الضاري الذي يبديه الطائفيّ في مواجهة أشكال من العيش والتفكير ليست أشكاله هو، والزَهْوَ الصَلِفَ الذي يجعله يُؤْثِر نفسه على سائر الناس، وبصرَه المطوَّق عن طَوْع بغمامة. وما هي إلّا أن تعبتُ من حُجج «كوادراتوس» المُسْكِرة ومن تلك النُتَف الفلسفيّة المستعارة بخَرَق من كتابات حكمائنا. وكان «شابرياس» المشغول على الدوام بالتعبُّد الصحيح للآلهة قلِقاً من

استفحال مثل تلك الطوائف بين عامّة الناس في المدن الكبرى؛ وكان خائفاً على دياناتنا القديمة التي لا تفرض على الإنسان نِيرَ أيّ مُعْتَقَد، وتخضع لتفسيرات تُماثِل في تنوّعها الطبيعةَ نفسَها، وتترك للقلوب الزاهدة أن تبتدع إذا أرادت أخلاقيّةً أرفع من غير أن تُلزم الجماهير بتعاليم شديدة الصرامة كيلا تولِّد على الأثر الإكراه والنفاق. وكان «أريان» يشاطره هذه الآراء. وقضيت أمسية برمّتها أناقشه في الوصيّة المتمثِّلة في أن يحبّ المرء غيرَه حبَّه لنفسه؛ فقد كانت مخالفة للطبيعة البشريّة بحيث يخضع لها بصدق العاميُّ الذي لن يحبّ أبداً غير نفسه، وهي لا تلائم بعدُ الحكيم الذي لا يُؤْثِر ذاتَه بشكل خاصّ بالحبّ.

ومن جهة ثانية بدا لي تفكير فلاسفتنا بشأن كثير من النقاط محدوداً ومشوَّشاً وعقيماً هو الآخر. فثلاثة أرباع رياضاتنا الذهنيّة لم تكن سوى تطريز في الفراغ؛ وشرعت أتساءل عمّا إذا كان ذلك الفراغ المتنامي راجعاً إلى تدنٍّ في مستوى الذكاء أم إلى انحطاط في الطبْع؛ ومهما يكن من أمر فإنَّ تفاهة التفكير كان يرافقها في كلّ مكان دناءةٌ عجيبة في النفس. وكنت قد كلّفت «هيرود أتيكوس» بالإشراف على بناء شبكة من الأقنية المائيّة في «طروادة»؛ واستغلّ ذلك لتبذير الأموال العامّة بشكل مُخجل؛ وإذ استدعيته لتقديم الحسابات فقد أجاب بوقاحة بأنّه كان من الثراء بحيث يمكنه تغطية كلّ عجز؛ وكان ذلك الثراء بالذات عاراً. فأبوه الذي مات من مدّة يسيرة كان قد حزم أمره لحرمانه بصورة خفيّة بمضاعفة التوسيع على أهالي «أثينا»؛ وقد رفض «هيرود» رفضاً قاطعاً تنفيذ الوصايا الأبويّة التوريثيّة؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونجم عن ذلك دعوى لاتزال قائمة. وفي «إزمير» سمح «پوليمون» لنفسه ـ وكان فيما مضى من خاصّتي ـ بأن يطرد بعثة من الشيوخ الرومان كان قد دار في خلدهم أنَّ بإمكانهم الاعتماد على كرم وفادته. وثارت ثائرة أبيك «أنطونين» ألطف المخلوقات طُرّاً؛ وانتهى الأمر برجل «الدولة» والسفسطائي إلى التماسك بالأيدي؛ وإذا كانت تلك الملاكمة غير لائقة بمن سيكون إمبراطوراً في المستقبل فإنّها كانت أكثر من ذلك بكثير بالنسبة إلى فيلسوف إغريقي. وأمّا «فاڤوريوس»، ذلك القزم الجشع الذي كنت قد أغدقت عليه المال والتشريف، فكان يحمل إلى كلّ مكان نوادرَ ونكاتٍ أقوم أنا بدفع ثمنها. فالفيالق الثلاثون التي هي بإمرتي كانت، إذا صُدِّق زعمه، حُججي الوحيدة ذات القيمة في الأحاديث الفلسفيّة التي كنت أزهو بالتسلّي بها والتي كان يحرص على جعل كلمة الفصل فيها للإمبراطور. وكان معنى ذلك نعتي بالادّعاء والحماقة في آن؛ بل كان معناه على الأخصّ التبجّح بدناءة عجيبة. بيد أنَّ المتحذلقين يثورون على الدوام حين يرون أحداً يضاهيهم معرفة بحِرْفتهم الضيّقة؛ فكلّ شيء يُتّخذ ذريعة لملاحظاتهم الخبيثة؛ وقد أدخلت في برامج المدارس أعمال «هزيود» و«أنّيوس» التي طال إهمالها؛ وسرعان ما أشعرني هذان الفِكران التقليديّان بالرغبة في أن أُنزل عن العرش «هوميروس» و«ڤرجيل» الشفّاف الذي كنت لا أتوقّف مع ذلك عن الاستشهاد به. ولم يكن هناك ما يُجدي مع أولئك الناس.

وكان «أريان» خيراً منهم. وكنت أحبّ التحدّث إليه في كلّ الأمور. وكان قد احتفظ عن الفتى «البيتينيّ» بذكرى مفتونة وذات

شأن؛ وامتننت له أن وضع ذلك الحبّ الذي كان شاهداً عليه في مصافّ التدلُّهات الكبرى المتبادَلة الشائعة فيما مضى؛ وكنّا نتحدّث من حين إلى آخر عن ذلك، بيد أنّي على الرغم من عدم النطق بأيّة كذبة، كنت أشعر في بعض الأحيان بوجود بعض الزيف في أقوالنا؛ كانت الحقيقة تختفي تحت غِطاء السموّ. وقد خاب أملي بالقدر نفسه مع «شابرياس»: لقد أكنَّ لـ «أنتينويوس» التفاني الأعمى الذي يكنّه عبد عجوز لسيّده الشاب، بيد أنّه كان يبدو وهو مشغول بالتعبُّد للإلّه الجديد وكأنّه أضاع كلّ ذكرى عن الحيّ. وكان زنجيّي «أوفوريون» على الأقلّ قد راقب الأمور عن كثب. وكان «أريان» و«شابرياس» عزيزين عليّ، ولم أكن أشعر قطّ بأنّني أسمى من هذين الرجلين الكريمين، بيد أنّه كان يُخيَّل إليّ في بعض الأوقات أنّني كنت الأنسان الوحيد الذي يجهد في إبقاء عينيه مفتوحتين.

أجل، لقد ظلّت «أثينا» جميلة، ولم أكن نادماً على أنّي كنت قد فرضت على حياتي آداباً إغريقيّة. فكلّ ما فينا من إنسانيّ ومنظَّم وواضح مستمدّ منها. بيد أنّه كان يحدث لي أن أقول لنفسي إنّ حياة الجدّ الثقيل نوعاً في «روما»، وحسّها بالاستمرار، وتذوّقها للمحسوس، كانت ضروريّة لتحويل ما كان قد ظلّ في «اليونان» رؤيةً فكريّةً رائعة وانطلاقةً روحيّةً جميلةً، إلى حقيقة. فلقد كتب «أفلاطون» (الجمهورية) ومجدّ فكرة «العدل»، غير أنّنا نحن الذين جهدنا بمشقّة ـ وقد علّمتنا أخطاؤنا ـ في أن نجعل من «الدولة» آلة مؤهّلة لخدمة الناس ومتحاشية ما أمكنها سَحْقهم. وكلمةُ محبٍّ للبشر يونانيّة بيد أنّي والفقيه «سلفيوس جوليانوس» عملنا على تغيير وضع العبد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المُـزري. وكانت المواظبـة والتبصُّر والـدأب عـلى التقيّـد بالتفاصيـل المصحِّحة لجسارة الـرؤى الإجماليّـة، في نظري، فضـائل تعلّمتهـا في «روما». وكان يحدث لي كذلـك أن أعثر في أعـماق ذاتي على المشـاهد الكئيبة الكبرى التي صوّرها«فرجيل» وعـلى آصالـه المقنّعة بـالدمـوع؛ وكنت أغوص أعمق فأعمق؛ فألتقي بكآبة «إسبانيـا» الكاويـة وعُنْفها القـاحـل؛ وأُفكّـر في قـطرات الـدّم «السلتيّ» و«الإيبيـريّ»، وربّمـا «البـونيّ»، التي تسرّبت إلى عروق الـرومان الـذين عمروا مُسْتَلْحَقـة «إيتالكا»؛ وتذكّرت أنَّ أبي كان يُلقَّب بـ «الإفريقيّ». ولقد ساعـدتني «اليونان» عـلى تقييم هذه العنـاصر التي لم تكن إغريقيّـة. وقل الشيء نفسه عن «أنتينويوس»؛ فقد جعلت منه صورة صادقة عن هـذا البلد الشغوف بالجمال؛ وقد يكون آخر إلّه من آلهته. ومع ذلك فقد كانت «فارس» المرهفة و«تراس» المتـوحّشة قـد تحالفتـا في «بيتينيا» مـع رعاة «أركاديا» القديمة: كانت صورة الوجه الجانبيّة المقوّسة تقـويساً خفيفـاً جـدّاً تذكّـرُ بغلمان «خسرو»؛ لقد كـان ذلك الـوجه العـريض البارز الـوجنتين وجـه الفرسـان «التراسيّـين» الـذين يُحضِرون خيـولهم عـلى ضفاف «البوسفور» وينفجرون في المساء بالأغاني الجشّاء الحـزينة. ولم يكن هناك أكمل من هذه الصيغة لاستيعاب كلّ شيء.

أنهيت في هـذا العام مـراجعة الـدستور «الأثيني» الـذي كنت قـد شرعت فيه قبل ذلـك بكثير. وقـد رجعت فيه مـا أمكن إلى القوانـين الـديمقراطيّـة القديمـة التي سنّها «كليستينس». ولقـد خفّـف اختصـار عدد الموظّفين من أعباء «الدولة»؛ ومنعت تلزيم الضرائب، وهو نظام مُجْحِف كـان لايـزال مستعمـلاً، ويـا لـلأسف، هنـا في الإدارات

المحلّية. وساعدت إنشاءات جامعيّة تمّت في المدّة نفسها تقريباً على أن تعود «أثينا» مركزاً مهمّاً للدراسة. وكان هُواة الجمال الذين تقاطروا قبلي على هذه المدينة قد اكتفوا بالتملّي من أنصابها التذكاريّة من غير أن يُعيروا اهتماماً لعَوَز أهليها المتزايد. وبذلت على العكس من ذلك كلّ ما في وسعي لمضاعفة موارد تلك الأرض الفقيرة. ولقد أثمر أحد مشاريعي الكبرى قبل رحيلي بقليل: أعاد نظام الوفود الرسميّة السنويّة، وقد بدأت تُعالج بوساطتها مذّاك في «أثينا» شؤون العالم الإغريقي، إلى هذه المدينة المتواضعة والكاملة ما كانت تتمتّع به من منزلة بوصفها حاضرة. ولم تتحقّق هذه الخطّة إلّا بعد مفاوضات شائكة مع المدن الغيْرى من تفوُّق «أثينا» أو الحافظة لها أحقاداً مزمنة وبالية؛ ولم يلبث العقل، بل والحماسة، أن انتصروا رويداً رويداً. وتوافق أوّلُ تلك الاجتماعات مع فتح «الأولمپيون» في وجه عامّة الناس للعبادة؛ وأصبح هذا المعبد أكثر من أيّ وقت مضى رمزاً لـ «اليونان» بُحلّتها الجديدة.

وقُدِّمت بهذه المناسبة في مسرح «ديونيزوس» سلسلة من العروض المسرحيّة الفريدة في نجاحها: وكنت أشغل فيه مقعداً أعلى بقليل جدّاً من المقعد الذي يشغله «الكاهن الأكبر» إلى جانبي؛ وأصبح لكاهن «أنتينويوس» بعد ذلك اليوم مقعده بين الوجهاء والكهنة. وكنت قد كبّرت خشبة المسرح؛ وزيّنْته نقوش وزخارف جديدة؛ وكان أحدها يمثّل فتاي «البيتينيّ» وهو يتسلّم من الإلهات «الأيلوزيسيّات» نوعاً من حَقٍّ أبديّ في المواطنيّة. ونظّمت في ملعب الاحتفالات «الأثينيّة» الرياضيّة ـ وقد تحوّل لبضع ساعات إلى غابة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خرافيّة ـ صَيْداً تمثّل فيه نحو ألف وحش مفترس، معيداً إلى الأذهان في المدّة الوجيزة التي يسغرقها احتفالُ صورةَ المدينة الريفيّة الخشنة التي كانت لـ «هيبوليت» خادم «ديانا» و«تيزيه» رفيق «هرقل». وما هي إلاّ أيّام حتّى غادرت «أثينا». ولم أعد إليها مذّاك.

لم يكن قد سبق أن وضع التشريع النهائيّ لإدارة «إيطاليا» التي تُرِكَتْ خلال قرونٍ للحكّام الشرعيّين يتصرّفون بها على هواهم. و«المرسوم الثابت» الذي نظّمها نهائيّاً يعود تاريخه إلى تلك الحقبة من حياتي: كنت أراسل منذ أعوام «سلفيوس جوليانوس» بشأن هذه الإصلاحات؛ وعجَّلَتْ عودتي إلى «روما» في توضيحها. فلم يكن الأمر يعني أن تُنتزع من المدن الإيطاليّة حرّيّاتها المدنيّة؛ وإنّما كان كسبنا يتمثّل على العكس من ذلك، هنا كما في أيّ مكان، في ألاّ نفرض بالقوّة وحدةً وهميّة؛ بل إنّي لأدهش أن تُسرع تلك المُسْتَلْحَقات التي كثيراً ما كانت أَعْرَقَ من «روما» إلى العدول عن تقاليدها، وكانت حكيمة في بعض الأحيان، للاندماج بالعاصمة في كلّ شيء. وكانت غايتي بكلّ بساطة تقليص هذه الكتلة من المتناقضات والتفريط التي تؤدّي في النهاية إلى تحويل الإجراء القضائي إلى دغل لا يجرؤ الشرفاء على المغامرة بدخوله ويتكاثر فيه اللصوص. واضّطرّتني تلك الأعمال إلى عدد لابأس به من التنقُّلات داخل شبه الجزيرة. وأقمت عدّة إقامات في «باييس» في دارة «شيشرون» العتيقة التي كنت قد اشتريتها في بداية إمارتي؛ وأخذتُ أهتمّ بإقليم «كمپانيا» هذا لأنّه كان يذكّرني باليونان. وكنت قد تشرّفت بتولّي أعلى المناصب البلديّة في مدينة «أدريا» الواقعة على شاطئ «الأدرياتيكي»، التي هاجر منها أسلافي منذ أربعة قرون إلى «إسبانيا»؛ وعثرت بالقرب من هذا البحر العاصف الذي أُدعى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باسمه جِراراً تحمل رفات أناس من أسرتي في مقبرة دارسة. وأخـذت أحلم بـأولئك النـاس الذين أكـاد لا أعرف عنهم شيئـاً وإن كنت قد خرجت منهم، والذين توقّف عِرقهم عندي.

وكان القوم مشغـولين في «رومـا» بتكبير «ضريحي» العمـلاق الذي كان «دكريبانوس» قـد أعاد بمهـارة إحياء تصـاميمه؛ وهم مـايزالـون يعملون فيـه حتّى اليوم. وكـانت «مصر» قد أوحت لي بهـذه الأروقـة الـدائريّـة وبتلك الدرابـزونات المنـزلِقة نحـو قـاعـات تحت الأرض؛ وكنت قد حبِلت بفكرة عن قَصْرٍ لا يكون مخصَّصاً لي أنا ولا لخلفائي المبـاشرين، وإنَّمـا يُقْبِـل للراحـة فيـه أبـاطـرة تفصـل بيننـا وبينهم في المستقبل رؤى عدّةِ قـرون؛ وكان لأمـراءٍ لايزالـون منذورين لإبصـار النـور مكانُهم المُعَـدّ في هذا القـبر. وتفـرّغتُ كـذلـك لـتزيـين القـبر التذكاريّ الذي شيّد في «ميدان مارس» تخليداً لـ «أنتينويوس»، وكان صندلٌ قد حمل لأجله من «الإسكندرية» مسلّاتٍ وتماثيلَ لأبي الهـول. وقد شغلني مشروع جديد طويلاً ولم يتوقَّف عن شَغْـلي: «الأوديون»، المكتبـة النموذجيّـة المزوَّدة بقـاعات للتـدريس والمحاضرات، وسـوف تكـون في «روما» مـركزاً ثقـافيّاً إغـريقيّاً. وقـد خَصَصْتُهـا بمقدار من الروعة يقلّ عن الذي في مكتبة «أيفيز» التي كانت قد بُنيتْ قبـل ذلك بثلاث سنوات أو أربع، وبقدْر من الأنـاقة المحبّبـة أقلّ من الـذي في مكتبة«أثينا». وإنّي لأنوي أن أجعل من هذه المُنْشَأة مثيلاً، إن لم يكن معادلاً، لـ «متحف الإسكندرية»؛ ويقع على عاتقك تمتينها وتطويرهـا في مستقبـل الأيَّام. وإنّي إذ أعمـل عليها لأذكـر كثيراً النقش الجميـل الذي كانت «پلوتينيا» قد وضعته على مدخل المكتبـة التي أشرفت على

إقامتها وسط «ميدان تراجان»: «مستشفى الروح».

كانت «الدارة» قد هُيِّئت بما يكفي لأن أحمل إليها مجموعاتي وآلاتي الموسيقيّة وبضعة آلاف الكتب التي قد اشتريتها من كلّ مكان تقريباً خلال أسفاري. وأقمت فيها سلسلة احتفالات نُظِّم فيها كلّ شيء بعناية، قائمة الوَجَبات وقائمة ضيوفي المحدودين نوعاً ما. وحرصت على أن يتوافق كلّ شيء وجمالَ هذه الحدائقِ والقاعاتِ الوادعَ؛ وعلى أن تكون الفاكهة بمثل طيب الحفلات الموسيقيّة، وأن يكون تنظيم الخدمة بمثل وضوح تخريم أطباق الفضّة. واهتممت للمرّة الأولى باختيار الأطعمة؛ وأمرت بالحرص على أن تَرِد الأصداف من «لوكران» وأن تصاد السرطانات من الأنهار الغالِيَة. وإذ كنت أمقت الإهمال الفاضح الذي كثيراً ما يطبع المائدة الإمبراطوريّة فقد سَنَنْتُ قاعدة تقضي بإطلاعي على كلّ طبق قبل تقديمه حتّى إلى أقلّ ضيوفي شأناً؛ وألححت على التحقّق بنفسي من حسابات الطبّاخين والممونين بالأطعمة؛ وكنت أذكر في بعض الأحيان أنَّ جدّي كان بخيلاً. ولم يكن أيّ من المسرح اليوناني الخاصّ بـ «الدارة»، أو مسرحها اللاتيني الأوسع منه بما لا يُذكر، قد أُنجزا؛ ومع ذلك فقد أوعزت بتقديم بعض المسرحيّات فيهما. وقُدِّمت بناء على ذلك بعض المآسي والإيمائيّات والدرامات االغنائيّة والمسرحيّات الهزليّة الخفيفة. وسرّتني على الأخصّ حركات الرقص الماهرة؛ واكتشفت في نفسي ميلاً إلى الراقصات ذوات الصنّاجات اللاتي ذكّرني ببلاد «غادِس» والمشاهد الأولى التي حضرتها وأنا بعدُ صبيّ. فقد كنت أحبّ ذلك الصوت الأصمّ الجافّ، وتلك الأذرع المرفوعة، وذلك الاستعراض أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الالتفاف تقوم به الأوشحة، وتلك الراقصة التي كانت تتوقّف عن أن تكون امرأة لتصبح غيمةً تارة وطائراً طوراً، موجةً حيناً ومركباً بثلاثة صفوف من المجاذيف حيناً آخر. بل لقد شعرتُ نحو إحدى تلك المخلوقات بميل قصير الأَمَد بعض الشيء. ولم تكن مزارب الكلاب ومرابط الخيل قد أُهملت في أثناء غيباتي؛ ولقد وجدت من جديد وبر الكلاب القاسي وجلود الخيول الحريريّة ورهط الخدم الجميل. ونظّمتُ بعض رحلات القنص في «أومبريا» على ضفاف بحيرة «ترازيمين»، أو في أمكنة أقرب من «روما» في غابات «ألب». واستعادت المتعة مكانها في حياتي؛ وكان أمين سرّي «أوتيزيم» يقوم بدور المتعهِّد لي. وكان يعرف متى ينبغي تحاشي بعض التشابهات، ومتى ينبغي، على العكس من ذلك، السعي إليها. غير أنَّ هذا المُحِبّ المتلهِّف الشارد الذهن لم يكن محبوباً على الإطلاق. وكنت ألتقي هنا وهناك كائناً أرقّ أو أرهف من الآخرين، كائناً يستحقّ أن يُسمع حديثه، بل ربّما أن يُلتقى ثانيةً. وكانت تلك النِّعَم نادرة، بسببي ولا ريب. فقد كنت أكتفي في العادة بتهدئة جوعي أو بمخادعته. وكنت في أحيان أخرى أشعر حيال تلك الألعاب بلامبالاة جديرة برجل هَرِم.

وكنت في ساعات الأَرَق أذرع ممرّات «الدارة» هائماً من قاعة إلى قاعة، مُزْعِجاً أحياناً حِرَفيّاً يعمل على وضع قطعة فسيفساء في مكانها؛ وأتفحّص وأنا أمرّ تمثالاً للإله «ساتير» من صنع «پراكسيتيل» [نحّات أثيني مشهور من القرن الرابع قبل الميلاد]؛ وأتوقّف أمام تماثيل الفقيد. وكان لكلّ قاعة تمثالها عن شخصه، وكذلك لكلّ رواق. وكنت أداري بيدي شعلة مصباحي؛ وأتقرّى باللّمْس ذلك

الصدر الحجريّ. وكانت تلك المواجهات تعقّد مهمّة الذاكرة؛ وكنت أزيح بياض جزيرة «پاروس» أو جبل «پنتليكوس» وكأنّني أزيح ستاراً؛ وأصعِّد كيفما اتّفق في التعرُّجات التي شُلَّت حركتها، من المرمر إلى اللحم الحيّ. وكنت أكمل جولتي فيعود التمثال المُساءَل للسقوط في الظلام؛ وكان مصباحي يكشف لي على بُعد خطوات منّي عن صورة أخرى؛ ولم تكن تلك الشخوص البيضاء الكبيرة لتختلف قطّ عن الأشباح. وكنت أفكّر بمرارة في المسالك التي جذب إليها الكهنة المصريون روحِ الميت إلى التماثيل الخشبيّة التي يستخدمونها في عبادتهم؛ ولقد فعلتُ مثلهم؛ فقد سحرت أحجاراً ما لبثت أن سحرتني بدورها؛ ولن أُفلت أبداً من ذلك السكون، من تلك البرودة التي غدت مذّاك أقرب إليّ من حرارة الأحياء وأصواتهم؛ وكنت أنظر بحقد إلى ذلك الوجه الخطِر ذي الابتسامة المتهرِّبة. بيد أنّي مازلت أستلقي بعد ساعات على سريري حتّى أقرّر أن أوصي «پاپياس الأفروديزي» بصنع تمثال جديد؛ وكنت أطالبه بمحاكاةٍ أدقّ للخدّيْن في المكان الذي يتجوّفان فيه بشكل خفيف تحت الصدغ، وبانحناءٍ أشدّ عذوبة للرقبة فوق الكتف؛ ولسوف أستبدل أكاليل أوراق الكرمة أو ضفائر الحجارة الكريمة بروعة خُصُلات الشعر العارية وحدها؛ ولم أكن أنسى أن أجعله يُفرِّغ تلك النُقيشات أو الجذوع للتخفيف من زِنَتها وجعل نقلها أيسر تبعاً لذلك. ولقد رافقتني أكثر هذه الصُّوَر شبهاً إلى كلّ مكان؛ وإنّه لا يهمّني أبداً أن تكون جميلة أو لا.

كانت حياتي في الظاهر وادعة؛ فقد كنت أُحكِم دأبي أكثر من أيّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقت مضى على مهنتي إمبراطوراً؛ وربّما محضتُ منصبيٍ مزيداً من التبصُّر، إن لم أمحضه من النشاط ما كنت أمحضه إيّاه قبلاً. وكنت قد فقدت بعض الشيء شغفي بالأفكار واللقاءات الجديدة ورشاقة الذهن التي كانت تسمح لي بمشاطرة غيري فكرته والإفادة منها وأنا أخضعها لحُكمي. ولم يكن فضولي، وكنت فيما مضى قد رأيت فيه الدافع لتفكيري نفسه وأحد أركان طريقتي، يعمل إلاّ على تفاصيل تافهة جدّاً؛ فكنت أفضّ رسائل مرسلة إلى أصدقائي الذين كان ذلك يشعرهم بالمهانة؛ ولقد سلاّني بعض الوقت ذلك النظر السريع إلى غراميّاتهم وإلى مشاجراتهم في بيوتهم. فضلاً عن أنّ ذلك كان يخالطه نصيب من الارتياب: ظللتُ بضعة أيّام فريسة الخوف من السمّ، وهو خوف فظيع كنت قد لمحته فيما مضى في نظرة «تراجان» مريضاً، ولا يجرؤ أمير على البوح به لأنّه كان يبدو مضحكاً مادام لم يسوِّغه الحدث. وإنّ مثل ذلك الوسواس ليُدهش من رجل غارق من ناحية ثانية في التأمُّل في الموت، بيد أنّني لا أدّعي أنّي منطقيّ أكثر من أيّ شخص آخر. وكانت تنتابني سورات غضب مكظوم ومواقف نزق صمّاء بإزاء أدنى الحماقات وأشدّ الخساسات ابتذالاً، ويساورني اشمئزاز ما كنت لأستثني منه نفسي. ولقد تجرّأ «جوفينال» على أن يشتم في إحدى «هجائيّاته» الممثّل الإيمائي «پاريس» الذي كان يروق لي. وشعرت بالإرهاق من ذلك الشاعر الملتهب الكثير التوبيخ؛ ولم يكن يروقني كثيراً احتقاره الفظّ لـ «الشرق» ولـ «اليونان»، ولا حبّه المدخول لبساطة آبائنا المزعومة، ولا ذلك الخليط من الأوصاف المفصّلة للرذيلة والمناداة بالفضائل التي تدغدغ مشاعر القارئ في

الوقت الذي تسعى فيه لتأكيد نفاقه. ومع ذلك فقد كان له الحقّ في بعض اللفتات بوصفه من رجال الأدب؛ وقد استدعيته إلى «تيبور» لأشرح له بنفسي الحكم عليه بالنفي. وأصبح في وسع هذا المُزري بترف «روما» ومسرّاتها أن يدرس بعد اليوم أخلاق الأقاليم في مهدها؛ ولقد حدّدت شتائمه «پاريسَ» الجميلَ نهايةَ عمله هو. وأقام «فاڤورينوس» في أثناء ذلك العهد تقريباً في منفاه المريح في «كيوس» حيث لا أودّ كثيراً أن أقيم أنا نفسي، ولكن حيث لم يكن في وسع صوته الحامز أن يبلغني. وحدث في ذلك الوقت على وجه التقريب أيضاً أن طَرَدْتُ بشكل مُخْزٍ من إحدى قاعات المآدب أحد باعة الحكمة، وهو «كلبيّ» سيّئ الدُّرْبة كان يشكو الموت جوعاً كما لو أنّ هذه الطبقة المُحْتَقَرَة كانت تستحقّ أن تفعل غير ذلك؛ ولقد تمتّعت كثيراً برؤية ذلك الثرثار المطويّ على نفسه من الخوف يفرّ وسط نباح الكلاب وضحك الغلمان الساخر: لم يعُد المنافق المتفلسف المتأدّب يفرض نفسه عليّ.

وكانت أخفّ أخطاء الحياة السياسيّة تثير حفيظتي كما يثيرها بالضبط في «الدارة» أدنى عدم تساوٍ في رصف أرض الحجرة أو أدنى سيلان شمعي على رخام منضدة أو أدنى عيب في شيء حُرص على أن يخلو من العيوب والبُقع. وحذّرني تقريرٌ واردٌ من «أريان»، وكان قد عُيِّنَ حديثاً حاكماً لـ «كاپادوس»، من «فاراسماتيس» الذي كان سادراً داخل مملكته الصغيرة على ضفاف «بحر قزوين» في أداء ذلك الدور المزدوج الذي كلّفنا غالياً في عهد «تراجان». فقد كان ذلك المُلَيْك يدفع بتكتّم إلى حدودنا بجحافل من «الألنيّين» البرابرة؛ وكانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مناوشاتـه مع «أرمينيـة» تهدّد السـلام في «الشرق». وإذ استُدعيَ إلى «رومـا» فقد رفض الحضـور إليها، كـما كان قـد رفض حضور مؤتمـر «ساموزات» قبل ذلك بأربعة أعوام. وأرسل إليّ عربون اعتذار هديّـة من ثلاثمئة رداء مذهّب، وهي ألبسة ملكيّة ألبستها في الحلبة مجرمـين قُدِّموا فـرائس للوحوش. ولقـد أرضاني هـذا العمل الـطائش إرضاء حركة يقوم بها إنسان يحكّ جلده حتّى ينزف دمُه.

وكـان لي أمين سرّ، وهـو شخص قليل الـذكاء كنت قـد استبقيته لأنّه يعرف على أكمل وجه أنماط العمل التقليدية في الديوان، بيد أنّـه كـان يُفرغ صـبري بتشوُّفـه الفظّ العنيد، وبـرفضـه تجـربـة الـطرائق الجديدة، وبتكالبه على التشبّث بلا هـدف بالتفـاصيل غـير المجديـة. وذات يـوم أثار هـذا الغبيّ حفيظتي أكـثر من المعتـاد؛ ورفعت يـدي لأضرب؛ ولسـوء الحظ أنّي كنت أحمل قلماً ففقـأ له عينـه اليمنى. ولن أنسى أبـداً ذلك الصراخ من الألم، ولا تلك الـذراع الـمطويّـة بخَـرَقٍ لتفادي الضربة، ولا ذاك الوجه المتشنّـج الذي كـان ينفر منـه الدم. واستدعيت «هيرموجين» على الفور فأجرى له الإسعافات الأوّليّة؛ ثمّ استشير طبيب العيون «كاپيتو». ولكن عبثاً؛ كانت العين قد فُقـدت. وما هي إلاّ أيّام حتى استـأنف الرجـل عمله؛ وكانت عصـابة تختـرق وجهه بشكل مائل. واستـدعيته؛ وسـألته بتـواضع وشهـامة أن يحـدّد بنفسه التعويض الـذي أدين به لـه. وأجابني بـابتسامـة خبيثة أنّـه لا يطلب سوى شيء واحد هو عين يُمنى غير عينه. ومع ذلـك فقد انتهى بـه الأمر إلى القبـول بـإجـراء راتب تقـاعـدي. وأبقيتُـه في خـدمتي؛ فحضوره ينفع في تحذيري، بل ربّما في عقـابي. ولم أكن قد شئت فقـأ

عـين ذلـك المنكـود. بيـد أنّي لم أكن قـد شئت كـذلـك أن يمـوت في العشرين صبيّ كان يحبّني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخـذت الشؤون اليهـوديّـة تـزداد سـوءاً. وبـدأت الأعـمال في «أورشليم» [القـدس] تقترب من نهايتهـا عـلى الـرغم من المعـارضـة العنيفة التي كانت زُمَر «غلاة المتديّنين» تبـديها. وقـد ارتُكِب عددٌ من الأخطاء القابلة بحدّ ذاتها لـلإصلاح، غـير أنّ مثيري الشغب عـرفوا كيف يستغلّونها. فلقـد كان شعـار «الفيلق الفاتـح العاشر» خنـزيـراً برّياً؛ وقد وُضِعَتِ اللافتة عند أبـواب المدينـة كما هي العـادة؛ وإذ لم يكن عـامّة النـاس يألفـون كثيراً الصـور المرسـومـة أو المنحـوتـة التي حرمتهم منها منذ قرون طِيَرَةٌ تناهض جدّاً تقدّم الفنون، فقد اعتـبروا تلك الصورة صورة خنزير ورأوا في تلك الحادثة الصغيرة إهانة لتقاليد بني إسرائيل. وكانت أعياد رأس السنة العبـريّة المحتفـل بها كـلّ عام بالطبول والزمور تسبّب، في كلّ عام، مشاجـرات دامية؛ فقـد منعت سلطاتنـا قراءة عـلى الملأ لقصّـة من القصص الخرافيّـة مخصّصة لمـآثر بـطلة يهـوديّـة كـانت قـد أصبحت بـاسم مستعـار خليلة أحـد ملوك «فـارس» وعملت عـلى أن يُـذبـح بـوحشيّـة أعـداء الشعب المحتَقَـر والمضطهَد الذي تحدَّرت منه. وأجمع الحاخامون أمرهم عـلى أن يقرأوا ليلاً ما كانت حكومة «تينيوس روفـوس» قد منعت قـراءته في النهـار؛ وكانت تلك القصّة المتوحّشة التي يتنـافس فيها الفـرس واليهود عـلى الفـظاعة تثـير حتّى الجنـون حمـاسـةَ «غُـلاة المتـديّنـين» المسعـورةَ لبني قومهم. وفي نهاية المطـاف قرّر «تينيـوس روفوس» هـذا نفسه، وهـو من ناحية ثانية رجل حكيم جدّاً، ولم يكن بالذي يتجاهل أساطير بني

إسرائيل وتقاليدهم، أن يَشمل الخِتان، وهو تقليد يهودي، بالعقوبات الصارمة التي ينصّ عليها القانون الذي كنت قد سننته حديثاً ضدّ الخَصْي وكان يستهدف بصورة خاصّة القسوة التي يُعامل بها عبيد يافعون بقصد الربح أو بقصد المجون. وكان يرجو أن يَطْمِس بذلك إحدى الأمارات التي يصبو بنو إسرائيل إلى التميُّز بها عن سائر الناس. ولقد قلّ إدراكي خطرَ ذلك الإجراء عندما تلقّيت علماً بأنّ كثيراً من اليهود المستنيرين والأثرياء الذين يُعثر عليهم في «الإسكندرية» وفي «روما» قد انقطعوا عن إخضاع أولادهم لممارسة تجعلهم أضحوكة في الحمّامات العامّة والصالات الرياضيّة فيدبّرون أمرهم لإخفاء آثارها على أجسامهم. وكنت أجهل إلى أيّ مدى كان أولئك المصرفيّون الجمّاعون للآنية المصنوعة من خشب الصَّبْر يختلفون عن بني إسرائيل الحقيقيّين.

قلت سابقاً إنّ شيئاً من هذا كلّه لم يكن مستعصياً على الإصلاح، غير أنّ البُغْض والاحتقار المتبادل والحقد كانت كذلك. وكانت للديانة اليهوديّة من حيث المبدأ مكانتها بين أديان الإمبراطورية؛ والواقع أنّ بني إسرائيل يرفضون منذ قرون أن يكونوا شعباً في عِداد الشعوب، شعباً له إلّه في عِداد الآلهة. فـ «الداسيُّون»، وهم أشدّ الناس توحّشاً، لا يجهلون أن إلّههم «زلموكسيس» يُدعى في «روما» «جوبيتير»؛ وقد تماهى «بعل» «اليوني» في جبل «كاسيوس» من غير عناء بـ «الأب» الذي يمسك بيده «النصر»، والذي وُلِدت منه «الحكمة»؛ والمصريُّون المعتزّون جدّاً بأساطيرهم التي عُمْرُها عشرات القرون يوافقون على أن يروا في «أوزيريس» «باخوسَ» مُثْقَلاً بالنعوت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجنائزيّة؛ و«ميترا» الفظّ يعترف بأُخُوَّته لـ «آپولون»؛ وما من شعب، سوى بني إسرائيل، يملك من الصلف ما يحبس به الحقيقة برمّتها في الحدود الضيّقة لمفهوم إلهي واحد، مُهينين بذلك تعدُّديّة الـ «إلّه» الذي يحتوي كلّ شيء؛ وما من إلّه آخر أوحى لعابديه بازدراء من يصلّون في محاريب مختلفة، وبكُرههم. وزادني ذلك تمسّكاً بأن أجعل من «أورشليم» [القدس] مدينة مثل سائر المدن، مدينة يكون في وسع عدّة أعراق وعدّة ديانات أن تتعايش فيها بسلام؛ وكنت كثيراً ما أنسى أنّه في كلّ معركة بين التعصّب والحسّ المُشْتَرَك نادراً ما تغلَّب هذا الأخير. وأثار فتح المدارس التي كانت تُعلّم فيها الآداب الإغريقيّة استنكار رجال الدين في المدينة العتيقة؛ وأمر الحاخام «يهوذا»، وهو رجل لطيف ومتعلّم كثيراً ما كنت قد تحدّثت إليه في «أثينا»، ولكنّه كان يجهد في طلب المغفرة من شعبه على ثقافته الأجنبيّة وعلاقاته بنا، أمر مريديه بألاّ ينصرفوا إلى تلك الدراسات الدنيويّة إلاّ إذا وجدوا ساعة يخصّصونها لها ولا تكون من النهار ولا من الليل لأنّه يجب دراسة الشريعة اليهودية ليلَ نهارَ. وأمّا «إسماعيل»، وكان عضواً ذا شأن في «المجلس اليهودي الأعلى» ومُعْتَبَراً حليفاً لقضيّة «روما»، فقد ترك ابن أخته «بن داما» يموت على أن يقبل خدمات الجرّاح الإغريقي الذي أرسله إليه «تينيوس روفوس». وبينما كنّا لانزال نحاول في «تيبور» مصالحة النفوس من غير أن يبدو علينا أنّنا نستسلم لمطالب المتعصّبين، كُتِبَتِ الغلبة في «الشرق» لأسوأ الأمور؛ فقد نجح في «أورشليم» [القدس] هجوم عكسري مفاجئ قام به «غُلاة المتديّنين».

وقد قام بدور الشعلة في ذلك التمرّد ـ بعد أن طلى جسده بالقار أو

غلّفه بمرآة مُحْرِقة ـ مغامر من حثالة الشعب يُدعى «شمعون»، مطلقاً على نفسه اسم «بركوشبا»: (ابن النجم). ولست أستطيع الحكم على «شمعون» هذا إلّا عن طريق ما يُقال عنه؛ فلم أقابله وجهاً لوجه غير مرّة واحدة، يوم حمل إليّ أحد قادة المئة رأسه المقطوع. بيد أنّي مستعدّ للاعتراف له بذلك النصيب من العبقريّة اللازمة على الدوام لكي يرتقي المرء بهذه السرعة وهذا الارتفاع في قضايا البشر؛ فليس يفرض أحد نفسه على هذا النحو من غير أن يملك على الأقل بعض المهارة الفظّة. وكان اليهود المعتدلون أوّل من رمى «ابن النجم» المزعوم هذا بالخِداع والدَّجَل؛ وأعتقد بالحري أنّ ذلك العقل غير المتعلّم كان واحداً من تلك العقول التي تقع في أحبولة أكاذيبها الشخصيّة، وأنّ التعصّب كان مترافقاً لديه والحيلةَ. فقد قدّم «شمعون» نفسَه بطلاً يعتمد عليه الشعب اليهودي منذ قرون لإشباع مطامحه وأحقاده؛ ولقد أعلن ذلك المحرِّك للعامّة نفسَه «مسيحاً» وملكاً على «بني إسرائيل». وجال «عقيبة» العتيق الذي كان مصاباً بالدُّوَار في شوارع «أورشليم» [القدس] ممسكاً بعنان جواده المغامر؛ وأعاد الكاهن الأكبر «اليعازر» تكريس الهيكل الذي زُعم تلويثه مُذ جاز عتبتَه زوّارٌ غير مختونين؛ ووزّع عملاء «ابن النجم» على الثائرين أكداساً من الأسحلة كانت مدفونة تحت الأرض منذ ما يقارب عشرين عاماً؛ وقل الشيء نفسه عن قِطَع السلاح المشوبة بالعيوب والمصنوعة عن قصد منذ أعوام في ترساناتنا بيد عمّال يهود، وكانت إدارتنا العسكريّة ترفضها. وقد هاجمت زمر من المتظاهرين بالوَرَع الحاميات الرومانيّة المعزولة وذبحت جنودنا متفنّنة في صبّ جام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غضبها بأشكال ذكّرت بأسوأ الذكريات عن الثورة اليهوديّة في عهد «تراجان»؛ وسقطت «أورشليم» [القدس] بأسرها في نهاية الأمر في أيدي العصاة والتهبت أحياء «أيليا كاپيتولينا» الجديدة التهاب المِشْعل. وبدّدت شَمْلَ الفصائل الأولى من «الفيلق الديجوتاري الثاني والعشرين» التي تحرّكت من «مصر» على جناح السرعة بأمر من حاكم «الشام»، «پوبليوس»، عصاباتٌ تفوقها عشرةَ أضعافٍ عدداً. وأصبحت الثورة حرباً، حرباً يتعذّر تسكينها.

ما لبث فيلقان هما «الثاني عشر الملهتب» و«الفيلق السادس»، «الفيلق الحديدي»، أن دعما القوّات الموجودة من قبل في «اليهوديّة». وما هي إلّا بضعة أشهر حتّى تولّى «يوليوس سيڤروس» الذي كان قد هدّأ الأوضاع في المناطق الجبليّة في شمال «بريطانيا» إدارة العمليّات العسكريّة؛ وجلب معه فرقاً صغيرة من الجنود المُلْحَقين البريطانيّين المتعوّدين على القتال في الأراضي الوعرة. ووجدت جيوشُنا المجهّزة تجهيزاً ثقيلاً، وضبّاطنا المتعوّدون على التشكّل في مربّعات أو كتائب للقتال في معارك منظّمة الصفوف، صعوبةً في التكيّف وحربَ المناوشات والمفاجآت هذه التي تستخدم في الأرض المنبسطة المكشوفة تقنيّات خاصّة بالقضاء على الفِتَن. وكان «شمعون»، وهو رجل عظيم على طريقته، قد قسم أنصاره إلى مئات من الزُّمَر تمركزت فوق المرتفعات الجبليّة وكمنت في أعماق الكهوف والمقالع المهجورة واختبأت في مساكن ضواحي المدن العاجّة بالناس؛ وسرعان ما أدرك «سيڤروس» أنّ من الممكن إبادة هذا العدو المتعذّر إمساكه، ولكن من غير الممكن التغلّب عليه؛ وقرّر خوض حرب استنزاف. ومنذ البداية

تعاطف الفلاّحون، وكان «شمعون» قد حقنهم بالتعصّب أو أرهبهم، مع «غُلاة المتديّنين»: لقد غدت كلّ صخرة حِصناً، وغدا كلّ كرم خندقاً؛ وقد ابتغى إخضاع كلّ إمارة للتجويع أو انتزاعها بالاقتحام. ولم تُستَعَد «أورشليم» [القدس] إلاّ خلال السنة الثالثة بعد أن تبيّنَ ألاّ جدوى من آخِر الجهود المبذولة للتفاوض؛ وأُبيد القليل الذي لم تكن قد أتت عليه نار «تيتوس» [أحد الأباطرة الرومان] من المدينة اليهوديّة. وارتضى «سيڤروس» أن يُغضي طويلاً عن التواطؤ الفاضح الذي قامت به المدن الكبرى الأخرى؛ فإذ غدت هذه آخر معاقل العدوّ فقد هوجمت فيما بعد واستُعيدت بدورها شارعاً شارعاً وطَلَلاً طَلَلاً. وكان مُقامي في أيّام المِحَن تلك داخل المعسكر في «اليهودية». وكنت أثق ثقة عمياء بمعاونِيّ؛ بيد أنّه كان من الأفضل أن أكون هناك للمشاركة في مسؤوليّة اتّخاذ القرارات التي كانت تتبدّى، بالرغم من كل ما بُذل، شديدة الفظاعة. وفي نهاية الصيف الثاني من الحملة حزمت أمتعتي للسفر؛ وحزم «أوفوريون» مرّة جديدة الضروريَّ من الملابس التي دعكها الاستعمال بعض الدعك، وكان قد صنعها قبلاً حِرفيٌّ من «إزمير»، وصندوقَ الكتب والخرائط، والتمثالَ العاجيّ الصغير الذي يشخّص «الطالع الإمبراطوري» ومصباحَه الفضيّ؛ ونزلت في «صيدون» مع مطلع الخريف.

الجيش هو أقدم مِهنة امتهنتها؛ وما كنت لأعود إليه قطّ من غير أن أكافأ على ما ألقى من إرهاق وعنت ببعض التعويضات الداخليّة؛ ولست نادماً على قضاء السنتين الأخيرتين الحافلتين بالنشاط من وجودي أشاطر الفيالق فظاظة الحملة الفلسطينيّة وكآبتها. وكنت قد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غدوت من جديد ذلك الرجلَ المتدثّر بالجلْد والحديد، الواضعَ جانباً كلّ ما ليس مُلِحّاً في الحال، المسنودَ وحسَبُ بالأنماط التقليديّة لحياة خشنة، الأبطأَ قليلاً ممّا كان في الماضي بامتطاء الحصان أو الترجّل عنه، الأكثَر عبوساً بعض الشيء، بل ربّما الأكثَر اكتئاباً، المحاطَ كما على الدوام بالعساكر (الآلهة وحدها تعلم لماذا) المتفانين تفانياً تعبّدياً وأَخَوِيّاً معاً. وصادفتني خلال هذه الإقامة الأخيرة وسط الجيش مصادفةٌ لا تُقدَّر بثمن: اتّخذت لي مرافقاً فتى نبيلاً اسمه «سيلر» ما لبث أن تعلّقت به. إنّك تعرفه؛ فهو لم يفارقني. وكنت مُعْجَباً بهذا الوجه الشبيه بوجه «مينرڤا» مكلّلاً بخوذة، بيد أنّه كان للحواسّ بوجه الإجمال من الحظّ في تلك العاطفة القليلُ الذي يمكن أن يكون مادام المرء حيّاً. وإنّي لأوصيك بـ «سيلر»: فهو يملك كلّ الصفات المطلوبة في ضابط يتبوّأ المرتبة الثانية؛ بل إنّ خصاله الحميدة لتمنعه إلى الأبد من التقدّم إلى المرتبة الأولى. ومرّة أخرى التقيت، في ظروف تختلف عن ظروف الماضي بعض الاختلاف، واحداً من أولئك الأشخاص الذين يكون المصيرُ في الإخلاص لهم ومحبّتِهم ونفعِهم. ومُذ عرفت «سيلر» فإنّه لم يفكّر في غير راحتي أو سلامتي؛ ومازلت أستند على هذه الكتف الثابتة.

وفي ربيع العام الثالث من الحملة حاصر الجيش قلعة «بيتار»، وهي وكر نسرٍ قاوم فيه «شمعون» وأنصاره طوال ما يقارب السنة آلامٍ الجوع والعطش والقنوط، ورأى فيه «ابن النجم» أتباعه يموتون واحداً بعد واحد من غير أن يرضى بالاستسلام. وكان جيشنا يقاسي تقريباً ما يقاسيه العُصاة: فقد أحرق هؤلاء وهم ينسحبون البساتين،

وخربوا الحقول وذبحوا الماشية ولوّثوا الآبار بإلقاء موتانا فيها؛ وكانت تلك الطرائق الوحشيّة مقيتة، وقد طُبّقت على تلك الأرض القاحلة بطبيعتها والمتآكلة حتىّ النخاع بفعل قرون طويلة من الحماقات وسورات الحنق. وكان الصيف حارّاً وضارّاً بالصحّة؛ وأبادت الحُمّى والزُّحار عساكرنا؛ واستمرّ انضباط رائع يسود فيالقنا المجبَرة في آن معاً على التبطّل والحَذَر؛ وكان يدعم الجيش المُنْهَك والمريض نوع من الغضب الصامت كان قد انتقل إليّ؛ فلم يعُد جسدي يحتمل كما في السابق متاعب القتال، ولا الأيّام القائظة، ولا الليالي الخانقة أو القارسة، ولا الريح العاتية ولا الغُبار الصرصر؛ وكان يحدث لي أن أترك في قصعتي الدهن والعدس المسلوق، طعام المعسكر المألوف؛ وأبقى على الطّوى. وكنت أحمل معي سُعالاً مُمِضّاً أصابني قبل ذلك بكثير في أثناء الصيف؛ ولم أكن الوحيد في ذلك. ولقد حذفت من رسائلي إلى مجلس الشيوخ الصيغة الإلزاميّة التي تتوّج البلاغات الرسميّة: «الإمبراطور والجيش بخير». فقد كان الإمبراطور والجيش على العكس من ذلك في ضَنْك شديد. وفي المساء، بعد آخِر حديث مع «سيفروس»، وآخِر مقابلة مع الجنود الفارّين، وآخِر بريد قادم من «روما»، وآخِر رسالة من «پوبليوس مارسيلوس» المكلَّف بتنظيف جوار «أورشليم» [القدس] أو «روفوس» المشغول بإعادة تنظيم «غزّة»، كان «أوفوريون» يكيل بتقتير ماء استحمامي في حوض من القُماش المطليّ بالقَطِران؛ وكنت أستلقي على سريري؛ وأحاول التفكير.

ولست لأُنكر: لقد كانت حرب «اليهوديّة» هذه إخفاقاً من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إخفاقاتي. ولم تكن جرائم «شمعون» ولا جنون «عقيبة» من صنعي، بيد أنّي كنت آخذ على نفسي أنْ كنتُ أعمى في «أورشليم» [القدس] ولاهياً في «الإسكندرية» ونزقاً في «روما». فلم أكن قد أحسنت إيجاد الأقوال التي كان من الممكن أن تَقِيَ من، أو على الأقلّ أن تؤخّر، ذلك الدفق من سخط الشعب؛ ولا كنت قد أحسنت أن أكون في الوقت المناسب مرِناً أو حازماً بما فيه الكفاية. ولم يكن هناك بالطبع مكان للقلق، وأقلّ منه للقنوط؛ فلم يكن الخطأ والغلط في الحساب إلّا في علاقاتنا ببني إسرائيل؛ فقد كنّا نجني في كلّ مكان خارج هذا المكان، وفي أوقات الأزمة هذه ثمرة ستّة عشر عاماً من السخاء في «الشرق». وكان «شمعون» قد ظنّ أنّ في وسعه المراهنة على ثورة في العالم العربي شبيهة بالتي طبعت السنوات الأخيرة القاتمة من حُكْم «تراجان»؛ بل لقد تجرّأ أكثر من ذلك على المراهنة على العون «الپارتيّ». ولقد أخطأ، وأدّى هذا الغلط في الحساب إلى موته البطيء في قلعة «بيتار» المحاصَرة؛ فقد تخلّت القبائل العربيّة عن معاضدة الجماعات اليهوديّة؛ وكان «الپارتيُّون» أمناء على المعاهدات. بل إنّ الكُنُس في المدن الشاميّة الكبرى بدت متردِّدة أو معتدِلة: وكانت أشدّها حماسة تكتفي بإرسال بعض المال سرّاً إلى «غُلاة المتديّنين»؛ وحافظ سكّان «الإسكندرية» من اليهود على هدوئهم، على الرغم من أنّهم شديدو الإزعاج والمشاغبة؛ وظلّ الدمّل اليهودي محصوراً في المنطقة الجرداء الممتدّة بين «نهر الأردن» والبحر؛ وكان بالإمكان كَيٌّ هذه الإصبع المريضة أو بَتْرُها من دون أخطار. ومع ذلك فقد بدا أنّ الأيّام الرديئة التي سبقت حُكمي مباشرة بدأت تعاود بمعنى من

المعاني. لقد أضرم «كيتيوس» قديماً النار في «كيرينيا» [مدينة قديمة كانت عاصمة المنطقة الشرقيّة من «ليبيا»] وأعدم وجهاء «اللاذقيّة» واستعاد «الرُّها» أطلالاً... وأنبأني بريد المساء أنّنا كنّا قد استعدنا مكاننا فوق كومة الحجارة المهدّمة التي كنت أدعوها «أيليا كاپيتولينا» وكان اليهود لايزالون يسمّونها «أورشليم» [القدس]؛ ولقد أحرقنا «عسقلان»؛ وانبغى إعدام العُصاة في «غزّة» بالجملة... وإذا كانت ستّة عشر عاماً من حُكْم أمير مُسالم إلى حدّ التدلُّه قد أدّت إلى حرب «فلسطين» فإنّ حظوظ السلم في العالم كانت تبدو هزيلة في مستقبل الأيّام.

ورفعتُ نفسي على مِرفقي منزعجاً في سريري الضيّق الخاصّ بالمعسكر. لقد أفلت بالطبعِ بضعة من اليهود على الأقلّ من عدوى المغالاة في التديّن: فحتّى في «أورشليم» [القدس] كان بعض «الفرّيسيّين» يبصقون لدى مرور «عقيبة» وينعتون بالمجنون الخِرف ذلك المتعصّب الذي كان يذرّي في الريح امتيازات السلام الروماني المتينة ويصرخون به أنّ العشب سوف ينمو في فمه قبل أن يرى على الأرض انتصار بني إسرائيل. بيد أنّني كنت أفضّل هؤلاء الأنبياء المزيّفين على أولئك المُنساقين مع النظام الذين كانوا يزدروننا في الوقت الذي يعتمدون فيه علينا لنحمي لهم ذهبهم الموظّف لدى الصيارفة الشاميّين وفي مزارعهم في «الجليل»، من ابتزاز «شمعون». وكنت أفكّر في الجنود الفارّين الذين كانوا قد جلسوا قبل بضع ساعات تحت هذه الخيمة أذلّاء مُسْتَرْضِين محتقَرين، ولكن مدبِّرين أمرهم مع ذلك لإدارة ظهورهم إلى التمثال الذي يمثّل «طالعي». وكان أفضل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عملائنا، «أيليا بن عبياد»، وهو يقوم من أجل «روما» بدور المخبر والجاسوس مُحْتَقراً من كلا الفريقين؛ ومع ذلك فقد كان أذكى رجال الجماعة، وكان فكراً متحرّراً وقلباً مريضاً متجاذَباً بين حبّه لشعبه وميله إلى آدابنا وإلينا؛ ومن جهة ثانية كان هو أيضاً في حقيقة الأمر لا يفكّر إلاّ في بني إسرائيل. ولم يكن «يوشع بن قسمة» وهو يبشّر بالسلام سوى «عقيبة» آخر أكثر حياءً أو أشدّ نفاقاً؛ ولقد أحسست، حتّى لدى الحاخام «يهوذا» الذي كان طويلاً مستشاري في الشؤون اليهودية، وراء المرونة والرغبة في الإرضاء التباينات التي لايمكن التوفيق بينها، والنقطةَ التي لا يلتقي فيها تفكيران من نوعين متضادّين إلاّ ليقتتلا. وكانت الأراضي التي نسيطر عليها تمتدّ على مئات الفراسخ وآلاف المراحل خلف هذا الأفق الجافّ من التلال، غير أنّ صخرة «بيتار» كانت هي حدودنا؛ وكان في مقدورنا ملاشاة الأسوار الكثيفة في تلك القلعة التي كان «شمعون» ينفّذ فيها انتحاره بشكل مسعور؛ ولم يكن في استطاعتنا مَنْعُ ذلك العِرق من قولة لا.

كانت بعوضة تطنّ؛ وكان «أوفوريون» الذي بدأ يشيخ قد أهمل إحكام أستار الكِلّة الرقيقة؛ وكانت كتبٌ وخرائط ملقاةٌ على الأرض تَصِرُّ بفعلِ الريح الواطئة الزاحفة من تحت الجوانب القماشيّة. وانتعلت خُفَّيَّ وأنا جالس على السرير وبحثت وأنا أحدس عن ثوبي وحزامي وخنجري؛ وخرجت أستنشق هواء الليل. وجُبْت شوارع المعسكر الكبيرة المنتظمة، الخالية في هذه الساعة المتأخرة، المضاءة كما تُضاء شوارع المدن؛ وأخذ بعض الموظّفين يحيّونني بإجلال لدى مروري؛ وإذ حاذيت مجموعة الأكواخ المستعملة مستشفى فقد كنت

أتنشّق الرائحة الماسخة المنبعثة من المصابين بالزُّحار. وتوجّهت إلى جُشمة التراب التي تفصلنا عن الهاوية وعن العدو. وكان ديدبان يسير بخطى واسعة منتظمة فوق هذا الطريق المخصّص للحراسة وقد رسمه القمر بشكل خطِر؛ وعرفت في هذا الذهاب والأياب حركة لولبٍ من لوالب الآلة الضخمة التي كنتُ أنا مِحْورَها؛ وهزّني لحظة مشهد ذلك الطيف المتوحِّد، وتلك الشعلة المقتضبة المتوقِّدة في صدر إنسان وسط عالم من الأخطار. وصفر سهم يكاد يكون أكثر إزعاجاً من البعوضة التي كدّرتني تحت خيمتي؛ وارتفقْتُ أكياس الرمل التي تؤلِّف جدار الحرم.

ينسبون إليّ منذ بضع سنين رؤى غيبيّة عجيبة وأسراراً علويّة. وإنّهم لمخطئون، وأنا لا أعرف شيئاً. غير أنّ الحقيقة هي أنّي خلال ليالي «بيتار» تلك رأيت أشباحاً مزعجة تمرّ أمام عينيّ. وكانت المناظر المنفتحة أمام الذهن من أعلى تلك التلال الجرداء أقلّ جلالاً من التي يقدّمها «جانيكول» [مجموعة تلال على الضفّة اليمنى من نهر «التيبر» في «روما»] وأقلّ تذهيباً من مناظر «سونيون»؛ كانت تمثّل الظَّهْر والنظير. وكنت أقول لنفسي إنّه من العبث جدّاً أن يُرجى لِـ «أثينا» ولِـ «روما» ذلك الخلود الذي لا يُمنح للناس ولا للأشياء، والذي يرفضه أَحْكَمُنا حتّى للآلهة، وأنّ هذه الأشكال المدروسة والمعقّدة الخاصّة بالحياة، وتلك الحضارات الرافلة في رهافاتها الخاصّة بالفنّ والسعادة، وهاتيك الحرّيّة الخاصّة بالفكر المُسْتَعْلِم والمحاكِم، خاضعة لما لا يُحصى من حظوظ نادرة، ولظروف شبه مستحيلة الاجتماع ولا ينبغي توقُّع رؤية دوامها. وأنّنا قد نقضي على «شمعون»؛ ويتمكّن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أريان» من حماية «أرمينية» من الهجمات «الألنية». بيد أنّ جحافل أخرى سوف تأتي، ويأتي أنبياء مزيَّفون آخرون. ولن يكمل خلفاؤنا جهودنا الضعيفة المبذولة لتحسين وضع البشر إلاّ كيفما اتّفق؛ ولسوف تنمو على العكس من ذلك، خلال العصور، بذرة الخطأ والتهديم الكامنة في الخير نفسه. ويبحث العالم الذي تعب من وجودنا عن سادة آخرين؛ ويبدو بلا طَعْم ما بدا لنا حكيماً، وكريهاً ما بدا لنا جميلاً. وربّما كان الجنس البشري، شأنُه شأنُ من لَقِنَ أسرار الإلّه «ميترا»، بحاجة إلى حمّام الدّم والانتقال بين الفينة والفينة إلى الحفرة الجنائزيّة. وكنت أشهد عودة القوانين الوحشيّة، والآلهةِ القساة القلوب، وطغيانِ الأمراء البرابرة الذي لا مِراء فيه، والعالمِ المقطّع دولاً متعادية، الواقعِ أبداً فريسة لعدم الأمان. ولسوف يذهب ويجيء ديادبة آخرون مهدَّدون بالسهام على درب الحراسة في مدن المستقبل؛ ولسوف تستمرّ اللعبة الخرقاء الداعرة العاتية، ويضيف إليها الجنس البشري ولا شكّ وهو يطعن في السنّ فنوناً جديدة من الفظاعة. وزماننا الذي أعرف أكثر من أيّ كان نواقصه وعيوبه قد يُعتبر يوماً، بمقارنة الضدّ بضدّه، أحد عصور البشريّة الذهبيّة.

الطبيعة تخوننا، والحظّ يتغيّر، وهناك إلّه يرى من علٍ كلّ هذه الأمور. كنت أداعب في إصبعي فصّ الخاتم الذي أمرت ذات يوم من أيّام المرارة بنقش هذه الكلمات الحزينة عليه؛ وأذهب إلى أبعد من ذلك في التقزّز، بل ربّما في التجديف؛ وانتهى بي الأمر إلى أن وجدت من الطبيعي، إن لم يكن من العدل، أنّه ينبغي أن نهلك. فآدابنا تنضب، وفنوننا تهجع؛ وليس «پانكراتيس» هو «هوميروس»؛

ولا «أريان» هو «زينوفون»؛ وعندما جرّبت أن أخلّد في الحجر شكل «أنتينويوس» لم أعثر على مثّال مثل «پراكسيتيل». وعلومنا تراوح منذ «أرسطو» و«أرخميدس»؛ ولن تصمد تطوّراتنا التقنيّة أمام ما تحدثه حرب طويلة من تلف؛ وحتى شهوانيّونا أنفسهم يتقزّزون من السعادة. وإنّ تلطيف العادات وتقدّم الأفكار خلال القرن الأخير لهما من صنع أقلّية ضئيلة من العقول الجيّدة؛ وتظلّ الجماهير جاهلة، متوحّشة إذا قَدِرَتْ على ذلك، أنانيّة ومحدودة على كلّ حال، وهناك أمل كبير في المراهنة على أنها ستبقى دائماً كذلك. ولقد أفسد عملَنا سلفاً كثيرٌ من الولاة والجباة الجشعين، وكثيرٌ من الشيوخ الحذرين، وكثيرٌ من قُوّاد المئة الجُفاة؛ وليس الوقت متاحاً للإمبراطوريات أكثر مما هو للناس للتعلُّم من أخطائهم. وحيث يكون في وسع حائك ترقيعُ قُماشه، وحاسبٍ ماهر إصلاحُ أخطائه، وفنّانٍ وَضْعُ اللمسات لإنجاز رائعته التي لمّا تُنجَزْ أو التي أصابها بعض الضرر، فإنّ الطبيعة تُؤْثر أن تنطق مجدّداً من الصلصال، من السديم، وهذا التبذير هو ما ندعوه نظام الأشياء.

ورفعت رأسي؛ وتحرّكت لكي أستعيد نشاطي. وكانت موجات من الوميض آتية من أعلى قلعة «شمعون» تكسو السماء بالحُمرة. وهي تجلّيات لا تفسير لها لحياة العدوّ الليليّة. وكانت الريح تهبّ من «مصر»؛ ومرّت عجاجة غبار كالطيف؛ وذكّرتني صور التلال الجانبيّة المسحوقة بالسلسلة العربيّة في ضوء القمر. ورجعت على مهل وأنا أستر فمي بذيل معطفي، حانقاً على نفسي أنّي صرفت في تأمّلات جوفاء عن المستقبل ليلةً كان بإمكاني استخدامها في التحضير لليوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التـالي أو في النوم. إنّ انهيـار «روما»، إذا حصـل، سوف يكـون من شأن خلفائي؛ وكانت مهمّتي، في هذا العـام السابـع والتسعين بعـد الثمانمئة من العهد الروماني، تتمثّل في خنق الثورة في «اليهوديّة»، وفي إرجاع جيش مريض من «الشرق» من غير خسائـر كبيرة. وكنت وأنـا أجتـاز الساحـة أزلق أحيانـاً في دمّ ثائـر أُعدم البـارحـة. ورقـدتُ في سريري وأنا بكامل ملابسي؛ وما هي إلاّ ساعتان حتّى أيقـظتني طبول الفجر.

كنت طَوال حياتي قد عشت بسلام مع جسدي؛ ولطالما اعتمدت ضمناً على وداعته، وعلى قوّته. وبدأتْ عُرى هذا الحِلف الوثيق تنحلّ؛ وتوقّف جسدي عن أن يكون شيئاً واحداً هو وإرادتي، هو وعقلي، هو وما ينبغي أن أدعوه بطيشٍ روحي؛ ولم يَعُدِ الرفيقُ الذكيُّ الذي كان بالأمس، سوى عَبْدٍ نَفُورٍ من مهمّته. لقد كان جسدي يهابني؛ وأخذت أحسّ باستمرارٍ في صدري وجوداً غامضاً للخوف، وانقباضاً لم يكن قد أصبح بَعْدُ ألماً، وإن كان الخطوة الأولى نحوه. وكنت قد أَلِفْتُ الأَرَق من زمن طويل، بيد أنَّ النومِ كان قد أصبح مذّاك أسوأ من عدمه؛ إذ كنت لا أكاد أغفو حتّى أصحو صَحَوَاتٍ فظيعة. وكنت نهباً لآلام في الرأس كان «هيرموجين» يعزوها إلى حرارة الجوّ وثقل الخوذة؛ وكنت أجلس في المساء، بعد جولات طويلة من التعب، كما يحدث للمرء أن يسقط؛ وكان القيام لاستقبال «روفوس» أو «سيڤروس» مجهوداً كنت أهيِّئُ له نفسي مدّة طويلة سلفاً؛ وكان مِرفقاي يثقلان على ذراعيْ مَقعدي؛ وساقاي ترتجفان ارتجاف ساقيْ عدّاء منهوك. وكانت أقلّ حركة تغدو سُخْرة، ومن مجموع تلك السُّخرات كانت الحياة.

وأظهر للنور حادثٌ يكاد يكون مضحكاً، وعكةٌ من التي تُلِمّ بالأطفال، المرضَ المستخفيَ وراء التعب. فقد أصابني رُعاف لم آبه له كثيراً في البداية طَوال جلسة مع أركان الحرب؛ واستمرّ كذلك مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجبة المساء؛ واستيقظت في الليل مبلّلاً بالدم. وناديت «سيلر» النائم داخل الخيمة المجاورة؛ وأخطر بدوره «هيروجين»، غير أنّ الدفق الدافئ استمرّ. وأخذت يدا الضابط الشابّ المؤاسيتين تمسحان ذلك السائل الذي كان يلطّخ وجهي؛ وعند الفجر أصابتني رجّة كالتي تصيب المحكومين بالإعدام في «روما» الذين يقطعون أوردتهم داخل حمّامهم؛ وراحوا يدفئون ما استطاعوا، بالأغطية وسكب الماء الحارّ، ذلك الجسد الذي بدأ يتجمّد؛ وكان «هيرموجين» قد وصف الثلج لوقف نزف الدم؛ ولم يكن متوافراً في المعسكر؛ ولقاء ألف صعوبة استقدم «سيلر» كميّة منه من أعلى قمم «جبل الشيخ». وعلمت فيما بَعْدُ أنّه فُقِد الأمل في عيشي؛ ولم أكن أنا نفسي أشعر بأنّي مرتبط به إلّا بأدقّ الخيوط، خيط لا يكاد يُرى، كذلك النبضِ السريع الذي كان يروّع طبيبي. ومع ذلك فقد توقّف النزيف الذي لم يكن هناك ما يفسّره؛ وغادرت السرير؛ وألزمت نفسي بالعيش كالمعتاد؛ ولم أتمكّن من ذلك. وذات مساء، ولم أكن قد أبللت تماماً بَعْدُ، حاولت بطيش القيام بنزهة قصيرة على حصاني فتلقّيت إنذاراً ثانياً أكثر خطورة من الأوّل. وشعرت للحظة بنبضات قلبي تتسارع ثمّ تبطئ فتنقطع فتتوقّف؛ وخُيِّل إليّ أنّي أسقط كحجر في لست أدري أيّة بئر سوداء كانت ولاشكّ هي الموت. وإذا كان ذلك هو الموت فإنّ المرء يخطئ إذا ادّعى أنّه صامت: كانت تتقاذفني شلّالات، وكنت مثل غوّاص أصمّه هدير المياه. ولم أبلغ القعر؛ وطفوت على السطح؛ وأخذت أختنق. وكانت كلّ قوّتي في تلك اللحظة التي كنت قد اعتقدت أنّها الأخيرة مجتمعةً في يدي المتشبّثةِ بذراع «سيلر» الواقف

إلى جانبي: لقد أراني فيما بَعْدُ أثر أصابعي على كتفه. غير أنّه ينطبق على ذلك الاحتضار المقتضب ما ينطبق على جميع التجارب التي يمرّ بها الجسد: إنّه يجلّ عن الوصف، ويظلّ، شئنا أو أبينا، سرّ الإنسان الذي عايشه. ولقد اجتزت مذّاك أزمات مشابهة، ولكنّها لم تكن قطّ متماثلة، ولا ريب في أن المرء لا يحتمل المرور مرّتين بمثل هذا الرعب وذلك الليل من غير أن يموت. وانتهى الأمر بـ «هيرموجين» إلى تشخيص استقساء في القلب؛ ولقد انبغى القبول بحجز الحرّيّة الذي فرضه عليّ هذا الداء وقد أصبح بغتة سيّدي، والموافقة على مدّة طويلة من التبطّل، إن لم يكن من الراحة، وتحديد أبعاد حياتي لمدّة من الزمن في إطار السرير. وكنت أخجل تقريباً بذلك الداء الكامن في داخلي فلا يكاد يُرى، ولا هو مصحوب بارتفاع في الحرارة ولا بخُراجٍ ولا بآلام في الأحشاء، ولا أعراض له سوى نَفَسٍ أشدّ انبهاراً بعض الشيء وأثرٍ شاحب يتركه سَيْر النعل في القدم المنتفخة.

وساد هدوء خارق للعادة حول خيمتي؛ وبدا كأنّ معسكر «بيتار» برمّته قد أضحى غرفة مريض. وأخذ الزيت العطر المحترق عند قدمي «طالعي» يُثْقِل أكثر فأكثر الهواءَ المتضمَّن في ذلك القفص القماشي؛ وكان ضجيجُ كُورِ الحِدادة المنبعثُ من شراييني يذكّرني بشكلٍ مُبْهَم بجزيرة «العماليق» عند حافّة الظلام. وفي أوقات أخرى كان ذلك الضجيج الذي لا يُطاق يُمسي ضجيج إحضار فرس فوق أرضٍ رخوة؛ وأخذ هذا الذهن الملجوم بعناية خلال ما يقرب من خمسين عاماً، بالشرود؛ وشرع هذا الجسم المديد يطفو على غير هدى؛ وكنت راضياً بأن أكون ذلك الإنسان المنهوك الذي يَعُدّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مذهولاً النجومَ والمُعَيَّنات التي يتألَّف منها الغِطاء المُلْتَحِف به؛ وكنت أرى في العتمة البقعة البيضاء لتمثال نصفي؛ وكانت ترتفع من غَيْهَبِ عُمْرُه أكثرُ من نصف قرن أنشودةٌ في تمجيد «إيپونا»، إلهة الخيول، كانت تنشدها بصوت خافت فيما مضى مربّيتي الإسبانيّة، وهي امرأة طويلة القامة كئيبة الوجه شبيهة بـ «پارك»[إحدى إلهات «القَدَر» الرومانيّات الثلاث]. وبدت الأيّام، ثمّ الليالي، وكأنّها مَقِيسة بالقطرات السمراء التي كان «هيرموجين» يَعُدُّها قطرةً قطرةً في فنجان من الزجاج.

كنت في المساء أستجمع قواي للاستماع إلى تقرير «روفوس»: كانت الحرب مشرفة على نهايتها؛ وكان «عقيبة» الذي انسحب في ظاهر الأمر من الشؤون العامّة منذ بداية المعارك قد انصرف إلى تعليم الشريعة اليهوديّة في مدينة «عصفة» الصغيرة في «الجليل»؛ وكانت قاعة التدريس تلك قد أضحت مركز مقاومةٍ يملكه غُلاة المتديّنين؛ وكانت تانك اليدان اللتان بلغتا تسعين عاماً تُرمّزان رسائل سرّيّة وتنقلانها إلى أنصار «شمعون»؛ ولقد انبغى إعادة أولئك الطلّاب المُتَعَهَّدين بالتعصّب والملتفّين حول ذلك الشيخ إلى منازلهم بالقوّة. وبعد تردّد طويل قرّر «روفوس» منع تدريس الشريعة اليهوديّة بوصفه عملاً تحريضيّاً؛ وما هي إلاّ أيّام حتّى قُبض على «عقيبة» الذي خالف ذلك القرار وأُعدم. وهلك معه تسعة آخرون من فقهاء «الشريعة»، وهم روح حزب غُلاة المتديّنين. وكنت قد وافقت على جميع تلك التدابير بهزّة من رأسي. ومات «عقيبة» ومريدوه وهم مقتنعون حتّى النهاية بأنّهم الوحيدون الأبرياء، والوحيدون الذين هم

على حقّ؛ ولم يفكّر أيّ منهم بالاعتراف بنصيبه من المسؤوليّة في المصائب التي حاقت بشعبه. وإنّهم ليُحسدون لو كان بالإمكان أن يُحسد العُميان. ولست لأرفض أن يُغدق على هؤلاء المتأجّجين العشرة لقب الأبطال؛ وعلى كلّ حال فإنّهم لم يكونوا عقلاء.

وبعد ثلاثة أشهر جلست ذات صباحٍ باردٍ على قمّة تلّة مُسْنِداً ظهري إلى جذع شجرة تين عارية من أوراقها لأشاهد الهجوم الذي سبق ببضع ساعات تسليم «بيتار»؛ ورأيت آخِر المدافعين عن القلعة يخرجون الواحد تلو الآخر شاحبين معروقين كريهين، وهم مع ذلك جميلون مثل كلّ ما هو صعب الترويض. وفي آخر الشهر نفسه طلبت أن أُحمل إلى المكان المعروف بجُبّ «إبراهيم» حيث حُشد الثائرون الذين قُبض عليهم وهم شاهرون أسلحتهم وسط التجمّعات السكنيّة وبيعوا بالمزاد؛ وكان أولاد متضاحكون، وقد ظهرت شراستهم قبل أوانها وشوّهتهم قناعات لا تريم، يفاخرون بصوت مرتفع بأنّهم سبّبوا موت عشرات من جنودنا، وشيوخ متقوقعون في حلم من أحلام المُرَوْبَصين، وسيِّداتٌ مسنّات مترهّلاتٌ، وأخريات مختالات ومقطِّبات على طريقة «الأمّ الكبرى» في ديانات «الشرق»، يسيرون في عرضٍ تحت أبصار النخّاسين؛ ومرّ ذلك الحشد من أمامي وكأنّه عجاج. وفي ذلك الزمن على وجه التقريب قضى «يهوذا بن قسمة» زعيم مدّعي الاعتدال على أثر مرض طويل، وكان قد أخفق في أداء دور المبشّر بالسلام؛ وقد مات وهو يبتهل بأن تقوم حرب أجنبيّة وينتصر «الپارتيّون» علينا. ومن جهة ثانية فإنّ اليهود المتنصّرين الذين لم نزعجهم، والذين يحقدون على سائر الشعب اليهودي لاضطهاده

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نبيّهم، رأوا فينا أدوات غضب إلّهي. واستمرّت السلسلة الطويلة من الهذيانات ومواقف سوء التفاهم.

ومنعت لافتة وُضعت عند موقع «أورشليم» [القدس] اليهودَ من الإقامة مجدّداً في كومة الأنقاض تحت طائلة الموت؛ وقد أعادت نَسْخَ العبارة التي كانت منقوشة من قبل على باب الهيكل لمنع دخوله على غير المختونين، نَسْخَها بحذافيرها. وكان لليهود الحقّ في المجيء يوماً في السنة، اليوم التاسع من شهر آب، (أغسطس)، للبكاء أمام الحائط المهدَّم. وقد رفض أكثرهم ورعاً مغادرة مسقط رأسهم، وأقاموا كأحسن ما في وسعهم الإقامة في أقلّ المناطق خراباً من جرّاء الحرب؛ وهاجر أكثرهم تعصّباً إلى بلاد «البارتيّين»؛ وذهب آخرون إلى «إنطاكية» و«الإسكندرية» و«برغما»؛ وانطلق أكثرهم رخاء إلى «روما» حيث نعموا بالازدهار. وشطبت «اليهوديّة» من الخريطة وأُطلق عليها بناء على أمرٍ منّي اسم «فلسطين». وكانت قد خربت وأبيدت خلال أعوام الحرب الأربعة تلك خمسون قلعة وأكثر من تسعمئة مدينة وقرية؛ وخسر العدوّ ما يقرب من ستّمئة ألف نسمة؛ وأفقدتنا المعارك والحمّيات المحلِّية والأوبئة زهاء تسعين ألف نسمة. وتبعت أعمال إعمار البلاد مباشرةً أعمالَ الحرب؛ فأُعيد بناء «أيليا كابيتولينا»، بدرجة أكثر تواضعاً على كلّ حال؛ وإنّه لينبغي على الدوام أن يُبدأ من جديد.

استرحت بعض الوقت في «صيدون» حيث أعارني تاجر إغريقي بيته وحدائقه. وكانت الأفنية الداخليّة قد اكتست في شهر آذار (مارس) بالورود. وكنت قد استعدت بعض قواي: بل لقد وجدت

في هـذا الجسد الـذي كان عنف الأزمـة الأولى قد أوهنـه قبلاً مـواردَ مدهشة. وما كان أحد ليعرف شيئاً عن المرض مادام لم يعترف بشَبَهِـه العجيب بالحرب والحبّ: بتسوياته ومخادعاته ومتـطلّباتـه وهذا الخليط الغريب الفريد الناتج عن مزاجٍ وألم. ولقد بدأت صحّتي بالتحسُّن، بيد أنّي كنت أعمد إلى الاحتيال على جسدي، إلى فرض رغبـاتي عليه أو الإذعان بحذر إلى رغباته، بالقدر الـذي تفنّنت فيما مضى ببـذله في تـوسيع عـالمي وتنظيمـه، في بنـاء شخصي وتـزيـين حيـاتي. وعـدت بـاعتدال إلى التمـرينـات الـريـاضيّـة؛ ولم يحـظّر عـليّ طبيبي ركـوب الحصـان، غـير أنّـه لم يَعُـدْ سـوى وسيلة انتقـال؛ فلقـد عـدلت عن البهلوانيّات الخطِرة التي كنت أمارسها فيما مضى. وفي أثناء كـلّ عمل وكلّ متعة، ولم يكن العمل والمتعة همـا الأساس، كـان همّي الأوّل هو أن أخرج من غير إحساس بالتعب. ولقد أُعجب أصدقـائي من ذلك الإبلال الذي كان في الظاهر بمنتهى الكمال؛ وكانوا يجهـدون في الظنّ بـأنّ ذلك المـرض لم يكن ناجمـاً إلّا عن الجهـود المفـرطـة في سنـوات الحرب هذه، وأنّه لن يعاود أبـداً؛ وكان حكمي عليـه مُغايـراً؛ كنت أفكّـر في الصنوبـرات السامقـة في أحراج «بيتينيـا» وقد أشّر الحـطّاب بمقطع من لحائها ليعود في الموسم القادم لإنزالها من عليائها. وحـوالي نهايـة الربيـع أبحرت إلى «إيـطاليا» عـلى عمارة متعـدّدة السـطوح من عـمارات الأسطول؛ وحملت معي «سيلر» الـذي لم أعد أستغني عنـه، و«ديوتيم دو غادارا»، وهـو شاب إغـريقي من نسل الـرقيق التقيته في «صيـدون» وكان جميـلاً. وكانت طـريق العـودة تقـطع «الأرخبيـل»؛ وكنت لآخر مرّة في حيـاتي ولاريب أشاهـد قفزات الـدلافين في الميـاه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الزرقاء؛ وأرقب، من غير أن أفكّر بعدُ في استلهام البشائر، طيرانَ الطيور المهاجرة الطويل المنتظم، ووقوعها أحياناً بشكل ودّي على متن السفينة للاستراحة؛ وألَذُّ رائحةَ الملح والشمس فوق الجلد البشري، وعَبَقَ المُصْطِكا والبُطم في الجزر التي يودّ المرء العيش فيها ويعرف سلفاً أنه لن يتوقّف عندها. ولقد تلقّى «ديوتيم» ذلك التعليم الأدبي المتقن الذي كثيراً ما يُزوِّد به العبيد الشباب الموهوبون سحرَ الجسد للرفع أكثر فأكثر من قيمتهم؛ وكنت أستمع إليه في الغسق وأنا مُسْتَلْقٍ تحت خُييمة أرجوانيّة يقرأ لي كتاباتِ شعراءٍ من بلاده إلى أن يمحو الليل بالتمام الخطوط التي تصف عدم اليقين المأساوي في حياة البشر، وتلك التي تتحدّث عن الحمائم وأكاليل الورود والأفواه المقبَّلة. وكانت تعبق من البحر أنفاس رطبة؛ وترتفع النجوم واحدةً واحدةً إلى الأماكن المعيَّنة لها؛ وتنساب السفينة المائلة مع الريح نحو «الغرب» حيث مايزال مخطوطاً زِيقٌ أخير أحمر؛ وكان ثَلْمٌ متوهِّج يمتدّ خلفنا ولا تلبث أن تغطّيه كتل الأمواج السوداء. وكنت أردّد لنفسي أنّ هناك قضيّتين مهمّتين فقط بانتظاري في «روما»؛ الأولى كانت اختياري خلفي، وهي تشغل الإمبراطوريّة بأسرها؛ وكانت الأخرى موتي، وهي لا تعني سواي.

كانت «روما» قد أعدّت لي تكريماً قَبِلْتُه هذه المرّة. وما كنت لأقاوم هـذه العادات التي هي جليلة وغـير مجدية في آن؛ فكلّ مـا يُـبرز إلى النور جهد الإنسان، حتّى وإن ليومٍ واحد، كان يبدو لي مريحـاً بإزاء عالِم شديد المسارعة إلى النسيان. ولم يكن الأمر محصوراً في قضيّة قمع الثورة اليهوديّة؛ فلقد كنت، بمعنى أعمق ومعـروف مني وحدي، قـد انتصرت. وأشركت في تلك التكريمات اسم «أريان». إذ كان قد كبّد لتوّه الجحافل «الألينيّة» سلسلة من الهزائم ردّتها لمـدّة طويلة إلى ذلـك المـركز المبهم من «آسيـا» الذي كـانوا قـد ظنّـوا أنّهم خـرجـوا منـه؛ وسَلِمت «أرمينية»؛ وبدا أنّ قارئ «زينوفون» قد كان صِنواً لـه؛ فلم يكن قد انطفأ ذلك العِرق من الأدباء الذين يُحسنون القيـادة والقتال. وإذ عـدت في ذلك المسـاء إلى منـزلي في «تيبـور» فقـد تنـاولت بقلب متعب، وإن هادئاً، من يديْ «ديوتيم» النبيذ والبخور اللذين يضحّي بهما «قريني» كلّ يوم.

وكنت قد بدأت بوصفي مواطناً عاديّاً بشراء الأراضي المنبسطة عند سفوح الجبال «السابينيّة» على ضفاف المياه الجارية ورصفها بعضها إلى بعض بالإقبال الطويل النَفَس الذي يبديه فلّاح يوسّع كرومه؛ وكنت قد عسكرت خلال جولتـين إمبراطـوريّتين في تلك الآجـام التي كانت نهباً للبنّائين والمعماريّين، والتي كان شـابٌ مُفْعَم بكلّ تـطيّرات «آسيا» يُطالب بوَرَع بعدم المساس بأشجارها. وكنت لدى عـودتي من رحلتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكبرى إلى «الشرق» قد أبديت نوعاً من الجنون لإنجاز ذلك الديكور الضخم الخاصّ بحجرة كان العمل قد انتهى في ثلاثة أرباعها. وكنت قد عدت إليها هذه المرّة لأنهي فيها أيّامي بأكثر ما يمكن من الاحتشام. وكان كلّ شيء قد نُظِّم فيها لتسهيل العمل والمسرّة: وكان الديوان وقاعة الاجتماعات والمحكمة التي أصدر منها في الدرجة الأخيرة الأحكام في الأمور الصعبة توفِّر عليّ مشقّات الذهاب والإياب بين «تيبور» و«روما». وكنت قد منحت كلاً من تلك المباني اسماً يذكّر بـ «اليونان»: الـ «پوسيل»، الـ «أكاديميّة»، الـ «پريتانيه». وكنت أعلم جيّداً أنّ هذا الوادي الصغير المرزوع زيتوناً لم يكن «تامپيه» [وادٍ في «اليونان»]، غير أنّي كنت قد وصلت إلى العمر الذي يذكّر فيه كلّ موضع جميل بموضع آخر، أجمل منه، والذي تعظُم فيه كلّ مسرّة بذكرى مسرّات سابقة. ولقد رضيت بأن أنصرف إلى ذلك الحنين الذي هو سوداويّة الرغبة. بل لقد أطلقت على ركن مظلم بشكل خاصّ من أركان المنتجع اسم «ستيكس»، وعلى مرج مفروش بشقائق النُّعْمان اسمٍ الـ «شانزيليزيه»، مهيِّئاً نفسي بذلك لعالم آخر تشبه منغّصاته منغّصاتِ عالمنا، ولكنّ مسرّاته السَّديميّة لا تعدِل مسرّاتنا. بيد أنّ الأهمّ هو أنّي بنيت لنفسي في قلب ذلك المُعْتَكَف ملجأ أكثر ابتعاداً، جزيرة صغيرة من المرمر في وسط حوض تحفّ به الأعمدة، غرفة سرّيّة يربطها بالضفّة، أو بالحري يفصلها عنها، جسر دوّار من الخفّة بحيث أستطيع أن أزلقه في مزالقه بيدٍ واحدة. ونقلت إلى هذا الجناح تمثالَيْن محبوبيْن أو ثلاثة، وذلك التمثال النصفي لـ «أغسطس» طفلاً كان قد أعطانيه «سويتون» في أيّام صداقتنا؛

وكنت أذهب إلى الجناح المذكور وقت القيلولة لأنام أو أحلم أو أقرأ. وكان كلبي الراقد بعرض العتبة يمدّ أمامه قائمتيه المتصلّبتين؛ وكان ظلّ يتراقص فوق الرخام؛ و«ديوتيم» يلصق خدّه بجانبٍ مصقولٍ من جوانب فسقيّةٍ طلباً للابتراد. وكنت أفكّر في مَنْ سيخلفني.

ليس لي أولاد، ولست آسفاً على ذلك. ولقد لمتُ نفسي بالطبع في بعض الأحيان، في ساعات الكلال والضعف، على أنّي لم أعبأ بإنجاب ابن كان من الممكن أن يُكمل مسيرتي. بيد أنّ ذلك الندم غير المجدي على الإطلاق يقوم على افتراضين يتساويان في الريْب: افتراض أن يكون الابن بالضرورة امتداداً لنا، وافتراض أن يستحقّ ذلك الرُّكام العجيب من الخير والشرّ، تلك الكتلة من المميّزات الغريبة المتناهية في الصغر التي تؤلِّف شخصاً، أن يُمِدَّ في أجله. لقد استخدمت فضائلي ما وسعني الاستخدام؛ وأفدت من عيوبي، بيد أنّي لا أصرّ بشكل خاصّ على توريث نفسي لأحد. وعلى كلّ حال فإنّ الاستمرار الإنساني الحقيقي لا يكون أبداً عن طريق صلة الدم: إنّ «قيصر» هو الوريث المباشر لـ «الإسكندر»، لا الصبي النحيل الذي وُلد لأميرة فارسيّة في إحدى قلاع «آسيا»؛ وقد كان «أيپامينونداس» يُباهي وهو على فراش الموت بأن تكون بناته هي انتصاراته. ومعظم الرجال الذين يعتدّ بهم التاريخ أنجبوا ذُريّات لا يُؤبه لها، أو هي أسوأ من ذلك: يبدو أنّهم كانوا يستنزفون من ذواتهم مصادر عِرق من الأعراق. وإنّ حنان الأب لفي نزاع شبه دائم مع مصالح الزعيم. ولا يمكن أن يكون الأمر على غير هذه الشاكلة مادام على ابن الإمبراطور تحمّل مساوئ تربية أميريّة هي أسوأها جميعاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالنسبة إلى أمير في مُقبل الأيّـام. ومن حسن الحظّ، مادامت «دولتنـا» قد عرفت كيف تسنّ قاعدة للخـلافة الإمـبراطوريّـة، أن يكون التبنّي هـو هذه القـاعدة: وإنّي لأعـترف هنا بحكمـة «رومـا». وأنـا أعـرف أخطار الاختيار وأخطاءه المُحْتَملة؛ ولا أجهل أنّ العـماية ليست وقفـاً على عواطف الأب؛ بيد أنّ هذا القـرار الذي تتحكّم بـه الفطنـة، أو تُسهم في نصيب منه على الأقلّ، سوف يبدو لي على الـدوام أسمى بما لا يُقـاس من الـرغبـات المُبْهمَـة الصـادرة عن المصـادفـة والـطبيعـة الغليظة. الإمبراطوريّة هي لأشدّ الناس جدارة بها: وإنّـه لأمر جميـل أن يختار رجل أثبت أهليّته في تدبير شؤون الدنيا من يقوم مقامه، وأن يكون هذا القرار المُثقَل بالنتائج امتيازَه الأخير، وأن يكون في الـوقت نفسه آخر خدمة يُسـديها إلى «الـدولة». غـير أنّ ذلك الاختيـار المهمّ جدّاً كان يبدو لي أكثر من أيّ وقت مضى صعبَ التنفيذ.

كنت قد أخذت بمرارةٍ على «تراجان» أنْ عـاند عشرين عـاماً قبـل أن يقرِّر تبنّيً وأنّه لم يفعـل ذلك إلاّ وهـو على فـراش الموت. غـير أنّه مضى نحوٌ من ثمانية عشر عامـاً على اعتـلائي سُدَّة الإمـبراطوريّـة وأنا أُؤجّل بدوري اختيـار خَلَفٍ على الـرغم من المخاطـر التي تحفّ بحياة مليئة بالمغـامرة مثـل حياتي. وكـانت ألف شائعـة كلّها غـير صحيحة تقريباً قـد سرت؛ وألف افتراض قـد تكدّست؛ إلاّ أنّ مـا كان يُنـظر إليه على أنّه السرّ الخاصّ بي لم يكن غيرَ تردّدي وشكّي. وكنت أنـظر حواليَّ: كان الموظّفون الشرفاء كُثُراً؛ ولم يكن أيّ منهم يملك الشمول المطلوب. وكانت أربعون عاماً من النزاهة تقضي لمصلحة «مـارسيوس تـوربو» رفيقي العـزيز في الأيّـام الخوالي ونـائبي الذي لا نـظير لـه في

مجلس القضاء الأعلى؛ بيد أنّه كان في مثل سنّي: كان طاعناً في السن. ولم يكن «يوليوس سيڤروس»، وهو قائد عام ممتاز ومدير جيّد لشؤون «بريطانيا»، يفقه شيئاً في قضايا «الشرق» المعقّدة؛ وكان «أريان» قد أثبت جميع الصفات المطلوبة في رجل «الدولة»، إلاّ أنه كان إغريقيّاً؛ ولم يكن قد آن الأوان بعدُ لفرض إمبراطور إغريقي على أفكار «روما» المسبّقة.

كان «سرڤيانوس» لايزال حيّاً: وكان ذلك العمر المديد يفعل من ناحيته فعل حساب طويل وشكلٍ من أشكال الانتظار. لقد كان ينتظر منذ ستّين عاماً. فمنذ أيّام «نرڤا» كان تبنّي «تراجان» قد شجّعه وخيّب ظنّه في وقتٍ معاً؛ وكان يرجو ما هو أفضل؛ غير أنّ وصول ابن العمّ هذا المشغول على الدوام بالجيوش لاح وكأنّه يضمن له على الأقلّ مركزاً مهمّاً في «الدولة»، ربّما كان المركز الثاني؛ وكان مخطئاً حتّى في هذا: لم يحصل إلاّ على حصّة عجفاء من التشريفات. وكان ينتظر في الحِقبة التي كان قد كلّف فيها عبيده بمهاجمتي عند منعطف غابة من شجر الحور على ضفّة «الموزيل»[أحدروافد نهر «الران»]؛ ولقد استمرّت المبارزة حتّى الموت التي بدأت ذلك الصباح بين الشاب والخمسيني، عشرين عاماً؛ وكان قد شحذ ضدّي ذهنَ السيِّد، وبالغ في تصوير حماقاتي، واستغلّ أدنى أخطائي. وكان مثل هذا العدوّ معلّماً ممتازاً للحَذَر: لقد علّمني «سرڤيانوس» بالإجمال أموراً كثيرة. وبعد ارتقائي سُدّة الحكم كان من الرهافة بحيث تظاهر بالقبول بما ليس منه بدّ؛ وكان قد غسل يديه من مؤامرة القناصل الأربعة؛ ولقد آثرت ألّا ألاحظ ما بقي من رشاش على أصابعه التي كانت لاتزال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسخة. واكتفى من جهته بعدم الاحتجاج إلّا بصوت خافت وعدم الاستنكار إلّا في المجالس الخاصّة السرّيّة. وإذ كان يدعمه في مجلس الشيوخ الحزب الصغير النافذ الذي يضمّ المحافظين غير القابلين للعَزْل ـ وكانوا يعكّرون عليّ مشاريعي الإصلاحيّة ـ فقد استقرّ براحته في دور الناقد الصامت للحُكْم. وحمّلني شيئاً فشيئاً تبعة أختي «پولينيا». ولم يكن قد رُزق إلّا بنتاً تزوّجها شخص يدعى «ساليناتور»، وهو رجل وُلد في العزّ ورفعتُه أنا إلى المرتبة القنصليّة، غير أنّ السلّ فتك به في شرخ الشباب؛ وعاشت ابنة أختي بعده مدّة قصيرة؛ وأمّا ابنهما الوحيد «فوسكوس» فقد جعله جدّه المؤذي يناصبني العِداء. غير أنّ الحقد الذي بيننا حافظ على بعض الشكليّات: لم أساومه على نصيبه من الوظائف العامّة متجنّباً بذلك أن أجلس إلى جانبه في حفلات يمكن أن يقدِّمه فيها عمرُه على الإمبراطور. وكنت لدى كلّ عودة لي إلى «روما» أرضى بحشمة أن أحضر واحدة من تلك المآدب العائليّة التي يأخذ فيها كلّ امرئ حَذْرَه؛ وكنّا نتبادل بعض الرسائل؛ ولم تكن رسائله لتخلو من حدّة ذهن. ومع ذلك فقد أصابني طولُ المدّة بالنفور من ذلك الدَّجَل الماسخ؛ وإمكان إسقاط القناع في جميع الأمور هو أحد الامتيازات النادرة التي أرى أنّ الإنسان يتمتّع بها إذ يشيخ. ولقد رفضت أن أشهد جنازة «پولينيا». وفي أسوأ ساعات البؤس الجسدي في معسكر «بيتار» كانت المرارة الكبرى هي في أن أقول لنفسي إنّ «سرڤيانوس» وصل إلى غايته بسبب خطأي؛ فقد كان ابن الثمانين ذاك المحافظ جدّاً على قواه يدبّر أمره للبقاء على قيد الحياة بعد مريض في السابعة

والخمسين؛ وإذا حدث أن متُّ بلا وصيّة فسوف يعرف كيف يحصل في وقت معاً على أصوات المستائين وموافقة أولئك الذين سيظنّون أنّهم باقون على إخلاصهم لي بانتخاب زوج أختي؛ ولسوف يستغلّ هذه القرابة الهشّة لإفساد ما أنجزت من أعمال. وكنت أردّد لنفسي، طلباً للتهدئة، أنّ بالإمكان أن تحظى الإمبراطورية بسادةٍ أسوأ منه؛ فلم يكن «سرڤيانوس» على وجه العموم ليخلو من الفضائل؛ بل ربّما أمكن أن يَحكُم «فوسكوس» الغليظُ نفسُه ذات يوم. بيد أنّ كلّ ما بقي فيَّ من طاقة كان يرفض تصديق هذه الكذبة، وكنت أرجو أن أعيش لكي أسحق تلك الأفعى.

والتقيت «لوسيوس» لدى عودتي إلى «روما». وكنت فيما مضى قد التزمت نحوه التزامات لا يهتمّ المرء في العادة بالوفاء بها على الإطلاق، غير أنّني كنت قد احتفظت بها. وليس صحيحاً على كلّ حال أن أكون قد وعدته بالأرجوان الإمبراطوري؛ فالإنسان لا يفعل مثل هذه الأشياء. إلّا أنّني كنت قد دفعت ديونه خلال ما يقرب من خمسة عشر عاماً، وسترت فضائحه، ورددت بلا إبطاء على رسائله الممتعة وإن كانت تنتهي على الدوام بطلب المال له أو طلب التسليف لَمحْمِيّيه. وقد كان شديد الامتزاج بحياتي بحيث أستطيع طرده منها، لو أنّني شئت، غير أنّي لم أكن أريد شيئاً من ذلك. فلقد كان حديثه خلّاباً: فقد قرأ هذا الشاب الذي كان يُعتبر تافهاً أكثر ممّا قرأ رجال الأدب المحترفين وخيراً ممّا فعلوا. وكان ذوقه رائعاً في كلّ الأمور، سواء لجهة الناس أو الأشياء أو العادات أو أصحّ الطرق لإنشاد بيت من الشعر الإغريقي. ولقد حظي بسُمعة خطيب مُفَوَّه في مجلس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشيوخ حيث كان يُحكَمُ له بالمهارة؛ وكان معلّمو البيان يتّخذون على الفور من خطبه الواضحة والمنمّقة في آن نماذج في الفصاحة والبلاغة. وكنت قد عيّنته حاكماً ثمّ قنصلاً فنهض بوظائفه على خير وجه. وكنت قد زوّجته قبل بضع سنوات من ابنة «نيغرينوس»، وهو أحد القنصليّين الذين أعدموا في بداية حُكمي؛ وأصبح هذا الارتباط شعار سياسيّ في التهدئة. ولم يكن سعيداً إلّا بقدر: كانت الزوجة الشابّة تشكو عدم الاهتمام بأمرها؛ مع أنّها أنجبت منه ثلاثة أولاد أحدهم ذكر. وكان يردّ على تلك الشكاوى شبه المتواصلة بتهذيب بارد بأنّ المرء يتزوّج إكراماً لأسرته لا من أجله هو، وأنّ عَقْداً بهذه الخطورة لا يتلاءم جيّداً مع ألاعيب الغرام التي لا تحفل بشيء. وكان نهجه المعقّد يتطلّب عشيقات لأجل الأبّهة وجواريَ سهلات المنال لأجل إشباع الشهوة. وكان هو ينتحر من اللّذّة، لكنّه انتحار يشبه انتحار الفنّان في سبيل تحقيق عمل رائع: وما كان لي أن ألومه على ذلك.

كنت أنظر إليه يعيش حياته: وكان رأيي فيه يتبدّل باستمرار، الأمر الذي لا يحدث أبداً إلّا مع الأشخاص الذين نودّهم عن كَثَب؛ فنحن نكتفي بالحكم على الآخرين بمزيد من الإجمال، ولمرّة واحدة وأخيرة. وكانت تكدّر صفوي أحياناً وقاحة مُتَعَمَّدة أو قسوة أو كلمة طائشة تُوجَّه ببرودة؛ وكنت أنجرّ في معظم الأحيان وراء تلك البديهة السريعة والخفيفة؛ وكانت ملاحظة حرّيفة تُشعِر فجأة على ما يبدو برجل «الدولة» المُنْتَظَر. وتحدّثت بذلك إلى «مارسيوس توربو» الذي كان يأتي كلّ مساء بعد يومه المتعِب حاكماً لمجلس القضاء الأعلى، للكلام على القضايا القائمة وملاعبتي بالنَّرْد؛ وأعدنا بدقّة تفحّص

الحظوظ التي كان يملكها «لوسيوس» لشغل منصب الإمبراطور بشكل ملائم. وكان أصدقائي يدهشون لوساوسي؛ وكان بعضهم ينصحونني هازّين أكتافهم باتّخاذ الموقف الذي يروقني؛ ويتخيّل هؤلاء الناس أنّ المرء يُورِث شخصاً نصف الدنيا كما يُخلِّف له بيتاً ريفيّاً. وفكّرت في ذلك ثانية أثناء الليل: إنّ «لوسيوس» لم يكد يبلغ الثلاثين: فماذا كان «قيصر» في الثلاثين إن لم يكن ابن عائلة مكبّلاً بالديون وملطّخاً بالفضائح؟ وكما كان في الأيّام التعسة في «إنطاكية»، قبل أن يتبنّاني «تراجان»، شرعت أفكر بشيء من انقباض القلب في أنّه ليس أبطأ من ولادة رجل ولادة حقيقيّة: كنت أنا نفسي قد تجاوزت عامي الثلاثين عندما فتحت حملة «پانونيا» عينيّ على مسؤوليّات الحكم؛ ويبدو لي «لوسيوس» أحياناً أكمل ممّا كنت أنا في ذلك العمر. وقرّرت بغتة، عقب نوبة اختناق أخطر من الأخريات جاءت تذكّرني بأنه لم يكن لي كبير وقت للإضاعة. وتبنّيت «لوسيوس» الذي اتّخذ اسم «أيليوس قيصر». ولم يكن طَموحاً إلّا بفتور؛ كان متطلّباً من غير جشع، متعوّداً في كلّ وقت أن يحصل على كلّ شيء؛ ونظر إلى قراري بمَرَح. وبدرت منّي حماقة إذ قلت إنّ هذا الأمير الأشقر سوف يكون بمنتهى الجمال تحت الأرجوان؛ فقد أسرع سيّئو النيّة إلى الزعم بأنّني أعوّض بإمبراطوريّةٍ الحميميّةَ الشهوانيّةَ التي كانت فيما مضى. ومعنى هذا عدم إدراك الطريقة التي يعمل بها عقل زعيم مهما يكن استحقاقُه منصبَه ولقبَه ضعيفاً. ولو أنه كان لمثل هذه الاعتبارات من دور فما كان «لوسيوس» ليكون على كلّ حال الوحيد الذي في وسعي إيقاع اختياري عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت زوجتي قد ماتت منذ بعض الوقت في مسكنها بـ «المقرّ الإمبراطوري» الذي ظلّت تُؤْثره على «تيبور» وتعيش فيه محاطة بحاشية صغيرة من الأصدقاء والأقرباء الإسبان، وكانوا الوحيدين الذين تهتمّ لهم. وكانت المجاملات واللياقات وذبذبات التفاهم الضعيفة قد توقّفت شيئاً فشيئاً بيننا وعَرَّت النفور والحَنَق والضغينة، بل والكُره من ناحيتها هي. وكنت أزورها في الأيّام الأخيرة؛ وكان المرض قد زاد من حدّة طبعها الشرِس النَّكِد؛ وكانت تلك الزيارة بالنسبة إليها فرصة لمهاترات عنيفة كانت تُريحها ولا تتحرَّج من القيام بها أمام بعض الشهود. وكانت تفاخر بأن تموت من غير عقب؛ لقد كان أبنائي سيشبهونني ولاريب؛ وكانت ستُضْمِر لهم ما تُضْمِر لأبيهم من مَقْت. وإنّ هذه العبارة المتقيّحة بهذا القدر من الغِلّ لهي دليل الحبّ الوحيد الذي قدّمته لي. امرأتي «سابينا»: كنت أقلّب الذكريات المُحْتَمَلة القليلة التي تبقى دائماً عن شخصٍ ما عندما يكلّف المرء نفسه عناء البحث عنها؛ ولقد ذكرت سلّة الفاكهة التي أرسلتها إليّ في عيد ميلادي، على أثر مشاجرة؛ وعندما عبرتُ محمولاً على محفّة شوارع مُسْتَلْحَقة «تيبور» الضيّقة من أمام بيت المسرّات المتواضع الذي كان فيما مضى ملكاً لحماتي «ماتيديا»، تذكّرت بمرارة بعض الليّالي من ذات صيف سحيق كنت قد حاولت فيها عبثاً أن آنس بالقرب من تلك العروس الباردة القاسية. وكان وقع موت زوجتي عليّ أقلّ من وقع موت «آريتيه» الطيّبة مدبّرة شؤون «الدارة» التي ماتت في الشتاء نفسه على أثر نوبة من الحمّى. وإذ كان تشخيص الأطبّاء للمرض الذي قضت الإمبراطورة بسببه هزيلاً، وقد

أورثها في نهايته آلاماً مبرّحة في الأحشاء، فقد اتُّهمت باستعمال السمّ؛ ما أسهل ما وجدت تلك الشائعة التي لا معنى لها من يصدّقها. وغنيّ عن البيان أنّ جريمة بهذا القدر من قلّة النفع ما كانت قطّ لتراودني.

ربّما دفع موتُ امرأتي «سرفيانوسَ» إلى المجازفة بكلّ رصيده: كان قد كسب بشكل متين ما لها من نفوذ في «روما»؛ وانهارت بانهيارها دعامة من أعظم دعائمه احتراماً. وكان فوق ذلك قد دخل في عقده التاسع: وهو أيضاً لم يكن يملك من الوقت ما يُضِيعه. وكان منذ بضعة أشهر يجهد في اجتذاب زمر صغيرة من ضبّاط الحرس الإمبراطوري إلى منزله؛ ولقد تجرّأ في بعض الأحيان على استغلال الوقار التَبَرُكي الذي يوحي به التقدّم في العمر لجعل الناس يعاملونه معاملة الإمبراطور بين أربعة جدران. وكنت قد قوّيت حديثاً الشرطة العسكريّة السرّيّة، وأوافق على أنّها مؤسّسة مُخْجِلة، غير أنّ الحدث أثبت نفعها. ولم أكن أجهل شيئاً من تلك الاجتماعات المفتَرض أنّها سرّيّة، وكان العجوز «أورسوس» يعلّم فيها حفيده فنّ المكائد. فلم تُدهش تسميةُ «لوسيوس» الرجلَ العجوز؛ وكان قد مضى وقت طويل على اعتباره حَيْرتي في هذا الشأن قراراً مُضمَراً بإحكام؛ لكنّه انتهز كون وثيقة التبنّي لاتزال موضع أخذ وردّ في «روما» لكي يبدأ بالعمل. وأفشى كاتم سرّه «كريسانس»، وقد أرهقته أربعون سنة من الإخلاص غير المكافأ كما ينبغي، مشروعَ المؤامرة وزمان تنفيذها ومكانه وأسماء المتآمرين. ولم يكن خيالُ أعدائي قد أُنعش؛ فلقد اكتفوا بمجرّد نسخ محاولة الاغتيال التي دبّرها فيما مضى «نيغرينوس»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

و«كيتيـوس»؛ وكـان ينبغـي أن أُصرَع خـلال احتفـال ديني في «الكابيتول»؛ وأن يسقط معي ابني بالتبني.

واتّخذت احتياطاتي في تلك الليلة بالـذات: لقد طـال العمر كثيـراً بعدوّي؛ وسأتـرك لـ «لوسيـوس» إرثاً نـظيفاً من الأخـطار. وفي نحو الساعة الثانية عشرة، ذات فجر أغبر من شهـر شباط (فـبراير) وصـل إلى بيت صهري محامٍ من محامي الشعب الروماني يحمل حكماً بالمـوت بحقّ «سرڤيـانوس» وحفيـده؛ وكان قـد صدر إليـه أمر بـأن ينتظر في الردهة إلى أن يتمّ تنفيذ الحكم الذي حمله. واستـدعى «سرڤيانـوس» طبيبـه؛ وسار كـلّ شيء على مـا يُرام. وقـد تمنّى لي قبل أن يمـوت أن أقضي على مهل وسط منغّصات مرض عُضال من غير أن أحـظى مثله بامتياز احتضارٍ مُقْتَضَب. وكان قد سَلَف أن استُجيبت دعوته.

لم أكن قـد أصـدرت ذلـك الحكم المـزدوج بـالإعـدام عن طيب خاطر؛ ولم أندم عليه فيـما بعدُ أدنى نـدم، ولا أَسِيتُ أقلّ أسى. كـان حساب قديم قـد صُفّي؛ وكان ذلـك هو كـلّ ما في الأمـر. وما كـان العُمْـر ليبـدو لي قطّ سـدّاً مـانعـاً لخُبث البشر؛ بـل كنت لأرى فيـه بالحري ظرفاً مشدِّداً للعقوبـة. وكان الحكم عـلى «عقيبة» وشيعتـه قد جعلني أتـردّد زمنـاً أطـول: عجـوز بعجـوز، لقـد كنت لأزال أوثـر المتعصِّب على المتآمِر. وأمّا «فوسكوس» فمهما يكن من تفاهـة شأنـه، ومن شـأن جريـرة جدّه البغيض الكـاملة في تسليمي إيّاه، فقـد كـان حفيد «پولينيا». بيد أنّ روابط الدمّ ضعيفة جدّاً، مهما قيل فيها، مـا لم تُمِتّنْهـا أيّةُ عـاطفة؛ ويـلاحظ ذلك عنـد الأفراد خـلال أدنى قضايـا الإرث. ولقد أثارت فُتُـوُّة «فوسكـوس» في نفسي قدراً أكـبر قليلاً من

الشفقة؛ فما كاد يبلغ الثامنة عشرة. بيد أنّ مصلحة «الدولة» كانت تتطلّب تلك النهاية التي جعل «أورسوس» العجوز تحاشيها، وكأنّما عن تلذُّذ، مستحيلاً. وكنت مذّاك قريباً جدّاً من نهايتي الشخصيّة لكي أجد الوقت للتأمّل في تينك النهايتين.

ضاعف «مارسيوس توربو» من تيقّظه خلال بضعة أيّام؛ فقد كان بإمكان أصدقاء «سرڤيانوس» أن يثأروا له. غير أنّ شيئاً لم يحصُل، فلا محاولة اغتيال ولا عصيان ولا شائعات. ولم أكن بعدُ القادم الجديد الذي يحاول أن يكسب إلى جانبه الرأي العام بعد إعدام أربعة من القنصليّين؛ كانت تسعة عشر عاماً من العدالة تعمل لمصلحتي؛ وكان أعدائي يُلْعَنون بالجُملة؛ ولقد وافقتني الجماهير على تخلّصي من خائن. ورُثي لحال «فوسكوس» من غير أن يُحكم ببراءته عل كلّ حال. ولم يكن مجلس الشيوخ ليغفر لي، وأنا أعلم ذلك، أن أقضي مرّة جديدة على أحد أعضائه؛ بيد أنّه صمت، ولسوف يصمت حتّى أموت. وكما جرى في السابق أيضاً فإنّ جرعة من الرحمة ما لبثت أن لطّفت جرعة الصرامة؛ فلم يُكدّر صفو أيّ من أنصار «سرڤيانوس». وكان الاستثناء الوحيد على هذه القاعدة هو «أپولودور» الشهير، مُسْتَوْدَعُ أسرارِ صهري الحقودُ الذي قضى معه. وكان هذا الرجل المهندسَ المعماريّ ذا الحظوة عند سَلَفي؛ فقد حرّك بمهارة كُتَل «العمود التراجاني» الضخمة. وما كان أحدنا يحبّ قطّ الآخر: وكان قديماً قد استهزأ بأعمالي الخرقاء الصادرة عن هاوٍ، ورسومي المتقنة للكوسى واليقطين في مجال الطبيعة الميتة؛ وكنت من جهتي قد انتقدت أعماله بالغرور الملازم لشاب في مثل عمري؛ ولقد أنكر أعمالي فيما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بَعْدُ؛ فقد كـان يجهل كـلّ شيء، عن عصور الفنّ اليـوناني الـزاهية؛ ولقـد أخذ عـليّ ذلك المنـطِق السطحيّ أن عَمَـرتُ معابـدنا بتـماثيـل ضخمة لو انتصبت لحطّمت بجباهها قُبّة محاريبها: وإنّـه لنقد أخـرق يُهين «فيدياس» أكثر بكثـير ممّا يُهينني أنـا. بيد أنّ الآلهـة لا تنتصب؛ إنّها لا تنتصب لتحـذيرنـا ولا لحمايتنـا ولا لمكافـأتنا ولا لمعـاقبتنـا. ولم تنتصب تلك الليلة لحماية «أپولودور».

في الربيع أخذت صحّة «لوسيوس» تـوحي إليّ بمخاوف عـلى شيء من الخـطورة. وقد نـزلنا بعـد الاستحمام ذات صبـاح في «تيبور» إلى ميـدان الريـاضة حيث كـان «سيلر» يتمرّن بصحبـة شبّـان آخـرين؛ واقترح أحدهم واحدة من تلك المباريات التي يركض فيها كلّ مشترك مسلّحاً بتُرس ورمح؛ واستخفى «لوسيـوس» كعادتـه؛ ثمّ لم يلبث أن استجاب لدعاباتنا الوديّة؛ وبينما هو يُعِدّ عـدّته شكـا من ثقل الـتُرس البرونزيّ؛ وكان ذلك الناحل يبـدو هشّاً إذا مـا قورن بجـمال «سيلر» الصلب. وما هي إلاّ بضع خطوات مُهرولة حتّى توقّف مبهـور الأنفاس وانهار وهو ينفث الدّم. ولم يعقب الحادث ما يشغل البال إذ تعافى منه بـلا عناء. غـير أنّي لزمت جـانب الحذر؛ وكـان عـليّ أن أكـون أقـلّ إسراعـاً في الاطمئنـان. فلقــد وضعت إلى جـانب أعــراض مـرض «لـوسيوس» الأولى الثقـة الخرقـاء التي يمِلكها إنسـان ظلّ قـويّـاً زمنـاً طـويلاً، وإيمـانَه الضمنيّ بمخـزونات الشبـاب التي لم تنضب وبحُسن عمل الأجساد. والحقّ أنّه كان مخدوعاً في هـذا أيضاً؛ فقـد كان لهب خفيف يُسْنِـده؛ وحيويّتـه تُوهِمـه كما كـانت تُوهمنـا. وكـانت سنـواتي الجميلة قد انقضت في الأسفار والمعسكرات والخطوط الأماميّة؛ ولقـد قـدَّرت بنفسي حسنات حيـاة خشنة وتـأثير المنـاطق الجافّـة أو المثلجة الصحيّ. وقرّرت أن أُعيّن «لوسيوس» حـاكماً عـلى «پانـونيا» بـالذات حيث كنت قـد قمت بتجربتي الأولى زعيـماً. وكان الـوضع عـلى هذه الجبهـة أقلّ دقّـة ممّا كـان في تلك الأيّام؛ ولسـوف تقتصر المهمّة عـلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعمال الإداريّ المدنيّ الهادئة أو على دوريات تفتيش عسكريّة خالية من الخطر. وتُغيِّر قسوةُ تلك البلاد من الترهُّل الروماني الذي انتابه؛ ويتعلّم كيف يُحسن التعرّف على هذا العالم المترامي الذي تحكمه «المدنيّة» وتخضع له. ولقد كان يخشى تلك المُناخات البربريّة؛ ولا يُدرك أنّ في وسع المرء أن يتمتّع بالحياة خارج «روما» تَمَتُّعَه بها فيها. ومع ذلك فقد قَبِل بفعل تلك الكياسة التي كان يتحلّى بها عندما يريد إرضائي.

ولقد قرأت طَوال الصيف تقاريره الرسميّة وتقارير أكثر سرّيّة كان يرسلها «دوميتيوس روغاتوس»، وهو رجل ثقة كنت قد وضعته إلى جانبه بصفة أمين سرٍ له مكلّف بمراقبته. وقد أرضتني تلك التقارير: لقد عرف «لوسيوس» كيف يبرهن في «پانونيا» عن الجِدِّيّة التي طالبته بها، والتي ربّما كان تخلّى عنها بعد موتي. بل إنّه أَتمّ بشكل باهر بعض الشيء، سلسلة معارك خاضها سلاح الفرسان في الخطوط الأماميّة. ونجح في سحر الناس في الأقاليم وخارجها؛ ولم تضرّ به قسوته الحادّة بعض الشيء؛ ولن يكون على الأقلّ واحداً من أولئك الأمراء الطيّبي القلب الذين تتحكّم بهم طُغمة من الناس. بيد أنّه أصيب بالبرد منذ بداية الخريف. واعتقد أنّه شُفي بسرعة، لكنّ السُّعال عاد إلى الظهور؛ وألحّت الحمّى وأقامت في المنزل. ولم يؤدِّ تحسُّن عابر إلاّ إلى نكسة مفاجئة في الربيع التالي. وأرعبتني نشرات الأطبّاء؛ وبدا أنّ المنصب العام الذي كنت قد أوجدته بشبكاته البريديّة وخيوله ومركباته فوق أراضٍ شاسعة لم يكن يعمل إلاّ ليحمل إليّ بإيجاز كلّ صباح أخباراً عن المريض. ولم أكن لأغفر

لنفسي أنّي كنت عديم الإنسانيّة نحوه خوفاً من أن أكون أو أبدو متساهلاً. وما إن أبلّ بعض الإبلال لتحمُّل السفر حتىً أعدته إلى «إيطاليا».

وذهبت بنفسي بصحبة «روفوس الأفيزي» العجوز، الاختصاصي في السلّ، لانتظار صديقي الناحل «أيليوس قيصر» في مرفأ «بايس». فمناخ «تيبور» الأفضل من مناخ «روما» ليس مع ذلك لطيفاً جدّاً بالنسبة إلى رئتينْ مُصابَتينْ؛ وقد قرّرت أن أجعله يمضي نهاية الخريف في هذه المنطقة الأكثر أماناً. ورست السفينة في عُرض الخليج؛ وحمل زورق خفيفٌ المريضَ وطبيبَه. وبدا وجهه الحائر أشدّ نحولاً تحت زغب اللّحية التي غطّى بها خدّيه بنيّة التشبّه بي. إلّا أنّ عينيه كانتا قد احتفظتا باتّقادهما الشبيه باتّقاد الأحجار الكريمة. وكانت أوّل كلمة قالها هي لتذكيري بأنّه لم يرجع إلّا بناء على أمري؛ فلم يكن على إدارته أيّ غبار؛ وكان قد أطاعني في كلّ الأمور. لقد كان يتصرّف تصرُّف تلميذ يبرّر الوَجْهة التي استخدم فيها يومه. وأسكنته في دارة «شيشرون» التي كان قد قضى معي فيها قبلاً فصلاً من فصول أعوامه الثمانية عشر. وكان من اللياقة بحيث لم يتحدّث قطّ عن ذلك الزمان. وبدت الأيّام الأولى انتصاراً على المرض؛ وكانت تلك العودة إلى «إيطاليا» تشكّل سلفاً بحدّ ذاتها علاجاً له؛ وكانت البلاد في ذلك الوقت من السنة أرجوانيّة ووردية. إلّا أنّ الأمطار بدأت بالهطول؛ وكانت ريح رطبة تهبّ من البحر الرماديّ اللون؛ وكان ينقص البيت القديم المبني في عهد «الجمهوريّة» ما كان من وسائل الراحة الأحدث في دارة «تيبور»؛ وكنت أنظر إلى «لوسيوس» وهو يدفّئ باغتمام فوق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المِنقل أصابعه الطويلة المُثْقَلَة بالخواتم. وكـان «هيرمـوجين» قـد رجع قبل قليل من «الشرق» حيث كنت قد بعثته ليّجدِّد ويستكمل مؤونتـه من الأدويـة؛ وجرّب عـلى «لوسيـوس» تأثـير وَحْل مُشْبَـع بـالأمـلاح المعـدنيّة القـويّـة؛ وكـان يُفـترض أن تشفي تلك اللزقـات من جميـع الأمراض. بيد أنّها لم تنجع في رئتيه بأكثر ممّا نجعت في شراييني.

وكان المرض يكشف أسوأ مظاهـر ذلك الـطبع الجـافّ والخفيف؛ وزارته زوجته؛ وانتهت مقـابلتهما كـالعادة بكلمات مـريرة؛ ولم تـرجع قطّ. وحُمِـل إليه ابنـه وهو ولـد في السابعـة من عمـره سقـطت بعض أسنـانه وكـان كثير الضحـك؛ ونظر إليـه في لامبالاة. وكـان يستعلم بِشَـرَهٍ عن أخبار «رومـا» السياسيّـة؛ وكـان يهتمّ بهـا لاعبـاً لا رجـل «دولة». بيد أنّ طيشه ظلّ شكلاً من أشكال الشجاعة؛ وكـان يصحو من أعْصـارٍ طويلة من الألم ليُقحم نفسـه بكلّيتـه في محـادثـة من تلك المحـادثات المتّقـدة التي كان يخـوضها فيـما مضى؛ وكان ذلـك الوجـه الغـارق في العـرق لايـزال يعـرف كيف يبتسم؛ وكـان ذلـك الجسـد المعروق ينهض بلباقـة لاستقبال الـطبيب. ولسوف يـظلّ حتّى النهايـة ذلك الأمير العاجيّ الذهبي.

وإذ كان يجفوني النوم في المساء فقد كنت استقرّ في غرفة المـريض؛ وكان «سيلر» ـ ولم يكن يحبّ «لوسيوس» كثيراً، غير أنّه كان من شدّة الإخـلاص لي بحيث لا يمتنع عن خـدمة الأعـزّاء على قلبي ـ يـرضى بالسهر إلى جـانبي؛ وكان أنـين يتصاعـد من تحت الأغطيـة. وكانت تجتـاحني مـرارة عميقــة عمقَ البحـر: إنّــه لم يكن قـد أحبّني قطّ؛ وسرعـان ما أمست عـلاقاتُنـا علاقـاتِ ابن مِتـلافٍ وأبٍ متسـاهـل؛

وكانت تلك الحياة قد انقضت من غير مشاريع كبرى ولا أفكار ذات شأن ولا عواطف جارفة؛ ولقد بدّد أعوامه كما يرمي المبذّر القطع الذهبيّة. وكنت قد استندت إلى جدار متهدِّم: وأخذت أفكّر بحنق في المبالغ الضخمة التي أنفقتها لتبنّيه، وفي ثلاثمئة المليون من «السسترسات» الموزّعة على الجُنْد. وبمعنى من المعاني كان حظّي المنكود يلازمني: لقد أشبعت رغبتي القديمة في إعطاء «لوسيوس» كلّ ما يمكن أن يُعطى؛ إلّا أنّ «الدولة» لن تأسى على ذلك؛ ولست معرَّضاً للخزي من جرّاء ذلك الاختيار. وكنت في أعماق ذاتي أخشى أن تتحسّن صحّته؛ فلو اتّفق أن امتدّ به الأجل بضعة أعوام أخرى فلن يكون بمقدوري أن أورِث الإمبراطوريّة لشَبَح. وبدا أنّه كان ينفُذ إلى فكري بشأن هذه النقطة من غير أن يطرح أسئلة على الإطلاق؛ وكانت عيناه المُبَلْبَلَتان تتبعان أقلّ حركاتي؛ ولقد عيّنته قنصلاً للمرّة الثانية؛ وكان مهموماً بألّا يتمكّن من أداء وظائفه؛ وضاعف الحَصَر من أن يعجز عن إرضائي من سوء حاله. واسترجعت في نفسي أبيات «ڤرجيل» الخاصّة بابن أخت «أغسطس» الذي كان مهيَّأً هو الآخر للإمبراطوريّة فأوقفه الموت في الطريق... فلن يتلقّى محبّ الأزهار منّي باقات جنائزيّة لا حياة فيها.

واعتقد أنّه تحسّن؛ وأراد العودة إلى «روما». ونصحني الأطباء الذين لم يكن لهم من موضوع للنقاش فيما بينهم غير الوقت الذي بقي له للعيش بأن أستجيب لهواه؛ وأعدته على مراحل صغيرة إلى «الدارة». وكان ينبغي أن يتمّ مثوله في مجلس الشيوخ بوصفه وريثاً للإمبراطوريّة خلال الجلسة التي ستلي على الفور تقريباً «رأس السنة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجديدة»؛ وكانت العادة تقضي بأن يوجّه إليّ بهذه المناسبة خطاب شكر؛ وها هي هذه القطعة البيانيّة تشغله منذ أشهر؛ وقد حذفنا منها معاً المقاطع الصعبة. وكان يعمل عليها ذات صباح من غرّة شهر كانون الثاني (يناير) عندما انتابته بغتة نوبة من نفث الدم؛ وأخذه الدُّوار؛ واستند إلى مُسْنَد مقعده وأغمض عينيه. فلم يكن الموت بالنسبة إلى هذا الكائن الخفيف سوى دُوار. وكان ذلك يوم رأس السنة: ولكيلا أقطع الأعياد العامّة والمُتَع الخاصّة فقد منعت إشاعة خبر انتهاء أجله على الفور؛ ولم يُعلن إلاّ في اليوم التالي. ولقد دُفن سرّاً في حدائق أسرته. وعشيّة المأتم أرسل إليّ مجلس الشيوخ وفداً كلّفه تعزيتي ومَنْحَ «لوسيوس» التشريفات الإلّهيّة التي كان له الحقّ فيها بوصفه ابن الإمبراطور بالتبنّي. غير أنّي رفضت: كان قد سبق أن كلّفت تلك القضيّة برمّتها «الدولة» كثيراً من المال. واقتصرت على أن أبني له بعض المحاريب الجنائزيّة، وأن أنصب له هنا وهناك بعض التماثيل في مختلف الأماكن التي عاش فيها: لم يكن «لوسيوس» المسكين هذا إلّهاً.

كانت كلّ لحظة تُرهق وتستعجل في هذه المرّة. غير أنّي كنت أملك الوقت الكافي للتفكير عند سرير المريض؛ وكانت خُططي قد رُسمت. فلقد لاحظت في مجلس الشيوخ رجلاً اسمه «أنطونين» في الخمسين من عمره، وهو من الأقاليم يمتّ بصلة قرابة بعيدة إلى «بلوتينيا». ولقد لفت انتباهي بما كان يحيط به حماه العجوز العاجز المقيم بجواره من رعاية تجمع بين الاحترام والحنان؛ وأعدت قراءة أحواله في المناصب التي تقلّب فيها؛ وكان ذلك الرجل الخيّر قد

تبدّى، في جميع الوظائف التي شغلها، عن موظّف لا غُبار عليه. وتركّز اختياري عليه. وكلّما ازددت معاشرة لِـ «أنطونين» تحوّل تقديري له إلى احترام. فهذا الرجل البسيط يملك فضيلة قلّما فكّرت فيها إلى الآن، حتّى حين كان يحدث لي أن أمارسها: طيب المعدن. ولم يكن ليخلو من العيوب البسيطة التي تُصادَف لدى رجل عاقل؛ فذكاؤه المطبَّق في المهمّات اليوميّة ينصرف إلى الحاضر أكثر من انصرافه إلى المستقبل؛ وتجربته في الدنيا محدودة بفضائله نفسها؛ وكانت أسفاره قد اقتصرت على بعض المهامّ الرسميّة، ولقد أُدِّيت جميعها خير أداء على كلّ حال. وهو يعرف القليل عن الفنون؛ ولا يبتكر إلّا على مَضَض. فلن تمثِّل الأقاليم أبداً في نظره، على سبيل المثال، إمكانات النماء الضخمة التي لم تنفكّ تقتضيها بالنسبة إليّ؛ ولسوف يُكمل ما فعلتُ أكثر ممّا سيتوسّع فيه؛ إلّا أنّه سيُكمله بشكل جيّد؛ وسيكون لِـ «الدولة» فيه خادمٌ أمين وسيّد حسن.

بيد أنّ مدى جيلٍ واحد كان يبدو لي يسيراً حين يتعلّق الأمر بتأمين سلامة العالم؛ وكنت أحرص، إنْ أمكن، على أن أَمدّ في شأو هذه الذُّريّة المتبصِّرة المتبنّاة، وعلى أن أهيِّئ للإمبراطوريّة موقِفَ أبدالٍ جديداً على درب الزمن. ولم أكن أتخلّف في كلّ مرّة أعود فيها إلى «روما» عن الذهاب لتحيّة أصدقائي القدامى، آل «ڤيروس»، الإسبانيُّون مثلي، وهم أسرة من أشدّ الأسر تحرُّراً في القضاء الأعلى. وكنت قد عرفتك في المهد يا صغيري «آينوس ڤيروس» الذي أصبح اسمه اليوم بفضلي «مارك أوريليوس». وقد عملتُ طَوال واحد من أكثر أعوامي إشراقاً، في الحقبة التي يطبعها تشييد «الپانتيون»، على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتخابك، لصداقتي لذويك، في مَجْمَع «الإخوة الأرڤاليّين» الذي يرأسه الإمبراطور، والذي يُديم بَوَرَع تقاليدَنا الدينيّة الرومانيّة؛ وقد أمسكت بيدك طَوال قدّاس التضحية الذي أُقيم في ذلك العام على ضفّة «التيبر»؛ ونظرت بانبساط حنون إلى هيئتك طفلاً ابن خمس سنوات، وقد أفزعتك صيحات الخَنّوص المذبوح، غير أنّك جهدت ما وسعك الجهد في محاكاة وقفة الكبار اللائقة. ولقد اهتممت بتربية ذلك الطفل العاقل جدّاً؛ وعاونت أباك في اختيار أفضل المعلّمين. «ڤيروس»، «أشدّهم أصالة»: كنت أتلهّى باسمك؛ وربّما كنت المخلوقَ الوحيد الذي لم يكذب عليّ قطّ. ولقد رأيتك تقرأ بشغف كتابات الفلاسفة، وترتدي الصوف الخشن وتنام على الخشن وتخضع جسدك الناحل قليلاً لجميع الإماتات «الرواقيّة». وفي ذلك كلّه مبالغة، غير أنّ المبالغة فضيلة في السابعة عشرة. وإنّي لأتساءل أحياناً فوق أيّ عقبة سترسو هذه الحكمة، لأنّ المرء يرسو على الدوام: أتكون زوجة، أم ولداً محبوباً جدّاً، أم واحداً من تلك الأشراك الشرعيّة التي ينتهي الأمر بالقلوب الوجلة والطاهرة إلى السقوط فيها؛ أم يكون الأمر أبسط من ذلك، أي العُمر، أو المرض، أو التعب، أو الكشف عن البصيرة الذي يخبرنا بأنّه إذا كان كلّ شيء عبثاً فإنّ الفضيلة عبث أيضاً؟ وإنّي لأتخيّل مكان وجهك الساذج، وجهِ المراهق، وجهَك المُتعَب، وجهَ العجوز. وأشعر ما تخبّئه صلابتُك التي أُحسِنَ تعليمُك إيّاها من لطف، وربّما من ضعف؛ وإنّي لأخمّن فيك وجود عبقريّة ليست بالضرورة عبقريّة رجل «دولة»؛ ومع ذلك فإنّ العالم سيكون قد تحسّن إلى الأبد ولا شكّ لأنّه رآك تشارك لمرّة في

السلطة العليا. ولقد بذلتُ كلّ ما يلزم لجعل «أنطونين» يتبنّاك؛ ولسوف تكون من الآن فصاعداً، بهذا الاسم الذي ستحمله في لائحة الأباطرة ذات يوم، حفيدي. وأظنّ أنّي أقدّم للناس الفرصة الوحيدة التي سيكون في مقدورهم انتهازها لتحقيق حلم «أفلاطون» بأن يروا فيلسوفاً نقيّ القلب يحكمهم. ولم تقبل الأمجاد إلاّ على مَضَض؛ وكانت رتبتك تفرض عليك العيش في القصر؛ وإنّ «تيبور»، هذا المكان الذي أَجْمَعُ فيه إلى النهاية ما في الحياة من مسرّات، ليقلقك من أجل فضيلتك الفتيّة؛ وإنّي لأراك هائماً بصرامة في تلك المماشي المكدّسة بالورود؛ وأنظر إليك مبتسماً وأنت مفتون بما وضع في طريقك من أشياء جميلة، ثمّ وأنت متردّد بحنان بين «فيرونيك» و«تيودور»، وقد عدلت سريعاً عنهما كليهما لمصلحة التقشّف، ذلك الشبح الخالص. ولم تُخْفِ عنّي احتقارك السوداويّ لتلك الروائع التي قلّما تدوم، ولتلك الحاشية التي لن تلبث أن تتفرّق بعد موتي. إنّك لا تحبّني على الإطلاق؛ وإنّ حنانك البنوي ليتّجه بالحري صوب «أنطونين»؛ وإنّك لتشتمّ فيّ حكمة مخالفة للّتي يعلّمك إيّاها معلّموك، وفي استسلامي إلى الحواسّ نهجَ حياة مخالفاً لصرامة حياتك، وهو مع ذلك موازٍ لها. لا يهمّنك الأمر: ليس ممّا يُستغنى عنه أن تفهم مرادي. فهناك غير حكمة، وجميعها ضروريّة للعالم؛ وليس سيّئاً أن تتعاقب.

بعد موت «لوسيوس» بثمانية أيّام أمرت بحملي على محفّة إلى مجلس الشيوخ؛ واستأذنت في دخول قاعة المناقشات على هذا النحو وإلقاء كلمتي مستلقياً ومستنداً إلى كدسة من الوسائد. والكلام يُرهقني:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد رجوتُ الشيوخ أن يتحلّقوا في حلقة ضيّقة من حولي كيلا أُضْطَرَّ إلى رفع صوتي. وأثنيتُ على «لوسيوس»؛ وحلّت تلك الأسطر القليلة في جدول الجلسة محلّ الخطاب الذي كان عليه أن يُلقيه في ذلك اليوم. وأعلنتُ بعد ذلك قراري؛ وسمّيت «أنطونين»؛ وتلفَّظت باسمك. وكنت قد عوّلتُ على أوسع موافقة إجماعيّة؛ وحصلت عليها. وعبّرتُ عن رغبة أخيرة فقُبلتْ، شأنُها شأنُ الأخريات؛ طلبتُ أن يتبنّى «أنطونين» أيضاً ابنَ «لوسيوس» الذي سيكون له بذلك أخٌ في شخص «مارك أوريليوس»؛ ولسوف تحكمان معاً؛ وإنّي لأعتمد عليك في أن تحيطه برعاية الأخ الأكبر. فأنا أحرص على أن تحتفظ «الدولة» بشيء من «لوسيوس».

ولأوّل مرّة منذ أيّام طويلة سوّلت لي نفسي أن أبتسم وأنا عائد إلى منزلي. فلقد أتقنت القيام بدوري بشكل فريد. ولم يستسلم أنصار «سرڤيانوس» ولا المحافظون المعادون لعملي؛ فلم تعوّض في نظرهم جميع المجاملات التي قدّمتُها إلى تلك الهيئة الكبيرة القديمة البالية من الشيوخ الضربتينْ أو الثلاث التي كنت قد وجّهتها إليها. ولسوف ينتهزون ولا ريب لحظة موتي فيحاولون إلغاء قراراتي. بيد أنّ ألدّ أعدائي لن يجرؤوا على الطعن في أكثر ممثّليهم نزاهة ولا في ابن أحد أشدّ أعضائهم مهابة. وكانت مهمّتي العامّة قد أُنجزت: كان في وسعي بعد الآن أن أعود إلى «تيبور»، وأن أدخل تلك العزلة التي هي المرض، وأن أحاول مع آلامي، وأن أنغمس في ما بقي لي من مباهج، وأن أستعيد بسلام حواري الذي انقطع مع شَبَح. لقد

أصبح إرثي الإمبراطوري سليماً بين يدي «أنطونين» التقيّ و«مارك أوريليوس» الصارم؛ ولسوف يُخَلِّد «لوسيوس» نفسُه في ابنه. ولم يكن ذلك كلّه قد رُتِّب بكثير من الرداءة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صبراً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كتب إليّ «أريان» يقول:

«أنهيتُ، بناء على الأوامر التي تلقّيتها، الطواف حول «پون ـ أوكسين» [البحر الأسود حالياً]. وفرغنا في «سينوپ» التي يعترف سكّانها لك بالفضل إلى الأبد من أعمال الإصلاح والتوسيع الكبرى التي جرت في الميناء على ما يُرام بإشرافك منذ بضع سنوات... وبالمناسبة فقد نصبوا لك تمثالاً ليس شبيهاً بك تماماً ولا جميلاً تماماً: أرسِلْ إليهم تمثالاً آخر من الرخام الأبيض.. وأبعدَ قليلاً إلى الشرق جُلْتُ ببصري ـ ولم يكن ذلك من غير أن أتأثّر قليلاً ـ في «پون ـ أوكسين» هذا بالذات من فوق التلال التي لمحه منها فيما مضى شاعرنا «زينوفون» للمرّة الأولى، والتي تأمّلتَه منها أنت نفسُك ذات يوم...

«وتفقّدت الحاميات الساحليّة: إنّ قوّادها يستحقّون أعطر الثناء لكمال الانضباط، ولاستخدام أحدث أساليب التدريب، ولجودة أعمال الهندسة... وفيما يتعلّق بالقسم الموحش الذي لايزال غير معروف تماماً من السواحل فقد أجريت عمليات سَبْر جديدة وصحّحت حيث يجب التصحيح إشاراتِ البحّارة الذين سبقوني...

«ولقد حاذينا «كلوشيد» [منطقة تقع شرقي البحر الأسود وجنوبي القفقاس]. وإذ كنت أعلم مدى اهتمامك بما أورد قدامى الشعراء من أخبار فقد سألت السكّان عن أعمال السحر التي قامت بها «ميديا»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

[ساحرة من «كلوشيد» ورد في الأساطير اليونانيّة أنّها ساعدت البحّار «يازون» في الحصول على «خصلة الشعر الذهبي» التي طلبها منه الملك «پيلياس» لكي يعيد إليه عرش أبيه الذي كان هو قد اغتصبه] وعن مغامرات «يازون». غير أنّهم يجهلون على ما يبدو هذه القصص...

«وعلى الشاطئ الشمالي من ذلك البحر غير المضياف لامسنا جزيرةً صغيرةً هي كبيرةٌ جدّاً في الأسطورة: جزيرة «أخيل». وإنّك لتعلم أنّ «تيتيس» [ربّة بحريّة إغريقيّة] جعلت ابنها يترعرع في تلك الجُزيِّرة الضائعة في الضباب؛ وكانت تصعد من أعماق الماء كلّ مساء للتحدّث إلى ابنها على الشاطئ. ولا تغذّي الجزيرة المهجورة اليوم سوى الماعز. وتحتوي على معبد لِـ «أخيل». وجميع أنواع الطيور البحريّة تغشاها ويُنعش باستمرارٍ خفقُ أجنحتها المُشبَعَة بالرطوبة البحريّة فِناء المعبد. غير أنّ هذه الجزيرة المعروفة ـ كما يليق ـ بجزيرة «أخيل» هي أيضاً جزيرة «پَتروكْل» [صديق «أخيل» وأحد أبطال حرب «طروادة» في «الإلياذة»] والنذور الكثيرة التي تزيّن جوانب المعبد مهداة تارة إلى «أخيل» وطوراً إلى صديقه لأنّ من يحبّون «أخيل» يُكْبِرون ويحترمون ذكرى «پَتروكْل». و«أخيل» نفسه يظهر في المنام للبحّارة الذين يزورون هذه النواحي: يحميهم ويحذّرهم من أخطار البحر كما يفعل في الأمكنة الأخرى «الديوسكوريانِ» [ابنان توأمان من زواج بين «زيوس» و«ليدا»]، وإنّ طيف «پَتروكْل» ليظهر إلى جانب «أخيل».

«إنّي أنقل إليك هذه الأمور لاعتقادي بأنّها تستحقّ أن تُعرف،

ولأنّ الذين رَوَوْها لي قد جرّبوها بأنفسهم أو علموا بها من شهود أهلٍ للتصديق... ويُخيَّل إليّ أحياناً أنّ «أخيل» أعظم الرجال بالشجاعة وقوّة النفس ومعارف العقل مقرونة إلى رشاقة الجسد وبحبّه الجارف لرفيقه الشاب. وليس ما يبدو لي فيه أعظمَ من القنوط الذي جعله يزدري الحياة ويتمنّى الموت عندما فقد محبوبه.»

أترك التقرير الكبير الذي كتبه حاكم «أرمينية الصغرى» وقائد الأسطول يقع فوق رُكبتيّ. لقد أحسن «أريان» العمل كالعهد به على الدوام. غير أنّه يُضيف في هذه المرّة: إنّه يمنحني منحة ضروريّة للموت بسلام؛ وهو يعيد إليّ صورة عن حياتي كما قد تمنّيت أن تكون. وإنّ «أريان» ليعلم أنّ ما يهمّ هو الذي لن يرد في التراجم الرسميّة، ولا هو ما يُنقش على القبور؛ ويعلم كذلك أنّ مرور الزمن لا يكون منه إلّا إضافةُ دُوارٍ آخر إلى المصيبة. وإذ ينظر إلى مغامرة وجودي فإنّه يصبح لها معنى وتنتظم وكأنّها تنتظم في قصيدة؛ والحنان الأوحد يتصاعد من الندم، من نفاد الصبر، من ميول حزينة، تصاعُدَ الأدخنة والغبار؛ وينجلي الألم؛ ويصفو القنوط. وإنّ «أريان» ليفتح لي موطن الآلهة السحيق حيث يقيم الأبطال والأصدقاء: إنّه لا يحكم بأنّي لا أستحقّه كثيراً. وليست غرفتي السّريّة في قلب بِركةٍ من بِرَك «الدارة» ملاذاً داخليّاً كافياً: إنّي أجرجر فيها هذا الجسد الشائخ؛ وإنّي لأتألّم داخلها. ويعرِض عليّ ماضيٍّ، بالطبع، هنا وهناك عُزلاتٍ أتحاشى فيها على الأقلّ جزءاً من الآلام الحاضرة: سَهْل الثلج على ضفّة «الدانوب»، وحدائق «نيكوميديا»، و«كلوديوپوليس» التي كستها صفرة جنى الزعفران المُزهِر، وأيّ شارع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من شوارع «أثينا»، وواحة يموج فيها النيلوفر فوق الوحل، و«بادية الشام» على وَمْض النجوم حول معسكر «خسرو». بيد أنّ هذه الأمكنة العزيزة جدّاً كثيراً ما قُرنت إلى بوادر خطأ أو سوء تقدير في الحساب أو بعض الإخفاق الذي أعرفه أنا وحدي: كانت جميع الطرق الخاصّة برجل سعيد تقود ـ على ما يبدو ـ في أسوأ لحظات حياتي إلى «مصر»، أو إلى غرفة في «باييس»، أو إلى «فلسطين». وهناك ما هو أكثر: إنّ تعب جسدي يتّصل بذاكرتي؛ فصورة سلالم «الأكروبول» يكاد لا يحتملها رجل يلهث وهو يصعد درجات الحديقة؛ وإنّ شمس تمّوز (يوليو) فوق مُنْبَسط «لامبيز» ترهقني وكأنّني أُعرِّض لها اليوم رأسي الحاسر. ويقدِّم لي «أريان» خيراً من ذلك. ففي «تيبور»، وفي إبّان شهر أيّار (مايو) المُحْرِق أُصغي فوق شواطئ جزيرة «أخيل» إلى أنين الأمواج الطويل؛ واستنشق هواءها النقيّ البارد؛ وأهيم بلا عناء في فِناء المعبد البليل بالرطوبة البحريّة؛ وألمح «پَتروكْل»... ولسوف يكون هذا المكان الذي لن أراه أبداً مقرّي السّريّ، ملاذي الأعلى. وسأكون فيه ولاريب في لحظة موتي.

لقد أذنت فيما مضى للفيلسوف «أوفراتيس» بالانتحار. ولم يكن شيء ليبدو أكثر بساطة: فمن حقّ الإنسان أن يقرّر الرحيل في اللحظة التي تتوقّف فيها حياته عن أن تكون ذات نفع. ولم أكن أعلم حينذاك أنّ في الإمكان أن يصبح الموت هدفاً لحماسة عمياء، لجوع كما الحبّ. ولا كنت قد توقّعت تلك الليالي التي سألفّ فيها حِمالة سيفي حول خنجري لأرغم نفسي على التفكير مرّتين قبل استعماله. ولقد نَفَذَ «أريان» دون غيره إلى سرّ تلك المعركة غير المشرّفة مع

الفراغ والجفاف والتعب والنفور من الوجود الذي يفضي إلى الرغبة في الموت. ولا يشفى المرء على الإطلاق: لقد صرعتني الحمّى القديمة عدّة مرّات؛ وكنت أرتعد منها سلفاً مثل مريض تلقّى إنذاراً بنوبة قريبة. وكان كلّ شيء صالحاً في نظري لتأخير ساعة الصراع الليليّ: العمل، الأحاديث المتواصلة بجنون حتّى الفجر، القُبُلات، الكتب. فمن المتّفق عليه ألّا ينتحر إمبراطور إلّا إذا أجبرته على ذلك دواعي المصلحة العليا؛ وقد كان لـ «مارك أنطونيو» نفسه عذرٌ في معركة خاسرة. ولم يكن صاحبي «أريان» الصارم ليُعجب كثيراً بذلك اليأس الذي جلبته معي من «مصر» لو لم أنتصر. وكان القانون الذي سننته بنفسي يُحرِّم على الجنود ذلك الخروجَ الطوعيَّ الذي كنت أمنحه للحكماء؛ ولم أكن لأشعر بأنّي أكثر حرّيّة في الفرار من أوّل جنديّ يقع بصري عليه. إلّا أنّني أعرف ما يعنيه لَمْسُ مُشاقَةِ حبلٍ أو حدِّ سكّين. وكنت قد انتهيت إلى أن أجعل من رغبتي المُميتة حاجزاً منها بالذات: كان إمكان الانتحار المستمرّ يساعدني على تحمّل الوجود بشكلٍ أقلّ نَزَقاً، تماماً كما يهدِّئ وجود شراب مسكّنٍ في متناول اليد إنساناً مُصاباً بالأرق. وبتناقضٍ حميم لم ينقطع وسواس الموت هذا عن فَرْض نفسه على خاطري إلّاً عندما أقبلْت أعراض المرض الأولى لإلهائي عنه؛ فقد عُدْتُ أهتمّ بهذه الحياة التي أخذت تتخلّى عنّي؛ وكنت قد تمنّيت بشغف في حدائق «صيدون» أن أتمتّع بجسدي بضعة أعوام أخرى.

والمرء يريد أن يموت؛ ولا يريد أن يختنق؛ فالمرض يُنفِّر من الموت؛ وهو يريد أن يشفى، وهذا شكل من أشكال الرغبة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحياة. بيد أنّ الضعف والألم وألف بؤس جسديّ لا تلبث أن تثني المريض عن محاولة صعود المُنْحَدَر من جديد: فالمرء لا يرغب في هذه المُهَل التي تعادِل الأشراك، ولا في هذه القوى المترنّحة، ولا في هذه النشاطات المُتَصَدِّعة، ولا في هذا الانتظار المتواصل للنوبة القادمة. وشرعت أتجسّس على نفسي: أيكون هذا الألم الخفيف في الصدر وعكةً عابرةً ونتيجةً لوجبة طعام ازدُرِدَت على عَجَل، أم أنّه يجب انتظار هجوم من العدوّ لا يُمكن دفعه هذه المرّة؟ وما كنت أدخل مجلس الشيوخ من غير أن أقول لنفسي إنّه ربّما أُغلِق الباب خلفي إلى الأبد كما لو كان ينتظرني، مثل «قيصر»، خمسون متواطئاً مسلّحون بالخناجر. وكنت أخشى خلال مآدب العشاء في «تيبور» أن أرتكب بحقّ ضيوفي سفاهةَ رحيلٍ مباغت؛ وأخاف أن أموت في الحمّام أو بين ذراعيْن فَتِيَّتَيْن. وأصبحت وظائف كانت فيما مضى سهلة، أو حتى مستحبّة، مُذِلّة بعد أن غدت عسيرة المنال؛ وإنّ المرء ليتعب من رؤية إناء الفضّة المقدَّم كلّ صباح للفحص الذي يجريه الطبيب. ويجرّ المرض الرئيسي معه موكباً كاملاً من الأشجان الثانويّة: فَقَدَ سَمْعي رهافته السابقة؛ فأمسِ بالذات كنت مُرغَماً على رجاء «فليغون» أن يكرّر جُملةً كاملة: ولقد خجِلت لذلك أكثر من خجلي من جريمة. وكانت الشهور التي تلت تبنّي «أنطونين» فظيعة: ولقد أرهقت الإقامة في «باييس» والعودة إلى «روما» وما رافقها من مفاوضاتٍ ما بقي لي من قوى. وعاودني وسواس الموت، إلاّ أنّ الأسباب كانت هذه المرّة واضحةً وقابلةً للبَوْح بها؛ وما كان في وسع ألدّ أعدائي أن يقابلها بالابتسام. ولم يَعُد هناك ما يستبقيني: وفهم أنّ الإمبراطور، وقد

انسحب إلى منزله الريفيّ بعد أن نظّم شؤون العالم، إنّما اتّخذ التدابير اللازمة لتسهيل نهايته. بيد أنّ اهتمام أصدقائي يعادل مراقبة مستمرّة: فكلّ مريض إنّما هو سجين. ولست أشعر بالقوّة اللازمة لإغماد الخنجر في المكان الصحيح المعيَّن قديماً بالحبر الأحمر تحت الثدي الأيسر؛ وما كنت إلّا لأضيف إلى الألم الراهن خليطاً كريهاً من الضمّادات والإسفنجات الدامية والجرّاحين المتناقشين بقرب السرير. وكان عليّ أن اتّخذ لتحضير انتحاري ما يتّخذه قاتل من احتياطات لتدبير جريمته.

فكّرتُ أوّل ما فكّرتُ في منظِّم رحلات الصيد «ماستور»، وهو جِلف «سرماتيّ» يتبعني منذ أعوام بإخلاص كلبٍ ذئبيّ ويُكلَّف أحياناً بالسَّهَر ليلاً عند بابي. وانتهزت لحظة كنت فيها وحيداً فناديته وشرحت له ما كنت أتوقّع منه: فلم يفهم بادئ بَدْءٍ. ثمّ أضاء النورُ؛ وشنّج الفزع ذلك الفظّ الأشقر. إنّه يظنّني مخلَّداً؛ ويرى الأطبّاء يدخلون غرفتي صباحَ مساءَ؛ ويسمع أنيني في أثناء عمليّات الفَصْد من غير أن يتزعزع من جرّاء ذلك إيمانُه؛ كان الأمر بالنسبة إليه كما لو أنّ سيّد الآلهة عَنَّ له أن يُغريه فنزل من «الأولمپ» مطالباً إيّاه بضربة الرحمة. ونزع من يديّ سيفه الذي كنت قد أمسكت به وفرّ وهو يعوي صارخاً. ولقد عُثر عليه في آخر الفِناء وهو يُبربِر بلغته تحت النجوم. وهُدِّئ ذلك الحيوان المذعور قدر المستطاع؛ ولم يفاتحني أحد بأمر الحادث. غير أنّي لاحظت في اليوم التالي أنّ «سيلر» قد أبدل فوق منضدة عملي القائمة بقرب سريري ريشة الكتابة المعدنيّة بقلمٍ من القصب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبحثت لنفسي عن حليف أفضل. وكنت على أتمّ الثقة بـ «إيبولاس»، وهو طبيب شابّ من «الإسكندرية» كان «هرموجين» قد اختاره الصيف الماضي بديلاً عنه في غيابه. وأخذنا نتحدّث معاً: كان يروق لي أن أكدّس معه فرضيّات عن الطبيعة وأَصْلِ الأشياء؛ وكنت أحبُّ هذا العقل الجريء والحالم، وأحبّ اتّقاد عينيه المتهجّجتينْ الخابي. وكنت أعرف أنّه عثر في قصر «الإسكندريّة» على تركيبة السموم الخارقة الخفاء التي كان كيميائيُّو «كليوبترا» قد خلطوها. واتّخذت من امتحان المرشّحين لكرسيّ الطبّ الذي كنت قد أنشأته حديثاً في «الأوديون» ذريعة لإبعاد «هيرموجين» بضع ساعات مانحاً بذلك نفسي فرصةَ لقاءٍ سرّيّ مع «إيبولاس». وأدرك إيماءً ما كنت أقصد؛ ورثى لحالي؛ فلم يكن في وسعه إلّا أن يجد أنّي مُحِقّ. غير أنَّ قَسَمَه «الأبوقراطيّ» كان يحظّر عليه أن يصف لمريض عقّاراً مُضِرّاً مهما يكن السبب؛ ورفض متشبِّثاً بشرفه طبيباً. وألحفت؛ وطالبت بلهجة آمرة؛ ولجأت إلى جميع الوسائل محاوِلاً استدرار شفقته أو إفساد ذِمّته؛ وسوف يكون آخر رجل توسّلت إليه. وإذ غُلب على أمره فقد وعدني بعد لَأيٍ بأن يذهب لإحضار جرعة السمّ. وانتظرته عبثاً إلى المساء. وهالني أن أعلم في ساعة متأخّرة من الليل بأنّه عثر عليه ميتاً في مختبره وبين يديه زجاجة صغيرة. لقد عثر هذا القلب الخالي من كلّ شائبة على الوسيلة التي يبقى وفيّاً بها لقَسَمِه من غير أن يرفض لي شيئاً.

وفي اليوم التالي أعلن «أنطونين» عن قدومه؛ ووجد هذا الصديق عناء في كبح دموعه. فلم يكن يحتمل التفكير في أنّ رجلا تعوّد حبّه

وإجلاله مثل أبٍ، يتألّم بما يكفي لكي يسعى إلى الموت؛ ولقد خُيِّل إليه أنّه أخلّ بواجباته كابنٍ بارٍ. ووعدني بأن يضمّ جهوده إلى جهود من يحيطون بي لمداواتي وتخليصي من آلامي وجعل حياتي لطيفة وهيّنة حتّى النهاية، وربّما لشفائي. فهو يعتمد عليّ لمواصلة هدايته وتعليمه أطول وقت ممكن؛ ويشعر بأنّه مسؤول عن الإمبراطوريّة بأسرها خلال ما تبقّى لي من أيّام. وإنّي لأعرف ما تساوي هذه الاحتجاجات الهزيلة وتلك الوعود الساذجة؛ ومع ذلك فإنّي أجد فيها راحة وشدّة أَزْر. فلقد أقنعتني أقوال «أنطونين» البسيطة؛ وإنّي لأستعيد زمام نفسي قبل أن أموت. وإنّ موت «إيبولاس» المخلص لواجبه ليحدوني على التقيُّد حتّى النهاية بما يتناسب وحِرفَتي إمبراطوراً. «صَبْراً»: لقد رأيت أمسِ «دوميسيوس روغاتوس» الذي أصبح أمين النقْد ومكلّفاً بالإشراف على سَكٍّ جديد؛ وقد اخترت ذلك النقش الذي سيكون آخر أمرٍ أُصْدِره. فموتي يبدو لي أكثر قراراتي خصوصيّة وأسمى اختزالٍ لذاتي بوصفي إنساناً حرّاً؛ وكنت مخطئاً في ظنّي. فينبغي ألّا يتزعزع إيمان الملايين من أمثال «ماستور»؛ ولن يخضع آخرون من أمثال «إيبولاس» للامتحان. وأدركت أنّ الانتحار قد يبدو لزُمرة الأصدقاء المتفانين الصغيرة التي تحيط بي أمارة على اللامبالاة، وربّما على نُكران الجميل؛ ولست أريد أن أترك لصداقتهم هذه الصورة المهزوزة عن معذَّب عاجز عن تحمُّل تعذيب إضافيّ. وحضرتني على مهل اعتبارات أخرى طَوال الليلة التي تلت موت «إيبولاس»: لقد منحني الوجود أموراً كثيرة، أو عرفتُ على الأقلّ أن أحصل منه على أمورٍ كثيرة؛ وفي هذه اللحظة، كما في أيّام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنائي، ولأسباب مخالفة تماماً، يبدو لي أنْ ليس لديه ما يمنحني إيَّاه؛ ولست واثقاً من أنَّني لم أعد أملك ما أتعلَّمه منه. ولسوف أصغي حتًّ النهاية إلى تعاليمه الخفيّة. لقد وثقت طَوال حياتي بحكمة جسدي؛ وجرَّبت أن أذوق بفطنة ما كان يقدِّمه لي هذا الصديق من أحاسيس: وعليّ أن أُقدِّر كذلك آخرها. ولست لأرفض هذا الاحتضار المقدَّر لي، هذه النهاية المُحَضَّرة على مهل في أعماق شراييني، وقد تكون موروثة عن أحد الأجداد، أو ناجمة عن مزاجي، أو مهيَّأة شيئاً فشيئاً بفعل كل عمل قمت به خلال حياتي. لقد انقضت ساعة النَزَق؛ وقد يكون القنوط في الحالة التي أنا فيها بمثل رداءة طَعْم الرجاء. ولقد عدلتُ عن استعجال موتي.

لايزال كلّ شيء برسم العمل. فأملاكي الإفريقيّة الموروثة عن حماتي «هاتيديا» ينبغي أن تصبح نموذجاً للاستثمار الزراعي؛ ولفلّاحي قرية «بوريستينيا» المُنشأة في «تراسيا» تخليداً لذكرى حصان كريم الأصل الحقّ في معونات بعد انتهاء شتاء مُضْنٍ؛ وينبغي أن يُرفض في المقابل إعطاء الأعطيات للمزارعين الأغنياء في وادي «النيل»، وهم مستعدّون على الدوام للاستفادة من اهتمام الإمبراطور ورعايته. وها هو ذا «يوليوس ڤيستينوس»، مدير التعليم، يُرسل إليّ تقريره عن فَتْح مدارس عامّة لتدريس النحو؛ وقد فرغت للتوّ من إعادة صياغة القانون التجاري في «تدمر»: وكلّ شيء فيه ملحوظ، الرسوم التي تدفعها البغايا والمكوس على القوافل. ويُعقد في هذه الأيّام مؤتمر من الأطبّاء والقضاة المكلّفين التشريع في الحدود القصوى للحَمْل لوضع حدٍّ لمناحرات وشكاوى قانونيّة لا تنتهي. وتتضاعف حالات اتّخاذ زوجتيْن في المستعمرات العسكريّة؛ وأنا أبذل جهدي لإقناع قدامى المحاربين بألّا يسنّوا قوانين جديدة تسمح لهم بالزواج، وبأن يحرصوا على ألّا يتزوّجوا سوى امرأة واحدة في وقت واحد. وفي «أثينا» يُقام «بانتيون» على غرار الذي في «روما»، وأنا بصدد تأليف النقش الذي سيُكتب على جدرانه؛ وأعدّد فيه، على سبيل الأمثلة والالتزامات في المستقبل، الخدمات التي قدّمتُها إلى المُدُن الإغريقيّة والشعوب الأجنبيّة؛ وأمّا الخدمات المقدّمة إلى «روما» فليس لي فيها من فضل. والحملة على القسوة القضائيّة مستمرّة: كان عليّ أن أُؤنِّب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حاكم «سيليسيا» الذي ارتأى أن يموت تحت التعذيب سارقو المواشي في إقليمه، وكأنّ مجرّد الموت لا يكفي لمعاقبة إنسان والتخلّص منه. وكانت «الدولة» والبلديّات تُسرف في الأحكام بالأشغال الشّاقة بُغية الحصول على يدٍ عاملةٍ زهيدة التكاليف؛ ولقد منعت هذا الإجراء بحقّ العبيد كما بحقّ الأحرار؛ بيد أنّه من المهمّ السهر على ألّا يترسّخ هذا النهج البغيض بأسماء أخرى مختلفة. ومازالت التضحية بالأولاد تُرتكب في بعض الأماكن من أراضي «قرطاجة» القديمة؛ وينبغي التمكّن من حرمان كهنة «بعل» من السرور بإيقاد محارقهم. وفي «آسية الصغرى» غُبِنَتْ بشكل فاضح حقوق الورثة «السلوقيّين» في محاكمنا المدنيّة التي لاتزال سيّئة التصرُّف حِيال الأمراء السابقين؛ ولقد أصلحتُ هذا الإجحاف الذي طال أمده. وفي «اليونان» لاتزال محاكمة «هيرودس أتيكوس» قائمة حتّى الآن. ولسوف تلازمني حتّى النهاية صندوقة الرسائل التي يبعث بها «فليغون» ومجموعة أحجار الخفّان التي يستخدمها في الكَشْط والمَحْو ومجموعته الأخرى من قضبان الشمع الأحمر.

إنّهم يظنّونني إلهاً كما في أيّام سعدي؛ وهم مستمرّون في منحي هذا اللقب في الوقت الذي يقدّمون فيه الأضاحي إلى السماء من أجل استعادة «الصحّة الجليلة». لقد سبق أن قلت لك لماذا لا يبدو لي هذا الاعتقاد المُريح جدّاً خالياً من كلّ معنى. فقد وصلتْ عجوز عمياء سيراً على قدميها إلى «پانونيا»؛ وكانت قد تكبّدت هذه الرحلة المُضْنِية لتطلب إليّ أن أمسّ بيديّ حَدَقتيْها المنطفئتين؛ ولقد استعادت بصرها تحت يديّ وكأنّ حَمِيّتها كانت تنتظر حدوث ذلك سلفاً؛ وإنّ إيمانها

بالإمبراطور ـ الإله ليفسّر هذه المعجزة. وقد حدثت خوارق أخرى؛ وهناك مرضى يزعمون أنّهم رأوني في أحلامهم كما يرى الحجيج إلى «أبيدور» [مدينة إغريقيّة قديمة مقدّسة] «أيسكولاپ» [إله الطبّ عند الرومان] في أحلام يقظتهم؛ ويدّعون أنّهم استيقظوا وقد شُفُوا، أو خفّت آلامهم على الأقلّ. ولست لأبتسم حِيال التناقض بين قدراتي بوصفي صانع مُعجزات وما بي من مرض؛ بل أتقبّل هذه الامتيازات الجديدة بوقار. فتلك العجوز العمياء السائرة إلى الإمبراطور من أعماق إقليم أجنبي قد غدت في نظري ما كانه قديماً عبد «تراغونا» [مدينة من مدن شرقي «إسبانيا» في «كاتالونيا» أقام فيها «أدريان»]: شِعار سكّان الإمبراطوريّة الذين حكمتهم وخدمتهم. وإنّ ثقتهم العريضة لتعوّضني عشرين عاماً من الأعمال التي لم أَضِق بها. ولقد قرأ لي «فليغون» مؤخّراً كتاب يهوديّ من «الإسكندرية» ينسب إليّ فيه هو الآخر قُدُرات تفوق قُدُرات البشر؛ وتقبّلت من غير سخرية هذا الوصف للأمير الأشيب الذي رؤي رائحاً غادياً على جميع طرق الأرض، غائصاً في كنوز المناجم، موقِظاً قوى التجديد في التربة، ناشراً في كلّ مكان الازدهار والسلام، لمتلقّي الأسرار الإلٰهيّة الذي رفع الأمكنة المقدّسة الخاصّة بجميع الأعراق، للعارف بفنون السحر، للعرّاف الذي وضع صبيّاً في السماء. ولعلّ هذا اليهودي المتحمّس أن يكون قد عرفني خيراً ممّا فعل كثير من الشيوخ والولاة؛ وإنّ هذا الخصم المنضوي ليُكمِل «أريان»؛ وإنّه ليفرحني أن أكون قد أصبحت على مرّ الزمن في نظر بعضهم ما كنت أتمنّى أن أكون، وأن يكون ذلك النجاح نتيجةً لقيامي بأمور في مثل هذه القلّة. وإنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشيخوخة والموت القريبين ليُضيفان جلالهما منذ اليوم إلى ذلك الصيت الذائع؛ وإنّ الناس ليبتعدون بِوَرَعٍ مُفْسحين لي الطريق؛ ولم يعودوا يقارنونني كما في الماضي بِـ «زيوس» المُشْرِق الوادع، وإنّما بـ «مارس غراديڤوس» إلّه المعارك الطويلة والانضباط الصارم، بـ «نوما» المهيب المُلْهَم من الآلهة؛ وفي هذه الأيّام الأخيرة يذكّرهم هذا الوجه الشاحب الشائه، وهاتان العينان الثابتتان، وهذا الجسد المتماسِك بفعل ما أبذل من جهد وإرادة، بـ «پلوتون» إلّه الأطياف. وقد نجا بعض الخُلَّص والأصدقاء الموثوقين الأعزّاء وحدهم من عدوى الاحترام المُريعة تلك. ولقد جاءني المحامي الشاب «فرونتون»، هذا القاضي الواعِد الذي سيكون ولاريب أحد المتفانين في خدمة عهدك، لمناقشتي في الكلمة المرفوعة إلى مجلس الشيوخ؛ وكان صوته متهدِّجاً؛ وقد قرأت في عينيه نفس التوقير الممزوج بالرهبة. ولم تَعُدْ تخصّني الأفراح المطمئنّة الناشئة عن الصداقة الإنسانيّة؛ فهم يعبدونني؛ يجلّونني كثيراً بحيث يستحيل أن يحبّوني.

كان حظّ مماثل لحظوظ بعض البستانيّين قد انتقل إليّ: فكلّ ما حاولت غرسه في الخيال البشري تجذّر فيه. وبدت عبادة «أنتينويوس» أكثر مشاريعي جنوناً، وفيضَ ألمٍ لم يكن يخصّ أحداً غيري. بيد أنّ زمننا نَهِمٌ إلى الآلهة؛ وهو يفضّل أشدّها حميّة، وأكثرها حزناً، أي تلك التي تمزج خمرة الحياة بعسلٍ مرٍّ قادم من وراء القبر. ففي «دلفس» كان الصبي قد أصبح «هرمس» حارسَ الباب وسيّدَ المعابر المظلمة المُفْضِية إلى الأطياف. و«أيلوزيس» الذي منعه عمره وكونه غريباً من أن يُلقَّن فيها قديماً إلى جانبي الأسرار الإلهيّة، قد صنعت

منه «باخوسَ الأسرارِ» الفتيِّ، أميرَ المناطق المتاخمة بين الحواسّ والروح. وتقرنه «أركاديا»، بلد الأجداد، إلى «پان» و«ديانا» رَبيِّ الغابات؛ ويماهيه فلاّحو «تيبور» بـ «أريستيه» العذب مَلِكَ النحل. وفي «آسيا» يجد فيه الأتقياء آلهتهم الحنونة التي حطّمها الخريف أو ابتلعها الصيف. وعلى أطراف البلاد الأجنبيّة اتّخذ رفيق صيدي وأسفاري مظهر «الفارس التراسيّ»، مظهر العابر الغامض مخيِّلاً فوق جواده في الأدغال في ضوء القمر، حاملاً الأرواح في ثنية من ثنيات معطفه. وبالإمكان ألاّ يكون ذلك كلّه بعدُ سوى إفراطٍ في العبادة الرسميّة، أو مُداهنة من الشعوب، أو خسّة من الكهنة الطامعين في الأُعطيات. غير أنّ الوجه الشابّ يُفلت منّي؛ إنّه يستسلم لتطلُّعات القلوب البريئة: لقد أصبح المراهق الكئيب اللطيف، بفعل واحد من التجديدات اللصيقة بطبيعة الأشياء، سندَ الضعفاء والمساكين، ومؤاسيَ الأطفال الموتى، في نظر التُّقى الشعبي. وصورة نقود «بيتينيا»، الصورة الجانبيّة لابن الخامسة عشرة ذي الخُصُلات المتطايرة والابتسامة المسحورة المصدِّقة التي قليلاً ما عرف كيف يحتفظ بها، تتدلّى من أعناق المولودين حديثاً بصفة تعويذة؛ وتُسمَّر في مقابر القرى إلى بعض القبور الصغيرة. وقد كنت فيما مضى، حين أفكّر في نهايتي وأنا أشْبَهُ بملاّح غير مكترث بنفسه، ولكنّه يرتعد من أجل ركّاب السفينة وحمولتها، أقول لنفسي بمرارة بأنَّ هذه الذكرى سوف تغيب معي؛ وكان يخيّل إليَّ بذلك أن هذا الفتى المحنَّط بعناية في أعماق ذاكرتي ينبغي أن يموت مرّة ثانية. وعلى الرغم من كون هذه الخشية عادلة جدّاً فقد هدأت جزئيّاً؛ وقد عوّضت قدر المستطاع هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المِيتة المبكّرة؛ ولسوف تطفو خلال بضعة قرون على الأقلِّ صورةٌ، انعكاسٌ، صدىً خافتٌ. وليس في وسع المرء قطّ أحسنُ من هذا في موضوع الخلود.

قابلت من جديد «فيدوس أكيلا» حاكم «أنتينويه»، وهو في طريقه لتسلُّم منصبه الجديد في «سرميزيجيتوس». وقد وصف لي الطقوس التي يُحتفل بإقامتها سنوياً على ضفاف النيل تكريماً للإلّه الميت، والحُجّاجَ الآتين بالألوف من مناطق الشمال والجنوب، وقرابين الجعة والحبوب، والصلواتِ؛ وتقام كلّ ثلاث سنوات ألعاب تذكاريّة في «أنتينويه» و«الإسكندرية» و«مانتينيه»، وفي عزيزتي «أثينا». وسوف تتجدّد هذه الاحتفالات الثلاثيّة الأعوام في هذا الخريف، غير أنّي لا آمل في البقاء حتّى عودة شهر «أتير» التاسعة. ومن الخير أن يُنظَّم سلفاً أمر كلّ تفصيل من تفاصيل هذه الاحتفالات: يعمل الناطق بوحي الموت في الغرفة السّريّة من المعبد الفرعوني الذي عُنيت بتشييده؛ ويوزّع الكهنة يوميّاً بضع مئات من الإجابات الجاهزة عن جميع الأسئلة التي طرحها الرجاء أو الكَرْب البشري. وقد طُعِن عليّ أن ألّفت عدداً كبيراً منها. فما كنت أقصد بذلك أن أقلّل من احترامي لإلهي، ولا من تعاطُفي مع زوجة الجندي التي تسأل عمّا إذا كان زوجها سيعود سالماً من حامية في «فلسطين»، ولا مع ذلك المريض النَّهِم إلى العزاء، ولا مع ذاك التاجر الذي تترجّح مراكبه فوق أمواج «البحر الأحمر»، ولا مع ذيْنك الزوجيْن الراغبيْن في ولد. فأقصى ما فعلته هو أنّي مددت على هذا النحو ألعاب الأحاجي والألغاز الشعريّة التي كنّا نلعبها معاً في بعض الأحيان. كذلك ثارت

دهشة الناس لسماحي هنا، في «الدارة»، حول محراب «كانوپ» الذي يُتَعَبَّد له فيه على الطريقة المصريّة، بإنشاء أجنحة الملّذات المعروفة في ضاحية «الإسكندرية» بالاسم نفسه، بكلٍّ ما فيها من يُسر وتسليات أقدّمها لضيوفي، وكان يحدث أن أشارك بنصيب فيها. وكان قد أَلِف هذه الأشياء. فلا يمكن الاحتباس سنوات في فكرة وحيدة من غير أن يُدخل فيها شيئاً فشيئاً جميعُ الأنماط الرتيبة في حياةٍ بأكملها.

لقد فعلت كلّ ما يوصى به. انتظرت: وصلّيت في بعض الأحيان. «سمعتُ أصواتاً إلّهيّة»... لقد كانت «جوليا بلبيّا» الخرقاء تظنّ أنَّها تسمع في الفجر صوت «ممنون» [أحد أبطال حرب «طروادة»، وقد قتله «أخيل»]: وأصغيت إلى نَأَمات الليل. وادّهنت بأدهنة العسل وزيت الورد التي تجتذب الأطياف؛ وجهَّزت طاسة الحليب وقبضة الملح وقطرة الدم التي كانت حواملَ وجودهم فيما مضى. وتمدّدت فوق البلاط الرخاميّ في المحراب الصغير؛ وكان وَمْض النجوم يتغلغل في الشقوق المفتوحة في الجدران فتترك هنا وهناك التماعات وأضواء شاحبة مُقْلِقة. وتذكّرت الأوامر التي همس بها الكهنة في أذُن الميت، وخطّ الرحلة المنقوش على القبر: «وسوف يتعرّف طريقه... وسيدعه حرّاس الباب يمرّ... وسيروح ويغدو حول من يحبّهم ملايينَ الأيَّام...» وكنت أحياناً، على فترات طويلة، أظنّ أني أحسّ بملامسة دُنُوٍّ، بمداعبة خفيفة مثل مسّ الأهداب وفاترة مثل باطن راحة. «ويظهر طيف «پَتروكْل» إلى جانب «أخيل»...» ولن أعلم أبداً إذا لم يكن ذلك الدفء وتلك العذوبة نابعين ببساطة من أعمق أعماق ذاتي، جهدْين أخيرين يبذلهما إنسان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في صراع مع الوحدة وبرد الليل. إلّا أنّ السؤال الذي يطرح نفسه أيضاً بحضور غراميّاتنا الحيّة قد توقّف اليوم عن إثارة اهتمامي: فقليلاً ما يهمّني أن تكون الأطياف التي أستحضِرُها قادمة من تلافيف ذاكرتي أو من تلافيف عالم آخر. وروحي، إذا كانت لي روح، مصنوعة من الهيولى التي منها الأشباح؛ فهذا الجسد ذو اليدين المتورّمتين والأظافر الشاحبة، هذه الكتلة نصف الذائبة، هذه القِربة من الآلام والرغبات والأحلام لم تَعُدْ قطّ أمتنَ ولا أثبتَ من خيال. ولست لأختلف عن الأموات إلّا بالقدرة على الاختناق بضع هنيهات أخرى؛ ويبدو لي وجود هذه الهنيهات آكد بمعنى من المعاني من وجودي أنا. و«أنتينويوس» و«پلوتينيا» يماثلاني على الأقلّ واقعاً وحقيقة.

إن التأمُّل في الموت لا يُعلِّم المرء أن يموت؛ ولا هو يجعل الخَرْجَة أسهل، بيد أن السهولة ليست الأمر الذي أبحث عنه. فيا أيّها الوجه الحَرِد والمختار، ما كانت تضحيتك لتُغني حياتي، بل موتك. وإنّ مقارنه لتُعيد بيننا نوعاً من تواطؤ ضيّق؛ والأحياء المحيطون بي، الخَدَم المتفانون، المزعجون أحياناً، لن يعرفوا أبداً إلى أيّ مدى لا يهمّنا العالم على الإطلاق. وإني لأفكّر باشمئزاز في الرموز السوداء التي تمثّلها القبور المصريّة: الجُعَل اليابس والمومياء المتصلّبة وضفدع المخاضات الأبديّة. وإذا صدّقتُ الكهنة فقد تركتُك في ذلك المكان الذي تتمزّق فيه عناصر مخلوق تمزُّقَ ثوب بالٍ يُشَدُّ به، في ذلك المُفْتَرَق المشؤوم بين ما هو موجود إلى الأبد، وما كان موجوداً، وما سيكون. وبعدُ فقد يكون أولئك الناس على حقّ، ويكون الموت

مصنوعاً من المادّة المُنْسَرِبة والمختلِطة التي منها الحياة. إلَّا أنّ جميع نظريات الخلود توحي لي بالحَذَر؛ وإنَّ نظام المكافآت والعقوبات ليَدَعُ قاضياً بصيراً بمشقّات القضاء في غاية البرودة. ومن ناحية أخرى فإنَّه يحدث لي أيضاً أن أجد الحلّ المضادّ بسيطاً جدّاً، وأن أجده العدمَ بالذات، الفراغَ الأجوف الذي تُجلجل فيه ضحكة«أبيقور». وإنّي لأرقب نهايتي: إنَّ تلك السلسلة من التجارب المُجْراة عليّ تُكمِلٍ دراسة طويلة بُدئ بها في عيادة «ساتيروس». فحتّى الآن لاتزال التغيّرات تماثل في كونها خارجيّة ما يُحدثه الزمن وتقلُّبات المُناخ من تغيُّرات في نُصُبٍ ما كانت لتُفسد مادّته ولا عمارته: إنّي لأظنّ أحياناً أنّي ألمح وألمسٍ من خلال التشقّقات الأساس غير القابل للتَّلف، بل التكوين الرسوبيّ الأبديّ. وإنّي الآن ما كنته من قبل؛ وأموت من غير أن أتغيّر. فللوَهْلة الأولى يبدو صبيٌّ حدائقِ «إسبانيا» القويُّ البنية والضابطُ الطَّموح العائد إلى خيمته وهو ينفض ندف الثلج عن كتفيه متلاشيْين التلاشيَ الذي سيُصيبني بعد أن أمرّ بالمحرقة؛ إلّا أنّهما هنا؛ ولا يمكنني الانفصال عنهما. فالرجل الذي كان يُعْوِل ويصرخ على صدر ميت لايزال مستمرّاً في النحيب في زاوية من ذاتي، على الرغم من الهدوء شبه الإنساني الذي سبق أن بدأت أشارك فيه؛ وإنَّ المسافر المحبوس في المريض المترحِّل إلى الأبد ليهتمّ بالموت لأنّه يمثّل رحيلاً. وتلك القوّة التي كانت أنا نفسي مازالت تبدو قادرة على تركيب عدّة حَيَوات أخرى، وعلى رفع عوالم. ولو جاءت بضعة قرون تنضاف بالمصادفة إلى الأيّام القليلة التي بقيت لي فسأفعل الأشياء نفسها، إلى حدّ ارتكاب الأخطاء عينها، وسأغشى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«جبال الآلهة» نفسها وأنواع «الجحيم» عينها. وإنّ مثل هذه الملاحظة لحجّة ممتازة في مصلحة نفع الموت، بيد أنّها توحي إليّ في الوقت نفسه بشكوك فيما يخصّ فعاليتها التامّة.

لقد دوّنت أحلامي خلال بعض فترات حياتي؛ وناقشت مغازيها مع الكهنة والفلاسفة والمنجّمين. وقد عادت إليّ في أثناء هذه الشهور من الاحتضار مَلَكَةُ الأحلام التي كانت قد تضاءلت منذ أعوام؛ وإنّ أحداث البارحة لتبدو أقلّ واقعيّة، وأقلّ أهمّيّة أحياناً من تلك الأحلام. وإذا كان هذا العالم اليَرَقانيّ والشَجيّ الذي يعجّ بالسطحيّ واللامعقول بوفرة أكبر من التي على الأرض يمنحنا فكرة عن ظروف الروح المنفصلة عن الجسد فسوف أمضي أَبديّتي نادماً ولاشكّ على الرقابة الرائعة التي تقوم بها الحواسّ والمناظير التي يُصلحها العقل البشري. ومع ذلك فإنّي أتوغّل بشيء من العذوبة في هذه المناطق اللامجدية الخاصّة بالأحلام؛ فأنا أملك عنها للحظة بعض الأسرار التي لن تلبث أن تُفلت منّي؛ لأشرب فيها من عيون. فمنذ أيّام كنت في واحة «آمون» عشيّة صيد الحيوان الكاسر الأكبر؛ وقد جرى كلّ شيء كما في أيّام قوّتي: انهار الأسد الجريح ثمّ نهض؛ وهرعت للإجهاز عليه. إلّا أنّه في هذه المرّة طرحني فرسي الحرون أرضاً؛ وتمرّغت الكتلة الدامية فوقي؛ ومزّقت المخالبُ صدري؛ وعُدت إلى نفسي في غرفتي في «تيبور» وأنا أستغيث. وأحدثُ من ذلك أيضاً رؤيتي والدي، مع أنّي قلّما أفكّر فيه. كان راقداً في فراش مرضه في حجرة من منزلنا في «إيتالِكا» الذي لم ألبث أن غادرتُه بعد موته. وكان على منضدته زجاجة مليئة بشراب مُسَكِّن توسّلت إليه أن

يعطيني إيّاها. وقد استيقظت قبل أن يملك الوقت للردّ عليّ. وإنّي لأدهش أن يخاف معظم الناس هذا الخوف الشديد من الأشباح، هم الذين يرتضون بسهولة كبيرة أن يتحدّثوا إلى الأموات في أحلامهم.

والطوالع أيضاً تتضاعف: فكلّ شيء يبدو من الآن فصاعداً محاكاةً، أمارة. وها قد تركتُ حجراً كريماً منقوشاً ومركّباً في خاتم يسقط على الأرض، وهشّمته؛ وكانت صورة جانبيّة لوجهي قد حُفرت فيه، حفرها حِرَفيّ يونانيّ. والتنبُّؤات تُدير الرأس بقوّة؛ وإنّي لآسف على تلك الرائعة الخالصة. ويحدث لي أن أتكلّم عن نفسي بصيغة الماضي: ففي أثناء مناقشة بعض الأحداث في مجلس الشيوخ، وكانت قد جرت بعد موت «لوسيوس»،زلّ لساني وشرعت عدّة مرّات في ذكر تلك المناسبات وكأنّها قد حدثت بعد موتي أنا. ومنذ بضعة أشهر، في ذكرى مولدي، وجدتني وأنا أصعد درجات «الكاپيتول» فوق محفّة وجهاً لوجه مع رجل لابس ثياب الحِداد وهو يبكي: وألفيتُ صديقي «شامبرياس» ممتقع الوجه. وكنت لاأزال أخرج في ذلك الوقت؛ وأواصل بنفسي ممارسة وظائفي «حَبْراً أعظم» و«أخاً أرڤاليّاً»، والاحتفال شخصيّاً بشعائر الدين الروماني القديمة، وكنت أوثره على معظم العِبادات الأجنبيّة. وكنت واقفاً أمام المذبح أتهيّأ لإشعال اللهب؛ وقد جئت أقرِّبُ للآلهة قرباناً من أجل «أنطونين». وفجأة انزلقت حاشية ثوبي التي كانت تغطّي جبيني وحطّت فوق كتفي تاركةً إيّاي حاسر الرأس؛ وانتقلت بذلك من رتبة المضحّي إلى مرتبة الضحيّة. والحقّ أنّه كان قد جاء دوري.

ها هو ذا انتظاري يؤتي ثماره؛ وقد خفّ ألمي؛ وعادت الحياة شبه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عذبة. فلم أعد أتشاجر مع الأطبّاء؛ لقد قتلتني علاجاتهم البلهاء؛ غير أنّنا نحن الذين نصنع غرورهم وتقعُّرهم المُرائي: فلو لم نكن نخاف هذا الخوف الشديد من الألم لقلّ كَذِبهم. ولست أملك القوّة على سَوْرات الغضب التي كانت تنتابني فيما مضى: فأنا أعلم من مصدر موثوق به أنّ «پلاتوريوس نيپوس» الذي أحببته كثيراً قد فرّط باطمئناني إليه؛ ولم أحاول أن أخزيه؛ ولم أسعَ إلى العِقاب. فمستقبل العالم لم يَعُدْ يشغل بالي؛ ولا عُدت أجهد في أن أحسب، بكَرْب، أَجَل السلام الروماني طال أم قصُر؛ فأنا أدع ذلك للآلهة. وليس ذلك لأنّي اكتسبت مزيداً من الثقة في عدالتها، وهي ليست عدالتنا، ولا مزيداً من الإيمان بحكمة الإنسان؛ فالعكس هو الصحيح. إنّ الحياة لفظيعة؛ ونحن نعلم ذلك. وإنّما لأنّني بالضبط لا أتوقّع كبيرَ أمرٍ من الوضع البشريّ، ومواسم الهناء، والرقيّ الجزئيّ، والجهود التي تُبذل للإعادة والاستمرار تبدو لي معجزات تكاد تعوِّض هذه الكتلة الضخمة من الشرور والإخفاقات والغفلة والخطأ. ولسوف تُقْبِل الكوارث والأطلال؛ وتتغلّب الفوضى؛ بيد أنّ النظام سيتغلّب أيضاً من حين إلى آخر؛ ويستتبّ السلام من جديد بين عهدَيْن من الحرب؛ وتستعيد كلمات الحرّيّة والإنسانيّة والعدالة هنا وهناك المعانيَ التي حاولنا إضفاءها عليها. ولن تموت كتبنا جميعها؛ وسوف يُعاد إصلاح تماثيلنا المكسورة؛ وتُولد من قبابنا وزخارفنا التي تزيّن المداخل قبابٌ وزخارفُ جديدة؛ وسيفكّر بضعة أشخاص ويعملون ويشعرون كما فكّرنا وعملنا وشعرنا؛ وإنّي لأستطيع الاعتماد على هؤلاء المتمّمين المُوَزَّعين على فترات غير منتظمة على امتداد العصور، وعلى ذلك

الخلود المتقطِّع. وإذا قُدِّر للبرابرة أن يستحوذوا يوماً على الإمبراطوريّة فسيكونون مضطرّين إلى تبنّي بعض طرائقنا؛ وينتهي بهم الأمر إلى أن يشابهونا. و«شابرياس» يُبدي قلقه من أن يرى كاهن «ميترا» الأعظم أو أسقف «المسيح» يستوطنان «روما» ويَحُلّان محلّ «عظيم الكهنة» عندنا. وإذا حدث هذا لسوء الحظّ يوماً فسينقطع خلفي على امتداد الضفّة الفاتكانيّة عن أن يكون زعيم حلقة من الأنصار أو عصبة من المتشيِّعين ليصبح بدوره صورة من الصور الكونيّة التي تمثّل السلطة. وسيرث قصورنا ومحفوظاتنا؛ ويختلف عنّا أقلّ ممّا يمكن تصوُّره. وإنّي لأتقبّل بِدَعَةٍ وهدوءٍ هذه الصروف والتغيّرات في «روما» الخالدة.

لم تَعُد الأدوية تَنْجَعُ؛ وورم الساقين يزداد؛ وأنام قاعداً أكثر ممّا أفعل مستلقياً. وإنّ إحدى ميِّزات الموت لهي أن أكون ممدَّداً من جديد على سرير. ولقد جاء دوري الآن لتعزية «أنطونين». فأنا أذكّره بأنّ الموت يبدو لي من زمن طويل آنَقَ الحلول لمُعْضِلتي؛ فأمانيَّ، كالعهد بها دوماً، تتحقّق في آخر الأمر، ولكن بطريقة أبطأ وأشدّ مواربة ممّا كان يُظَنّ. وإنّي لأغتبط أنْ أبقى الألمُ على صفاء وعيي حتّى النهاية؛ وأبتهج لأنّه ليس عليّ أن أُجرِّب التقدّم في العمر، ولم أُنْذَر لعِرفان هذا اليباس، ولا ذاك التصلُّب، ولا ذيّاك الجفاف، ولا ذلك الانقطاع الفظيع عن الرغبات. وإذا كانت حساباتي صحيحة فإنّ أُمّي قد ماتت على وجه التقريب في العمر الذي بلغْتُه اليوم؛ وها قد طالت حياتي بما يساوي النصف من حياة أبي الذي مات وهو في الأربعين. وكلّ شيء جاهز: والنَّسْر المكلَّف حَمْلَ روح الإمبراطور إلى الآلهة محفوظ في الاحتياط للجنازة. وسينتهي ضريحي الذي تُزرع في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعـلاه في هذه اللحـظة شجرات السَّرْو المنـذورة لتشكيل هـرم أسـود يناطح السماء في الوقت المحدَّد تقريباً لنقل الرُّفات الذي لايزال يحتفظ بحـرارته. وقـد رجوت «أنـطونين» أن ينقـل إليه «سـابينا» فيـما بعد؛ وكنت قد أهملت أن آمُر لها عند موتها بـالتكريم الإلهي الـذي هو من حقّهـا على كـلّ حال؛ ولن يكـون سيّئاً إصـلاحُ هذا النسيـان؛ وإنّي لأرغب في أن يوضع رُفات «أيليوس قيصر» إلى جانبي.

لقد حملوني إلى «بايس»؛ وقـد كانت الـرحلة شاقّـة في هذا القَيْظ من شهـر تمّوز (يـوليو)، غـير أنّي أتنفّس بشكل أفضـل عـلى شـاطئ البحـر. ففوقـه تهمس الموجـة همستها المنسـوجة من الحـرير المـدعوك والملاطفة؛ وأنا مازلت أستمتع بالأمسيات الورديّة الطويلة. بيد أنّي لا أحمل هذه الألواح إلّا لشَغْل يـديّ اللتين تتحـرّكان عـلى الرّغم مني. ولقد أرسلت باستدعاء «أنـطونين»؛ ومضى بـريدٌ إلى «رومـا» منطلقـاً بأقصى سرعة. وإنّـه لَعجيج سنـابك «بـوريستين» وإحضـار «الفارس الـتراسيّ»... وها هي ذي زمـرة الخُلَّص الصغـيرة تهـرع إلى فـراش مرضي. وإنّ «شبريـاس» ليثير شفقتي: فـالدمـوع لا تتلاءم وغضـونَ الطاعنين في السنّ. ووجه «سيلر» الجميل هادئ هدوءاً عجيباً كالعهد به على الدوام؛ وهو يواظب على رعايتي من غير أن يُظهر أيّ شيء قد يزيد من همّ المريض أو ضناه. إلّا أنّ «ديوتيم» ينتحب ورأسه مدفون في الوسائد. ولقد أمّنت مستقبله؛ فهو لا يحبّ «إيطاليـا»؛ وفي وسعه تحقيق حلمه الذي هو العودة إلى «غدارا» وفتح مدرسة لتعليم البيـان فيها بمساعدة صديق له؛ ولن يخسر شيئاً بموتي. ومع هذا فإنّ الكتِفَ الـرقيقة تهـتزّ بتشنّج تحت طيّـات الثوب؛ وإنّي لأشعـر تحت أصـابعي

بدموع لذيذة. وسيكون «أدريان» قد ظلّ حتىَّ النهاية محبوباً بشكل إنساني.

أيّتها الروح العزيزة، الرقيقة والطّافية، يا رفيقة جسدي الذي كان مُضيفَك، سوف تهبطين إلى هذه الأمكنة الشاحبة، القاسية والعارية، حيث عليك أن تَعْدِلي عن ألعاب الزمن الماضي. لحظةً أخرى، ولننظر معاً إلى الشواطئ المألوفة، إلى الأشياء التي لن نراها مرّة ثانية ما في ذلك شكّ... ولْنُحاوِلْ دخول الموت بعينينْ مفتوحتينْ...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكتبة بغداد

لقد منحني الوجود أموراً كثيرة، أو عرفتُ على الأقلّ أن أحصل منه على أمور كثيرة؛ وفي هذه اللحظة، كما في أيّام هنائي، ولأسباب مخالفة تماماً، يبدو لي أنْ ليس لديه ما يمنحني إيّاه؛ ولست واثقاً من أنّي لم أعد أملك ما أتعلّمه منه ولسوف أصغي حتّى النهاية إلى تعاليمه الخفيّة. لقد وثقت طَوال حياتي بحكمة جسدي؛ وجرّبت أن أذوق بفطنة ما كان يقدّمه لي هذا الصّديق من أحاسيس: وعليّ أن أُقدِّر كذلك آخرها. ولست لأرفض هذا الاحتضار المقدَّر لي، هذه النهاية المُحَضَّرة على مهلٍ في أعماق شراييني، وقد تكون موروثة عن أحد الأجداد، أو ناجمة عن مزاجي، أو مهيَّأة شيئاً فشيئاً بفعل كلّ عمل قمت به خلال حياتي. لقد انقضت ساعة النَزَق؛ وقد يكون القنوط في الحالة التي أنا فيها بمثل رداءة طَعْم الرّجاء. ولقد عدلتُ عن استعجال موتي.

صمّم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad